مختارات الفكر المسيحي / ٦

اعداد وتقديم

الأب بيوس عفاص

من وحي الإنجيل

١٩٧٨-١٩٩٤

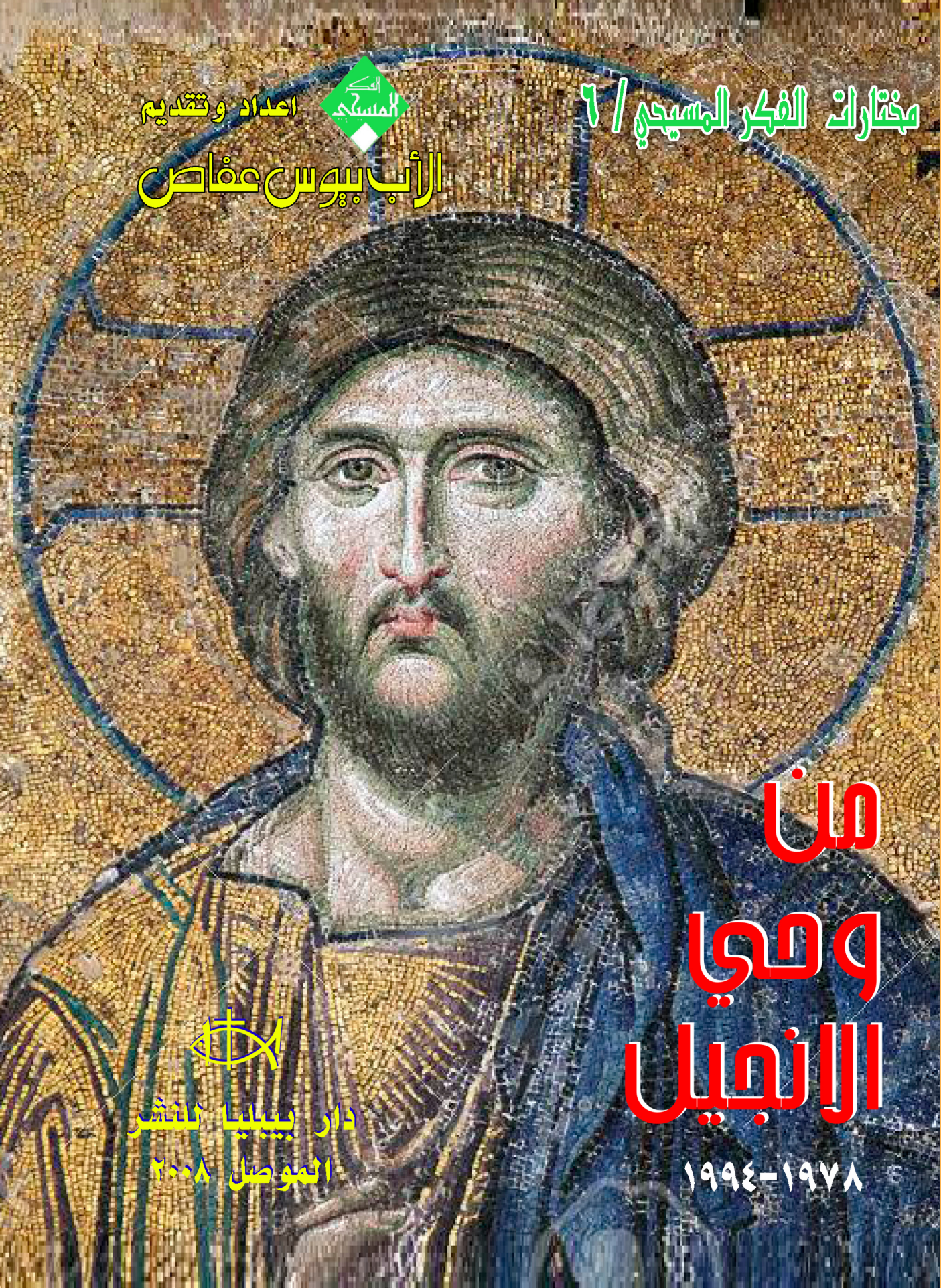

دار بيبليا للنشر
الموصل ٢٠٠٨

في سلسلة

مفتارات الفكر المسيحي

- تاريخ الكنيسة الشرقية/ج١	الموصل ١٩٧٣	٢١٦ ص	٢٠٠٠ د
١. همسات أبو فادي/ج١	بغداد ١٩٨٥	١٦٨ ص	١٥٠٠ د
٢.أبت هذه مشكلتي	بغداد ٢٠٠٤	١٠٠ ص	٢٠٠٠ د
٣.أسئلة وأجوبة	الموصل ٢٠٠٦	٢٢٨ ص	٢٥٠٠ د
٤. افتتاحيات	الموصل ٢٠٠٧	٥٠٠ ص	٣٥٠٠ د
٥. همسات أبو فادي/ج٢	الموصل ٢٠٠٧	١٧٨ ص	٢٠٠٠ د
٦. من وحي الانجيل	الموصل ٢٠٠٨	٢٩٤ ص	٢٥٠٠ د

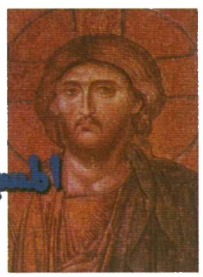

المسيح يبارك - تفصيل من موزاييك الجناح الجنوبي

كنيسة آجيا صوفيا (الحكمة المقدسة)

استانبول (٥٣٢-٥٣٧)

من
وحي
الانجيل

سلسلة "مختارات الفكر المسيحي"/٦

من وحي الانجيل

باب ثابت

في مجلة الفكر المسيحي

١٩٥٨-١٩٩٤

إعداد وتقديم

الأب بيوس عفاص

منشورات

مركز الدراسات الكتابية

الموصل-العراق

٢٠٠٨

كلمة الناشر

"من وحي الانجيل"! باب أطلقته "الفكر المسيحي" عام ١٩٥٨... فلم يكن قط موعظة او ارشاداً، وانما قراءة ايمانية لنصوص انجيلية مألوفة سُلطت عليها الاضواء لتكون قادرة على ان تخاطب قراء كان يهمهم ان يستنيروا بالانجيل ويسيروا بهديه في معترك الحياة وفي قلب الصراعات والتوترات!

١١٧ نصاً من الاناجيل الاربعة انطلق منها ٢٥ كاتباً ليفسروا ويؤوّلوا بشرى كانت وما زالت تلهم اجيالاً من المؤمنين الذين عرفوا في يسوع الناصري رباً ومسيحاً ومخلصاً... طريقاً وحقيقة وحياة... خبزاً ونوراً وقيامة... وبكلمة، كلمة الحياة التي تنعش وتحيي وترفع... وبعض هؤلاء المحررين أمّنوا الكتابة في هذا الباب على مدى سنة او أكثر، وبعضهم لم تكن لهم سوى مساهمة او أكثر. ومن هنا كان التنوع في الطرح والمعالجة والاسلوب... ومن هنا أيضاً كانت الشمولية في المواضيع والقضايا.

ويأتي هذا الكتاب الشيق ذو الفائدة الكتابية والراعوية والروحية معاً ليأخذ مكانه في سلسلة "مختارات الفكر المسيحي" برقم ٦، في أعقاب "الهمسات" بجزئها الثاني (رقم ٥-٢٠٠٧) و"الافتتاحيات" (رقم ٤-٢٠٠٧) و"أسئلة وأجوبة" (رقم ٣-٢٠٠٦)، تواصلاً مع "أبتر هذه مشكلتي" (٢٠٠٤) و"همسات أبو فادي" (١٩٨٥). وقد تبتسّم لدار بيبليا فكرة نشر المزيد من هذه المختارات!

مع تحيات مركز الدراسات الكتابية.

دار بيبليا للنشر

تقديم

مع بداية عام ١٩٧٧ كانت "الفكر المسيحي" قد اتخذت منهجاً صحافياً متميزاً تجسد في "أبواب" ثابتة اعتمدتها، وكان للقراء معها موعد شهري ثابت... ومع مطلع عام ١٩٧٨ استحدثت باب "من وحي الانجيل" الذي استهدف تسليط اضواء الانجيل على حياة المؤمن ومشاكله وحاجاته...

وعهد هذا الباب، في عامه الاول، إلى الأب المرحوم خليل قوجحصارلي -وقد تزامن تحريره مع اعتماد المجلة الطباعة بالاوفسيت- ومن ثم، وخلال العامين التاليين، أسند إلى عدد من الكهنة، فضلاً عن راهبة وعلمانيين حتى تسلمه الأب يوسف توما، على مدى عامين (١٩٨١-١٩٨٢)، وعاد هذا الباب من جديد، عام ١٩٨٣، بقلم ثلاثة آباء، حتى استقر مع عام ١٩٨٤ بعهدة كاتب واحد وعلى مدى سنة كاملة؛ فتعاقب عليه كل من الأب أفرام سقط (١٩٨٤) والمطران بولس دحدح (١٩٨٥) والأب لوسيان جميل (١٩٨٦) والأب (المطران) لويس ساكو (١٩٨٧) والأب المرحوم يوسف حبي (١٩٨٨) والاب يوحنا عيسى (١٩٨٩) والاب جبرائيل شماس (١٩٩٠) -وكانت الفكر المسيحي آنذاك تظهر بعشرة أعداد في السنة (وقد أُختُزل منها عدد في الثمانينات)، فيما كانت الاعداد الخاصة التي تغطي شهرين تسقط الابواب الثابتة. وحين اضطرت المجلة عام ١٩٩١ الى تقليص اعدادها الى اربعة، تناوب على كتابة "من وحي الانجيل" كل من الآباء فرنسيس المخلصي وروبير الكرملي وميشيل الكرملي -رحمهم الله- والاب لويس قصاب.

تقديم

وهكذا تكون حصيلة هذا الباب للاعوام (١٩٧٨-١٩٩٤) ١١٧ مساهمة غطّت أكثر من ١٠٠ نص انجيلي توزعت بين متى ولوقا ويوحنا ومرقس، فضلاً عن نصين من رسائل القديس بولس. ويكون ١٣ كاتباً أمّنوا تحرير هذه الزاوية على مدى سنة: خمسة منهم سبقونا إلى بيت الآب، الى جانب ١٢ كاتباً آخر كانت لهم مساهمة أو أكثر وعلى مدى ثلاث سنوات، خمسة منهم رقدوا.

قراءنا الاعزاء

لما كانت دار بيبليا للنشر قد عمدت الى مواصلة نشر "مختارات" من مجلة الفكر المسيحي، بهدف التوثيق من جهة، وتعميم الفائدة من جهة اخرى، كان لا بد لها ان تتجه نحو باب "من وحي الانجيل" ليتخذ الرقم ٦ في السلسلة التي ترقى بداياتها الى عام ١٩٨٥ لدى ظهور "همسات" أبي فادي! -وبالاحرى إلى عام ١٩٧٣ حين ظهر "تاريخ الكنيسة الشرقية" للأب ألبير أبونا، تحت عنوان "منشورات الفكر المسيحي"، جامعاً مقالاته في "ركن التاريخ" على مدى ثلاث سنوات.

واذا قرّ الرأي على نشر ما تضمنه هذا الباب بين الأعوام ١٩٧٨-١٩٩٤، فلأنه كان أصلاً قبلة انظار القراء الذين كان لهم، في كل شهر، موعد مع كلمة الانجيل، كلمة تُفسَّر وتؤوّن لتكون نوراً وحياة... كلمة تلتقي الانسان المعاصر في معانياته وطموحاته، في تساؤلاته العميقة وتطلعاته المشروعة...

ولما وجدتني ازاء هذه المادة الغزيرة -وقد اسهم فيها ٢٥ كاتباً- آثرت خيار التوثيق كاملاً، فلا يكون هناك تفضيل

تقديم

لكاتب دون آخر ولمقال على مقال... سيما وان لكل زمن طروحاته، ولكل كاتب اسلوبه، باضوائه وظلاله... وهكذا جاء الكتاب شاملاً على صعيد المضمون والمشاركة.

وبهدف اتاحة الفرصة لكل الذين لم يواكبوا "الفكر المسيحي" في سنواتها السمان، ولمعلّمي ومعلمات "التثقيف المسيحي، بنوع خاص، رأيت أن أذيل الكتاب -إلى جانب فهرس الموضوعات بحسب السنوات- بفهرس يوزع المواد بحسب تسلسل نصوص الاناجيل، بحيث يكون بوسع مؤمن يتابع قراءة الاناجيل الاربعة ان يتوقف عند النصوص التي سلطت عليها الاضواء في باب "من وحي الانجيل"! وسرعان ما يكتشف أن الحصة الكبرى كانت لانجيل متى (٤٦)، نزولاً إلى انجيل لوقا (٣٥) فيوحنا (١٩) ومرقس(١٥)... ولا أخفي ان نصوصاً هامة قد تكررت -وحدث التكرار بالاخص في نصوص متى ولوقا- ولكنها اتخذت في كل مرة طعماً خاصاً على لسان كاتبها!

اليكم ايها القراء، قدامى وجدداً، هذا الكتاب الذي، فيما يحيي ما سبق ان نشر على مدى ١٧ عاماً، يقدّم لكم قراءة معاصرة لأبرز النصوص الانجيلية، قراءة تحمل اليكم نوراً وامثولة لمسيرتكم الايمانية وراء يسوع.

ويطيب لي ختاماً أن أقدم شكري العميق إلى الآنسة سحر سالم لبو لجهدها المتميز في تنسيقه واخراجه بهذه الحلة الانيقة.

١٤ أيلول ٢٠٠٧
عيد الصليب

الأب يوسف عفاص

الانسان، أهو قطعة غيار؟

"وكانت جُموعٌ كثيرَةٌ تَسيرُ مَعَه فَالتَفتَ وقالَ لَهم: مَن أَتى إِلَيَّ ولَم يُفَضِّلْني على أَبيهِ وأُمِّهِ وامرأَتِه وبَنيهِ وإِخوَتِه وأَخواتِه، بل على نَفسِه أَيضاً، لا يَستَطيعُ أَن يكونَ لي تِلميذاً. ومَن لم يَحمِلْ صَليبَهُ ويَتبَعْني، لا يَستَطيعُ أَن يكونَ لي تِلميذاً".[1]

(لوقا ١٤: ٢٥-٢٧)

للرقم اليوم اهمية كبرى في كل الميادين. اننا، اكثر من اي وقت مضى، في عصر الرقم بحيث انه طغى على العلاقات الانسانية، فاضحى

(١) اعتمدنا في نقل النصوص البيبلية على طبعة دار المشرق-بيروت لعام ١٩٩٩، كونها أكثر قرباً إلى النص اليوناني الأصلي، وأكثر دقة في ترجمتها العربية.

الانسان نفسه رقماً لا وجه له، يقاس كمجرد طاقة انتاجية خاضعة لمقاييس محددة.

من خلال الانجيل نكتشف موقف المسيح من الانسان، حيث يتجلى احترامه لحرية الفرد: يتبع المسيح جمع غفير من الفقراء والمرضى.. وهم يسيرون وراءه بثقة وحماس، ولو شاء لاستطاع ان يستغل شعبيته ويذهب بهم حيث يشاء. انه يقف ويلتفت اليهم. انه لا يريدهم قطيعا يتبعه، وهو منكس الرأس ومدفوع بغريزته العمياء، انما يتوجه اليهم بالسؤال، هذا السؤال الذي يبقى مطروحا على انسان اليوم: "من أتى إليّ ولم يفضلني على ابيه وامه وامرأته وبنيه واخوته واخواته بل على نفسه ايضاً، لا يستطيع أن يكون لي تلميذاً...". فيسوع يعرف كلا بإسمه الخاص ويخاطب قلب كل انسان، ويعتبره شخصاً حراً عليه أن يختار بشعور المسؤولية. انه يدعوه بصراحة الحق، دون اغراء، ليدخله في عالمه ويقاسمه معرفته وصداقته: "ادعوكم اصدقاء لاني اطلعتكم على كل ما سمعت من ابي" (يوحنا ١٥:١٥).

فمتى احتُرمت كرامة الانسان، تبدو ملامح وجهه الاصيل، فتتلطف العلاقات الانسانية، ويجرؤ الفرد أن يتبسم مطمئنا الى ذاته والى الاخرين. ما أقل من يتبسم للاخر، فيأتي كلامه صلفا مليئا بالخوف والحذر.

من اختار المسيح يلتق بالانسان عبر رؤية صحيحة، متفهما ابعاد قيمته ومكانته في ملكوت الله. ان حضارة المجتمع وليدة انسانية افراده التي تستند على ما هو، وليس على ما يمتلك.

كانون الثاني ١٩٧٨ — الأب خليل قوجحصارلي

الغني ولعازر

"كانَ رَجُلٌ غَنيٌّ يَلبَسُ الأرجُوانَ والكَتّانَ النّاعِم، ويَتَنَعَّمُ كُلَّ يَوم تَنَعُّماً فاخِراً. وكانَ رَجُلٌ فَقيرٌ اسمُهُ لَعازَر مُلقىً عِندَ بابِهِ قد غطتِ القُروحُ جِسْمَهُ. وكانَ يَشتَهي أن يَشبَعَ مِن فُتاتِ مائِدَةِ الغَنيِّ. غيرَ أنَّ الكِلابَ كانت تأتي فتَلحَسُ قُروحَهُ. وماتَ الفَقيرُ فحَمَلَتْهُ المَلائِكَةُ إلى حِضْنِ إبراهيم. ثُمَّ ماتَ الغَنيُّ ودُفِن. فرَفَعَ عَينَيهِ وهوَ في مَثوى الأمواتِ يُقاسي العَذاب، فرأى إبراهيمَ عَن بُعدٍ ولعازَرَ في أحضانِه. فنادى: يا أبتِ إبراهيمُ ارحَمني فأَرسِلْ لَعازَر لِيَبُلَّ طَرَفَ إصبَعِه في الماءِ ويُبَرِّدَ لِساني، فإنّي مُعَذَّبٌ في هذا اللَّهيب. فقالَ إبراهيم: يا بُنَيَّ، تَذَكَّرْ أنَّكَ نِلتَ خَيراتِكَ في حَياتِكَ ونالَ لَعازَرُ البَلايا. أمّا اليَومَ فهو هَهُنا يُعزَّى وأنت تُعَذَّب. ومع هذا كُلِّه، فبَينَنا وبَينَكم أُقيمَت هُوَّةٌ عَميقة، لِكَيلا يَستَطيعَ الذينَ يُريدونَ الاجتيازَ مِن هُنا إليكم أن يَفعَلوا ولِكَيلا يُعبَرَ مِن هُناكَ إلينا. فقال: أسأَلُكَ إذاً يا أبتِ أن تُرسِلَه إلى بَيتِ أبي، فإنَّ لي خَمسَةَ إِخوة. فَلْيُنذِرْهُم لِئَلاّ يَصيروا هُم أيضاً إلى مَكانِ العَذابِ هذا. فقالَ إبراهيم: عِندَهُم موسى والأنبِياء، فَلْيَستَمِعوا إليهم. فقال: لا يا أبتِ إبراهيم، ولكِن إذا مَضى إليهم واحِدٌ مِنَ الأمواتِ يَتوبون. فقالَ له: إن لم يَستَمِعوا إلى موسى والأنبياء، لا يَقتَنِعوا ولو قامَ واحِدٌ مِنَ الأموات".
(لوقا ١٦: ١٩-٣١)

لعازر فقير بائس كالمتسولين الذين نلتقي بهم كل يوم ونحن ذاهبون الى العمل، او الذين يقرعون ابواب بيوتنا يستعطون. والفقير ينبذه المجتمع، كونه على الهامش؛ واذا تنازل احد فحدثه، فيكون ذلك بلهجة خشنة مشحونة بالازدراء.

فالهوة التي اقيمت بين الغني ولعازر كانت قائمة بينهما منذ الحياة على الارض! لم يكن الغني يرى لعازر، و لم يكن يقترب منه أو يسمع انينه. وغالبا ما لا يجرأ الفقير على ان يصرخ لئلا يُبكَّت ويُطرد، فهو على الباب ويداه مفتوحتان. ان هذه الهوة العميقة هي

اشارة الى الحاجز القائم بين الغني في قصره وبين الفقير المطروح خارجا، الى الحاجز الراسخ في قلب الغني حين يحاول أن يحجب عن ناظريه كل مآسي الغير وعذابهم.

في عالمنا نوعان من البؤس. بؤس الفقير المكبوت والمرفوض والمرذول، وبؤس الغني، وهو الاكثر شقاوة لانه غير منظور. يعاين الجميع بؤس الفقير في وجهه اليابس من جراء الجوع، وفي عينيه المذعورتين، ورأسه المكبوب، وصراخه الذي لا صدى له. اما بؤس الغني، فهو، بؤس من لا يعترف بأنه بائس، والذي من شدة خوفه من بؤسه ومن الظلام المطبق على قلبه يقنع نفسه، بكل المحاولات، بانه افضل من غيره وبانه مسلح بقدرة تضمن له كل حاجاته! انه يرفض ان يتطلع الى اعماق نفسه حيث تجمعت رواسب بؤسه.

اعتقد ان كل انسان يجمع فيه شيئا من هذين البؤسين. قد نختفي وراء قناع يبتسم ويضحك، غير ان في الاعماق دموعا خفية تشير الى البؤس الذي يؤدي بنا الى حافة اليأس. اننا كثيرا ما نميل، كالغني، الى إقامة جدران من حولنا، والى الاستعانة بمظاهر تخدع الآخرين، وان كنا على يقين من حقيقتنا الداخلية البائسة.

جاء المسيح ليحررنا من بؤسنا، فقراء كنا أم أغنياء. ولقد زرع النور في ضمير كل مؤمن ليبصر الحقيقة، دون خوف من بؤسه، ويتطلع بأمل الى الخلاص. ان المسيح حاضر في بؤسنا، وهو يؤكد لنا بانه لا يرفضنا ولا يرذلنا، بل يحبنا بالرغم من فقرنا وبسبب فقرنا. ان صراخ الفقير يجد صدى في قلب الرب، لان الرب هو نصير المساكين والمعوزين، يقترب منهم، ويأتي اليهم، وحضوره يملأ فراغ بؤسهم.

ففي ضوء حضور المسيح يكتشف الفقير من خلال فقره انه غني وابن الملكوت وصاحب الميراث. والغني الذي يستقبل المسيح، يكتشف فقره وبؤسه ويبدأ بتحطيم الحواجز القائمة بينه وبين الآخرين، ويدرك ان الغنى الحقيقي لا يقوم بجمع الاموال وخزنها، بل في العمل على تطبيق مبدأ الاقتسام.

ان مجرد العطاء لا يكفي لتحقيق الاقتسام حسب المفهوم الانجيلي. قد يعطي الغني صدقة، طمعا في ربح الاجر! في هذا العطاء اهانة للفقير كونه يخفي فكرة استغلال الغير للمنفعة الشخصية. اما الاقتسام، فهو، قبل ان يكون عطاء، حضور في الغير واقتراب من الفقراء بحب واحترام ومشاركتهم فقرهم. فالفقير بحاجة الى قلب يستقبله ووجه يبتسم له وشخص يحترمه كانسان، اكثر من حاجته الى قطعة خبز ترمى اليه تخلصا من صراخه!

ان احببنا الفقير، فالحب يلقننا الموقف السليم منه. وحينذاك لن تطاوعنا نفسنا ان نعتبره كصندوق النفايات، فنأبى ان نعطيه الملابس البالية والاطعمة الفاسدة والثمار اليابسة...! العطاء السليم هو حين نشارك الفقير بما لدينا وليس بما فضل عنا.

ملك... ولكن لأية مملكة؟

"فعادَ بيلاطُس إلى دارِ الحاكِم، ثُمَّ دَعا يسوعَ وقالَ له: أَأَنتَ مَلِكُ اليَهود؟ أَجابَ يسوع: أَمِن عِندِكَ تَقولُ هذا أَم قالَه لَكَ فِيَّ آخَرون؟ أَجابَ بيلاطُس: أَتُراني يَهودِيًّا؟ إِنَّ أُمَّتَكَ وعُظَماءَ الكَهَنَةِ أَسلَموكَ إِلَيَّ. ماذا فَعَلتَ؟ أَجابَ يسوع: لَيسَت مَملَكَتي مِن هذا العالَم. لَو كانَت مَملَكَتي مِن هذا العالَم لَدافَعَ عَنِّي حَرَسي لِكَي لا أُسلَمَ إِلى اليَهود. ولكِنَّ مَملَكَتي لَيسَت مِن ههُنا. فقالَ له بيلاطُس: فأَنتَ مَلِكٌ إِذَن! أَجابَ يسوع: هوَ ما تَقول، فإِنِّي مَلِك. وأَنا ما وُلِدتُ وأَتَيتُ العالَم إِلاَّ لأَشهَدَ لِلحَقّ. فكُلُّ مَن كانَ مِنَ الحَقِّ يُصغي إِلى صَوتي".

(يوحنا ١٨: ٣٣-٣٧)

كان يسوع، عامل الناصرة، يشتغل يدويا، اسوة برفاقه، من اجل الخبز اليومي، لا في مؤسسات كبرى ومشاريع هامة، بل في قريته الصغيرة: ينتقل من بيت الى اخر لدى الطلب، يحمل ادواته البسيطة ليقوم باعمال نجارية وضيعة. لا شيء فيه يلفت الانظار ويثير الاعجاب سوى انه كان يتقن عمله وينجزه بدقة ويأخذ اجرته برضى واكتفاء.

وها هو يوماً يتخلى عن حرفته ويترك بيته ويذهب الى اورشليم، لا لينضم الى عمال بناء الهيكل الذي بعد ٤٦ سنة لم يكتمل بناؤه، بل ليبدأ ببناء هيكل آخر بمواد جديدة: الا وهي المحبة والغفران والسلام والهداية الروحية والعطاء... يأتي عامل الناصرة الى اورشليم ليبني هيكلا من حجارة حية: مسكن الله بين البشر.

ظن الكثيرون ان الله ارسله ليعيد تكوين مملكة اليهود المفقودة ويسترجع مجدها الغابر، كما في عهد داؤد؛ ففكروا في خطفه لمبايعته ملكا، غير انه كان يختفي عن انظارهم، فارًّا الى البراري وساحل البحيرة. وبالرغم من انه كان يؤكد في تعاليمه ان مملكة الله كحبة خردل تنمو في الخفية أو كالخميرة في العجنة تخمرها من الداخل، لم يفهم الشعب سر هذا الكلام، واستمر ذاهباً في حلمه وآماله لاسترجاع المملكة الارضية السالفة.

يوماً، ويسوع في طريقه الى اورشليم، تهافتت الجماهير لاستقباله، وفي موكب مهيب دخل المدينة، محاطا باناس بسطاء يحملون اغصان الظفر والفرح ويهتفون: "مبارك الآتي باسم الرب ومباركة مملكة ابينا داؤد! اوشعنا في العلى".انتقل الى الهيكل وطرد باعة الغنم والبقر المعدة للذبائح. اتت الساعة حيث لا الهيكل ولا الذبائح تفيد شيئا. العبادة المرضية لدى الله هي بالروح والحق. وها هو المسيح يتحدى مستمعيه المعترضين على موقفه: "انقضوا هذا الهيكل اقمه في ثلاثة ايام..." هيكل لا يزال يبنى منذ ٤٦ سنة... انما عن هيكل جسده.

عامل الناصرة يحقق الهيكل ليعلن دماره ونهاية العبادة المقامة فيه. كما انه يبدد آمال امة قديمة العهد، وهو يعلم ان مملكة الله بذرة خفية زرعت في قلب الانسان لتنمو وتبقى نامية الى الابد الى ان تضحي شجرة وارفة الاغصان تستظل بها طيور السماء. ازاء هذا التحدي الهدام، استشاط الاحبار غضبا وعزموا على ابادته بكل الطرق لئلا تهلك الامة كلها، ولا سبيل آخر سوى ان تلحق به تهمة التآمر على الرومان واثارة الشغب ضد الحكام المستعمرين.

توصل اعداء المسيح الى اصابة المرمى! وها هو واقف امام بيلاطس والجماهير الغاضبة، بايعاز من عظماء الكهنة، تطالب بدمه، فقال له بيلاطس: "أأنت ملك اليهود؟". بدوره، وبمزيد من الهدوء والسكينة، يستجوبه عامل الناصرة: "أتقول هذا من عندك؟ أم قاله لك فيّ آخرون؟". اخيرا، وبعبارة وجيزة حلّقت بهذا الجدل الى اجواء جديدة، يعلن يسوع: "ليست مملكتي من هذا العالم".

مملكتان تتقابلان: مملكة قيصر الواسعة الارجاء ترمي الى تشكيل عالم تسوده وتستبد بمصير شعوبه، مستذلة اياها ومستغلة ثرواتها الانسانية والمادية، بقوة جيوشه الفتاكة الملتفة حول راية قيصر. ومملكة عامل الناصرة الوديع يشيد عالمه الجديد لبشرية جديدة، عبر كل الاحقاب والاجيال، لا يلحق بها بعد قِدَم أو فساد اذ انها بنيت بطينة حية، طينة الحق:

حق الله الذي اصبح بيسوع ابا لكل انسان، وحق الانسان الذي بيسوع أُفرغ من الشريعة وحرف الناموس المائت ليمتلئ من روح ابناء الله، روح الحب المتدفق ابدا من قلب طهّره دمُ الفادي. وحق الانجيل وهو يبث نداء ملك النور والرحمة: "انا الحق والطريق والحياة".

ان عامل الناصرة، ملك المجد، لا يزال اليوم كما في السابق، يبني كنيسته التي تجسد روح ملكه بذات المواد: الحق والحب. لا يعترف المسيح بكنيسة تعتمد، كي تنمو وتحيا، على مواد الارض من مال وقوة ونفوذ. أرادها المسيح، منذ الاصل، حرة متحررة، لا تحتاج الى قوة عظماء هذا الدهر ومساندة ذوي الذهب والفضة. انها ليست من صنع ايدي الناس، وكل توسُّعٍ فيها لا يكون حصيلة قوة الحق المبددة للظلمة وقوة الحب المبيدة للموت، توسُّعٌ باطل وسطحي. فالعودة الى فكرة الاصل ضرورة ملحة لتفهُّم حقيقة مملكة المسيح وكنيسته. كل من وُهب مسؤولية بناء الكنيسة، عليه ان يستوحي اسلوب المسيح نفسه في تنفيذ فكرته. لذا، فقد تنبه آباء المجمع المسكوني الاخير الى ابعاد كنيسة المسيح اليوم: فامام محاولات بعض البلدان للسيطرة على الكنيسة (كما في شيلي والبرازيل...) واستخدام رصيدها العالمي في سبيل مصالحها، اعلن آباء المجمع ضرورة الحفاظ على حريتها ورسالتها والتزام السبل الانجيلية في تأدية واجباتها ومهماتها.

ان اجمل ما ادلى به المجمع المسكوني، وهم يحملون آلام وامنيات شعوبهم، هو ان الكنيسة انتقلت ارادياً من كنيسة سيطرة واستعلاء وسيادة، الى كنيسة خدمة وعطاء تكون قادرة على ان تشع نور الله وحبه في كل ارجاء العالم: لهذه المملكة، عامل الناصرة هو ملك العقول والقلوب.

آذار ١٩٧٨ الأب خليل قوجمصارلي

المسيح معنا على الطريق

"وإذا باثنين مِنهم كانا ذاهبين، في ذلكَ اليوم نفسِهِ، إلى قَريةٍ اسمُها عِمَّاوُسُ، تَبعُدُ نَحوَ سِتِّينَ غَلوَةً مِنْ أُورُشليمَ. وكانا يَتحدَّثان بجميعِ هذهِ الامورِ التي جرَت. وبَينَما هُما يَتحدَّثانِ ويَتجادَلانِ، إذا يَسوعُ نَفسُهُ قد دنا مِنهُما وأخذَ يسيرُ مَعَهُما، على أنَّ أعيُنَهُما حُجِبَت عَنْ مَعرفتِهِ. فقالَ لهما: ما هذا الكلامُ الذي يَدورُ بينَكما وأنتُما سائران؟ فوقفا مُكتَئِبَين. وأجابَهُ أحدُهُما، واسمُهُ قَلاويا: أَأَنتَ وحدَكَ نازِلٌ في أُورُشليمَ ولا تعلَمُ الأُمورَ التي جرَت فيها هذه الأيام؟ فقالَ لَهما: ما هي؟ قالا له: ما يَختَصُّ بيسوعَ النّاصريِّ وكان نَبيًّا مُقتدراً على العمَلِ والقَولِ عِندَ اللهِ والشَّعبِ كلِّهِ، كيف أسلَمَهُ عُظَماءُ كَهَنَتِنا ورُؤَساؤُنا ليُحكَمَ عليهِ بالموتِ، وكيفَ صَلَبُوهُ. وكُنّا نَحنُ نَرجو أنّه هو الذي سَيَفتَدي إسرائيل. ومع ذلِكَ كلِّه، فهذا هو اليومُ الثالِثُ مُذ جرَت تِلكَ الأُمور. غيرَ أنَّ نِسوَةً مِنَّا قد حَيَّرنَنا، فأنَّهُنَّ بكَرنَ إلى القبرِ فلم يَجِدْنَ جُثمانَه، فرجِعْنَ وقُلنَ إنَّهُنَّ أبصرنَ في رُؤيةٍ ملائكةً قالوا إنَّهُ حيٌّ. فذهبَ بعضُ أَصحابِنا إلى القبرِ، فوجدوا الحالَ على ما قالَتِ النِّسوَة. وأمّا هوَ فلم يَرَوه. فقالَ لهما: يا قَليلَي الفهمِ وبَطيئَي القلبِ عَنِ الإيمانِ بكُلِّ ما تَكلَّمَ بهِ الأنبياء. أما كانَ يَجبُ على المسيحِ أن يُعاني تِلكَ الآلامَ فيدخُلَ في مَجدِهِ؟ فبدَأَ مِنْ موسى وجَميعِ الأنبياء يُفسِّرُ لهما في جميعِ الكتُبِ ما يَختَصُّ بهِ. ولمّا قَرُبوا مِنَ القريَةِ التي يَقصِدانِها، تَظاهَرَ أنَّه ماضٍ إلى مكانٍ أبعد. فألَحّا عليهِ قالا: أمكُثْ مَعَنا، فقد حانَ المساء ومالَ النَّهار. فدخَلَ لِيَمكُثَ مَعَهُما. ولمّا جَلَسَ معهُما للطَّعامِ، أخذَ الخُبزَ وبارَكَ ثُمَّ كسَرَهُ وناوَلَهُما. فانفتَحَت أعيُنُهُما وعَرَفاهُ فَغابَ عنهُما. فقالَ أحدُهُما للآخر: أمَا كان قَلبُنا مُتَّقِداً في صَدرِنا، حين كانَ يُحدِّثُنا في الطَّريقِ ويَشرَحُ لَنا الكُتُبَ؟ وقاما في تلكَ السَّاعَةِ نَفسِها ورَجَعا إلى أُورُشليمَ، فوجَدا الأحدَ عَشَرَ والَّذينَ معهم مُجتَمِعين، وكانوا يَقولون إنَّ الرَّبَّ قامَ حقاً وتَراءى لِسِمعانَ. فَرَوَيا ما حَدَثَ في الطَّريقِ، وكيفَ عَرَفاه عِندَ كسرِ الخُبزِ".

(لوقا ٢٤: ١٣-٣٥)

طريق عماوس! طريق كل انسان يحمل في طيات ضميره قلق المصير، والوصول، دون ان يُترك وحده في حيرة التساؤلات المُقلقة. ان مسيح القيامة، رب الحياة وسيد التاريخ، اذ لا يقوى عليه موت ولا تتحكم فيه ارادة ارضية مهما عظم شانها وامتد سلطانها، هو مع الانسان اينما كان، بحضور فعلي وغير حسي: يملأ عينيه من نور الايمان ويوقد في صدره نار الحب، ليخرجه من الشك والارتباك ويسنده في المسيرة الفصحية المؤدية الى فرحة القيامة والتجدد الدائم.

غير ان الايمان لا يظهر في الانسان على حين غفلة. لحياة الايمان تاريخ كتاريخ كل بذرة حية ذاهبة في النمو. والمسافة واسعة بين فجر الايمان واشراقه التام، بين التساؤل الاول والاذعان الاخير؛ كما ان الانتقال في مدرج الايمان بطيء وشاق. فما هي العوامل التي تُنضج الايمان وتحوله تدريجياً، من ايمان بدائي لا يجرؤ على السير الا بخطوات مرتجفة -كالطفل في الايام الاولى من مشيه- الى ايمان بالغ، يرسّخ في الانسان قناعة لا تتزعزع، تحمله على الالتزام بوعي تام وعطاء كلي؟ لنسر على طريق عماوس، علّنا نكتشف اضواء على سؤالنا من خلال الحديث الذي دار بين المسيح وتلميذيه في لقائهم الظريف.

تلميذان مسافران من اورشليم الى عماوس يتحدثان عن آخر الانباء وعن الامور المأساوية التي حدثت في تلك الايام. واذا بيسوع يدنو منهما ويسير معهما، غير انهما لم يعرفاه! وظلا في حيرة وكآبة لا يفهمان فشل يسوع الناصري الذي، بالرغم من توقعات الجميع بانه النبي المقتدر الذي على يده يتم تحرير الشعب، مات مخذولا على خشبة الاعدام.

وما زادهما حيرة انهما عرفا ان بعض النسوة ذهبن الى القبر و لم يجدن جسده، وقيل لهن انه حي. ولكن كيف يصدقان و لم يره احد من الذين تراكضوا الى القبر ليتحققوا من صحة ما نشرته النسوة من اخبار؟ انهما محقان في تحليلهما، ولا غرابة في شكهما: اذا كان مائت الامس حيا اليوم، فمن البديهي ان يكون منظورا، عملا بوعده قبل موته: في اليوم الثالث يقوم. يلمس يسوع عن كثب ما يخالجهما من افكار متضاربة ومن صراع داخلي. انهما مصابان بعجز في الادراك وضعف في الايمان بكل ما نطق به الانبياء، غير انهما في شوق حميم للوصول الى معرفة الحقيقة والى الالتقاء بالمعلم الذي، بموته، ترك فراغا في قلبهما لا يملأه غيره.

بادىء بدء يدعوهما يسوع ان يراجعا الكتب المقدسة، ثم اخذ يفسر ما ورد فيها بانه كان ينبغي ان يتالم المسيح ويموت، فلا يجوز لهما من ثم ان يستغربا من الحادث ويضطربا وكانهما امام امر فجائي. فالمسيح لم يقبل الموت الا ليدخل في مجده.

ما كاد يسوع يوضح لهما ما ورد في الكتب عنه بلغته البسيطة النيرة، حتى بدات تنقشع الغيوم ويتسع مجال الرؤية لديهما، واخذ قلبهما يتقد في صدرهما، في حين كانا يزدادان معرفة له.

اخيرا ياتي يسوع الى البرهان الساطع عندما ياخذ الخبز من المائدة ويباركه ويكسره ويناولهما. وعند كسر الخبز انفتحت اعينهما وعرفاه، فتوارى عنهما.

نلاحظ ان تلميذي عماوس لم يعرفا يسوع القيامة بوضوح، ولم يشرق نور الايمان في ذهنيهما الا لدى كسر الخبز. هناك اذن شرطان اساسيان للتعرف على حقيقة المسيح بعيون منفتحة وقلوب متقدة: اولهما ان نغتذي من كلام الله في الكتاب، لنحيا من كل كلمة تخرج من فم الله ونحصل على الاستعدادات الفكرية والقلبية لاستقبال التعليم الالهي والتقرب من حقيقة المسيح. ثانيهما ان نغتذي من الخبز الحي، من المسيح الذي اضحى طعامنا، لتتفتح اعيننا الى معرفة كاملة للمسيح، ونكتشف ابعاد صداقته الموهوبة لنا لنحياها بفرح وانشراح. ان المسيح حي وحاضر فينا وفي كنيسته، وانما بصورة غير حسية وغير مرئية. والسبيل الى التعرف عليه واكتشافه هو التأمل بملامح وجهه، من خلال الكتاب والاستقاء من منهل الحياة الابدية: الطعام الذي خلده لنا قبيل موته على مائدة المحبة والوحدة.

في حين لا يزال مسيح القيامة مجهولاً او مرفوضاً من الملايين من الناس، يشعر المسيحي بحاجة ملحة الى المزيد من الايمان النير بالفادي الممجد، على ان تنمو معرفته له عمقا وارتفاعا وعرضا وطولا بذات ابعاد صليب الحب والحرية. افليس القداس طريق عماوس في حياتك اذ انه يعطيك، اولا، ان تصغي الى المعلم وهو يحدثك عن سر شخصيته ورسالته ويزرع في قلبك كلمة الحياة، ثم يجلسك على المائدة ليشركك بالخبز الذي يكسره لك، واذ ذاك تنفتح عيناك لتستقبلا نوراً لا بعده ظلام؟

نيسان ١٩٧٨ — الأب خليل قوجحصارلي

التجدد في الروح القدس

"إذا كُنتُم تُحِبُّوني، حَفِظتُم وَصاياي. وَأَنا سأَسأَلُ الآب فيَهَبُ لَكم مُؤَيِّداً آخَرَ يَكونُ معَكم لِلأَبَد؛ رُوحَ الحَقِّ الَّذي لا يَستَطيعُ العالَمُ أَن يَتَلَقَّاه لأَنَّه لا يَراه ولا يَعرِفُه. أَمَّا أَنتُم فتَعلَمون أَنَّه يُقيمُ عِندكم ويَكونُ فيكم. لن أَدَعَكم يَتامى، فإِنِّي أَرجعُ إِلَيكم.

قُلتُ لَكُم هذه الأَشياءَ وأَنا مُقيمٌ عِندكم ولكِنَّ المُؤَيِّد، الرُّوحَ القُدُس الَّذي يُرسِلُه الآبُ باسمي هو يُعَلِّمُكم جَميعَ الأَشياء ويُذَكِّرُكُم جَميعَ ما قُلتُه لَكم. السَّلامَ أَستَودِعُكُم وسَلامي أُعطيكم. لا أُعطي أَنا كما يُعطي العالَم. فلا تَضطَرِبْ قُلوبُكم ولا تَفزَعْ".

(يوحنا ١٤: ١٥-١٨، ٢٥-٢٧)

ان الذين اختارهم يسوع تلامذة له ورسلاً لبشارته، قبلوا الدعوة فورا ودون تردد، بالرغم من صعوبة الشروط التي وضعها يسوع: اتركوا كل شيء واتبعوني. لقد كانوا رجال انتظار وامل: رأوا في رجل القدرة والحكمة والخير، المسيح المزمع ان يخلص شعبه، فتحمسوا له دون ان يقيسوا المصاعب والمتاعب المقبلة. وبعد ان عايشوه عن كثب واكتشفوا معنى رسالته والسبيل (الغريب) في تحقيقها، برزت في ما بينهم تساؤلات اشارت الى بطء فهمهم وضعف ايمانهم، وظهرت اثار الناموس والتقليد في مواقفهم. اما يسوع، فكان يواصل عمله في نفوسهم، محاولا، بالقول والفعل، تحريرهم من احلامهم وتوقعاتهم الارضية، وادخالهم في سر مملكته الروحية الجديدة.

هل توصل يسوع الى هداية رسله؟

يشير الانجيل الى الصراع الخفي بين المسيح وتلاميذه والى الصعوبة التي لاقاها الرسل في التحول من عهد الحرف الى عهد الروح، ومن ذهنية شريعة الاطمئنان والامان الى ذهنية المغامرة والمسيرة الصاعدة. لقد وقف يسوع من رسله موقف صبر ودعة، وقَبِلَ أن

يتحملهم، الى أن تأتي ساعة الروح الذي سيعلمهم كل شيء ويرشدهم الى الحق الكامل ويؤهلهم الى أن يذهبوا الى العالم كله ليحملوا اليه البشرى السارة بالخلاص.

كان الرسل، ما دام المسيح في ما بينهم، يستقون منه القوة والنور والحماية. غير أن يسوع لم يشأ ان يتركهم يتامى، وهو مزمع ان يغيب عنهم، فوعد ان يرسل اليهم سندا اخر، الروح القدس، ليقيم معهم الى الابد ويعلمهم كل شيء، ويذكرهم بكل ما قاله لهم. يأتي الروح مكملا ما بدأه يسوع، متعهدا الكنيسة في تكوينها وتطويرها وتجديدها الدائم.

أُفيضَ الروح، يوم العنصرة، على رسل كانوا لا يزالون يحملون، في طيات نفوسهم، اثار العهودِ السالفة، فضلا عن الخوف والقلق والتردد، فحررهم من قيود الجمود وجعل منهم اناساً جددا. فالتجدد علامة وجود الروح، ولا يُخشى التجدد الا متى انعزل عن الروح.

كيف يتم هذا التجدد في حياتنا؟

في العماذ، يحتل الروح القدس قلب المعمَّد فيجعل منه خليقة جديدة: منذ تلك اللحظة، يتحول الانسان الى هيكل الروح ويحيا من حياة الله ذاتها، ويشترك في حياته الثالوثية ويكتسب من ثم حركة متواصلة تجدد فيه فرح الروح وسلام القلب. ففي الكنيسة، بفضل معموذية ابنائها، ديناميكية الهية مدهشة وطاقة عمل وتقدم وتطوير لا يمكن ان تُحبَس ام تُجمَّد؛ ومن ثم فليس امرا كيفيا ان نقبل او نرفض التجدد في الكنيسة، لان التجدد حقيقة ملازمة لطبيعة وجودها ورسالتها. لذا نرى، من خلال تاريخ الكنيسة، اشارات حضور الروح الذي يعمل من داخلها لتطهيرها وتقديسها وتحريرها من الحواجز التي يقيمها بعض رعاتها بحجة الحفاظ على تراثها. ولا احد يجهل اليوم تلك الحركات التجددية التي ظهرت في السنوات الاخيرة، في كل انحاء العالم، والتي اعتمدت الصلاة الى الروح القدس والخضوع التام لالهاماته ومواهبه، واسفرت عن يقظة روحية عميقة..

بالرغم مما في هذه الظواهر من جانب مُغرٍ وعلامة اكيدة عن حدوث عنصرة جديدة في الكنيسة، يترتب على كل مسيحي، علمَّانيا كان ام كاهنا، ان يعتبر انه يمتلك طاقة الروح الهائلة التي من شاها ان تدفع بالكنيسة الى امام، في حركة اصلاح وتجدد تخدم انسان اليوم الذي يحق له ان يجد في الكنيسة قدرة الروح على بناء مجتمع يقوم على العدل والمحبة والسلام والفرح.

ان الجمود المتعمَّد ورفض الانتباه الى مسؤولية خدمة الحياة، بشتى اشكالها وتعابيرها، بنزاهة وامانة، قد يؤدي الى ما اسماه الانجيل "التجديف على الروح". ان الروح القدس هو وحده قادر ان يزيل من قلوبنا ترسبات العوائق الانجيلية، وان يبدد من رؤيتنا ما يعكرها، ويستبدل قلبنا المتحجر بقلب فيه حنان ورأفة. انه يفيض فينا روح النبوة ويعلمنا كيف نصلي ويحملنا على ان نسلك بحسب انجيل المسيح، ويرشدنا اخيرا في تأدية مسؤولياتنا بصورة بناءة صالحة للملكوت الجديد. ان اي تصلب ازاء عمل الروح، انما هو رفض الانقياد اليه والهرب من وجهه المنير: هذا هو التجديف على الروح، وهو عدم اعتراف بحضوره الفعلي في عمل الخلاص: "لا تُحزنوا روح الله القدوس الذي خُتمتم به لاجل يوم الفداء" (افسس ٤: ٣٠).

الأب خليل قوجحصارلي

أيار ١٩٧٨

نداء الى الجائعين

"قالَ لَهُم يسوع: أَنا خُبزُ الحَياة. مَن يُقبِلْ إِليَّ فَلَن يَجوع ومَن يُؤمِنْ بي فلَن يَعطَشَ أَبَداً. على أَنِّي قُلتُ لَكم: رَأَيتُموني ولا تؤمِنون.

أَنا خُبزُ الحَياة. آباؤُكُم أَكَلوا المَنَّ في البَرِّيَّة ثُمَّ ماتوا. إِنَّ الخُبزَ النَّازِلَ مِنَ السَّماء، هوَ الَّذي يأكُلُ مِنه الإِنسانُ ولا يَموت. أَنا الخبزُ الحَيُّ الَّذي نَزَلَ مِنَ السَّماء. مَن يَأكُلْ مِن هذا الخُبزِ يَحيَ لِلأَبَد. والخُبزُ الَّذي سأُعطيه أَنا هو جَسَدي أَبذُلُه لِيَحيا العالَم. فخاصَمَ اليَهودُ بَعضُهم بَعضاً وقالوا: كَيفَ يَستَطيعُ هذا أَن يُعطِيَنا جسدَه لِنأكُلَه ؟".

(يوحنا ٦: ٣٥-٣٦، ٤٨-٥٢)

يعتقد الكثيرون ان العصرنة بحد ذاتها دليل على الوصول الى درجة كبرى من الحضارة، وان التقدم العلمي والتقني ضمان اكيد لسعادة البشرية. وفي الواقع شهد التاريخ حقبات زمنية كان فيها الانسان، بالرغم، لا بل من جراء عيشه البسيط الملاصق للطبيعة، اكثر سعادة وقوة وصحة مما هو عليه اليوم. وقد انتشرت في الغرب، في السنوات الاخيرة، حركة تدعى "الايكولوجيا" تدعو الى العودة الى الطبيعة والى حماية المناطق الخضراء من تلوث البيئة واقتحام المباني والانشاءات التي تفقد الحياة انسانيتها...

نحن لا نتنكر للوسائل المدهشة وليدة الحياة العصرية التي تهدف منفعة الانسان، فرداً ومجتمعاً، لكننا نلاحظ ان التصنيع الضخم وروح المنافسة في الاقتصاد والتسابق على مراكز النفوذ والسيطرة، قد طغت على الانسان؛ وعوضا عن ان تخدمه، استخدمته! وبدلا من ان يكون هو الغاية، اصبح وسيلة رخيصة تعبث به ايادي الثروات المادية او المعنوية في العالم! ويكفي ان نقول بأن الطاقات الهائلة المتوافرة في عالمنا العصري لم تتوصل حتى اليوم الى معالجة مشكلة الجوع، اذ لا يزال ثلثا البشرية يعاني من سوء التغذية والحرمان من الغذاء

الكامل والماء العذب... ولا زال مئات الالوف من البشر يموتون جوعا في كل عام! ذلك دليل على ان النظام الاقتصادي العالمي متصعضع، إن لم نقل فاشلا. غير ان سبب هذه المأساة الانسانية -من وراء الاقتصاد- متأصل في الانانية المتجسدة في ظاهرة الاستغلال والتي تنتج عنها المظالم الاجتماعية والتجاوزات على حقوق الانسان بمختلف اشكالها. ان الناس، في الواقع، جائعون الى العدالة والمساواة والاخوة الشامله اكثر من جوعهم الى الخبز: انهم جائعون الى خبز الحياة!

لقد شاء المسيح ان يكون هو شخصيا هذا الخبز الحي الذي يلاشي فينا الانانية ويغذي فينا العطاء والمحبة: "انا الخبز الحي... من يأكل هذا الخبز يحي للابد، والخبز الذي اعطيه هو جسدي الذي ابذله ليحيا العالم". يضع المسيح ذاته تحت تصرفنا، ويدعونا الى ان نتغذى منه، حياة وحبا وقوة. انه يؤكد بشدة على حبه الذي سيذهب به الى بذل الذات ليفتتح، في عالم الانانية الطاغية، عهد المحبة والخدمة والاقتسام.

ان الاغتذاء من المسيح مجازفة عنيفة وبداية السير في طريق البذل والعطاء من اجل حياة الغير وسعادتهم. واذا كان يسوع قد بذل ذاته ليحيا العالم، فعلى من يأكله ان يرتضي بأن تسكنه نار تذيبه بدوره من اجل حياة العالم. بهذه المحبة وحدها، تتلطف العلاقات الانسانية وتبنى العدالة وتصان الحقوق ويُستنفَر الضمير العالمي، من اجل السعي الجدي الى تحسين وضع العالم وجعله اهلا لان يعيش فيه الانسان بكرامة وفرح وسلام.

محبة كهذه لا تاتي من الارض ولا يمكن ان تنبع من قلوب شوهتها الانانية، انما مصدرها قلب المسيح، اله المحبة، الذي -بخبز المحبة المقتسَم- يصوغ قلوبا مستعدة للعطاء وعقولا متفتحة لسماع نداء الانسان وضمائر واعية مسؤولياتها الجماعية في خلق عالم يليق بالانسان، فيوفر له، الى جانب القوت اليومي، خبز العدالة والمساواة والاخوة: خبز الحياة.

العمل والدعوة

"أَنا الرَّاعي الصَّالِح والرَّاعي الصَّالِحُ يَبذلُ نَفْسَه في سَبيلِ الخِراف. وأَمَّا الأَجير، وهو لَيسَ براعٍ ولَيستِ الخِرافُ له، فإِذا رأَى الذِّئبَ آتياً تَرَكَ الخِرافَ وهَرَب، فيَخطَفُ الذِّئبُ الخِرافَ ويُبَدِّدُها. وذلِكَ لأَنَّهُ أَجيرٌ لا يُبالي بالخِراف. أَنا الرَّاعي الصَّالِح، أَعرِفُ خِرافي وخِرافي تَعرِفُني كَما أَنَّ أَبي يَعرِفُني وأَنا أَعرِفُ أَبي وأَبذِلُ نَفْسي في سَبيلِ الخِراف. ولي خِرافٌ أُخْرى لَيسَت مِن هذِه الحَظيرَة فتِلكَ أَيضاً لا بُدَّ لي أَن أَقودَها، وسَتُصغي إِلى صَوتي فيَكونُ هُناكَ رَعِيَّةٌ واحِدة وراعٍ واحِد".

(يوحنا ١٠: ١١-١٦)

يعاني الكثير من الشباب اليوم من مشكلة انسانية -نفسية لها اهميتها في خلق السعادة والغبطة، هي علاقة العمل بالدعوة. ان العمل ولا شك ضروري في حياة الانسان، اذ يمكّنه من ان يربح قوته بعرق جبينه، دون ان يعيش على اكتاف غيره. غير ان هناك دافعا اساسيا اخر يحمل الانسان على العمل: لما كان الوجود الانساني مليئا بالامكانات الخفية والطاقات الكامنة، كان من الطبيعي ان يستثمر الانسان هذه الامكانات لصالحه ومنفعة ابناء جنسه. فالعمل هو الوسيلة المثلى التي تعبر عن ذاته وتحقق طموحاته وتبرز المؤهلات والقدرات التي تسكنه، فيرى لوجوده امتدادا في الخارج، مكتشفا قدرته في البناء والابداع؛ وهكذا تتسع شخصيته وتنمو قابلياته، ومن ثم تزداد قوة انتاجه في جو من الفرح الذي يصحب كل عمل خلاق.

ان هذا العمل انساني، بكل الابعاد وعلى كافة المقاييس، لانه يأتي في حياة الفرد بدافع الدعوة. انه يعمل لانه مدعو الى العمل، وهو يعمل في هذا المجال، لا في غيره، لانه يجد في ذاته دعوة الى العمل في هذا المجال المعين، وبالشكل الذي ينسجم تماما مع مواهبه

وامنياته وطموحاته. هذه الدعوة ليست اعتباطية، اذ ان لها مؤشرات واضحة في الانسان ذاته، ولا بد له ان يكتشفها كي ينسجم عمله مع متطلباتها. فاختيار العمل المناسب والمهنة الملائمة هو حق لكل انسان، كي يتسنى له ان يمارس هذا العمل بمثابة دعوة يعيشها بقناعة ويتذوق ابعادها ويندفع في ادائها. هذا المطلب هو من سمات الحضارة والرقي الانساني.

اما الانسان الذي يعمل لمجرد الربح، دون ان يكون عمله نابعا من دعوة في نفسه، فتبدو عليه علامات الاجير الذي ينقصه الشعور بالمسؤولية، ومن ثم ينتفي من عمله العطاء والفرح والحرص والامانة... مثله مثل الاجير الذي يبقى غريبا عن القطيع ولا يهمه امر الخراف بل منفعته الشخصية، وما ان ظهر الخطر، يهرب للحال حرصاً على نفسه، مضحيا بالقطيع.

الراعي والاجير يشيران الى عقليتين مختلفتين ومفهومين متناقضين للمسؤولية المعهودة اليهما: كلاهما يبدوان مهتمين في قيادة القطيع نحو المراعي الخصبة والمياه العذبة واعادة الخراف، كل مساء، الى الحظيرة كاملة وسالمة. غير ان الفرق، في الواقع، شاسع بين الراعي والاجير: فالراعي مندمج بقطيعه، لان الخراف خرافه ويعرفها بأسمائها؛ وهي تعرف صوته، لذا فانها تتبعه بكل طمأنينة، وهي على يقين من انه على استعداد ان يبذل نفسه في سبيل نجاتها من الذئاب والخطفة. انه يحبها وتحبه، ولكل خروف مكانة في قلبه، ولا يتوانى في البحث عن خروف ضل حتى يعيده الى الحظيرة، لانه لا يريد ان يهلك احد من القطيع الذي أُتُمن عليه...

جدير بنا ان يتوجه كل منا بهذا السؤال الى نفسه: راع انا ام اجير؟ هل اعيش عملي ومهنتي بروح الدعوة، متصفا بكل متطلبات هذه الدعوة من اخلاص وتفان وجدية وذوق ونزاهة واتقان، ساهرا ان يتسم عملي بالطابع الانساني، ومتحررا من قيود الروتين وجمود البيروقراطية؟ ام انا اعمل كالاجير وبروح الاجير وعقليته، سجين مهنتي او وظيفتي، اقوم باقل عمل ممكن واسعى الى اكثر ربح ممكن، دون ان ابالي بمتطلبات العمل ودون ان احسب حسابا لما سيتركه من اثر على المجتمع سوء تعاملي مع عملي؟

فاذا كان العمل من صفات الشرف، وكانت زيادة الانتاج وتحسينه من الطموحات المشروعة، فيجب ان يصبح العمل دعوة، والا يضحي الانتاج آليا.

الرحمة يا رب!

"أمَّا يسوع فذهَبَ إلى جبَلِ الزَّيتون. وعادَ عِندَ الفجرِ إلى الهيكلَ، فأقبَلَ إليهِ الشّعبُ كلُّه. فجلَسَ وجَعلَ يُعلّمُهم. فأتاهُ الكَتَبةُ والفرّيسيُّونَ بامرأةٍ أُخِذَت في زنًى. فأقاموها في وسَطِ الحلَقةِ وقالوا له: يا مُعلّم، إنَّ هذه المرأةَ أُخذت في الزِّنى المَشهود. وقد أوصانا مُوسى في الشّريعةِ برَجْمِ أمثالِها، فأنتَ ماذا تقول؟ وإنّما قالوا ذلكَ ليُحرِجوهُ فيَجِدوا ما يَشكونَه به. فانحنَى يسوعُ يَخُطُّ بإصبَعِه في الأرض. فلمَّا ألحّوا عليه في السُّؤال إنتصَبَ وقالَ لهم: مَن كانَ مِنكم بلا خَطيئة، فليَكُنْ أوّلَ مَن يَرميها بحَجَر! ثُمَّ انحنَى ثانيةً يَخُطُّ في الأرض. فلمَّا سَمِعوا هذا الكَلام، انصَرَفوا واحداً بَعدَ واحِد يَتقدَّمُهم كِبارُهم سِناً. وبَقِيَ يسوعُ وَحده والمَرأةُ في وَسَطِ الحلَقة. فانتَصَبَ يسوعُ وقالَ لَها: أينَ هُم، أيَّتُها المَرأة؟ ألَم يَحكُمْ عَليكِ أحَد؟ فقالت: لا، يا ربّ. فقالَ لها يسوع: وأنا لا أحكُمُ عليكِ. إذهَبي ولا تَعودي بَعدَ الآنَ إلى الخَطيئة".

(يوحنا ٨: ١-١١)

قد يستغرب الكثيرون من المسيحيين الفاضلين والتقاة، كما استغرب الكتبة والفريسيون سابقا، من موقف المسيح من الزواني والخطأة. فانه كان يجالسهم ويتحدث معهم وينصت اليهم ويأكل معهم ولا يخشى ان يقترب منهم او ان يقتربوا منه. وقد سجل الانجيل المناسبات الكثيرة حيث توجه اهل الناموس بانتقاد لاذع ضد المسيح، لعطفه على الضعفاء ولرحابة صدره في استقبال الساقطين، وهم المرفوضون والمحتقرون والمنبوذون من قبل المسؤولين الرسميين عن صيانة الناموس وحماية الدين في مظاهره وتعابيره الخارجية. وطالما نصبوا له المكائد ليوقعوه في فخ خبثهم ويمسكوا عليه تهمة: امرأة زنت، فأتى بها الكتبة والفريسيون الى المسيح، واقاموها في وسط الحلقة لاستذلالها وتحطيم معنوياتها،

مستهدفين احراج المعلم، ومعاقبة هذه المرأة الضعيفة، لا هدايتها. اوصانا موسى في الشريعة برجم امثالها، فانت ماذا تقول؟ سهل على الانسان ان يسند الى ذاته مهمة مكافحة الفساد حوله، وبهذا يعيّن لنفسه نصيب الصالحين! وفي الواقع، قد يكون الفساد في ضميره وباطنه وهو يتجاهله ويتناساه!

نرى المسيح، دون ان يجيب مباشرة الى سؤالهم، وبعد التفكير والتروي، يخط باصبعه في الارض -رغبة منه بعدم احراجهم واحراج المرأة- ويقول لهم: "من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم ويرمها بحجر". ليس بينهم من هو خالص من الاثم امام الله، الا المسيح وحده. والمسيح البار، صاحب الحكم والدينونة، لا يحاكمها ولا يدينها بل يطلق سراحها ويمنحها حرية الهداية والعودة جديدا الى الصداقة الالهية المفقودة: "انا لا احكم عليك. اذهبي ولا تعودي الى الخطيئة".

المحبة والشريعة تتقابلان. آثر المسيح المحبة على الشريعة، وجعلها محبة خلاقة للبرارة تُفجر الحياة والفرح. تقابلت المحبة الالهية والانسان الخاطئ الضعيف، فصارت المحبة رحمة فاضت من قلب المخلص الذي اتى "يريد رحمة لا ذبيحة"، يبحث عن الخروف الضال ويجتذب الابن الشارد ويحيي من صرعهم موت الاثم والمعصية.

منذ ان تفجر الغفران من قلب المسيح، صار شعارَ المسيحي، المؤمن بانجيله والعامل الجدي في بناء ملكوت يجمع ابناء الله ويوحدهم بعد ان تكون الخطيئة قد فرقت بينهم. في نظري ان الغفران والقدرة على مساعدة الاخرين والعطف على الخاطيء والخاطئة، اشارة عن مدى حيوية المسيحي والمسيحية، وظاهرة تؤيد الاصالة الايمانية الحقة لدى المسيحي. اذ لايمكن فصل الرحمة عن المحبة، ولا محبة تامة الا اذا اقترنت بالرحمة. فهل من معنى ومن كثافة روحية لمسيحية فارغة من المحبة والرحمة؟

سيبقى في مجتمعنا المسيحي زناة ومنحرفون وضحايا اهوائهم ونزواتهم، وضعفاء ومنهارون روحيا وانسانيا: واقع مؤسف دون شك، غير إن وُجد بجانبهم من يرحم ويشفق ويتفهم احوال هؤلاء الساقطين، فالخلاص مرجو والاهتداء قريب. الخطر، هو ان يبقى في مجتمعنا كتبة وفريسيون! اولئك المراؤون الحاقدون الرافضون جذريا مسيح الرحمة والخلاص، والذين لا يزالون يُطاردون الضعفاء ليرموهم بحجر، باسم الشريعة والناموس، لا باسم براءتهم وقداستهم: من منهم بلا خطيئة؟ انهم لا يفطنون الى الخشبة التي في عيونهم، بل يرون القذى الذي في عين الغير. ساعد الله من زلّ! غير ان تفاقم الذم والطعن والرفض يسد امامه خط الرجعة، فيرتمي في اليأس ويزداد انحرافا وشقاء.

ان انسان اليوم بحاجة ماسة الى تفهم واطلاع على نفسيته وظروفه، بالاضافة الى حرية التصرف والتعبير. ان احببناه، لا بد من استقباله في واقعه، وان كان تعيسا، لنجعله في اتصال برحمة المسيح عبر ما يمكن ان نضمن له من احترام وفهم وصبر وعون اخوي.

تشرين الثاني ١٩٧٨ — الأب خليل قوجمصارلي

الاستقامة الانجيلية بين القول والفعل

"ما رَأيُكم؟ كانَ لِرَجُلٍ ابنان. فدَنا مِنَ الأَوَّلِ وقالَ له: يا بُنَيَّ، إذهَبِ اليَومَ واعمَلْ في الكَرْم. فأَجابَه: لا أُريد. ولكِنَّه نَدِمَ بَعدَ ذلك فذَهَب. ودَنا مِنَ الآخَرِ وقالَ لَه مِثلَ ذلك. فَأَجابَ: ها إنِّي ذاهِبٌ يا سيِّد! ولكنَّه لم يَذهَبْ. فأَيُّهما عَمِلَ بمَشيئَةِ أَبيه؟ فقالوا: الأَوَّل. قالَ لَهم يسوع: الحَقَّ أَقولُ لكم: إنَّ الجُباةَ والبَغايا يَتَقَدَّمونَكم إلى مَلَكوتِ اللهِ. فَقَد جاءَكُم يوحَنَّا سالِكاً طريقَ البِرّ، فلَم تُؤمِنوا به، وأَمَّا العشَّارونَ والبَغايا فآمَنوا به. وأَنتُم رَأَيتُم ذلك، فلَم تَندَموا آخِرَ الأَمرِ فتُؤمِنوا به".

(متى ٢١: ٢٨-٣٢)

ان هذه الصحيفة من الانجيل تثير فيّ فحص ضمير دقيقا، وانا اتساءل عن مدى التوفيق بين كلامي واعمالي. اليس هنا داء اهل القلم والكلام؟ فبحكم التزامات دعوتنا، نكتب حسنا عن مبادىء السلوك المسيحي ونعلّم بمهارة القيم الخلقية الاساسية للسير على خطى المسيح. ولا يخلو خطابنا من القناعة والاخلاص وسلامة الطوية، غير ان الواقع يشير الى مسافة كبرى بين ما نعلن ونؤيد، وما نعيشه عمليا ونطبقه في تصرفاتنا اليومية. نادرا ما ننجو من شبح الازدواجية، وبجانب وجهنا الحقيقي المكشوف ازاء الله وازاء ضميرنا، نتلبس وجها اجتماعيا مُقَنّعاً لنلعب دورنا على مسرح مصالحنا.

ان صلواتنا وطقوسنا الكنسية لهي تعابير قوية رائعة عن اجمل المشاعر الدينية واثمنها، قد نتلوها بمثابرة واجتهاد وحماس ولكن: ما هو انعكاسها في حياتي اليومية خارج الكنيسة؟ وما هو اثرها في تعاملي مع العائلة والمجتمع وكل انسان في كل مكان؟

اني اؤمن واعترف بالتطويبات الانجيلية، غير اني ابقى في معزل عن مسؤولية بنـــاء السلام ونشر روح التآلف بين الناس وخدمة المتألمين والمضطهَدين... اني اؤمن واعتـــرف بالمحبة الاخوية قاعدة انجيلية للوجود المسيحي، غير اني احتقر من كان دوني ثروة او طبقـــة او علماً، واقاوم من كان يختلف عني بدينه او لغته او اتجاهه السياسي، واعيش منطويا على مصالحي ورخائي وتوسيع ثرواتي على حساب الضعفاء والمعوزين.

اني اؤمن واعترف بالعدالة، غير اني اخشى ان اكافح الظلم والتعدي على الحقـــوق الانسانية، وامارس الاحتكار الاقتصادي والربح المفرط غير المشروع والاجـــور البخســـة والعمل في ظروف غير سليمة، اخلاقيا وصحيا. اني اؤمن واعترف وانادي بالحق، غير اني اتجاهله عندما يجب اجراء تبديل في عوائدي البالية وتقاليدي الفارغة. اني اؤمن واعترف بالله خالقي وابي، غير اني اهمل الابتهال اليه ولا اجد الوقت الكافي لالتقي به في ســـر صـــلاتي وتأملي...

هكذا تبدو حياتنا مزيجا من "نعم" و"لا"! ما نقوله في الكلام نرفضه في الفعل، او بالعكس. ان هذه الظاهرة اللاصقة بوضعنا البشري تسيىء حتما الى اصالتنا الدينية وتضعف فينا قدرة الشهادة. لا يؤتي الكلام فاعليته الايجابية الا منبثقا من الحياة، شأن يسوع المسيح الذي كان يعلّم بالقول والمثل. فبالرغم من المسافة القائمة بين قولنا وفعلنا، علينا ان نقلصها اكثر ما يكون، حتى تتوحد ذاتنا تماما في كل مكوناتها والمعبرات عنها. عندما تزول المراءاة من صفوفنا، تتجلى كنيسة المسيح، لتظهر امام العالمين في ملامحها الحقيقية، وتضحي قادرة على ان تجتذب جميع العطاش الى ينابيعها.

... من نحن؟

"وكَلَّمَ يسوعُ الجُموعَ وتَلاميذَه قال: إنَّ الكَتَبَةَ و الفريسيِّينَ على كُرسيِّ موسى جالِسون، فَافعَلوا ما يَقولونَ لَكم واحفَظوه. ولكن أَفعالَهم لا تَفعَلوا، لأَنَّهم يَقولونَ ولا يَفعَلون: يَحزِمونَ أَحمالاً ثَقيلَة ويُلقونَها على أَكتافِ النَّاس، ولكِنَّهم يَأبَونَ تَحريكَها بِطَرَفِ الإِصبَع. وجَميعُ أَعمالِهم يَعمَلونَها لِيَنظُرَ النَّاسُ إِلَيهم: يُعَرِّضونَ عَصائبَهم ويُطَوِّلونَ أَهدابَهم ويُحِبُّونَ المَقعَدَ الأَوَّلَ في المآدِب، وصُدورَ المَجالِسِ في المَجامع، وتَلَقِّيَ التَّحيَّاتِ في السَّاحات، وأَن يَدعُوَهُمُ النَّاسُ رابي. أَمَّا أَنتُم فَلا تَدَعوا أَحَداً يَدْعُوكم رابي، لأَنَّ لَكم مُعَلِّماً واحداً وأَنتُم جَميعاً إِخوة. ولا تَدْعوا أَحداً أَباً لَكم في الأَرض، لأَنَّ لَكم أَباً واحداً هو الآبُ السَّماويّ. ولا تَدَعوا أَحَداً يَدْعُوكم مُرشِداً، لأَن لَكم مُرشِداً واحِداً وهو المسيح. وَلْيَكُنْ أَكبرُكُم خادِماً لَكم. فمَن رَفَعَ نَفسَه وُضِع، ومن وَضَعَ نَفسَه رُفِع".

(متى ٢٣: ١-١٢)

لا تبرح حية في ذاكرتي صورة القرويين الذين كانوا يأتون عصر كل يوم عند خورينا لقضاء السهرة. على عتبة الغرفة يتزعون احذيتهم ويركعون، وعمامتهم في يدهم، ويقبلون يد الخوري الذي كان لهم كل شيء... وعندما يحدث ان يزور الاسقف القرية، كنا نتهيأ طوال شهر للزيارة، وكان يعلمنا الشماس اصول الاستقبال... وويل لمن كان يخطيء ويدعوه "ابونا" عوضا عن "سيدنا"؟

مسكين يسوع! انه ينبه تلاميذه ويحذرهم من السقوط في اخطاء الفريسيين: التمسك بالحرف وتمجيد الظواهر والشكليات والصفات العامة واستغلال الناس ولاسيما البسطاء منهم. ويوصيهم بالحاح ان يرفضوا كل الالقاب والامتيازات والمراكز... "اما انتم

فلا تُدعَون رابي، فان معلمكم واحد، وانتم جميعكم اخوة..". ولكن سرعان ما تدور عجلة الزمن وتنعكس الآية، وتنتقل بطريقة عجيبة مراكز وامتيازات والقاب وحلل وفخريات وعروش وتيجان المملكة الارضية الى كنيسة المسيح، متخذة الف شكل وشكل: اساقفة، رؤساء اساقفة، بطاركة، كرادلة، بابا.. وتزدحم الصفات العامة: صاحب القداسة، النيافة، الغبطة، العظمة، السيادة... وسط هذا التناقض الصارخ نُصاب بالدوار ونتساءل: هل هذا ممكن؟ هل يتماشى ورغبة المسيح الملحة: "انتم جميعكم اخوة"؟

انه من المنطقي ان يوجد بين "الاخوة" مسؤولون، ولكن لا اسيادا متسلطين، لان المسؤولية لا يمكن القبول بها، الا بمقدار ما تكون خدمة للناس ووعيا لقضاياهم ورفعا لمستواهم: "الاكبر فيكم يكون لكم خادما". والانجيل صريح بهذا الصدد، ولا يقبل اية مساومة.. لقد قال يسوع لسمعان: "انت الصخرة.."، لا اكثر.

ان من اجمل صفات عصرنا البساطة. ولعل ذلك يعود الى الانقلاب الاشتراكي الذي تم في غالبية دول العالم ضد الارسطوقراطية والبرجوازية والاستلاب... ولقد اخذت الكنيسة، ولو ببطء، تحس بضرورة العودة الى البساطة والاصالة الانجيليتين، وتسعى الى التحرر من كل هذه المفارقات التاريخية والترسبات المضنية، فعمد البابا الى تبسيط الدوائر الرومانية وتغيير الكثير من البروتوكولات والعادات القديمة والشكليات... وسمى ذاته بحق: "خادم خدام الله"؛ كما اخذ العديد من اساقفة العالم يؤثرون لقب "ابونا" على "سيدنا"...

فالامر ليس مجرد نداء عابر الى البساطة، بل دعوة الى الحقيقة بالذات، ضد كل ما هو رياء وزيف واستعلاء وتسلط... كل ما يعيق انفتاح الانسان على أخيه الانسان.

وهذا الحس الصحيح بالقيم الحقيقية لا يعتمل فينا الا بمقدار معرفتنا لذاتنا وللاخرين، وبمقدار ما نتصف به من فضيلة وتجرد وعمق روحانية.. وبمقدار الاحترام الواجب للانسان، ايا كان، وما تتسم به معاملتنا معه من اللطف وروح الخدمة والمحبة، على مثال يسوع الذي جاء خادما لا مخدوما: "انتم تدعوني معلما وربا.. وقد غسلت ارجلكم.. فاني قد اعطيتكم قدوة لتصنعوا انتم ايضا، كما صنعت انا بكم". (يوحنا ١٣: ١٣-١٦).

لم تكن هذه مجرد كلمات، بل عملا وتحولا وفداء... ويريد يسوع ان يكون الجميع، كل في موقعه، مسؤولا وخادما... في اخوّة ابناء الله الواحد.

كانون الثاني ١٩٧٩ — الأب لويس ساكو

ولكي لا تختلط علينا مفاهيم الطمع والعوز والتدبير، ضرب لنا السيد المسيح هـذا المثل الذي يكشف عن عناية الله بالانسان، هذة العناية التي تحذره من القلق الشديد في امور العيش ولا تعفيه، في الوقت ذاته، من العمل الجدي المعقول للحصول علـى زاد الحيـاة، شريطة ان يعلم بان "الانسان لا يحيا -كانسان- بالخبز وحده.."!

لنعد الى مثل الإنجيل: فالطيور لاتزرع ولا تحصد ولا تخزن في الاهراء، لكنها تبحث عن طعامها في كل مكان. انها "حيث تسقط تلقط" مما يتيسر لها من خيرات الطبيعة؛ ومتى شبعت، تملأ اجواءنا بمتعة رفيفها وخفة طيرانها وعذوبة شَدْوها، كأنها "لا تحيـا بـالخبز وحده.."، انما تأكل منه كفايتها، ثم تعود الى التمتع بحياتها: الى الاعجاب بالطبيعـة، الى الانشاد، الى الفرح، الى التمجيد، الى الراحة في اعشاشها. انها مخلوقـات تعـيش اسـرابا متضامنة في ما بينها: في الجوع والشبع، في السكون والحركة، في الصمت والزقزقة. ولعل حياتها المشتركة هذه تنفي ان يكون احدها جائعا وآخر مُشبعا، احدها فرحا والآخر حزينا -هل رأيتم طيرا مات جوعا او عطشا وهو حر طليق؟ هل رأيتم طيرا عاش منفردا كئيبـا منبوذا؟

وماذا نقول عن زنابق الحقول؟ انها تنمو في الاطيان والاوحال، تحت أشعة الشمس ومهب الرياح، عرضة لآفات الطبيعة؛ ورغم ذلك، فهي زينة الانسان والطبيعة، بمنظرهـا الرائع والوانها الزاهية واريجها العَطِر الفواح، وكأنها هي الاخرى "لا تحيا بالخبز وحده" ولا للخبز وحده!

مشهدان من الطبيعة، يضعهما الانجيل كمرآة امام نظر الانسان: فكرة وعبرة. وهذا هو منطلق امثال السيد المسيح في توجهه الى الانسان: لفت الانظار الى معطيات في الطبيعة، واستخلاص العِبَر منها لحياة هي اكثر أهمية من المأكل والمشرب والملـبس، اذ ان حيـاة الانسان لا تقوم على أموال يجمعها، أو على مأكولات وملبوسات واثاث يستهلكها..

"اطلبوا أولا ملكوت الله وبره...". لم يكن السيد المسـيح، في حياتـه البشـرية، متصوفا موغلا في الزهد والتقشف، أو مثاليا يقيّم الحياة الانسانية من علُ... انه الانسـان الواقعي الذي يعطي لكل مقومات الحياة وقِيَمها معانيها الشاملة، القريبة والبعيدة، الفردية والاجتماعية، الزمنية والابدية، وذلك بسلوكية بصيرة نيرة واضحة، لا ترى في الجوع جوع البطن وحده، ولا في الملبس الثوب وحده، ولا في المشرب الماء الطبيعي وحده. بل انها تضع نصب نظر الانسان آفاق حياته الانسانية المتطلعة الى اللامحدود، وتحمله على السعي، مـن وراء عمله الجاد والدؤوب الى المساهمة الفعلية في تحقيق ملكوت الله وبره، اعني ملكـوت العدالة والمحبة والفرح والسلام بين الناس؛ فحينذاك ينتفي العوز،ويزول القلـق، ويبطـل الجشع، وتأخذ المقاسمة بخيرات الارض ابعادها، مقاسمة أخوية منتظمة ومُشرَّعة.

اطلبوا اولا ملكوت الله..

"أُنظُرُوا إلى طُيورِ السَّماءِ كَيفَ لا تَزرَعُ و لا تَحصُدُ ولا تَخزُنُ في الأهراء، وأَبوكُمُ السَّماويُّ يَرزُقُها. أَفَلَستُم أَنتُم أَثمَنَ مِنها كثيراً؟ ومَنْ مِنكُم، إذا اهتَمَّ، يَستَطيعُ أَن يُضيفَ إلى حَياتِه مِقدارَ ذِراعٍ واحِدة؟ ولماذا يُهِمُّكُمُ اللِّباس؟ إعتَبِروا بِزَنابِقِ الحَقلِ كيفَ تَنمو، فلا تَجهَدُ ولا تَغزِل. أَقولُ لَكُم إنَّ سُلَيمانَ نَفسَه في كُلِّ مَجدِه لم يَلبَسْ مِثلَ واحِدةٍ مِنها. فإذا كانَ عُشبُ الحَقلِ، وهُوَ يُوجَدُ اليومَ ويُطرَحُ غداً في التَّنُّور، يُلبِسُه اللهُ هكذا، فما أَحراهُ بِأَن يُلبِسَكُم، يا قَليلي الإيمان! فلا تَهتَمُّوا فتَقولوا: ماذا نَأكُل؟ أوماذا نَشرَب؟ أو ماذا نَلبَس؟ فهذا كُلُّه يَسعى إلَيه الوَثَنِيُّون، وأَبوكُمُ السَّماويُّ يَعلَمُ أَنَّكُم تَحتاجونَ إلى هذا كُلِّه. فَاطلُبوا أَوَّلاً مَلَكوتَه وبِرَّه تُزادوا هذا كُلَّه. لا يُهِمَّنَّكُم أمرُ الغَد، فالغَدُ يَهتَمُّ بِنَفْسِه. ولِكُلِّ يَومٍ مِنَ العَناءِ ما يَكْفيه".

(متى ٦: ٢٦-٣٤)

ترى هل هناك وقع او صدى لكلمات الانجيل هذه في مجتمع اليوم، مجتمع الاستهلاك الهائل، في المأكل والمشرب والملبس؟ مجتمع الاموال المرصودة في البنوك، والساعات الطويلة المسلوخة في العمل، والمشاغل المتعددة التي يتعاطاها الفرد، رغبة في ربح اكبر، والمواد المعيشية المكدسة في البيوت، والمجمدات المكتظة بالاغذية، والرفوف المثقلة بالمعلبات، واطقم الثياب المتنوعة الالوان والموضات..

وما يدعو الى الدهشة في كل هذا، هو ان الناس -غالبية الناس- ورغم توفر مستلزمات معيشتهم، ليس ليوم غد فقط، بل ولايام وسنين، يعيشون يومهم قلقين على يومهم، متوجسين خفايا غدهم! فالمسألة نظرة الى الحياة وموقف منها. انها حالة من الشعور الدائم بالعوز! واذا قيل من قبل بان "القناعة كنز لا يفنى"، نقول اليوم ان "الطمع عوز لا يشبع"!!

"لا تعلم شمالك ما تصنع يمينك"

"إيّاكم أن تَعملوا بِرَّكم بمَرأى مِنَ النّاس لِكَي يَنظُروا إليكم، فلا يكونَ لكُم أَجرٌ عندَ أبيكُمُ الّذي في السَّمَوات. فإذا تَصدَّقتَ فلا يُنفَخْ أمامَكَ في البوق، كما يَفعَلُ المُراؤونَ في المجَامِعِ والشَّوارِعِ لِيُعَظِّمَ النّاسُ شَأنَهم. الحَقَّ أَقولُ لكُم إِنَّهم أَخذوا أَجرَهم. أَمَّا أَنتَ، فإِذا تَصَدَّقتَ، فلا تَعلَمْ شِمالُكَ ما تَفعَلُ يَمينُكَ، لِتَكونَ صَدَقَتُكَ في الخُفْيَة، وأَبوكَ الّذي يَرى في الخُفْيَةِ يُجازيك.

وإِذا صَلَّيتُم، فلا تَكونوا كالمُرائين، فإِنَّهُم يُحِبُّونَ الصَّلاةَ قائمينَ في المَجامِعِ ومُلتَقى الشَّوارِعِ، لِيَراهُمُ النّاس. الحَقَّ أَقولُ لكُم إِنَّهم أَخَذوا أَجرَهم. أَمَّا أَنتَ، فإِذا صَلَّيتَ فادخُلْ حُجرَتَكَ وأَغلِقْ علَيكَ بابَها وصَلِّ إِلى أَبيكَ الّذي في الخُفْيَة، وأَبوكَ الّذي يَرى في الخُفْيَةِ يُجازيك".

(متى ٦:١-٦)

في زياراتنا للكنائس والمعابد، تجذب انظارنا لافتات مكتوبة هنا وهناك عن اياد بيضاء قد قامت بمبرات لهذا المعبد أو ذاك: فهناك عند أقدام التماثيل وداخل رخام المذابح وعلى زجاج الثريات وعلى صفائح المدافىء... جُمَل وتعابير تشيد برجالات عظام ومحسنات كريمات قد اوقفت واهدت وتبرعت بهذا الشيء او ذاك لبيعة الله تعالى!

ولدى حضورنا القداس الالهي يوم الاحد، يقف كاهن الرب، بعد تلاوة الانجيل المقدس، ليعلن للملأ عن أعمال خيرة ومبرات كريمة تبرع بها المؤمنون للكنيسة او للفقراء او للجمعيات الخيرية... وان ذبيحة المسيح هذه تُقدم عن روح فلان بن فلان! وكم يشتاق الكثيرون ان يقدموا هم ايضا حسنات قداديس لتعلن عن ارواح موتاهم يوم تعج الكنيسة بالناس، ولكنهم لم يفلحوا، لان فلان قد سبق وحجزه من قبلهم!

ان المبرات والهدايا التي تُعلَن، والذين يعلنون صدقاتهم بهذه الطريقة، قد لا يقصدون مساعدة الكنيسة او الفقراء، بل لتشرئب اعناقهم وسط الشعب.. انهم لا يعملون عملاً مقبولاً لدى الله، بل لاجتذاب مديح الناس وتمجيدهم وتقديرهم. لذلك يقول عنهم يسوع: "قد نالوا اجرهم".

ممارسة الصدقة -وكذلك الصلاة والصوم- عمل صالح بحد ذاته، غير انه لن يرضي الله الا متى قام به الانسان لوجهه تعالى وبدافع المحبة الصادقة المتزهة عن المنفعة. يسوع يحذر تلاميذه، لدى ممارستهم الاعمال الصالحة، من صدقة وصلاة، من ان تعكر المصالح والاغراض صفاء هذه الاعمال، ويفسد التباهي والتفاخر أكثر الافعال سموا وقداسة، اذا ما تحولت الدوافع الى الرغبة في مديح البشر الزائف او اثارة اعجابهم. انه يلفت انظارهم الى القيمة الحقيقية التي تنطوي عليها هذه الافعال، ويحثهم على القيام بها حبا بالاب السماوي "الذي يراهم في الخفية".

ان الطريقة المثلى التي يريد المسيح ان يسير عليها جميع تلاميذه في ما يتعلق بالاحسان ومساعدة الفقراء والمحتاجين هي: "لا تعلم شمالك ما تصنع يمينك". لهذه الصيغة في العطاء معنى عميق: فهي تُجنِّب الانسان من ان يقيم وزنا لثناء الناس، وتحمله على الا يشعر بانه محسن -كونه يرد للفقير ما هو له، على حد تعبير القديس امبروسيوس- وتدفعه ايضا الى العطاء بروح التواضع والتجرد، فلا يتوخى من هذا العطاء لا مديح الناس ولا حتى الاجر عند الله!

ان العطاء بمختلف اشكاله، اذا رافقه الشعور بالرفعة والاستعلاء، واذا التصقت به الرغبة في التظاهر والتفاخر والتنافس وابتغاء مرضاة الناس، واذا امتزجت به دوافع المنّة على الله -او على الكنيسة- وانتظار الاجر منه لقاء الاحسان... يفقد هذا العطاء مزاياه ويضحي مساومة، ويتحول بالتالي الى اخذ!

على المسيحي ان يشعر بنوع خاص، بان العطاء واجب تفرضه متطلبات المحبة والعدالة معا، وانه وجه من أوجه الايمان. فالايمان اذا خلا من الاعمال، اضحى ميتا، على حد تعبير القديس يعقوب في رسالته (٢: ١٤-١٨) حيث يقول: "واي منفعة يا اخوتي لمن يقول ان له ايمانا ولا اعمال له؟ العل الايمان يقدر ان يخلصه؟ ان كان اخ او اخت عريانين، وهما في عوز الى قوتهما اليومي، فقال لهما احدكما: اذهبا في سلام! استدفئا واشبعا! ولم تعطوهما ما هو من حاجة الجسد، فما المنفعة؟".

ثورة ام ·افيون·؟

"جِئتُ لأُلقيَ على الأَرضِ ناراً، وما أَشدَّ رَغْبَتي أَن تَكونَ قد اشتَعَلَت! وعَلَيَّ أَن أَقبَلَ مَعموديَّةً، وما أَشَدَّ ضيقي حتَّى تَتِمّ! أَتَظُنُّونَ أَنّي جِئتُ لأُحِلَّ السَّلامَ في الأَرْض؟ أَقولُ لَكُم: لا، بَلِ الانقِسام. فيَكونُ بَعدَ اليَومِ خَمسَةٌ في بَيتٍ واحِدٍ مُنقَسمين، ثَلاثَةٌ مِنهُم على اثنَينِ واثنانِ على ثَلاثَة: سيَنقَسِمُ النَّاسُ فيَكونُ الأَبُ على ابنِه والابنُ على أَبيه، والأُمُّ على بِنتِها والبِنتُ على أُمِّها، والحَماةُ على كَنَّتِها والكَنَّةُ على حَماتِها".

(لوقا: ٤٩-٥٣)

قبل ايام كنت مع شابين نتامل في هذا النص من انجيل القديس لوقا. وبعد نقاش طويل، قال الاول: هل تعتقد بصراحة ان المسيحية قادرة ان تغير العالم؟ وتلك النار التي اشتاق المسيح الى اضرامها، أهي قادرة على بعث انسانية جديدة؟

امام هذا السؤال البالغ الاهمية اجاب الثاني: المسيحية عمل كل فرد، اني لا اتذكر قط اني تغيبت عن حضور قداس الاحد، او تماونت عن اتمام صلاتي. اخدم عائلتي واسعى جاهدا ان اكون طيبا، وألاّ ألحق ضرراً باحد... آه، لو كان كل الناس على هذا الغرار لعشنا في سلام وجنة!

بالتأكيد هذا التقدم للمسيحية فقير وناقص لكونه يحولها الى عبادة واخلاق لا غير -وهذا كثيرا ما نجده حتى في الديانات البدائية- ولكن المسيح فتح امامنا آفاقا اوسع تفوق الشرائع والنواهي والحرومات والممارسات والطقوس.. انه اراد المسيحية رحلة طويلة وشاقة عبر ثنايا التاريخ، وخروجا لا ينتهي، وخلقا وولادة يومية على كافة الاصعدة. ارادها تشمل الانسان كله والانسانية كلها.

للاسف الشديد، لقد اسأنا فهم حقيقة رسالة المسيح! صورناها حقيقة ما ورائية علينا العمل لاجلها، وجعلنا الامل المسيحي منفذا للهروب من "وادي الدموع".. في حين كان جل اهتمام المعلم التأكيد بأن "ملكوت الله" ليس "العالم الاخر" الميتافيزيقي، داعيا الى ان نجعل من عالمنا هذا عالما "آخر" يلد انسانية جديدة وحياة جديدة وعلاقات جديدة بين البشر، كونهم اخوة وابناء الله الواحد.

يسوع يحطم كافة الاصنام والاغلال ويزيل كل الحدود ويطيح بكل انواع الاستلاب.. باسم الحب الذي يتخطى كل الجدارات ويتعالى عليها. وكانت ورقة عمله ثورة على الظلم والفساد والجمود: "روح الرب عليّ لانه مسحني لأبشّر المساكين وأرسلني لانادي للماسورين بالتخلية وللعميان بالبصر واطلق المرهقين احرارا وأعلن سنة نعمة للرب (لوقا ٤: ١٨-٢٠).

لقد رسم صورة لعالم اكثر انسانية واكثر اخوّة، معلنا للجميع المصالحة مع بعضهم بعضا، وداعيا اياهم الى ان يعيشوا حياة جماعية، "شركة" في السلام والمحبة. هذه الشركة ليست أمرا هينا: انها تتطلب جهدا ضد الذات وضد كل ما هو عتيق وفاسد ومنفعي في حياتنا وتصرفاتنا.. لقد اضرم يسوع نار ثورة جذرية تُحرر الانسان، فاثار بذلك غيظ رؤساء اليهود، مما حملهم على قتله، لان عالمه يختلف عن عالمهم. وهكذا كان موقف الاباطرة الرومان تجاه تلاميذه حاملي هذه البشرى الجديدة. فالايمان ليس عملا جاهزا، انما هو عمل جماعي يتواصل ويتكامل شيئا فشيئا: انه يدعونا الى اكتشاف ذاتنا وتغييرها وتجديد عقليتنا وعوائدنا، كما يدعونا الى ان نحب اخوتنا وعملنا وارضنا ووطننا محبة حقيقية تتخطى الكلام، وهكذا يضحى ناراً لا تنطفئ.. وكما يقول روجيه غارودي، سكرتير الحزب الشيوعي الفرنسي سابقا، بصدد المسيحية ومفهومها الجديد: "ان ايماناً كهذا ليس افيوناً بل خميرة تحوّل العالم. فكل ضربة تُسدَّد الى مثل هذا الايمان، انما هي ضربة مسددة الى الثورة" (البديل ١٠٤)! بقي علينا ان نثبت، بعملنا وخدمتنا وحبنا للانسان -كل انسان- والتزامنا قضاياه وطموحاته، بان مقولة ماركس "الدين افيون الشعوب" مقولة لا تنطبق على دين يلتزم تحرير الانسانية!

... فتصيروا كالاولاد

"وفي تلكَ السَّاعَة دَنا التَّلاميذُ إلى يسوعَ وسألوه: مَن تُراهُ الأَكبَرَ في مَلكوتِ السَّمَوات؟ فدَعا طِفلاً فأَقامَه بَينَهم وقال: الحَقَّ أَقولُ لَكم: إن لم تَرجِعوا فتَصيروا مِثلَ الأَطفال، لا تَدخُلوا مَلكوتَ السَّمَوات. فمَن وضَعَ نفسَه وصارَ مِثلَ هذا الطِّفل، فذاك هو الأَكبرُ في مَلَكوتِ السَّموات. ومَن قَبِلَ طِفلاً مِثلَه إكْراماً لاسمي، فقَد قَبِلَني أَنا.

وأَمَّا الذي يَكونُ حجَرَ عَثرَةٍ لأَحدِ هؤلاءِ الصِّغارِ المؤمِنينَ بي، فَأَولى به أَن تُعلَّقَ الرَّحى في عُنُقِه ويُلقى في عُرضِ البَحر. الوَيلُ لِلعالَمِ مِن أَسبابِ العَثَرات! ولا بُدَّ مِن وجُودِها، ولكِنِ الوَيلُ لِلَّذي يكونُ حَجَرَ عَثرَة! فإذا كانَت يَدُكَ أَو رِجلُكَ حَجَرَ عَثرَةٍ لَكَ، فاقطَعْها وأَلقِها عنكَ، فَلأَنْ تَدخُلَ الحَياةَ وأَنتَ أَقطَعُ اليدِ أَو أَقطَعُ الرِّجْلِ خَيرٌ لَكَ مِن أَن يكونَ لكَ يدانِ أَو رِجلانِ وتُلقى في النَّارِ الأَبَديَّة".

(متى ١٨: ١-٨)

لدى قراءتي هذا النص -ونحن في عام الطفل- تعود بي الذاكرة الى ايام الطفولة حين كانت امي تحذرنا من الدخول الى غرفة الاستقبال لدى زيارة اصدقاء ابي لنا! وكيف كنا، نحن الصغار، نختفي حين كان يزورنا كاهن القرية! وينتقل بي الفكر الى موقف يسوع من الاطفال حين قدموا اليه ليضع يديه عليهم ويصلي، وكيف زجرهم التلاميذ، غير ان يسوع قال: "دعوا الاطفال يأتون الي ولا تمنعوهم، فان لمثل هؤلاء ملكوت السموات" (متى ١٩: ١٣-٤٤).

كشف يسوع عن القيمة التي تنطوي على الطفولة: فالطفل في نظر يسوع هو هيكل الله الذي لم يُدنَّس بعد، وصورته التي لم تُشوه و لم تُمسخ بعد. انه عالم البراءة والنقاء والشفافية، وفية تتوفر العوامل التي تهيّء الانسان للدخول الى ملكوت الله، بما فيها الاستعداد

الطيب والارادة الصالحة لاستجابة النداءات.. ولا عجب اذا الح يسوع على عودة الانسان الى روح الطفولة، وجعل من هذه العودة شرطا للدخول في ملكوته: "ان لم ترجعوا فتصيروا كالاولاد فلن تدخلوا ملكوت السماوات"!

يدخل ملكوت المسيح من يحافظ على نقاء الطفل وبراءته ويتصف ببساطة الطفل وسلامة نواياه ورهافة حسه وشفافية قلبه... تلك هي صفات يفترضها يسوع في تلاميذه، تؤهل صاحبها ان يحتل المكان الاول في ملكوت المسيح: من وضع نفسه مثل الطفل، فذاك هو الاعظم في ملكوت السموات! فالى عملية ولادة مستمرة تتجدد كل يوم، يدعونا المسيح. وهذه الولادة تبدأ في اعماق الذات، في سعي حثيث وجاد الى اكتشاف مواطن الزيف والشر فينا، والعمل على اجتثاث جذور الازدواجية ونزع الاقنعة والعودة الى صفاء فقدناه وبساطة عقّدناها وأصالة خنقناها... وكل ذلك في اطار من الرجولة الناضجة القادرة على القيام بهذه العملية الشاقة والخلاقة معا. الى هذه العملية، دعا يسوع نيقوديمس حين قال له: "ليس احد يقدر ان يعاين ملكوت الله ما لم يولد من فوق.." (يوحنا ٣:٣)؛ ولادة كهذه يرافقها مخاض اليم، ولكنه يسفر عن حياة جديدة، كما يحدث للمرأة اذا ما حان وضعها: تحزن لان ساعتها قد اتت، ولكنها متى وضعت الطفل لا تعود تتذكر شدتها، فرحة بان انسانا ولد في العالم! (يوحنا ١٦: ٢١)؛

غير ان يسوع لا يقدس الجانب السلبي الاستهلاكي للطفولة! فالطفل "عالة" على ذويه ومجتمعه اذا بقي طفلا يأخذ دون ان يعطي، ولاسيما اذا كان الطفل يستهلك دون ان يمضغ بشكل سليم حتى يبلغ سن العطاء، والعطاء لا سن له! ويؤسفنا ان نلاحظ بأن الجو العاطفي في اسرنا الشرقية -لاسيما حين تحاول الام الشرقية الاستعاضة، على حساب اولادها، بعاطفة يحرمها اياها الرجل- كثيرا ما يخلق اطفالاً مستهلكين، يبقون اطفالاً، اتكاليين، حتى بعد بلوغهم سن الشباب..!

طفل اليوم هو رجل الغد! وكنيستنا ووطننا بحاجة ماسة الى جيل جديد صادق، ملتزم، معطاء... وعلينا ان نسعى الى بناء هذا الجيل الذي تنتظره مسؤوليات جسام. اطفالنا هم علامة استفهام لنا: ما الذي نُعدّه لهم؟ بماذا نغذيهم فكرا وروحا؟ كيف نهيؤهم لمسؤوليات الغد؟ كثيرا ما نعزّي انفسنا قائلين بان الزمن سيعلّمهم! ونتناسى بأن الاسرة هي المدرسة الاولى، وان أهم ما يؤثر في شخصية الطفل سلوكية الكبار امامه، ولاسيما الوالدين.. غير اننا غالبا ما لا ننتبه الى كلامنا وتصرفاتنا ومواقفنا امام اطفالنا، ولا عجب حينذاك اذا تعود الصغار على الكذب والغش والخداع والبغضة والحسد والطمع... فعن كل ما يشكك هؤلاء الصغار قال يسوع: من الحري ان يُعلّق بعنقه رحى الحمار ويُزجّ في اعماق البحر!

الحصاد كثير، اما الفعلة فقليلون...

"وكانَ يسوعُ يَسيرُ في جَميعِ المُدُنِ والقُرى يُعلِّمُ في مَجامِعِهِم ويُعلِنُ بِشارةَ المَلَكوت ويَشفي النَّاسَ مِن كُلِّ مَرَضٍ وعِلَّة. ورأى الجُموعَ فأَخذَته الشَّفَقَةُ علَيهم، لأَنَّهم كانوا تَعِبينَ رازِحين، كَغَنَمٍ لا راعيَ لها. فقالَ لِتلاميذِه: الحَصادُ كثيرٌ ولكِنَّ العَمَلَةَ قَليلون. فاسأَلوا رَبَّ الحَصادِ أَن يُرسِلَ عَمَلَةً إِلى حَصادِه".

(متى ٩: ٣٥-٣٨)

صورتان متكاملتان يستخدمهما يسوع في اسلوبه التعليمي البارع، ويوردهما الانجيلي متى لقارئيه من الشرقيين المولَعين باستعمال الصور والمجازات والامثال، وصولا الى فكرة معينة: فصورة الجماهير الكادحة المسحوقة بالمرض والفقر وليس من يرعاها، نقلت المسيح -المعلم الى صورة ثانية تأتي نتيجة للاولى، هي صورة الحقول البضاء بغلتها الغزيرة التي تنتظر من يحصدها.

ومن خلال هاتين الصورتين: الغنم بلا راع، والحصاد والحاصدون، اكد يسوع على ضرورة العمل والبذل والخدمة في سبيل الجماهير البشرية التي تنتظر من يأتيها، من جديد، بأمل الحياة الانسانية الحرة الكريمة. كما اراد ان يفهم الناس بان الملكوت الذي يبشر به ليس نظاماً من طقوس ورتب واوامر جامدة صارمة، بل هو ملكوت الحب والرحمة والخير والسلام، وهو لا ينحصر في الحقل الروحي وحسب، بل يتعداه ليشمل كل مجالات الحياة وقطاعاتها، فيستجيب لكل حاجات الانسان، لان المقصود هو خلاص الانسان ككل...

هناك سؤال ذو شقين نطرحه بروح موضوعية:

-ما هي الصورة التي يقدمها لنا المجتمع البشري عن نفسه؟

-اين ملكوت الله/ الكنيسة وسط هذه الصورة؟

ان المجتمع البشري، بشكل عام، لا يعطينا ولا شك صورة مشرقة: حروب، سيطرة القوة بالاسلحة الفتاكة، ممارسة العنف باشكاله كافة، تمييز عنصري، استغلال الضعيف،

امراض السرطان والقلب والاعصاب.. تحصد "الاغنام" البشرية. هناك ايضاً امراض روحية شتى تفترسها: ظاهرة الابتعاد عن الله وعن القيم الاخلاقية، ترافقها ظاهرة الانجراف نحو المال والمادة... ونرى ان مجال العمل على مكافحة كل ما هو ضد خير الانسانية واسع وكبير. فأين الكنيسة -ملكوت الله على الارض- من كل هذا؟

ان الكنيسة، امانة منها لرسالتها، لا تألو جهداً في ان تكون حاضرة في كل مكان، وسط كل ما تعانيه البشرية اليوم؛ فهي، ضمن مجال اختصاص عملها، وبعمالها الرسوليين من كهنة ورهبان وعلمانيين متخصصين في العمل الرسولي، تعالج، قولا وعملا، امراض البشر المختلفة بادوية الايمان والرجاء والمحبة، وتقدم لهم نِعَم الاسرار المقدسة التي تحمل معها قوة المسيح الشافية.

وهناك بلا ريب نقص كبير ومخيف في عدد العمال الرسوليين، مما يخلق مشكلة بالغة الاهمية، تجب معالجتها. لا يكفي ابدا ان ندّعي بان افتداء العالم هو قضية الله نفسه، طالما ان المسيح هو مع كنيسته حتى منتهى الازمنة. ان موقفا كهذا، انما ينمّ عن ايمان اتكالي، لا يتحرك ولا يعمل، بينما الرب نفسه امرنا بان نعمل ونصلي دوما من اجل الدعوات: اطلبوا الى رب الحصاد ان يرسل فعلة الى حصاده، والبابا يوحنا بولس الثاني في رسالته بخصوص الدعوات[1] يطلب منا ان نعمل بكل طاقاتنا في سبيل انعاش الدعوات... ان قضية الدعوات ضرورة حيوية ملحة يجب ان نوليها الاهمية التي تتناسب وحجمها، وذلك بدراسة موضوعية صريحة على ضوء الايمان والحاجة العملية، فيترك ما لم يعد فيها ملائما في صيغتها الحالية، ليصار الى حقيقة جديدة تتوافق مع عقلية الجيل المعاصر وتنسجم مع مقتضيات العمل الرسولي الحديث.

ان ذلك يتحقق بتنظيم العمل الرسولي وتوزيعه توزيعاً جيداً، بحيث يوضع مثلاً الكاهن المناسب في المكان المناسب: ثم تنظيم حالة الكاهن وضمان حقوقه المادية، بحيث ينصرف كليا الى عمله الرسولي.

هناك محاولات محمودة في هذا المجال اخذت بها بعض الكنائس والابرشيات... انها الخطوات الاولى على طريق ايجاد تلك الصيغ الجديدة السليمة من حيث جوهرها، والمواكبة، من حيث اطرها، للتغييرات الحياتية والتحولات الاجتماعية التي يشهدها عالم اليوم؛ فعلى نوعية العاملين في الحقل الرسولي، تتوقف نوعية عمل الكنيسة ونشاطها ككل.

حزيران ١٩٧٩ — الأب بهنام كجو

---

(١) بمناسبة اليوم العالمي السادس عشر للصلاة من اجل الدعوات (٦ ايار) وجه البابا نداء دعا فيه الشباب بنوع خاص الى الاستجابة لدعوة المسيح قائلا: "... واذا كنت اكلمكم اليوم عن تخصيص الذات الكامل في الكهنوت او الحياة الرهبانية او الحياة الرسولية، فذلك لان المسيح نفسه يدعو الكثيرين منكم الى هذه المغامرة الفريدة. انه بحاجة ويريد ان يكون بحاجة الى شخصكم، الى عقلكم، الى طاقاتكم، الى ايمانكم، الى حبكم، الى قداستكم... انه يريد ان يكلم ابناء اليوم بصوتكم، ويريد ان يحب بقلبكم، ويساعد الاخرين عبر اياديكم، ويخلص بفضل اتعابكم..."

واذا لم تغفروا...

"فدَنا بُطرُس وقالَ له: يا ربّ، كم مَرَّةً يَخْطَأُ إِلَيَّ أَخي وَأَغفِرُ لَه؟ أَسَبعَ مَرّات؟ فقالَ له يسوع: لا أَقولُ لكَ: سَبعَ مرّات، بل سَبعينَ مَرَّةً سَبعَ مَرّات.

لِذلكَ مَثَلُ مَلكوتِ السَّمَواتِ كَمَثَلِ مَلِكٍ أَرادَ أَن يُحاسِبَ خَدَمَه. فَلَمَّا شَرَعَ في مُحاسَبَتِهم أُتِيَ بواحِدٍ مِنهُم عَلَيه عَشَرَةُ آلافِ وَزْنَة. ولَم يَكُن عندَه ما يُؤَدّي بِه دَينَه، فَأَمَرَ مَولاهُ أَن يُباعَ هو وامرأَتُه وأَولادهُ وجَميعُ ما يَملِك لِيُؤَدَّى دَينُه. فَجَثا لَه الخادِمُ ساجِداً وقال: أَمهِلْني أُؤَدِّ لَكَ كُلَّ شَيء. فأَشفَقَ مَولى ذلكَ الخادِم وأَطلقَه وأَعفاهُ مِنَ الدَّين. ولَمَّا خرَجَ ذلكَ الخادِمُ لَقِيَ خادِماً مِن أَصحابِه مَديناً له بِمِائةِ دينار. فأَخَذَ بِعُنُقِه يَخنُقُه وهو يقولُ له: أَدِّ ما عَلَيكَ. فجَثا صاحِبُه يَتَوسَّلُ إِلَيه فيَقول: أَمهِلْني أُؤَدِّ لكَ. فلَم يَرضَ، بل ذهَبَ به وأَلقاه في السِّجنِ إِلى أَن يُؤَدِّيَ دَيْنَه. وشَهِدَ أَصحابُه ما جرى فاغتَمُّوا كثيراً، فمَضَوا وأَخبَروا مَولاهم بِكُلِّ ما جَرى. فدَعاهُ مولاهُ وقالَ له: أَيُّها الخادِمُ الشِّرِّير، ذاكَ الدَّينُ كُلُّه أَعفَيتُك مِنه، لأَنَّكَ سأَلتَني. أَفما كانَ يجِبُ عليكَ أَنتَ أَيضاً أَن تَرحَمَ صاحِبَكَ كما رحِمتُكَ أَنا؟ وغَضِبَ مَولاهُ فدَفَعَه إِلى الجَلاَّدين، حتَّى يُؤَدِّيَ لَه كُلَّ دَيْنِه. فَهَكذا يَفعلُ بكم أَبي السَّماويّ، إِن لم يَغفِرْ كُلُّ واحِدٍ مِنكم لأَخيهِ مِن صَميمِ قَلبِه".

(متى ١٨: ٢١-٣٥)

كنا في جلسة ضمت بعض الاصدقاء، وكان الحديث عن رجل ساءت سمعته لشراسته وسوء اعماله وظلمه.

قال احد الحضرين: لماذا لا ينتقم الله من كل انسان يظلم الاخرين ويتعدى على حقوقهم؟ فاجابه احد الجالسين قائلا: لو ان الله يتصرف كما نريد، لما ظننت أن احدا من البشر يستحق الحياة! واراد آخر ان يدلي بدلوه فقال: لو ان الله ينتقم من المفسدين لاصبحوا عبرة للاخرين!

وطال الحديث وتشعب. ومن ثم اقترح احدهم ان نرجع الى الانجيل لنرى كيف يتصرف الله مع البشر. فاخذنا الانجيل في متى ١٨: ٢١-٣٥، ورحنا نتأمل في السؤال الذي طرحه بطرس على يسوع: "كم مرة يخطأ اخي الي واغفر له؟ ألى سبْع مرات؟ فقال له يسوع: لا اقول لك الى سبع مرات بل الى سبعين مرة سبع مرات". وتوقفنا نتساءل: لماذا اختار الرب الرقم سبعة؟ أليس هو الرقم الكامل الذي يرمز الى سبعة ايام الاسبوع؟ ومعلوم أن للارقام، في الكتاب المقدس، رموزا؛ فحين اراد يسوع ان يعطينا رقما كاملا لعدد المرات التي نغفر فيها لمن أخطأ الينا، فمعناه انه يريد منا الا نضع حدودا للمغفرة...

ثم تابعنا قراءة المثل الذي ضربه يسوع بشأن ملك اراد ان يحاسب عبيده: مَثُل امامه عبد كان له عليه عشرة الاف وزنة، وترك له الملك كل هذا الدَّين لانه تضرع اليه. اما هو فحين صادف واحدا من رفقائه العبيد كان له عليه مئة دينار، قبض عليه واخذ بخناقه؛ ورغم تضرعه، ابى الا ان يطرح به في السجن حتى يوفي الدين، متناسيا صنيع سيده معه!

هكذا هو موقفنا في الغالب: نريد من الاخرين ان يكونوا متسامحين معنا، ونحن لا نريد ان نسامح الذين اخطأوا الينا. وحين نسيء الى الاخرين، نبحث عن المبررات لنجعل من اساءتنا فضيلة وعزة نفس وحفظ كرامة... اما عندما يسيء الينا احد، تثور حفيظتنا ويتآكلنا الحقد والكراهية والغضب، فلا نرضى بغير الانتقام سبيلا!

ثم انتقل بنا الحديث الى العائلات التي تشققت وتنافرت بسبب الاخطاء التي صدرت من احداها تجاه الاخرى، فراحت تعيش في البغضاء والمقاطعة، تحرث في نفسها الكراهية وتحصد الانتقام، متناسية ما علّمنا اياه يسوع في الصلاة الربية التي تربط غفران الله بغفراننا عن من اساء الينا: "ان غفرتم للناس زلاتهم، يغفر لكم ابوكم السماوي زلاتكم، وان لم تغفروا للناس فابوكم ايضا لا يغفر لكم زلاتكم" (متى ٦ : ١٤). واكتشفنا ان الانسان الحاقد الذي لا يريد ان يغفر ويفكر دوما في الانتقام، يعيش في قلق مستمر، وتغزو قلبه الاحقاد والضغائن؛ اما الانسان الذي يغفر، فيعيش في هدوء وسكينة وسلام داخلي.

وهنا استدرك احدنا قائلا: ان غفران الاساءة ليس بالامر الهين على الطبيعة البشرية! وتساءل: هل يدعونا الانجيل الى التخاذل والخنوع؟

يجب ان نعطي لقول المسيح معناه وبعده الحقيقيين: فالمسيح لا يطلب منا ان نحب اعداءَنا "كونهم اعداء"، فان "محبة العدو كعدو، على حد تعبير القديس توما الاكويني، شعور يضاد طبيعة الانسان وهو بذلك شر. اما محبة العدو كانسان يرتدي الطبيعة البشرية المخلوقة من الله الذي يريد ان يخلص الجميع، فهي ضرورية للانسان اذا اراد ان يتقيد بسنة المحبة".

يدعونا يسوع الى التسامي فوق نزوات النفس، من غضب وتَشَفٍّ وحقد، والى عدم الانسياق وراء شريعة "العين بالعين والسن بالسن"؛ ومن هذا المنطلق علينا ان نفهم قوله: "لا تقاوموا الشرير، بل من لطمك على خدك الايمن فحول له الاخر" (متى ٥: ٣٨). فهو لا يدعونا الى التخلي عن الحق المشروع، لكنه يرشدنا الى ما في الاقلاع عن الثار والانتقام، من كبر نفس ونبل اخلاق. ان دعوة المسيح هذه ليست جبنا وتخاذلا وقبول مهانة عن مضض، بل دعوة الى التسامي والتشبه بموقف الله من البشر الذين يهينونه فيصفح عنهم، هو الذي "يشرق شمسه على الابرار والاشرار" (متى ٥: ٤٣).

لاتدينوا... فلا تدانون

"لا تَدينوا لِئَلاَّ تُدانوا، فكَما تَدينونَ تُدانون، ويُكالُ لكُم بما تَكيلون. لِماذا تَنظُرُ إلى القَذى الَّذي في عَينِ أَخيك؟ والخَشَبَةُ الَّتي في عَينِكَ أَفَلا تَأبَهُ لها؟ بل كيفَ تَقولُ لأَخيك: دَعْني أُخرِجُ القَذى مِن عَينِك؟ وها هي ذي الخَشَبَةُ في عَينِكَ. أَيُّها المُرائي، أَخرِجِ الخَشَبَةَ مِن عَينِكَ أَوَّلاً، وعِندَئِذٍ تُبصِرُ فتُخرِجُ القَذى مِن عَينِ أَخيك".

(متى ٧: ١-٥)

يقف الانسان من بعض نصوص الانجيل وكأنه ازاء نصوص ادبية يتغلب فيها الخيال على الواقع؛ وقد يرى فيها، احيانا، مثالية لا يُدنى منها، فيخلص الى القول بأن الانجيل شرعة جميلة وجذابة، ولكنها شرعة يصعب تطبيقها في واقع الحياة اليومية، متناسيا ان المسيح لم يشأ ان يضع على اكتاف البشر اثقالاً فوق طاقتهم، وقد فضح هو نفسه الروح "الفرّيسية" التي كانت تطبع تعاليم ومواقف وسلوكية علماء الناموس الذين كانوا يعلّمون ولا يعملون!

ان انجيل المسيح شهادة عاشها يسوع قبل ان يعلنها، ولذلك كان لها اثرها العميق في نفوس معاصريه. كما ان بشرى الانجيل التي حملها الرسل الى العالم لم تكن لتبلغ الى النفوس، لو انها لم تكن "شهادة" حية عاشها الرسل والمسيحيون الاولون قبل ان يعلنوها، وقبل ان يدونوها.

والنص الذي امامنا يأتي في نطاق الموعظة على الجبل التي جمعها متى الانجيلي ليرسم من خلالها دستورا للاخلاقية الجديدة التي جاء بها المسيح: اخلاقية الله، الحب المتجسد. ويتناول هذا النص الاحكام التي نصدرها على من حولنا، مستعيرا تشبيها رائعا، قريبا الى الذهن، ليحذرنا من الوقوع في مرض المراءاة والفرّيسية: فمن كانت في عينه "خشبة"،

كيف يتسنى له ان يبصر "القذى" في عيون الاخرين؟! ان الاحكام هي من اهم افعال العقل التي تميز الانسان، وهي في الوقت ذاته مؤشر يعكس سلوكية الانسان ومفاهيمه طالما ان الحكم هو، في حد ذاته، رؤية للاشخاص والاشياء والاحداث التي من حولنا، وتقييم -ايجابيا كان ام سلبيا- لها. لذا يدعونا الانجيل الى ان تكون احكامنا نزيهة وعادلة، على غرار احكام المسيح بالذات، فنحذر اطلاق احكام سريعة اعتباطية، ولاسيما تلك التي نطلقها -لشيء في نفسنا- سواء بدافع الغيرة والحسد، ام بدفع الانتقام والاساءة...

ويعكس لنا الانجيل مواقف اتخذها المسيح واحكاما اطلقها، يُستشف منها الاحترام الذي يكنه للانسان، الى جانب الرؤية الواضحة المقترنة بالمحبة والرحمة تجاه الخطأة. وخير مثال على هذه الرؤية موقفه من المرأة التي أُخذت في زنى -هذا الفعل الذي يستنكره الناس والذي تحكم الشريعة الموسوية على مقترفه بالموت رجما بالحجارة- وجاء بها اليه الكتبة والفريسيون يسألونه: وانت، ماذا تقول؟ ويسوع، بعد ان دانَ المشتكين عليها: من منكم بلا خطيئة؟ يقول للمرأة: ولا انا احكم عليك، اذهبي ولا تعودي الى الخطيئة من بعد! ان يسوع لم يبرر الزانية، ولكنه امتنع عن دينونتها، ويدعونا الى تجنب إصدار الاحكام القاسية، والجائرة منها بنوع خاص، على الاخرين، ولاسيما حين يجب ان تُوجَّه الينا الحجرة الاولى.

"لا تدينوا لكي لا تدانوا"! هذه هي القاعدة الذهبية التي يجب ان ترسو عليها مواقفنا وسلوكيتنا تجاه الاخرين، علما بان احكامنا تستند في غالب الاحيان الى الظواهر الخارجية، ولا تنفذ الى الاعماق التي لا يعرفها سوى الله. وغالبا ما تختفي وراء احكامنا دوافع لا تمت الى الموضوعية والنزاهة والاخلاص بصلة، والاحرى بنا ان نبدأ باصلاح ذواتنا، وحينذاك نكتسب رؤية واضحة فلا نعود نرى في اعين اخوتنا حتى القذى!

الاب كوركيس كداخ

كونوا كاملين!

"سَمِعتُم أَنَّه قيل: العَينُ بالعَين والسِّنُّ بالسِّنّ أَمَّا أَنا فأَقولُ لكم: لا تُقاوِموا الشِّرِّير، بَل مَن لَطَمَكَ على خَدِّكَ الأَيْمَن فاعرِضْ لهُ الآخَر. ومَن أَرادَ أَن يُحاكِمَكَ لِيَأخُذَ قَميصَكَ، فاترُكْ لَه رِداءَكَ أَيضاً. ومَن سَخَّرَكَ أَن تَسيرَ معه ميلاً واحِداً. فسِرْ معَه ميلَيْن. مَن سأَلَكَ فأَعطِه، ومَن استَقرَضَكَ فلا تُعرِضْ عنه. سَمِعتُم أَنَّه قيل: أَحْبِبْ قَريبَك وأَبْغِضْ عَدُوَّك. أَمَّا أَنا فأَقولُ لكم: أَحِبُّوا أَعداءَكم وصَلُّوا مِن أَجلِ مُضطَهِديكُم، لِتَصيروا بني أَبيكُمُ الَّذي في السَّمَوات، لأَنَّه يُطلِعُ شَمْسَه على الأَشرارِ والأَخيار، ويُنزِلُ المَطَرَ على الأَبرارِ والفُجَّار. فإِن أَحْبَبْتُم مَن يُحِبُّكُم، فأَيُّ أَجْرٍ لكم؟ أَوَلَيسَ الجُباةُ يفعَلونَ ذلك؟ وإِن سلَّمتُم على إِخوانِكم وَحدَهم، فأَيَّ زِيادةٍ فعَلتُم؟ أَوَلَيسَ الوَثَنِيُّونَ يَفعَلونَ ذلك؟ فكونوا أَنتُم كامِلين، كما أَنَّ أَباكُمُ السَّماويَّ كامِل".

(متى ٥: ٣٨ -٤٨)

في عصر ينشد فيه الانسان الانعتاق من كافة اشكال الاستلاب التي يخضع لها، يخيل الينا ان المسيح، من خلال هذا النص، وكأنه يمنع اتباعه، ليس من اخذ الثأر وحسب، وانما ايضاً من تحقيق طموحاتهم المشروعة في الكرامة والسيادة والحرية! فهو يدعو الى قبول الاهانات: "من ضربك على خدك الايمن، فحوِّل له الآخر"، ويوصي بمحبة الاعداء والصلاة لاجل الذين يضطهدوننا...! وحينئذ يحق لنا ان نتساءل: هل يدعونا المسيح، يا ترى، الى الخنوع والتخاذل امام كافة الاستلابات التي نكون نحن، او اخوتنا البشر، موضوعها؟ هل يمنع المسيح شعبا من المطالبة بحرياته الاساسية؟ وهل يتوجب على الفقراء والمظلومين،

والحالة هذه، ان يخضعوا للمظالم التي تنالهم؟ وهل يتحتم على العمال ان يسكتوا اذا ما كانوا ضحية الاستغلال والجشع؟ وهل يقف البشر مكتوفي الايدي كل مرة أُهينت كرامتهم وهُضمت حقوقهم؟

ان يسوع، حين يدعو تلاميذه الى المغفرة والتسامح، فهو انما يدعوهم، في الواقع، الى التسامي والارتفاع بمحبتهم للناس الى مستوى المحبة الالهية لهم. فعلى التلاميذ، ولانهم اتباع المسيح وابناء الله، ان يقبلوا الاهانات ويتحملوا الاضطهادات تمثلا بالله ابيهم. وبهذا المعنى يجب ان نفهم العبارة التي تكلل هذا النص: "كونوا كاملين كما ان اباكم كامل"؛ هذه العبارة التي تشكل القمة من تعليم المسيح كونها تتضمن دعوة المسيحيين الى السعي نحو الكمال الالهي، عبر ممارسة المحبة الفعلية. لذا نرى يسوع يرسم اجمل تعبير عن محبة الله الاب للبشر، اذ يقول: انه يطلع شمسه على الاشرار والصالحين ويمطر على الابرار والاثمة! وما على الابناء الا ان يتشبهوا بابيهم السماوي، فيحبوا الناس، كل الناس، كما يحبهم الله ذاته، حتى الاعداء والمضطهدين.. ويوضح يسوع قائلا بان لا اجر في ان نحب من يحبنا وان نسالم من يسالمنا ونخدم من يخدمنا، وان لا شيء غريب في ممارسة هذا التعاطف الطبيعي الذي يشاركنا فيه كل الناس، وحتى الوثنيون والخطأة انفسهم! لكن البطولة الحقيقية تكمن حين نحب ونسالم ونخدم اولئك الذين اساءوا الينا، ولنا القدرة على الانتقام منهم بقدر اساءتهم، بل اكثر!

لكن هناك مظالم لا يمكن ولا يحق للمسيحي ان يسكت عنها: ففي عصرنا هذا، لا يزال ملايين البشر يعانون من الفقر والظلم والاستعباد والاستغلال.. وينشدون المساواة والعدالة ويسعون الى التحرر ويناضلون من اجل الرقي والتقدم... ويتحتم علينا، نحن المسيحيين، ان ننحاز الى جانبهم في هذا النضال، ونلتزم قضاياهم العادلة، ونحذر من ان نبدو وكأننا -بصمتنا او لا ابالينا او انهزاميتنا- نحمِّل المسيح مسؤولية ترسيخ وتكريس هذا الظلم وتلك الاستلابات! فمثل هذه المظالم التي يعاني منها البشر في اماكن عديدة من العالم تتعارض ومخطط الله الذي، اذ خلق الانسان، اراده حرا وسيدا؛ كما انها تتعارض -وباقوى حجة- ورسالة المسيح الخلاصية، وقد جاء يبشر المساكين ويطلق المسرهقين احرارا.. والا لتوجب علينا ان نجمّد ونحرّم كافة الحركات التحررية في العالم! في الوقت الذي تدعم الكنيسة ذاتها مثل هذه الحركات، ولاسيما في امريكا اللاتينية وافريقيا حيث تبدي الكنيسة شجاعة فائقة في الدفاع عن حقوق الانسان.

اما ان تلحق بالمسيحي الاهانة "من اجل اسم المسيح"، وأنْ يخضع للاضطهاد الذي سبق فأنبأنا به المسيح، فذلك لا يعني انه يسكت عن الحق. انما يتقبل هذه الاهانة وهذا الاضطهاد بدافع الشهادة للمسيح: "طوبى لكم اذا عيروكم واضطهدوكم وافتروا عليكم بكل سوء من اجلي.."، ففي هذا الاطار، علينا ان نفهم محبة الاعداء والتسامح مع المذنبين

والمسيئين. غير ان لنا في الانجيل شواهد توحي بان المسيح لا يقبل ان يُهان الانسان جزافاً: فهو نفسه احتج بشدة حين ضربه واحد من الشرط لدى محاكمته امام رئيس الكهنة، اذ رأى في تلك الضربة ظلماً، وبولس الرسول يحتج هو الاخر عندما ضُرب بامر من رئيس الكهنة قائلا: "سيضربك الله ايها الحائط المبيض"! (اعمال الرسل ٢٢: ٣-٥).

فلا يجب ان يساور المسيحي ادنى شك بشأن واجبه في الوقوف الى جانب الفقراء والمظلومين والمستغَلين، كل مرة مُسّت حقوقهم واستُلبت حرياتهم واستُعبدوا لاشكال المظالم، يقينا منه بان سعيه لبناء عالم اكثر عدالة واكثر انسانية هو جزء لا يتجزأ من ايمانه والتزامه برسالة المسيح الخلاصية.

.. فالي قد صنعتموه

"ثُمَّ يَقولُ المَلِكُ لِلَّذينَ عن يَمينِه: تَعالَوا، يا مَن بارَكَهم أَبي، فرِثوا المَلكوتَ المُعَدَّ لَكُم مُنذُ إِنشاءِ العالَم: لأَنّي جُعتُ فأَطعَمتُموني، وعَطِشتُ فسَقَيتُموني، وكُنتُ غَريباً فآوَيتُموني، وعُرياناً فَكسَوتُموني، ومَريضاً فعُدتُموني، وسَجيناً فجِئتُم إِلَيَّ. فيُجيبُه الأَبرار: يا رَبّ، متى رأَيناكَ جائعاً فأَطعَمْناك أَو عَطشانَ فسَقيناك؟ ومتى رأَيناكَ غريباً فآويناك أَو عُرياناً فكَسَوناك؟ ومتى رَأَيناكَ مريضاً أَو سَجيناً فجِئنا إِلَيكَ؟ فيُجيبُهُمُ المَلِك: الحَقَّ أَقولُ لَكم: كُلَّما صَنَعتُم شَيئاً مِن ذلك لِواحِدٍ مِن إِخوتي هؤُلاءِ الصِّغار، فلي قد صَنَعتُموه".

(متى ٢٥: ٣٤-٤٠)

قد يتعسر علينا فهم وقبول منطق المسيح هذا، في عصر لم تعد تعطى الاولوية فيه للقيمة التي يقوم عليها الوجود الانساني برمته، والتي لخصها يسوع بكلمات بسيطة وبليغة معا. واذا كنا نحن المسيحيين قد تجاهلنا هذه القيمة الاساسية ولم نعطها حقها في حياتنا اليومية، فلأنّ حشراً كبيراً من الوصايا والاوامر والنواهي والممارسات ملأ اذهاننا على حساب القيمة الخلاصية الوحيدة التي يوجزها يسوع في هذه العبارة: كل ما صنعتموه الى واحد من اخوتي... فاليّ قد صنعتموه!

ان ما يقود الانسان الى الله ليس اتساع عمله ولا غزارة ثقافته ولا انتماؤه الحضاري ولا انهماكه في العمل ولا التزامه بتغيير البنى ولا الممارسات الدينية التي يحرص عليها بشبه وسواس الخ... فكل هذه العوامل قد تقربه او تبعده عن الله وفقا للمنطلق الذي تتخذه مواقفه من الجائع والعطشان والفقير والمظلوم والمتألم والمريض والسجين والمضطهَد والمحتاج الخ.. وهذا المنطلق يقوم على الحجم الذي يتخذه "الاخرون" في حياة الانسان اليومية. ألم يقل يسوع لعالم الناموس الذي جاء يسأله ما هي اعظم الوصايا: "احبب الرب الهك...

هذه هي الوصية الكبرى والاولى، والثانية تشبهها: احبب قريبك كنفسك، بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والانبياء" (متى ٢٢: ٣٧-٤٠).

واذا كان المسيح قد اشار الى الحاجات الجسدية، من جوع وعطش وعري ومرض، فذلك لا يعني انه تجاهل الحاجات الانسانية المتجددة والمتغيرة ابدا والتي تتخذ في كل جيل صورا واسماء مختلفة. فهي تقوم اليوم في بحث الانسان عن المزيد من الكرامة وعن المزيد من الحرية، حرية الاختيار وحرية الرأي وحرية التعبير وحرية المعتقد.. وهي المطالبة بحق الانسان في عيش كريم وحقه في العمل وفي اجراة عادلة... كما انها المطالبة بالمساواة بين البشر، بغض النظر عن اختلاف الجنس والاصل والقومية والدين والثقافة والوضع الاجتماعي.. وتمتد هذه الحاجات الى توزيع عادل للخيرات بين الشعوب وتقليص التفاوت الاقتصادي بين الدول، والى حق الشعوب في السيادة والاستقلال وتقرير المصير...

وهنا لا بد لنا من القول بان هناك مؤمنين لا يزالون ينظرون بسذاجة الى هذا النص من الانجيل فيتوهمون، بذنب ام بدون ذنب، بان المسيح يدعوهم الى "اعمال الرحمة" من زيارة مرضى وتصدق على الفقراء وتقديم المساعدة العابرة لمحتاج... والانكى هو حين نقوم بهذه الافعال بدافع العطف والشفقة -والذي كثيرا ما يخفي شكلا من اشكال الاستعلاء والرفعة- ونقنع انفسنا باننا قمنا بواجبنا، ويجتاحنا شعور من الطمأنينة وراحة الضمير باننا في سلام مع الله! مثل هذه النظرة الضيقة الى المحبة يشكل استصغارا لتعليم المسيح وتشويها لدعوته التي تقوم في تحسس حاجات البشر العميقة، في قلبنا وفكرنا واعماقنا وكل كياننا، وفي الاستجابة لها بكل ما فينا من طاقات.

المحبة التي يدعونا اليها يسوع تجاه اخوتنا البشر تتخطى الحاجات الآنية وتحملنا على ان نفتح اعيننا على المآسي التي يعيشها الانسان ، في روحه وجسده، وان نتحسس ما فيه من حاجة الى الاحترام والتفهم والحب، والى كل ما من شأنه ان يمنحه الشعور بكرامته ويحقق له مزيدا من التوازن والانشراح.. فان تقييم يسوع لمحبتنا هو بمقدار قدرتنا على الاصغاء الى حاجات اخوتنا البشر وبمقدار استجابتنا لنداءاتهم التي لا حد لها. ولن تكون محبتنا صادقة الا متى اصبحت فينا بمثابة جوع لا يُسد وعطش لا يرتوي، كما انها لن تكون فاعلة الا متى اخرجتنا من عزلتنا ودفعتنا الى التطوع في خدمة اخوتنا البشر ولاسيما اولئك الذين هم اكثر فقرا.

وفي خضم كل ما نعيشه من ازمات وصراعات وحاجات، سيبقى يسوع ينتظر منا ان نمد ايدينا الى الاذرع الممتدة؛ وحذار من ان يتسرب الى ذهننا بان علينا اولا ان نتغلب على معاناياتنا ونسد حاجاتنا كي يتسنى لنا ان نهرع الى الاخرين ونلبي حاجاتهم! مثل هذا المنطلق سيجعلنا اسرى انانيتنا، وسيحول دون المحبة الحقيقية التي هي عطاء دائم، والعطاء اكثر غبطة من الاخذ!

كانون الثاني ١٩٨٠ — جلال فائق

روح الرب عليّ

"وأتى النَّاصِرَةَ حَيثُ نَشَأَ، ودخَلَ المَجْمَعَ يَومَ السَّبتِ على عادَتِه، وقامَ لِيَقرأ. فدُفِعَ إِلَيه سِفْرُ النَّبِيِّ أَشَعْيا، فَفَتَحَ السِّفْرَ فوَجدَ المَكانَ المكتوبَ فيه: رُوحُ الرَّبِّ عَلَيَّ لأَنَّهُ مَسَحَني لأُبَشِّرَ الفُقَراء وأَرسَلَني لأُعلِنَ لِلمَأسورينَ تَخلِيَةَ سَبيلِهِم ولِلعُميانِ عَودَةَ البصَرِ إِلَيهِم وأُفَرِّجَ عنِ المَظلومين وأُعلِنَ سَنَةَ رِضاً عِندَ الرَّبّ. ثُمَّ طَوَى السِّفرَ فَأَعادَه إِلى الخادِمِ وجَلَسَ. وكانَت عُيونُ أَهلِ المَجمَعِ كُلِّهِم شاخِصَةً إِلَيه. فَأَخَذَ يَقولُ لَهم: اليوم تَمَّت هذه الآيةُ بِمَسمَعٍ مِنكُم. وكانوا يَشهَدونَ لَه بِأَجمَعِهِم، ويَعجَبونَ مِن كَلامِ النِّعمَةِ الَّذي يَخرُجُ مِن فَمِه فيَقولون: أَما هذا ابنُ يوسُف؟ فقالَ لَهم: لا شكَّ أَنَّكُم تَقولونَ لي هذا المَثَل: يا طَبيبُ اشفِ نَفسَكَ. فاصنَعْ ههُنا في وَطَنِكَ كُلَّ شَيءٍ سَمِعْنا أَنَّه جَرى في كَفَرناحوم".

(لوقا ٤: ١٦-٢٣)

امامنا في هذا النص من انجيل لوقا حادثة، اهم ما فيها بعض فقرات من اشعيا النبي تشير الى جوهر معنى "المسيح"، وتؤكد ان يسوع الناصري هو حقا المسيح المرسل من قبل الله.

فالمسيح هو من كانت "روح الرب عليه"، اي من كان يحمل روح السماء وفكرها وارادتها الحقيقية. وهذا يعني ايضا، في الاطار الانجيلي، ان المسيح انسان حر لم يتمكن ان يبقى داخل الشرعية الدينية اليهودية التي كانت قد احتكرت معرفة ارادة الله وطريق البر بشكل مجحف: "فالروح يهب حيث يشاء"! وقد تمكن يسوع الملهَم، حامل روح الله، ان يتخلص من جمود النصوص وتحجّر الشريعة، ومن تبلّد رجال الدين المزمن من الكتبة والفريسيين والشيوخ ومفسري الشريعة.

والصفة الثانية التي تميز المسيح هي كونه مكرسا لرسالة السماء، يسعى الى تكميلها، مهما كلفه ذلك من مشقة وعناء.

اما الصفة الثالثة للمسيحانية، فتتعلق بمضمون الرسالة نفسه. فرسالة المسيح هي بشرى سارة بالخلاص لجيل الفقراء والمعدَمين، للمأسورين والعميان والمظلومين، اي لجميع الكادحين والمستلَبين بحسب مصطلحات عصرنا.

فرسالة يسوع، اذن، كانت دعوة لانقلاب في الحياة نحو مستقبل افضل؛ ورغم تجسد هذه الرسالة في واقع معين، الا ان شموليتها وجذريتها الناتجتين عن اسسها العميقة جعلت منها رسالة لكل الناس ولكل الازمان، اي انها كانت رسالة تحررية تدفع المؤمن بها الى حياة افضل ومستقبل اكثر انسانية. وبهذا المعنى تكون رسالة يسوع ثورة دائمة وعقيدة وقضية، تمكنت من استقطاب ايمان البشر قبل ان تنشأ العقائد الاخرى وتتكون، وجمعت الناس حولها في كنيسة واحدة، في قلب واحد وروح واحدة، بعد ان تبنى الرسل بشرى الخلاص التي سمعوها من معلمهم الكبير وانتشروا في العالم ليعلنوها لجميع الناس، بقناعة اوصلتهم الى الاستشهاد.

لقد اعتبرت الكنيسة الاولى رسالة يسوع امانة في عنقها، ولذا اعطت الاولوية للانسان من خلال التركيز على الايمان بيسوع وبأحقيته، هو الذي كشف وجه الله الجديد ووجه الانسان الجديد، ووضع بذلك الاساس الراسخ للاخوة البشرية المنشودة.

ولكي تكون كنيسة اليوم وريثة كنيسة يسوع الاولى والمكملة لها، فانها مطالَبة هي الاخرى بحفظ الامانة، باعطاء الاولوية للانسان على غرار الكنيسة الاولى التي كانت قريبة جدا من روح سيدها وانجيله. وقد تختلف الطرق المؤدية الى حفظ الامانة، ولكن الروح يجب ان تكون واحدة؛ وعلى كل حال، فان الخطوة الاولى تتحقق عندما لا ترضى الكنيسة بان تبقى مجرد حافظة لمومياء من العقائد الشكلية والمفاهيم القديمة، بل تقدم الحياة الانجيلية الاصيلة على الصيغ الكلامية والقوالب التي يرفضها الانجيل اصلا.

ولكي تكون الكنيسة قريبة من رسالتها، عليها ان تتبنى روح الرسالة الانجيلية، كما جاءت في النص الذي نحن بصدده، اي ان تكون كنيسة الفقراء والمساكين والمستلَبين والضعفاء، سواء كانوا افرادا ام شعوبا، وتتبنى آمال الناس وتطلعاتهم المشروعة، وتعلن موقفها بكل جرأة وصراحة من المعتدين والظالمين وتسميهم باسمائهم، بلا تردد او مساومة او دبلوماسية.

وبما ان فكر الانسان وممارسته هما معيار صدقه، فان الكنيسة مدعوة باستمرار الى اعادة النظر في فكرها وممارساتها، اي في الجانب اللاهوتي والعملي من حياتها، اذا كانت جادة في محبتها للانسان. فاللاهوت فكر انساني لا بد ان يرتبط بحضارة معينة... فليس غريبا، اذن، ان يصبح لاهوت حضارة ما عائقا في سبيل تقدم انسان حضارة اخرى. وفي رأيي ان الصراع الذي يدور اليوم في الكنيسة ليس صراعا لاهوتيا نظريا، بل هو صراع حضاري من خلال اللاهوت: فحين تلقي الكنيسة بثقلها الى جانب اللاهوت التقليدي، فهي انما تقف ضد الانسان الجديد، شاءت ام ابت. لذلك كان لزاما على ابناء الكنيسة جميعا ان يعوا هذه الحقيقة ويحددوا موقفهم من اي فكر لاهوتي بحسب المقياس الانجيلي الواضح والصالح لكل الحضارات، الا وهو التقدم الانساني الشامل والمستمر.

كانون الثاني-شباط ١٩٨٠ — الأب لوسيان جميل

لقاء مع المسيح

"ودَخَلَ أَريحا وأَخَذَ يَجتازُها. فإِذا رَجُلٌ يُدْعى زَكّا وهو رئيسٌ للعَشّارينَ غَنِيٌّ قد جاءَ يُحاوِلُ أَن يَرى مَن هُوَ يسوع، فلَم يَستَطِعْ لِكَثرَةِ الزِّحام، لأَنَّه كانَ قَصيرَ القامة، فتقدَّمَ مُسرِعاً وصَعِدَ جُمَّيزَةً لِيَراه، لأَنَّه أَوشكَ أَن يَمُرَّ بِها. فلَمّا وصَلَ يسوعُ إِلى ذلكَ المَكان، رَفَعَ طَرْفَه وقالَ له: يا زَكّا انزِلْ على عَجَل، فيَجِبُ عَلَيَّ أَن أُقيمَ اليَومَ في بَيتِك. فنَزَلَ على عَجَل وأَضافَه مَسروراً. فلمّا رَأَوا ذلك قالوا كُلُّهم متذَمِّرين: دَخَلَ مَنزِلَ رَجُلٍ خاطِئٍ لِيَبيتَ عِندَه! فوَقَفَ زَكّا فقال لِلرَّبّ: يا ربّ، ها إِنّي أُعْطي الفُقَراءَ نِصفَ أَموالي، وإِذا كُنتُ ظَلَمتُ أَحداً شَيئاً، أَرُدُّه عليهِ أَربَعَةَ أَضعاف. فقالَ يسوعُ فيه: اليَومَ حصَلَ الخَلاصُ لِهذا البَيت، فهوَ أَيضاً ابنُ إِبراهيم".

(لوقا ١٩: ١-٩)

غالباً ما نقنع انفسنا بضيق الوقت والانشغالات التي تبتلع كل وعينا، فتظهر متطلبات الحياة وكأنها عائق حقيقي لا مناص منه يمنعنا من توسيع دائرة افكارنا وعلاقاتنا واهتماماتنا، فنعمد الى تحديدها وتوجيهها وتقنينها.. فنخلق بذلك، من حولنا ومن علاقاتنا المحدودة، محيطاً يلائم مزاعمنا في الانشغال والانهماك، نتحرك في زواياه كما في قنينة جوفاء.

قد لا ندرك الخطورة في مسألة نمائنا الانساني المتكامل، عازفين عن اوجه شتى، اجتماعية وثقافية وروحية، تصبح الذات الانسانية من دونها فقيرة وسطحية بل مشوهة؛ فنشعر وسط زحام الجموع وضجيج السيارات بفراغ كبير وعزلة مريعة.. ونتحول إلى آلة مقيتة تجعل منّا شيئا.. فتختفي البسمة ليحل محلها الاستغراق والهم...

ان نفكر بحاجاتنا اليومية ونسعى لها فذلك امر مشروع؛ ولكن ان تكون تلك الحاجات حائلا في طريق نمائنا الانساني والروحي.. فتلك مصيبة! ان ذلك لا يرهق صحتنا

وتفكيرنا فحسب، وانما يشوه تعاملنا مع المجتمع ومع اسرنا واطفالنا انفسهم، بل مع انسانيتنا ذاتها. انا لا انكر ان الانهماك مشكلة حقيقية في واقعنا، ولكني مع ذلك لا اقر الالية في حياتنا.. وللخروج من الدوامة، لا بد من بذل جهد اعظم وتضحية اكبر.

اننا نقرأ في النص عن زكا الغني، الذي لا بد ان كانت له مَشاغله وهمومه العائلية والمهنية، كيف عزم على بذل جهد استثنائي ليرى المسيح، فترك اعماله جانبا، وجابه مصاعب عدة -وليس اقلها انه تجاوز أقاويل الناس وانتقاداتهم وحتى شكوكهم من اخلاص مبادرته. وعندما قدم ليرى المسيح، جابهته هذه المرة مصاعب من نوع اخر كادت تفقده كل امل في رؤيته: زحام الجموع وقصر قامته... ولكن عزمه كان اقوى من ان ينثني. فخلع عنه ثوب الحياء البشري، هو الموظف المحترم، بل هو "المدير العام" للعشارين، وصعد الى الشجرة ليرى المسيح.. لا شك انه كان قد سمع عن المسيح، كما نسمع نحن ايضا عنه، فشغله الامر وجتذبه نور الحق، فعزم، وباصرار، ان يرى السيد ولو عن بعد.

رأى يسوع زكا فوق الشجرة.. مثل هذه الحركة الغريبة من قبل عشار، من اغنياء القوم، لا تمر من دون ان تلاحَظ.. وادرك يسوع، بحدسه النبوي، شوق زكا الى الاستنارة، فعظّم موقفه الجريء، وطلب اليه النزول في بيته، فلم يصدق زكا نفسه.. لقد كاد يفقد امله برؤية يسوع، فكيف به يصدق ان يسوع سيكون ضيفه؟... وهو -اي زكا- الانسان الخاطيء في نظر مجتمعه؟! هنا اشرق النور وتجلى الحق امام زكا... زكا العشار... جابي الضرائب... المتهم دائما بالاختلاس، صدقاً ام بهتاناً. فصاح فرحا متبرعا بنصف امواله للفقراء... لا بل اعلن بانه يرد اربعة اضعاف لكل شخص لحق به غبن بسببه!

يصعب علينا ان نفهم سر تلك الفرحة الجامحة التي جعلت زكا يعلن "وبفرح" تنازله عن قسم كبير من امواله، وذلك امر يستحق التأمل لدى رجل عشار! اليس العشارون خطأة "يسبقونكم" الى ملكوت الله، يقول يسوع للناس "الشرفاء"! لقد ادرك المسيح موقف زكا الانساني الذي تجاوز فيه خصوصيات ذاته ليصبح انسانا جديدا يغمرة الفرح العارم.. فلم يبال المسيح بتذمر الجموع حوله لحلوله في بيت انسان "خاطيء".. لقد اعاد المسيح الى اذهانهم انه انما جاء ليخلص ما قد هلك.

اذا ذللنا بعض صعوبات لقائنا بالمسيح، فلربما اصابنا شيء من فرحة زكا وتفاؤله.. واذا عرفنا كيف نترك "مشاغل اليوم" ولو لبعض الوقت، لأتحنا لاولادنا مقاسمة زكا فرحته بالمسيح، وذلك عند لقائنا به حول نص من الانجيل مساء يوم الاحد، مثلا.. ان متطلبات الحياة الكريمة وحاجاتها لا تمنعنا من اللقاء بالمسيح عبر الانجيل، وهل، يا ترى اهتماماتنا المهنية والتزاماتنا الاخرى تعيقنا عن فتح الانجيل واستلهامه لحياتنا وترسيخ مسيحيتنا! المعضلة تكمن في الخطوة الاولى، فاذا نحن عزمنا وجعلنا من مثل هذه المبادرة فقرة في برامج اهتماماتنا -"بالاسبوع مرة" على الاقل- لنجحنا. لنجرب، فالتجربة احسن برهان!

آذار ١٩٨٠ — سالم أسعد الخياط

لا تخف! انك صياد للناس

"وازْدَحَمَ الجَمعُ عليهِ لِسَماعِ كَلِمَةِ اللهِ، وهُوَ قائمٌ على شاطِئِ بُحَيْرَةِ جِنَّاسَرَت. فَرَأَى سَفِينَتَينِ راسِيَتَينِ عِندَ الشَّاطِئ، وقد نَزَلَ مِنهُما الصَّيَّادونَ يَغسِلونَ الشِّباك. فَرَكِبَ إِحْدى السَّفِينَتَينِ وكانَت لِسِمعان، فسأَلَه أَن يُبعِدَ قَليلاً عنِ البَرّ. ثُمَّ جَلَسَ يُعَلِّمُ الجُموعَ مِنَ السَّفِينَة. ولمَّا فَرَغَ مِن كَلامِه، قالَ لِسِمعان: سِرْ في العُرْض، وأَرسِلوا شِباكَكُم لِلصَّيد. فأَجابَ سِمعان: يا مُعَلِّم، تَعِبْنا طَوالَ اللَّيلِ ولَم نُصِبْ شَيئاً، ولكِنِّي بِناءً على قَولِكَ أُرسِلُ الشِّباك. وفعَلوا فأَصابوا مِنَ السَّمَكِ شَيئاً كثيراً جداً، وكادَت شِباكُهُم تَتَمَزَّق. فأَشاروا إِلى شُرَكائِهم في السَّفِينَةِ الأُخرى أَن يَأتوا ويُعاوِنوهم. فأَتَوا، ومَلأُوا كِلْتا السَّفِينَتَينِ حتَّى كادَتا تَغرَقان. فلَمَّا رأَى سِمعانُ بُطرُسُ ذَلِكَ، ارتَمى عِندَ رُكبَتَي يَسوعَ وقال: يا ربّ، تَباعَدْ عَنِّي، إِنِّي رَجُلٌ خاطِئ. وكانَ الرُّعْبُ قد استَولى عَلَيهِ وعلى أَصحابِهِ كُلِّهم، لِكَثْرَةِ السَّمَكِ الَّذي صادوه. ومِثْلُهُم يَعقوبُ ويوحنَّا ابنا زَبدَى، وكانا شَريكَي سِمْعان. فقالَ يسوعُ لِسِمْعان: لا تَخَفْ! سَتَكونُ بَعدَ اليَومِ لِلبَشَرِ صَيَّاداً. فرَجَعوا بالسَّفِينَتَينِ إِلى البَرّ، وتَركوا كُلَّ شَيءٍ وتَبِعوه".

(لوقا ٥: ١-١١)

كل دعوة هي لقاء شخصي، وفي هذا النص من انجيل لوقا، نجدنا ازاء لقاء عميق بين بطرس والمسيح. فبطرس لم يتأثر بتعليم يسوع بقدر تأثره ازاء كثرة السمك الذي اصطاده. غير ان بطرس فهم ان هذا الرجل "يسوع" لا يتحدث عن المثاليات وحسب، انما يقدّر التعب الانساني حق قدره وينتبه الى حياة الناس البسطاء؛ كما فهم بان كلمته ليست فقط تعليما يلقيه، انما هي احتضان للحياة البشرية كلها.. لذا نراه يترك كل شيء ويتبع المسيح.

المسيح يلتقي ببطرس حيث هو: في مهنة الصيد! ويتحدث اليه بلغة يفهمها: "انك صياد للناس"! لقد ادرك بطرس المعنى العميق الذي ينطوي على هذا النداء: انها دعوة الى البحث المتواصل عن الناس وحملهم على الدخول في شبكة المسيح، وهذه "المهنة" الجديدة حياتية مثل الاولى، اذ تتعلق بها كرامة الانسان ودعوته الى الارتقاء. في هذا اللقاء يهرع بطرس في اثر المسيح بدون ان يسأل عن حقوقه وواجباته ومستقبله... ويذهب للحال "لاصطياد" رسل اخرين! ذلك لان الدعوة مثل الحب: السر فيها هو انها ليست بحاجة الى براهين، انما تكتفي بالاستجابة الى النداء: "انت اتبعني".

في تلك اللحظة طرأ على حياة بطرس تبديل جوهري كبير: تكونت بينه وبين يسوع علاقة صداقة متينة لن يقطع اواصرها اي خلاف ولا حتى نكرانه للمسيح. وهذا التبدل طغى ايضا على علاقة بطرس بالناس، حين نجده يتبنى ارادة المسيح وعطشه الى جمع العالم كله في شبكة واحدة؛ وسيموت، على مثال سيده، مصلوبا وهو يغفر لصالبيه.

تلك هي دعوة بطرس، وهي في الوقت ذاته دعوة الكنيسة التي عليها ان تتعلق بالمسيح تعلق البنيان بالصخرة، وتصب اهتمامها على الناس على مثال معلمها. ولقد فهمت الكنيسة ان المسيح يريدها تكون "خبيرة بالانسانية" -على حد تعبير البابا الراحل بولس السادس- اي خبيرة بالقضايا التي تهم البشرية، كما يريدها ان تنطلق الى الناس، حيث هم وحيث ينتظرونها، لتعطي لتساؤلاتهم وحاجاتهم وامانيهم وتطلعاتهم ابعادا حقيقية، بدون ان تغرق فيها. عليها ان تفهم كل التغييرات التي تحدث هنا وهناك وتتكيف معها، ولكن عليها ايضا ان تؤمن، بالرغم من هذه التغييرات، بان هناك امورا كثيرة لا تتبدل وان هناك قيما ثابتة لكل العصور، لان مؤسسها هو هو، امس واليوم والى الابد!

ان مهنة "اصطياد البشر" تتطلب من الكنيسة تضحية وسهرا ويقظة لمقاومة كل التجارب الحتمية والقدرية، لان المسيح وعدها بالروح القدس الذي يعطيها النور لتتكلم الناس بلغة يفهمونها على مر الاجيال. انها تذهب نحو كل الناس وتقبل واقعهم، لكنها لا تقبل به الا ليقينها ان بوسع هذا الواقع ان يتبدل نحو الاحسن، وذلك انطلاقا من ثقتها بالانسان وبقدرته على السير نحو الافضل.

لقد اتخذت الكنيسة عبر الاجيال صيغا مختلفة في اداء رسالتها، وتكيفت مع الحاجات الراهنة في كل زمان ومكان: ففتحت هنا مدارس ومستشفيات، واهتمت هناك بالجامعات، وفي مكان اخر وجهت اهتمامها الى الفقراء والبؤساء الخ.. وكان عليها، وهي تؤدي هذه المهام، ان تحذر التعلق بها او التقولب فيها. واليوم، وقد اخذت معظم الدول تهتم بحياة مواطنيها الثقافية والمعاشية والصحية، يتحتم على الكنيسة ان تصب اهتمامها على

الانسان لتلبية حاجات اخرى فيه اكثر عمقا، وتسعى الى خلق جو يساعد الانسان على البحث، بنفسه، عن اجوبه ملائمة لتساؤلاته، في ما يتعلق بوجوده ومصيره ومسؤولياته..

ان دور الكنيسة المعاصر متشعب جدا ويتطلب رجالا مرتبطين كليا بالمسيح، مثل بطرس، وعارفين جيدا بالانسان وملتزمين قضاياه. ولا يخفى ان "الصيد" في هذه المجالات كثير، غير ان الصيادين قليلون، وهؤلاء يشعرون ان خبراتهم تفتقر دوما الى التطوير والتجديد!

فحبذا لو سمع هذا النداء كل من يرغب في اكتشاف الله واكتشاف الانسان والجمع بينهما في حياته ومن ثم في حياة الاخرين. في هذا النداء حاجة ملحة في عصرنا!

القديم والجديد

"فقالوا لَه: إنَّ تَلاميذَ يوحنَّا يُكثِرونَ مِنَ الصَّومِ ويُقيمونَ الصَّلوات، ومِثلُهُم تَلاميذُ الفِرِّيسيِّين، أمَّا تَلاميذُكَ فيأكُلونَ ويَشرَبون! فقالَ لَهم: أيُوسعِكُم أن تُصوِّموا أهلَ العُرسِ والعَريسُ بَينَهم؟ ولكِن سَتَأتي أيَّامٌ فيها يُرفَعُ العَريسُ مِن بَينِهم، فعِندَئذٍ يصومونَ في تِلكَ الأيَّام. وضَرَبَ لَهم مَثَلاً قال: ما مِن أحَدٍ يَشُقُّ قِطعَةً مِن ثَوبٍ جَديد، فيَجعَلُها في ثَوبٍ عَتيق، لِئَلاَّ يُشَقَّ الجَديد وتَكونَ القِطعَةُ الَّتي أُخِذَت مِنَ الجديدِ لا تُلائِمُ العَتيق. وما مِن أحَدٍ يَجعَلُ الخَمرَةَ الجَديدةَ في زِقاقٍ عَتيقة، لِئَلاَّ تَشُقَّ الخَمرَةُ الجَديدةُ الزِّقاقَ فتُراقَ هي، وتَتلَفَ الزِّقاق. بل يَجِبُ أن تُجعَلَ الخَمرَةُ الجَديدةُ في زِقاقٍ جَديدة".
(لوقا ٥: ٣٣-٣٨)

ان الفكرة الرئيسية لهذا النص هي: "الجديد" المتمثل بالقيم والمبادئ التي يدعو اليها المسيح والتي تقود الى تغيير ايجابي في المجتمع الانساني، لا ينسجم مع "القديم" بالشكل القائم، وخاصة مع الممارسات والعادات التي كان اليهود بشكل عام، والفريسيون بشكل خاص، قد اعتبروها من صلب الايمان، بالرغم من كونها لا تتعدى المظاهر. ولكي يتوضح اكثر هذا اللاانسجام بين الدعوة الجديدة، وبين المفاهيم والقيم المتعارف عليها بين الاوساط اليهودية، علينا ان نضع النص الذي نحن بصدده داخل الصورة الكاملة والتي هي كل الانجيل. فالنص هو جزء من الانجيل قد يشرح فكرة محددة، الا ان هذه الفكرة لا تأخذ كل ابعادها الا اذا وُضعت داخل كل البشارة التي نادى بها المسيح. فبشرى المسيح بجوهرها تدعو الى علاقات جديدة بين الله والانسان هي علاقات الابوة والبنوة، وهذه العلاقات تكشف عن القيمة الحقيقية للانسان في نظر الله.

الجديد يستند على ركيزتين:

ان النواة التي تستقطب التعليم الجديد هي: ان الله هو اب لجميع الناس وهو يتعامل مع كل ابنائه بمحبة وحنان، بحسب امكانيات كل منهم وبحسب خصوصياته ايضا. وعلى

هذا الاساس، فان يسوع الذي كان يتعامل مع كل الشرائح الانسانية في المجتمع والـذي صادق حتى الخطأة منهم، كان يعكس ارادة الاب الذي ارسله ورغبته في تـوفير الفـرص للجميع لاكتشاف العنصر الخيِّر في نفوسهم، وهذه هي الركيزة الاولى والاساسـية. امـا الركيزة الثانية للتعليم الجديد والتي هي نتيجة حتمية للاولى فهي: ان البشر هم اخوة في ما بينهم، لانهم جميعا ابناء الله، والنتائج التي تترتب على هذه الدعوة والابعاد التي تتصل بها هي ابعاد ونتائج تتصف بالشمولية: شمولية بالنسبة الى نشاطات الحياة، وشموليـة بالنسـبة الى الافراد، اذ يجب ان تمتد الى كل انسان.

التمايز الحقيقي:

فالفرق بين القديم والجديد، اذن، هو شاسع. وهذا الفرق هو كالفرق بين الصادق والمزيف، بين الصواب والخطأ، وبين الحقيقة التي قد لا تراها الا النخبـة، وبـين الصـيغ والممارسات الشكلية التي تتشبث بها القوى المستفيدة من بقاء الدين بمفهومه المشوه والمزيف –وقد اصبح هذا المفهوم "باليا" و"قديما" لانه لم يعد قادرا على قيادة الانسان نحو الافضل، فهو، اذن، مرفوض كالثوب البالي. اما الجديد الذي يدعو اليه المسيح، فهو قادر ان يضـع الانسان على طريق التقدم المستمر وعلى طريق التفتيش الدائم عما هو افضل. ففكرة "بنوة" الانسان لله تستطيع ان تعطي فعالية وحيوية مستمرتين وقادرتين على بناء الانسـان بنـاء ايجابيا.

الصوم؟

انه اذا كان ولا بد من كلمة عن الصوم، فان الانقطاع عن الاكل كليا لمدة مـا، او الامتناع عن بعض الانواع من المأكولات، يمكنه ان يكتسب قيمة ايجابية اذا اسـتطاع ان يكون وسيلة من وسائل التعبير عن القيم والمفاهيم التي نادى بها المسيح. فالصوم يمكـن ان يكون تعبيرا عمليا لمفهوم الاخوة الانسانية وفعلا تضامنيا مع كل الذين ليس بامكـانهم الحصول على الغذاء الكافي من اجل الحياة. فالصوم بهذا المعنى يكون عملا اعلانيا رافضـا للفروقات المفروضة بين طبقة واخرى من الناس.

كما انه، وتكاملا مع المعنى السابق، يتمكن الصوم ان يكون تطبيقا عمليا لقـول المسيح: "ليس بالخبز وحده يحيا الانسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله". فالفرح الحقيقي والصادق لا يأتي فقط من امكانية الحصول على اي نوع من انواع الاكل، وفي اي وقـت نشتهيه، بل واحيانا كثيرة يختبر الانسان فرحا عميقا وصميميا عندما يفتش عن الحق ويدافع عنه. عندما يضحّي لاجل صديق او حبيب، عندما يشترك مع جماعة في ممارسة جماعية تخدم المجتمع، عندما يتعلق بكرامته وكرامة اخيه الانسان ويدافع عنها: "فالكرامة خبز دائم" حقا، عندما يشعر بصدق انه ضمن دائرة من العلاقات الانسانية الخالصة.

أيار ١٩٨٠ — الأب مانويل يوسف

خرج الزارع ليزرع...

"خَرَجَ الزَّارِعُ لِيَزرَعَ زَرْعَه. وبَينَما هوَ يَزرَع، وقَعَ بَعضُ الحَبِّ على جانِبِ الطَّريق، فداسَتهُ الأَقدام، وأَكَلَته طُيورُ السَّماء. ومِنه ما وقعَ على الصَّخْر، فَما إِن نَبتَ حتَّى يَبس، لأَنَّه لَم يَجِدْ رُطوبَة. ومِنهُ ما وقعَ بَينَ الشَّوْك، فَنَبتَ الشَّوكُ معَه فخَنَقَه. ومِنه ما وقَعَ على الأَرضِ الطَّيِّبَة، فَنبتَ وأَثمَرَ مِائةَ ضِعْف. قالَ هذا وصاح: مَن كانَ لَه أُذُنانِ تَسْمَعان فَلْيَسْمَعْ!

فَسأَله تَلاميذُه ما مَغْزى هذا المَثَل. فقالَ: أَنتُم أُعطيتُم أَن تَعرِفوا أَسرارَ مَلكوتِ الله. وَأَمَّا سائرُ النَّاسِ فيُكَلَّمونَ بِالأَمثال: لِكَي يَنظُروا فَلا يُبصِروا ويَسمَعوا فَلا يَفهموا.

وإِلَيكُم مَغزى المَثَل: الزَّرعُ هو كَلِمةُ الله. والَّذينَ على جانِبِ الطَّريق هُمُ الَّذينَ يَسمَعون، ثُمَّ يَأتي إِبليس فيَنتَزِعُ الكَلِمَةَ مِن قُلوبِهِم، لِئَلاَّ يُؤمِنوا فيَخلُصوا. والَّذينَ على الصَّخرِ هُمُ الَّذينَ إِذا سَمِعوا الكَلِمة تَقبَّلوها فَرِحين، ولكِن لا أَصلَ لَهم، فإِنَّما يؤمِنونَ إِلى حين، وعِندَ التَّجرِبَةِ يَرتَدُّون. والَّذي وَقَعَ في الشَّوكِ يُمَثِّلُ أُولئِكَ الَّذينَ يَسمَعون، فيَكونُ لَهم مِنَ الهُمومِ والغِنى ومَلَذَّاتِ الحَياةِ الدُّنيا ما يَخنُقُهم في الطَّريق، فَلا يُدرِكُ لَهم ثَمَر. وأَمَّا الَّذي في الأَرضِ الطَّيِّبة فَيُمَثِّلُ الَّذينَ يَسمَعونَ الكَلِمَةَ بِقلبٍ طَيِّبٍ كَريم ويَحفَظونَها، فَيُثمِرونَ بِثَباتِهم".

(لوقا ٨: ٥-١٥)

لا شك ان قيام ملكوت الله في النفس لَعطية من الله، الا ان هذه النعمة تتطلب استعدادا شخصيا وشروطا لا بد منها لكي تبلغ الى غايتها وتفعل فعلها في النفس البشرية. وفاعليتها هذه تقاس بقدر ما تتحقق هذه الشروط ويكتمل ذلك الاستعداد.

لقد شرح لنا السيد المسيح هذا المثل بقوله: ان الزرع هو كلمة الله.. انها الفكرة التي يلهمها الروح القدس للقلب المؤمن.. انها النصيحة التي نسمعها من صديق او مرشد اكثر منا خبرة، او نقرأها في كتاب.. هو اشعاع العمل الصالح والقيم السامية والمثل العليا التي رأيناها متجسدة في حياة اخوتنا وسلوكيتهم.. بمثابة مظهر من مظاهر رحمته الى الانسان الغافل عن نفسه وعن ربه.

ولكن كم تُصمّ آذاننا وتتحجر قلوبنا ازاء هذا الصوت؛ واذا اصغينا اليه، فبكم من التحفظ نتحصن قبل اتباعه! او قد نندفع اليه في حماس سطحي سرعان ما يقضي عليه الضعف البشري او تخنقه اشواك الانانية والكبرياء وشتى الميول الفاسدة فينا. ولكن هات التربة الجيدة، اعني استعدادا صالحا وارادة، فيها الاخلاص للنور وفيها العزم للسير على هديه، وخذ ثمارا واي ثمار! ثمار كلمة الله التي هي حياة ملأها الله بوجوده، ثمار تُشع في محيطها النور والسمو والسلام. فالله حين يزرع الكلمة في التربة الملائمة، يهيء لها الشمس الدافئة والغذاء اللازم بصورة طبيعية وتصبح غذاء لصاحبها وللاخرين. اعني انه تعالى يرعى بذرة النعمة التي فينا ان نحن تجاوبنا مع ارادته، فيصبح ملكوت الله الذي في داخلنا -اي حياة الصداقة الالهية والانفتاح الروحي الذي نحياه- مشروعا مشتركا، يساهم الله ونحن في ارسائه في نفوسنا وفي المحيط الذي نعيش فيه. وهكذا يترسخ التزامنا الانجيلي وقناعاتنا الذاتية في بناء مجتمعات اكثر انسانية وعدلا وحبا، بالتضافر مع من يلتزمون مثل هذا المشروع: لان كلمة الله اليهم جميعا القيت.

مثل هذه المعرفة الواضحة والامينة ترتكز على النقاط التالية:

- ان سماع هذه الكلمة والانتباه اليها يعتبر من اقدس الواجبات، فلا يمكن الحفاظ على الايمان من دونها، كما يقول الرسول بولس: "ان الايمان من السماع، والسماع بكلمة الله".
- ان هذه الكلمة قد تُلقى على مسامع الناس في الكنائس او في اوقات الارشادات او عن طرق اخرى كما اسلفنا، فهل نُحسن سماعها والتفاعل معها، ام ننفر منها ونصم آذاننا عن الحاحها، لانها تؤنبنا في توانينا، او تلزمنا بتغيير مواقف لا نريد تغييرها وتعديل قناعات نرفض اخضاعها لاعادات النظر.. وقد تصفعنا كلمة الله في مواقفنا الاجتماعية والدينية والسياسية، لانها كلمة العدالة والمحبة وتحرر النفس من الخطيئة.
- ان هذه الكلمة قد تسقط مثل الزرع على حافة الطريق فيدوسها الناس او تأكلها الطيور، اي ان الكثيرين ممن لا يعتبرونها كلمة الله، او يسمعونها مكرهين لا تثبت فيهم. وقد تسقط على صخرة، اي انها لا تتأصل في قلوبهم.

● وهناك من يعزمون على عمل الخير وتجنب الشر بعد سماعهم كلمة الله، غير انهم لا يحتاطون لانفسهم من مخالطة الاشرار فاسدي الاخلاق، او التعامل مع متذبذبي الرأي والقيم، فيتركون التزاماتهم جانبا ويعودون الى السطحية والهموم والاهواء واللاابالية فتيبس الكلمة في قلوبهم وتختنق.

فكما ان السيد المسيح يمتدح الزرع الذي سقط في الارض الجيدة واعطى ثلاثين وستين ومئة، كذلك ابناء المسيحية السامعين كلمته، وكل انسان ذي ارادة صالحة، تثمر فيهم كلمة الحق والعدالة والمحبة، إن هم فتحوا لها قلبا سخيا يعرف كيف ينصت وكيف يحب وينشر الفرح والسعادة.. في حياته الشخصية وفي علاقاته والتزاماته.

امرأة خاطئة في المدينة

ودَعاهُ أَحَدُ الفرِّيسيِّينَ إلى الطَّعامِ عِندَه، فدَخَلَ بَيتَ الفرِّيسيِّ وجَلَس إلى المائدَة. وإذا بامرأَةٍ خاطِئَةٍ كانت في المَدينة، عَلِمَت أَنَّه على المائدَةِ في بيتِ الفرِّيسيِّ، فجاءَت ومعَها قارورةُ طِيبٍ، ووَقَفَت مِنْ خَلْفُ عِندَ رِجْلَيه وهيَ تَبْكي، وجَعَلَت تَبُلُّ قَدَمَيه بالدُّموع، وتَمسَحُهُما بشَعْرِ رَأسِها، وتُقَبِّلُ قَدَمَيه وتَدهنُهما بالطِّيب. فلَمَّا رأَى الفرِّيسيُّ الَّذي دَعاهُ هذا الأَمر، قالَ في نَفْسِه: لو كانَ هذا الرَّجُلُ نَبِيّاً، لَعَلِمَ مَن هِيَ المَرأَةُ الَّتي تَلمِسُه وما حالُها: إِنَّها خاطِئَة. فأَجابَه يسوع: يا سِمعان، عندي ما أَقولُه لَكَ فقالَ: قُلْ يا مُعلِّم. قال: كانَ لِمُدايِنٍ مَدينان، على أَحدِهما خَمسُمِائةِ دينارٍ وعلى الآخَرِ خَمسون. ولَم يَكُنْ بِإمكانِهما أَن يُوفِيا دَينَهُما فأَعفاهُما جَميعاً. فأَيُّهما يَكونُ أَكثَرَ حُبّاً لَه؟ فأَجابَه سِمعان: أَظُنُّه ذاك الَّذي أَعفاهُ مِنَ الأَكثَرِ. فقالَ له: بالصَّوابِ حَكَمتَ. ثُمَّ التَفَتَ إلى المَرأَةِ وقالَ لِسِمعان: أَتَرى هذهِ المَرأَة؟ إِنِّي دَخَلتُ بَيتَكَ فما سَكَبتَ على قَدَمَيَّ ماءً. وأَمَّا هِيَ فبالدُّموعِ بَلَّت قَدَمَيَّ وبِشَعرِها مَسَحَتهُما. أَنتَ ما قَبَّلتَني قُبلَةً، وأَمَّا هي فلَم تَكُفَّ مُذ دَخَلَت عَن تَقبيلِ قَدَمَيَّ. أَنتَ ما دَهَنتَ رأسي بزَيتٍ مُعَطَّر، أَمَّا هِيَ فبالطِّيبِ دَهَنَتْ قَدَمَيَّ. فإِذا قُلتُ لَكَ إِنَّ خَطاياها الكَثيرَةَ غُفِرَت لَها، فلأَنَّها أَظهَرَت حُبّاً كثيراً. وأَمَّا الَّذي يُغفَرُ له القَليل، فإِنَّه يُظهِرُ حُبّاً قَليلاً، ثُمَّ قالَ لَها: غُفِرَت لَكِ خَطاياكِ. فأَخَذَ جُلَساؤُه على الطَّعامِ يَقولونَ في أَنفُسِهم: مَن هذا حَتَّى يَغفِرَ الخَطايا؟ فقالَ لِلمَرأَة: إِيمانُكِ خَلَّصَكِ فاذهَبي بسَلام.

(لوقا ٧: ٣٦-٥٠)

دخل يسوع الى بيت فريسي اسمه سمعان كان قد دعاه ليأكل عنده. لم يرفض يسوع الدعوة، رغم انه قد قرّع الفريسيين الذين عرف عنهم انهم مراؤون ومترفعون عن الشعب، بما يبدونه من تقوى مزيفة وتمسك اعمى بحرف الشريعة على حساب روحها، حتى اصبحت الفريسية صفة لكل انسان لا يتفق قوله او فعله مع باطنه.

وبينما كان يسوع متكئا جاءت امرأة خاطئة معروفة في المدينة ووقفت من ورائه. وكانت قد جاءت الى يسوع، لا كما كانت تذهب الى الرجال الاخرين. فلم يستهوها من يسوع لا طول قامته ولا نظرة عينيه ولا اي شيء مما اعتادت ان تراه لدى سائر الرجال، انما جاءته لانها رأت فيه من يحررها من الحالة التعسة التي تعيش فيها. لقد ضلّت الطريق في بحثها عن السعادة، فراحت تطلبها في اللذة العابرة، فاذا بها تفقد طعم الحب الحقيقي. ولما استفاقت، وجدت نفسها واذا هي، في نظر الجميع، امرأة خاطئة في المدينة.

لقد سمعت يسوع انه يحب الخطأة أمثالها، ولعل هناك من نقل اليها قوله: "اني لم آت لادعو الصديقين الى التوبة، بل الخطاة". فعزمت على امر في نفسها، بعد ان استيقظت كرامتها وتحققت من انها قد اصبحت ضحية اناس استغلوا جسدها لاشباع نزواتهم.

حملت معها قارورة الطيب الذي اشترته بثمن كرامتها لتطيب به جسدها وشعرها الطويل، ولكنها قررت هذه المرة ان تريقه على قدمي رجل تنتظر ان يحبها من اجل ذاتها وان ينظر الى صفات قلبها. وذهبت الى يسوع بقلب ممتلىء بالندامة والحب الجريح الذي لم يَلقَ من يستحقه، ما خلا هذا الذي يبدو انه يعرف الانسان من الداخل ولا ينغش بالمظاهر.

استغرب سمعان من موقف يسوع تجاه المرأة: "لو كان هذا الرجل نبيا..."! استغرب لانه لم يكن قد فهم بعد، رغم تعمقه في الشريعة، ان الله رحمة قبل ان يكون عدلا، واستغرابه كان مشوبا بالفريسية التي نشأ عليها، لذا بقيت احكامه كسائر الفريسيين الذين نعتهم يسوع يوما بالقبور المكلسة، خارجها جميل وداخلها كريه نتن: يريدون من الانسان ان يظهر بمظهر التقوى والتمسك بكلمة الشريعة، ويهملون التعمق في روحها الذي بوسعه ان يقلب حياة الانسان ويجعل باطنه شفافا كظاهره.

واليوم، اذا عدنا الى مجتمعنا، نرى ان الادوار ذاتها تتكرر على مسارح الارصفة والمجالس والاندية... انما الممثلون قد تغيروا، باستثناء يسوع الذي لا هو تغير ولا موقفه تبدل. انظر الى الاحكام القاسية التي يطلقها شبابنا -وليس الشباب فقط- على الفتيات، لرأينا موقفهم لا يختلف البتة عن موقف سمعان الفريسي. انهم يصدرون حكمهم اللانزيه على كل فتاة: اذا ما رأوا فيها انطلاقة نحو تكوين شخصيتها الواعية المستقلة، او اذا بدت

تجابه نوائب العصر بروح عالية من الشعور بمسؤوليتها وتقرير مصيرها بنفسها... والويل كل الويل لتلك التي، لسبب من الاسباب، زلت قدمها، سواء أكانت هي السبب ام ضحية لشاب خدعها...

ان الانسان، كل انسان، رجلاً كان ام امرأة، معرّض للسقوط، فلماذا تكون الفتاة، يا ترى، او المرأة وحدها، الضحية، ويخرج الرجل بطلاً وعنترة بن شداد! والانكى من كل ذلك ان القانون من جانب هؤلاء "الغيارى" على شرفهم! اما شرف تلك المرأة الضحية وتلك الفتاة المخدوعة -لربما لانها وثقت بمن لا يستحق الثقة- فحدث عنه ولا حرج! لماذا يُغلَق، في وجه فتاة او امرأة زلت، باب الاصلاح والرجوع عن الخطأ. اليس تشهير الناس بها ونبذ المجتمع لها يعيدها الى حيث كانت؟ هنا يكمن الخطأ في الحكم. يسوع يطلب ان نصدر حكم الله، لا حكم سمعان الفريسي، على الانسان، لان "الله لا يريد موت الخاطىء، بل ان يقبل كل انسان الى التوبة".

الاب نعمان اوريدة

أيلول ١٩٨.

ليس الانسان للسبت

"ومَرَّ يسوعُ في السَّبْتِ مِن بَينِ الزُّروع، فجَعلَ تَلاميذُه يَقلعونَ السُّنبُل ويَفرُكونَه بأَيديهِم ثُمَّ يأكُلونَه. فقالَ بَعضُ الفِرِّيسيِّين: ما لكم تَفعَلونَ ما لا يَحِلُّ في السَّبْت؟ فأَجابَهم يسوع: أَوَما قَرأتُم ما فَعَلَ داودُ حينَ جاعَ هوَ والَّذينَ معه، كيفَ دخلَ بيتَ اللهِ فأَخذَ الخُبزَ المُقدَّس، وأَكلَ وأَعطى مِنهُ لِلَّذينَ معَه، مَعَ أَنَّ أَكلَه لا يَحِلُّ إِلاَّ لِلكَهَنَةِ وَحدَهم؟ ثُمَّ قالَ لَهم: إِنَّ ابنَ الإِنسانِ سَيِّدُ السَّبْت. ودخَلَ المَجمَعَ في سَبْتٍ آخَرَ، وأَخَذَ يُعَلِّم. وكانَ هُناكَ رَجُلٌ يَدُه اليُمنى شَلاَّء. وكانَ الكَتَبَةُ والفِرِّيسيُّونَ يُراقِبونَه، ليَرَوا هل يُجْري الشِّفاءَ في السَّبْت، فيَجِدوا ما يَشكونَه بِه. فعَلِمَ أَفكارَهم، فقالَ لِلرَّجُلِ ذي اليَدِ الشَّلاَّء: قُم فَقِفْ في وَسْطِ الجَماعة! فقامَ ووقَفَ فيه. فقالَ لَهم يسوع: أَسأَلُكم: هل يَحِلُّ عَمَلُ الخَيرِ في السَّبْتِ أَم عَمَلُ الشَّرّ، وتَخليصُ نَفسٍ أَم إِهلاكُها؟ ثُمَّ أَجالَ طَرْفَه فيهِم جَميعاً، وقالَ لَه: أُمْدُدْ يَدَكَ ففَعَلَ فَعادَتْ يَدُه صَحيحَة. فجُنَّ جُنونُهم وتَباحَثوا فيما يَصنَعونَ بِيَسوع".

(لوقا ٦: ١-١١)

يسوع لم يرفض الوصية التي تدعو الى حفظ "يوم السبت" وتقديسه والراحة فيه، كما انه لم يرفض تفسيرها الصحيح وتطبيقها بحسب الروحانية التي سُنّت بها. انما يتجه رفضه نحو تلك التفسيرات الضيقة والخاطئة التي كانت سائدة في زمانه ولاسيما تفسيرات الرابيين والفريسيين الذين كانوا يتمسكون بحرفية الوصية دون روحها. فيسوع، بتجاوزه المعتمَّد احياناً لوصية السبت، اراد ان يتخطى الافكار السائدة ويحرر الانسان من ثقل لا طائل تحته، اقترن بالوصية وجردها من اهدافها الاصيلة.

ان شريعة السبت اعطيت للناس لكي يكون لهم يوم للراحة من اعمالهم، يتفرغون فيه للعبادة وعمل الخير، لذا اعطى يسوع في تعليمه الاسبقية للوصية الجديدة: وصية المحبة التي تسبق شريعة السبت وتسمو على كل الوصايا والشرائع، وحتى على الذبائح والمحرقات: اني اريد رحمة لا ذبيحة! وتظهر فكرة يسوع هذه من خلال مواقفه العديدة مع الرابيين وعلماء الناموس الذين ذهب بهم تمسكهم الاعمى بحرف الشريعه الى وضع قيود كبلت الانسان واستعبدته. فنرى يسوع في هذا النص يطرح هذا السؤال: اسألكم عما يحل في السبت؟ فعل الخير ام فعل الشر؟ ان تُخلّص نفس ام تهلك؟ ويعمد للحال الى شفاء الرجل اليابس اليد ويلقنهم درسا قاسيا! ونراه يقول للفريسيين الذين شككهم منظر التلاميذ الذين كانوا يقتلعون سنبلا ويأكلون يوم السبت: "السبت جعل لاجل الانسان، لا الانسان لاجل السبت" (مرقس ٢: ٢٧). بهذه التحديات اراد يسوع ان يظهر حبه الخاص للانسان الذي هو اثمن من كل الوصايا والشرائع، ويعلمنا بأن محبة الانسان تسمو على كل الذبائح والمحرقات. فاذا كان الدافع الذي جعل الله يعطينا شريعة السبت، بمفهومها الانساني العميق، هو حبه للانسان، فعلى الانسان ان يجعل من الحب دافعه الى حفظ هذه الشريعة وما تتضمنه من متطلبات العبادة لله وخدمة الانسان. ومتى كان الحب صادقا، لله والانسان، فلا يمكن لاية شريعة ان توقف انطلاقته، لا بل تضحي "التجاوزات" على الشريعة في سبيل فعل الخير واجبا مقدسا! فالمحبة تجاه القريب لا تعرف حدودا، وتتجاهل الازمنة والايام وتتخطى القيود والحواجز...

ان السبب الرئيسي والاساسي الذي دفع المسيح الى خرق وصية السبت هو فيض حبه للانسان المتألم والمريض والعاجز... هو الذي قال: ان ابن الانسان ما جاء ليهلك نفوس البشر بل ليخلص. غير انه اراد في الوقت ذاته ان يظهر قدرته المسيحانية ويعلن بأنه، بسلطانه الخاص، يخرق السبت لكونه "رب السبت" (مرقس ٢: ٢٨)، فاذا كان اليهود يحلون رباط الحيوان يوم السبت (لوقا ١٣: ١٥) ويختنون الانسان يوم السبت (يوحنا ٧: ٢٢)، فكم بالحري يسوع الذي هو اعظم من السبت واعظم من الهيكل.

فيسوع الذي هو رب الشريعة اعطى للانسان الجديد شريعة تسمو على كل الشرائع وتتخطى كل الشرائع. فمتى فهم الانسان ان المحبة هي كمال الشريعة، فحينذاك تتخذ كل الوصايا والاوامر والنواهي بعدا جديدا وتصبح بالمحبة "نيراً طيباً وحملاً خفيفاً".

الأب فريج رهو

المسيح ابن الله الحي

"ولَمَّا وصَلَ يسوعُ إلى نواحي قَيصَرِيَّةِ فيلبُّس سأَلَ تَلاميذَه: مَنِ ابنُ الإنسانِ في قَولِ النَّاس؟ فقالوا: بَعْضُهم يقول: هو يوحَنَّا المَعمَدان، وبَعضُهمُ الآخَرُ يقول: هو إيليَّا، وغيرُهم يقول: هو إرْميا أَو أَحَدُ الأَنبياء. فقالَ لَهم: ومَن أَنا في قَولِكم أَنتُم؟ فأَجابَ سِمعانُ بُطرس: أَنتَ المسيحُ ابنُ اللهِ الحَيّ.

فأَجابَه يسوع: طوبى لَكَ يا سِمعانَ بْنَ يونا، فلَيسَ اللَّحمُ والدَّمُ كشَفا لكَ هذا، بل أَبي الَّذي في السَّمَوات. وأَنا أَقولُ لكَ: أَنتَ صَخرٌ وعلى الصَّخرِ هذا سَأَبني كنيسَتي، فَلَن يَقوى عليها سُلْطانُ الموت. وسأُعطيكَ مَفاتيحَ مَلَكوتِ السَّمَوات. فما رَبَطتَهُ في الأَرضِ رُبِطَ في السَّمَوات. وما حَلَلتَه في الأَرضِ حُلَّ في السَّمَوات. ثُمَّ أَوصى تَلاميذَه بِأَلاَّ يُخبروا أَحَداً بِأَنَّهُ المسيح".

(متى ١٦: ١٣-٢٠)

بعد سنة من اتباع يسوع، وصل الرسل الى مفترق طرق من ايمانهم بالمعلم. وبعد المعجزات والتصريحات والكشف عن الذات، اراد يسوع ان يمتحن ايمان رسله ليعلنوا عن موقفهم الشخصي ونظرتهم اليه، فطرح عليهم السؤال الاكبر: "من ترى ابن البشر في نظر الناس؟". فأجاب الرسل باقوال الناس، وفي مجموعها ما كانت تتعدى ان ترى فيه بعض العلامات المسيحانية او "واحدا من الانبياء". وعندما ادار السؤال: "وفي نظركم انتم، من انا؟" اجاب سمعان-بطرس، باسمه ونيابة عن الرسل، معترفا بمسيحانية يسوع ذات الخواص الالهية الكاملة: "انت المسيح ابن الله الحي". فيسوع ليس لهم مسيحا بين المسحاء او نبيا بين الانبياء، بل المسيح الاوحد الموعود من الاب والمنتظر من الاجيال، بل هو "ابن الله الحي". يسوع يتقبل شهادة بطرس ويؤكد له انه لم يحصل على هذا الكشف الرباني بمجهوده البشري المحدود، بل بالهام ونور الاب، فيجعله الاساس والصخرة التي عليها يؤسس كنيسته.

السؤال الذي القاه يسوع على مسمع تلاميذه في قيصرية فيلبس، قبل عشرين جيلاً، مازال يلقيه ويردده باستمرار على البشرية جمعاء وعلى كل انسان بمفرده. وعلى الجميع ان يجيبوا عليه، فانه لا يمكن تجاهل المسيح والمرور بقربه، بغفلة وبدون اكتراث، بل على الانسان: اما ان يقبله، واما ان يرفضه، أن يكون معه او عليه! غير ان الناس ابعد ما يكونون عن الالتقاء في موقف واحد من شخص المسيح، واختلافهم اليوم شأنه باد للعيان كما كانت آراء الناس فيه في زمانه. فالبعض يقولون انه احكم الحكماء، وانه المثال الاعلى والمعلم الاكبر، والبعض الاخر انه الثائر الاكبر، بل اول ثائر، واول اشتراكي مصلح، حرك الفقراء والمظلومين.. والبعض الاخر انه المسيح المخلص وابن الله الحي.

كثيرون هم الذين لا يعطون جوابا لهذا السؤال: اما لانهم لا يعرفونه او لا يعرفون عنه الا الاسم فقط، وحتى بين الموسومين باسمه، مَن يعرفونه بشكل سطحي تقليدي موروث او مغلوط لا يسمح لهم باتخاذ موقف معين والتزام شخصي... وإما لانهم يعتبرون ان المسيح لا يخصهم بالمرة، فلا دخل له في حياتهم ولا تخصهم حياته... واما لانهم لا يريدون ازعاج انفسهم به تهربا من متطلباته الملحة في اتخاذ مواقف جدية تجاه الله والحياة والعالم والمجتمع. ويرى البعض الاخر انه من الافضل لهم ان يعيشوا من دون المسيح، بل يعتبرون شخصه وتعاليمه عائقا اساسيا في سبيل تطوير البشرية، بل استلابا لحقوقهم وحرياتهم وكرامتهم وشخصيتهم الانسانية، فيرفضونه ويعتبرون وجوده نسجا من خيال بعض المهوسين، او يحاربون تعاليمه علناً. واذا ما ضربنا صفحا عن الاضطهاد الخارجي، فهناك الاضطهاد الداخلي في زرع الشك، في محاولة لنزعه من القلوب والضمائر المؤمنة، وبث تعاليم ومفاهيم مضادة.

ولكن هناك الكثيرون ممن يكررون اليوم شهادة بطرس. فيسوع المسيح ليس لهم مجرد انسان، ولا انسانا عظيما فقط بين العظماء، ولا نبيا ملهما بين الانبياء، ولكنه الاله_الانسان الكلمة الازلية المتجسدة. ففي شخصه: التحرير والخلاص الحقيقي للانسان، وفي تعليمه: كل النور والالهام والقوة لتحقيق الذات ولتقدم الانسان الكامل. الانسان لا يمكن ان يحقق دعوته الكاملة، الانسانية والروحانية، من دون ان يحل مشاكل الوجود اليومي. وليسوا قلة اولئك الذين يعتبرون، وبكل حق، ان الحياة من دون المسيح ناقصة. واولئك الذين يجدون فيه الحل لمشاكل البشرية.. من اوغسطينوس الى غاندي، الى مارتن لوثر كينك، الى روميرو.. واولئك الثوار الذين يستلهمونه في تمردهم على الواقع الفاسد، واليه يعودون لبناء عالم افضل في الحرية والكرامة.. وفي سبيل ذلك، على غراره، يقتحمون الموت ويقدمون دماءهم على مذابح الشهادة والنضال.

وفي مجرى التاريخ كله، من تراه تجاسر، غيره، مهما عظم شأنه، ان يصرح عن ذاته، قولاً وفعلاً: "أنا نور العالم. انا الطريق والحق والحياة"؟!

تشرين الثاني ١٩٨٠ — الأب يوسف توماس

صوت صارخ في البرية

"في تلكَ الأيّام، ظهرَ يُوحنّا المَعمَدان يُنادي في بَرِّيّةِ اليَهوديّةِ فيقول: توبوا، قدِ اقتَربَ مَلكوتُ السَّموات. فهُوَ الّذي عَناهُ النَّبيُّ أَشَعْيا بقَولِه: صَوتُ مُنادٍ في البَرّيّة: أَعِدُّوا طَريقَ الرَّبّ واجعَلوا سُبُلَه قويمة. وكانَ على يُوحنّا هذا لِباسٌ مِن وَبَرِ الإبِل، وحَولَ وَسَطِه زُنّارٌ مِن جِلْد. وكان طَعامُه الجَرادَ والعَسَلَ البَرّيّ. وكانَتْ تَخرُجُ إليهِ أُورَشليم وجَميعُ اليهوديَّةِ وناحيةُ الأُردُنّ كُلُّها، فيَعتَمِدونَ عَن يدِهِ في نَهرِ الأُردُنّ مُعتَرِفينَ بخَطاياهم. ورأى كثيراً مِنَ الفِرّيسيّينَ والصَّدُّوقيّينَ يُقبِلونَ على مَعموديّته، فقالَ لَهم: يا أَولادَ الأَفاعي، مَن أَراكُم سَبيلَ الهَرَبِ مِنَ الغَضَبِ الآتي؟ فأَثمِروا إذاً ثَمَراً يَدُلُّ على تَوبَتِكم، ولا يَخطُرْ لَكم أَن تُعلِّلوا النَّفْسَ فتَقولوا إنَّ أَبانا هوَ إِبراهيم. فإنِّي أَقولُ لَكم إنَّ اللهَ قادِرٌ على أَن يُخرِجَ مِن هذهِ الحِجارةِ أَبناءً لإِبراهيم. ها هيَ ذي الفَأسُ على أُصولِ الشَّجَر، فكُلُّ شجَرَةٍ لا تُثمِرُ ثَمراً طيِّباً تُقطَعُ وتُلقى في النّار. أَنا أُعمِّدُكم في الماءِ مِن أَجْلِ التَّوبة، وأَمَّا الآتي بَعدي فهو أَقْوى مِنِّي، مَن لَستُ أَهْلاً لأَن أَخلَعَ نَعْلَيْه. إنّه سيُعَمِّدُكم في الرُّوحِ القُدُسِ والنّار. بيَدِه المِذْرى يُنقّي بَيْدَرَه فيَجمَعُ قَمحَه في الأَهراء، وأَمَّا التِّبنُ فيُحرِقُه بنارٍ لا تُطفأ".
(متى ٣:١-١٢)

من الذي يسيّر العالم؟

هل هو المال؟ ام السياسة؟ ام الاسلحة النووية؟ ام العلم والتقنية؟

نظرة سريعة إلى الماضي كافية لان تبين لنا كيف ان حضارة القرن العشرين هي من اسرع الحضارات قاطبة في التبدل والتغير. فكل سنة تتجدد امور عديدة، و لم يعد احد يقدر على اللحاق بركب التطور.

وفي خضم هذا العالم السريع الدوران، لم يعد بامكاننا ان نحكم على حاضرنا، لافتقارنا الى التراجع الكافي. اننا مع واقعنا، كمن ينظر الى لوحة فنية مطبقا انفه عليها، لا يمكنه ان يكوّن عن هذه اللوحة الا فكرة خاطئة وضيقة. الاجيال القادمة اسعد منا حظاً، لانها ستحكم على حاضرنا بصورة ادق واوضح.

وهناك وسيلة قد تساعدنا لان نقترب من الحقيقة، الا وهي الاستفادة من دروس الماضي. والماضي يعلمنا انه ليس الكبار وحدهم الذين يسيّرون العالم بل الصغار والمغمورون ايضا، واكثر مما نتصور. فصرخة بائس واحد مثل ايوب تركت اثرا في الانسانية ابلغ من جميع خطب ديموستين! والجهد الذي يبذله باحث مجهول في اكتشاف دواء لمرض مستعص اكثر عطاء وفائدة من غزوات التتار! واستشهاد جندي مجهول في الحرب دفاعا عن كرامة بلاده اكثر اهمية من ذهب العالم كله!

وتطول القائمة ان اردنا... لكن، كم وكم من اعمال عظيمة يعملها رجال ونساء في جميع انحاء العالم لا يكتبها قلم صحفي ولا تتناقلها وكالات الانباء! كل هؤلاء الناس ذوي القلوب الطيبة تغطيهم الحياة، كما تُغطى الحنطة في اخاديد الارض، ويموتون دون ضجة. يموتون.. لكنهم، مثل سنابل القمح، سيغمرون الاجيال اللاحقة بالعطاء والامل، كاشفين معاني عميقة للالم والعطاء والشهادة. انهم يُعدون الطريق ويقوّمون السبل كي تسير الانسانية نحو مستقبل افضل.

ويبدو ان كل هؤلاء يصرخون في صحراء، مثل يوحنا، في صحراء هذا العالم. لا احد يريد ان يسمعهم لانهم يطلبون المستحيل: فكأني بهم يريدون خفض جبال البغض والانانية بين الشعوب، او تقويم سبل العلاقات الانسانية، او فتح القلوب والضمائر للعدل والسلام والاخاء... هؤلاء المغمورون يصرخون في البرية مع يوحنا ولا يزال صدى صوتهم يتردد لمن يريد سماعه.

ورغم الزلازل التي تحصد الالوف، ورغم الحروب، ورغم كل انواع الازمات الاجتماعية والانسانية... هناك "انبياء" ومؤمنون بالله وبالانسان، ممن يحبون الحياة، ويحبونها لا فقط لنفسهم بل لكل الناس وللاجيال اللاحقة: انهم يعرفون ان لا معنى للحياة ان لم تكن عطاء.

اذكر انني زرت في فرنسا كنيسة لونشان التي بناها بعد الحرب الثانية المهندس الشهير لوكوربيزيي ولاحظت فيها معبدا صغيرا سماه (معبد السلام)، وكان قد صبغ جدرانه باللون الاحمر القاني. فتعجبت، فقال لي خوري الكنيسة: كثيرون سألوا المهندس السؤال عينه فاجاب: "صبغت معبد السلام بالاحمر، لان لا سلام بدون دم الشهداء"!

صرخ يوحنا في البرية وبذل دمه ليشهد ان كلامه لم يكن ترفاً فكرياً.

ان كل الشهود والشهداء الذين مروا ويمرون، وقد ننساهم، هم الزرع الذي يختفي في باطن الارض في الشتاء القارس. لكنهم هم الذين يسيّرون العالم لانهم شهود للربيع، شهود للمستقبل...

ومن يعيش في العهد الجديد الذي خطه المسيح بدمه يعلم ان الروح القدس يعمل في العالم، وان الخير الذي ينطلق من هذا الروح هو كالنار الاكلة التي لا تحتاج الا لشرارة واحدة لتنتشر في كل مكان.

آمن الله بالانسان كي يؤمن الانسان بالله وبالانسان ايضا... وهكذا فقط سيكون الانسان قادرا على تحقيق ملكوت السماء على الارض، اي ملكوت السلام والاخاء والمحبة.

ان صراخ كل الانبياء في البرية لن يذهب سدى، فاولا واخرا سيسمع البشر معنى الحياة: المجد لله في العلى وعلى الارض السلام!

الصليب

"وبَينَما هُم خارِجون، صادَفوا رَجُلاً قيرينيّاً اسمُهُ سِمعان، فسَخَّروه أَن يَحمِلَ صَليبَ يسوع. ولَمَّا وصَلوا إلى المكانِ الَّذي يُقالُ لَه جُلجُثَة، أَي مكانِ الجُمجُمَة، ناولوهُ خَمراً مَمْزوجةً بِمَرارَةٍ لِيَشرَبَها. فذاقَها وأَبى أَن يَشرَبَها. فصَلبوهُ ثُمَّ اقتَسَموا ثِيابَه مُقتَرِعينَ عَلَيها. وجَلَسوا هُناكَ يَحرِسونَه. ووَضَعوا فَوقَ رَأسِه عِلَّةَ الحُكمِ عَلَيه كُتِبَ فيها: هذا يسوعُ مَلِكُ اليَهود. ثُمَّ صُلِبَ معَهُ لِصَّان، أَحَدُهما عَنِ اليَمينِ والآخَرُ عَنِ الشِّمال.

وكانَ المَارَّةُ يَشتُمونَه وهُم يَهُزُّونَ رُؤوسهم ويقولون: يا أَيُّها الَّذي يَنقُضُ الهَيكلَ ويَبنيهِ في ثَلاثَةِ أَيَّام، خَلِّصْ نَفسَكَ إِن كُنتَ ابنَ الله، فَانزِلْ عن الصَّليب". وكذلِكَ كانَ عُظَماءُ الكَهَنَةِ يَسخَرونَ فيَقولونَ مَعَ الكَتَبَةِ والشُّيوخ: خَلَّصَ غَيرَه، ولا يَقدِرُ أَن يُخَلِّصَ نَفْسَه! هو مَلِكُ إِسرائيل، فَلْيَنْزِلِ الآنَ عنِ الصَّليبِ فنُؤمِنَ به. إِتَّكَلَ على الله، فَلْيُنقِذْهُ الآن، إِن كانَ راضِياً عَنه، فقَد قال: أَنا ابنُ الله. وكانَ اللِّصَّانِ المَصلوبانِ معَه هما أَيْضاً يُعَيِّرانِه مِثلَ ذلك".

(متى ٢٧: ٣٢-٤٤)

من لم يفهم الصليب لا يفهم شيئا من الانجيل!

والصليب يعني الالم، كل الم، هذا الملح الذي يملّح حياتنا الانسانية منذ اول صرخة حتى اخر حشرجة. ليست هذه النظرة تشاؤمية ولا قدرية، اذ اننا لو نظرنا لرأينا الصليب عنصرا يدخل في حياة كل انسان، فهو في الضعف وفي الشك، في المأزق وفي القلق، في الالم وفي الموت...

لماذا؟ لماذا يتقبل هذا في جسده الماً طويلاً يلازمه، على اثر مرض عضال او حادثة او ورائة او خلل في ولادته.. لاشيء، ولا احد يستطيع اعادة الصحة اليه؟!

لماذا يلازم هذا الآخر الم نفسي او عاهة داخلية خفية، وسواس او قلق، او عقدة مزمنة، سواء كان مسؤولاً عنها ام لم يكن.

لماذا هذا الآخر يُرغَم على حمل ثقل الماضي: ماضيه او ماضٍ فُرض عليه؟ وثالث يشعر بثقل المستقبل حين يفقد الامل، بفقدانه حبا كان قد بنى عليه كل حياته... وفجأة تغوص الارض تحت قدميه فيرى عمق الالم بام عينيه؟

هناك الم الموت، وهناك ألم الفراق، كل فراق تفرضه الظروف، او تسببه الخيانة. ولعل هذا الفراق الاخير هو اثقل وطأة من اي فراق اخر. لماذا؟ أو يكون الحب سبب الالم؟ اما كان الالم يكون اقل وطأة لو لم يحب الانسان؟ ومع ذلك لا يزال بعضهم يحب رغم الموت ورغم الفراق ورغم الخيانة، وكأني بالحب هنا قيد، وكأن المحب مسمَّر على الالم كالمصلوب!

قد يكون للألم سبب ظاهر، وقد نجهل سببه: فللبعض كل شيء يتوفر لاسعادهم، ومع ذلك فانهم يشعرون بانقباض وحزن لا يعرفون سببه، ويبدو المتفائل في اعينهم مثاليا ابله..

والصليب والالم يجدهما المرء حتى في رغبة الخير الكامنة فيه! اننا نتمنى لو كان العالم افضل مما هو عليه، ولو عاش الناس في سلام وطمأنينة، ولو كان الناس اكثر لطفا وفهما وتفتحا.. وتبدو رغبة الخير هذه كسطل ماء امام حريق كبير!

امام هذه اللوحة القاتمة، تتجاذبنا عدة مواقف: هناك من يتمرد على الحياة، واخر يتقوقع على ذاته، وثالث يهرب في اللامبالاة، او يتخفى وراء اقنعة من الصخب والضجيج محاولا نسيان الواقع. وننسى ان خير من جابه مشكلة الالم كان المسيح، اذ انه افادنا، بمثاله، ان المعضلة ليست في دخول الالم -فالكل داخل إليه- وانما في الخروج منه! فالمسيح لم يبق على الصليب الى ما لا نهاية، ولم ينته كل شيء في القبر، وهنا يكمن الجواب. فكم وكم من الناس صفّاهم الالم كما تصفّي النار الذهب، وكم منهم لم يعرفوا حقيقة الحياة، وحقيقة العلاقة الانسانية إلا عبر آلامهم، فانبعثوا من هامش الحياة الى صلبها. المسيح ايضا ثار على الالم، في اول الامر، مثل كل انسان، فصرخ: الهي الهي لماذا تركتني؟ ولكنه اعقبها بقوله: "ليس كمشيئتي، بل كمشيئتك"، اي انه عوضا عن ان يحمِّل الله تبعية الالم، ارتمى في احضانه كي يعينه على الانتصار على واقع يرفضه الله نفسه! وهذا الموقف الواثق ليس تخديرا او استسلاما، بل بداية دخول في صراع جدي مع كل عنصر يحاول النيل من الانسان او سحقه.

ان شعورنا بان المسيح شاركنا حياتنا، بما فيها من حلو ومر، يعطينا نظرة جديدة على الحياة، ترتكز على الثقة بان الله الذي انتشل المسيح من الموت قادر ان ينتشلنا نحن ايضا ويرفعنا معه. وما يدفعنا الى هذه الثقة هو الحب الذي هو اقوى من الالم والموت: هذا الحب هو اقوى التحديات، فقد قال المسيح: "ما من حب اعظم من ان يبذل الانسان نفسه عن احبائه". وكأني بالمسيح يقول لنا: هذا ما عملته انا لتعلم كم احبك، وانت ماذا تفعل؟ وكيف؟ سؤال بسيط، ولكنه جذري، وهو موجه لكل انسان.

هكذا لن نخجل من بعد من صليب المسيح، ولا من ضعفنا والمنا وموتنا. لن نهرب من الصليب الذي احتضنه المسيح وحمله، ونقول مع بولس: "ان كان لي ان افتخر، فاني افتخر بصليب المسيح"، وقوله ايضا: "عليّ ان اكمل في جسدي ما ينقص من آلام المسيح".

ليس المنا عقيما اذن.. لذا فالتمرد والهرب من الالم لا ينفع. الالم صراع من اجل حياة افضل للانسان وللانسانية التي تسير كقافلة، لا نحو الموت، بل نحو القيامة -لان المسيح قام باكورة لنا. وستتحول جراح البشرية يومذاك الى نقاط من نور ومجد، فيصير ملكوت الله ملكوت الانسان العائد كجندي من المعركة، حيث ان كل جرح في جسمه يصبح وساما وعنوان فخر له وللوطن الذي جرح من اجله.

القيامة طريق لتحقيق الذات

"ولَمَّا انقَضَى السَّبتُ اشتَرَت مَريَمُ المَجدَليَّةُ ومَريَمُ أمُّ يَعقوبَ وسالومةُ طيباً ليَأتينَ فَيُطَيِّبنه. وعِندَ فَجرِ الأحدِ جِئنَ إلى القبرِ وقد طَلَعَتِ الشَّمس. وكانَ يَقولُ بَعضُهُنَّ لبَعضٍ: مَنْ يُدحرِجُ لنا الحَجَرَ عَنْ بابِ القَبرِ؟ فَنَظَرنَ فَرأَينَ الحجرَ قد دُحرِجَ، وكانَ كبيراً جداً. فدخَلْنَ القَبرَ فأبصَرنَ شاباً جالساً عَنِ اليَمينِ عليهِ حُلَّةٌ بيضاء فارتَعَبْنَ. فقالَ لهُنَّ: لا تَرتَعِبْنَ! أنتُنَّ تَطلُبنَ يَسوعَ النّاصريَّ المَصلوبَ. إنَّهُ قامَ وليسَ ههُنا، وهذا هو المكانُ الذي كانوا قد وضَعوهُ فيهِ. فاذهَبْنَ وقُلْنَ لِتلاميذهِ ولبطرسَ: إنَّهُ يتقدَّمُكُم إلى الجليلِ، وهناكَ تَرَوْنَهُ كما قالَ لكُم.

"وتراءَى آخِرَ الأمرِ لِلأحدَ عَشَرَ أنفُسِهم، وهُم على الطَّعامِ، فوبَّخَهُم بعدَمِ إيمانِهِم وقساوَةِ قُلوبِهم، لأنَّهُم لم يُصَدِّقوا الَّذينَ شاهدوهُ بَعدَ ما قام. وقال لهم: اذهبوا في العالمِ كلِّهِ، وأعلِنوا البشارَةَ إلى الخَلقِ أجمعين. فَمَن آمنَ واعتَمَدَ يَخلُص، ومَن لَم يؤمِنْ يُحكَمْ عليهِ".

(مرقس ١٦: ١-٧، ١٤-١٦)

ولكن ما علاقة القيامة بتحقيق الشخصية؟

يقول يسوع: "ماذا ينفع الانسان لو ربح الدنيا وخسر نفسه؟" (لوقا ٩: ٢٥). تحقيق الشخصية، اذن، بالنسبة ليسوع لا يتم بما يملكه الانسان، ولا بالتمحور حول الذات، بل بالانفتاح الى الله: "من اراد ان يخلص حياته يفقدها، ومن فقد حياته في سبيلي يجدها".

غير ان ذلك ليس بالامر الهين ويتطلب قوة خاصة من الله. فالمسيح نفسه قد خاف وقال في بستان الزيتون: "يا ابت ان شئت فاصرف عني هذه الكاس"!

تجمعني فرص كثيرة بأناس يندبون حظهم العاثر، اناس ينظرون الى حياتهم نظرتهم الى سيارة عاطلة؛ يتألمون لان الاحداث والظروف لم تخدمهم لتحقيق شخصيتهم وسعادتهم. وتصل المرارة عند هذا وذاك الى حد تُشَلّ فيه طاقاتهم، فيفقدون كل ثقة بأنفسهم وبالمستقبل. واذكر اني كنت اصغي مرة الى برنامج اذاعي سئل فيه احدهم عن شروط السعادة، فأجاب ما مفاده: ١٦ عنصرا ينبغي توفرها لتحقيق السعادة: نجاح في العمل، استقرار في الحياة الزوجية، اولاد اذكياء، جيران طيبون، سيارة، بيت، اسفار، جاذبية.. الخ.. الخ. واذكر ان المجيب قال بان فقدان واحد من هذه العناصر قد ينغص العيش كله!

ولكن مثل هذه الشروط قد لا تتوفر لكل انسان، ويندر ان تكون كل الظروف مؤاتية وفي كل الازمنة. الكأس! ولكن لا كمشيئتي، بل كمشيئتك". وباستسلامه لله واندماجه بارادته، انتصر المسيح على الموت وقام من القبر، وبنيت الكنيسة من بعده على هذه الحقيقة، والمسيحيون الاوائل فهموا كم ان لقيامة المسيح من ابعاد في حياتهم الايمانية. فالمسيح لم يقم فقط لنفسه ليحقق انتصاراً لذاته، بل ليعطي الانسان، عبر الزمان والمكان وعلى ممر العصور، فرصة لتغيير حياته ونظرته الى العالم: "اما وقد قمتم مع المسيح، فاسعوا إلى الامور التي في العلى" (قولسي ٣: ١).

منذ البدء جرت تساؤلات حول تأثير قيامة المسيح على الطبيعة البشرية، فظن البعض ان تغييرا سيحدث عما قريب بمجيء المسيح ثانية على الارض، فاحتقروا الدنيا وباعوا املاكهم وقعدوا ينتظرون... فحدثت ازمة اقتصادية في الكنيسة الاولى اجبرت القديس بولس على جمع تبرعات من الكنائس الاخرى لمساعدة كنيسة اورشليم (٢ قورنتس ٨). وعاد هذا التفكير في بعض فترات التاريخ المسيحي، وعوض ان تفهم قيامة المسيح على حقيقتها وفي ابعادها الوجودية، على انها تجدد مستمر وخلقة جديدة تدعو الانسان الى تجاوز ذاته كل يوم لتحقيق نموذجها الاكمل، يوما بعد يوم، وبصورة افضل... تلهّى بعضهم في البحث عن سماء اخرى في عالم اخر يتبدل فيه كل شيء بلمح بصر من دون جهد، وكأن المسيح قام من القبر من دون ان يمر بدرب الصليب والالام..

ان تحقيق الذات الذي يدعونا اليه المسيح في القيامة هو دعوة للاشتراك معه في تغيير الانسانية، والعودة الى الحياة، والى حياة اكمل بالامل والرجاء والفرح -كالرسل والتلاميذ الذين تفتحت امالهم من جديد وكأني بهم قد عادت اليهم الحياة، عندما اكتشفوا ان المسيح حي لن يموت- ولن يتم هذا الا اذا حقق كل فرد توازنه بارتكازه على الله في علاقة محبة

مثل المسيح، وبارتكازه على الاخرين في علاقة تضامنية موحدة، ملؤها الشعور بالمصير المشترك، وبالمشروع المشترك الذي يبنى سوية.

وفي الحياة اليومية امثلة كثيرة على هذه المشاركة التي يحياها اناس يحققون سعادتهم باسعاد الاخرين، مثل الاب الذي يفرح لفرح ابنائه، والاخ الذي يشارك اخاه في البحث عن عمل، والام التي تسهر على راحة ابنائها وزوجها على حساب راحتها الشخصية، والمقاتل الذي يعرّض نفسه للخطر ليأمن منه الوطن ومواطنوه...

لكن المسيح يريد ان يوسع اسباب سعادة الانسان ليربطه، ليس فقط في اطار اسرته او مجتمعه الضيق، بل بالبشرية كلها، ليتحقق للجميع قسط اوفر من السعادة. ولعل في هذا التفتح تفجراً لطاقات كامنة في كل انسان، بحيث يعتمد، ليس على ظروف ملائمة او على فرصة ذهبية يتعذر تحقيقها دائما، وانما على قوة نابعة من الاعماق، قوة ترتكز على الله الذي لا يعتبر النجاح الظاهر بقدر اعتباره اندفاع الانسان نحو تحقيق الشخصية البشرية. انها مسيرة طويلة، وقودها الرجاء ومحركها الايمان وضياؤها المحبة.

الايمان من رؤية القلب

وفي مَساء ذلك اليَوم، يوم الأحد، كانَ التَّلاميذُ في دار أُغلِقَتْ أَبوابُها خَوفاً مِنَ اليَهود، فجاءَ يسوعُ ووَقَفَ بَينَهم وقالَ لَهم: السَّلامُ عَلَيكم! قالَ ذلك، وأَراهم يَدَيهِ وجَنبَه ففرِحَ التَّلاميذُ لِمُشاهَدَتِهِمِ الرَّبَّ. فقالَ لَهم ثانِيَةً: السَّلامُ عَلَيكم! كما أَرسَلَني الآب أُرسِلُكم أَنا أَيضاً. قالَ هذا ونَفَخَ فيهم وقالَ لَهم: خُذوا الرُّوحَ القُدُس. مَن غَفَرتُم لَهم خَطاياهم تُغفَرُ لَهم، ومَن أَمسَكتُم عليهِمِ الغُفْران يُمسَكُ عَلَيهم. على أَنَّ توما أَحَدَ الاثني عَشَر، ويُقالُ له التَّوأَم، لم يَكُنْ مَعَهم حِينَ جاءَ يسوع. فقالَ لَه سائِرُ التَّلاميذ: رأَينا الرَّبَّ. فقالَ لَهم: إِذا لم أُبصِرْ أَثَرَ المِسمارَينِ في يَدَيهِ، وأَضَعْ إِصبَعي في مَكانِ المِسمارَين، ويدي في جَنْبِه، لن أُومِن. وبَعدَ ثَمانِيَةِ أَيَّامٍ كانَ التَّلاميذُ في البَيتِ مَرَّةً أُخرى، وكانَ توما معَهم. فجاءَ يسوعُ والأبوابُ مُغلَقَة، فوَقَفَ بَينَهم وقال: السَّلامُ عَلَيكم! ثُمَّ قالَ لِتوما: هَاتِ إِصبَعَكَ إِلى هُنا فَانظُرْ يَدَيَّ، وهاتِ يَدَكَ فضَعْها في جَنْبي، ولا تكُنْ غَيرَ مُؤمِنٍ بل كُنْ مُؤمِناً. أَجابَه توما: رَبِّي وإِلهي! فقالَ له يسوع: أَلأَنَّكَ رَأَيتَني آمَنتَ؟ طوبى لِلَّذينَ يؤمِنونَ ولَم يَرَوا".

(يوحنا ٢٠: ١٩-٢٩)

ان غاية يوحنا هي ان يضعنا في الجو الانساني الذي جاءت فيه القيامة. فتلميذ المسيح انسان عادي له طباعه واحكامه وشكوكه وحتى عناده.

ان شك توما هنا بشهادة زملائه -بالرغم من اجماعهم على حقيقة ما اخبروه به وما شهدوه في غيابه- انما يعلن اعتماد صاحبه خاصة على فكرته هو واعتقاده وخبرته الشخصية بالدرجة الاولى. وككل يهودي من معاصريه، يؤمن توما بالقيامة لكل الناس، القيامة في اليوم الاخير، في نهاية العالم، وهذا الايمان يعتمد على اقوال الانبياء والكتب

المقدسة. فقيامة المسيح "المبكرة" تناقض، اذن، ما تعلمه طيلة حياته. لقد تعود توما على نمط خاص في فهم الحقيقة، وليس مستعدا لتغييره بهذه السهولة، لما في تغيير المفاهيم والقناعات الموروثة من مغامرة قد لا تحمد عقباها.

ولربما اخطأ توما في استيعاب معنى قيامة المسيح في رواية التلاميذ، فهم يقولون: "لقد رأينا الرب"، وهو، بصفته انسانا واقعيا، يحاول ان يخفف عنهم. فلعل التعب والارهاق وما قاسوه من صدمات ومفاجآت في الايام الاخيرة هي التي اوحت اليهم بافكار مثل هذه! مساكين هم، لانهم، من جراء انفعالاتهم، صاروا يرون اشباحا ورؤى، فيتحداهم توما بعناد مطالبا ببراهين اقوى، براهين اكثر اقناعا من عبارة خجولة كهذه: "رأينا الرب"! هذا التاكيد المجرد لا يكفي لتوما. غير ان شكه ايضا اوقع التلاميذ زملاءه في الحيرة اذ لم يستطيعوا اقناعه، لانهم لم يكونوا بعد قد فهموا الكتب ولا مكانة قيامة المسيح -الانسان في مخطط الله.

بيد ان الجواب كان عند يسوع نفسه، حيث انه ظهر للتلاميذ بعد اسبوع وتوجه صوب توما ليجيبه على طلبه ويبدد شكوكه: هات اصبعك.. ولا تكن منكرا بل مؤمنا. طلبتَ برهانا ملموسا: هاكه! اردت قرائن "اختبارية"، دونك اياها! ولكن.. ولكن المسيح يستجيب لتوما، لا ليجيب الى نزوة فضول عابرة، بل ليعرفه الى اعلى ويفهمه امراً جوهرياً: "امنت لانك رأيتني؟ طوبى للذين يؤمنون ولم يروا". هنا بيت القصيد! اي: طوبى للذين يفهمون جوهر رسالتي ومعنى قيامتي الحقيقي وابعادها، طوبى للذين لا يحتاجون الى براهين حسية كي يبدأوا حياة جديدة تنطلق نحو تحرير الانسان من كل ما يسحقه ويستعبده، طوبى لمن يؤمن ان تعاليم المسيح ليست بالدرجة الاولى لاقناع فضول الانسان العلمي والمختبري، على حساب اذكاء قابليته في التعلم والاكتشاف الوجداني في عمق ذاته -من دون انانية- وفي الاخرين -من دون تشتت. ان بشرى المسيح هي طاقة توجه كل انسان الى خارج نفسه بسخاء، ليحقق قيامة الاخرين، دافعا عجلة الانسانية نحو الخير. لقد جاءت القيامة لكي توجه قلب الانسان نحو اخيه الانسان وكليهما معا نحو الله. فطوبى لذوي الارادة الصالحة الذين يحلمون ويعملون لاقامة عالم افضل، عالم يقوم بعد كل سقطة ويبنى من جديد بامل ومحبة بعد كل شك.

ان قصة توما "درس" لكل من يطبق مفاهيمه واحكامه على الله. قيل ان يوري غاغارين اول رواد الفضاء الروس ابتعد عن الارض بضعة كيلومترات وعاد وصرح: "خرجت الى الفضاء الخارجي ولم ار الله! مسكين الانسان الذي يبحث عن الله في الفضاء الخارجي، بينما الله بالقرب منه. مسكين يوري لانه يتوهم ان الله هو ذلك الكائن البعيد الذي يجبرنا على صنع سفينة فضائية لنلتقي به! الله يدعونا فقط الى ان نفتح عيوننا وقلوبنا فنراه في براءة الاطفال، ودموع المساكين، وتعطش العلماء الى الحقيقة، وفي بساطة الابرياء.

مسكين يوري لانه في استخفافه، فضح عقلية مادية وسطحية لا تقرأ جوهر الاشياء، بل تتلهى بقشرتها. انه يريد ان يرى بعينه ما لا يُرى الا بالقلب، ويمس بيديه من لا تسعه السماوات والارض ويسعه قلب طفل صغير يبتسم او يتمتم صلاته بحرارة.

كل انسان لا بد وان يشك يوما، فالشك درب اليقين، والايمان -مهما كان وراثياً وتسليمياً- لا بد ان يعتمد ايضا على خبرة شخصية، ولا بد له، اذا اراد ان يكون حياً خلاقاً، من هضم خاص للحقيقة، فلا يعود تكرارا لاقوال مسموعة بل تجربة صميمية.

هذا ما اراد ان يقوله يوحنا لنا، وللمرحوم غاغارين ايضاً!

يفرح الزارع والحاصد معا

"... وكانَ يسوعُ قد تَعِبَ مِنَ المَسير، فَجَلَسَ دونَ تَكَلُّفٍ على حافَةِ البِئر. وكانَتِ الساعةُ تُقارِبُ الظُّهر (...) وكانَ التَّلاميذُ قد مَضوا إلى المَدينَةِ لِيَشتَروا طَعاماً (...).

وكانَ تَلاميذُه خِلالَ ذلكَ يقولونَ لَه مُلِحِّين: رابِّي، كُلْ. فقالَ لَهم: لي طَعامٌ آكُلُه، أَنتُم لا تَعرِفونَه. فأَخَذَ التَّلاميذُ يتساءلون: هل جاءَهُ أَحَدٌ بِما يُؤكَل؟ قالَ لَهم يسوع: طَعامي أَن أَعمَلَ بِمَشيئَةِ الَّذي أَرسَلَني وأَن أُتِمَّ عَمَلَه. أَما تَقولونَ أَنتُم: هي أَربعةُ أَشهُرٍ ويأتي وَقْتُ الحَصاد؟ وإِنِّي أَقولُ لَكم: إرفَعوا عُيونَكم وانظُروا إِلى الحُقول، فقَد ابيَضَّت لِلحَصاد. هُوَذا الحاصِدُ يَأخُذُ أُجرَتَه فيَجمَعُ الثَّمَرَ لِلحَياةِ الأَبدِيَّة فيَفرَحُ الزَّراعُ والحاصِدُ معاً".

(يوحنا ٤: ٦، ٨، ٣١-٣٦)

يركز المسيح في هذا النص الانجيلي على التكامل الانساني. فمسيرة البشرية منذ البدء تنطلق نحو هذا التكامل. كل جيل يستلم ممن سبقوه، ويسلّم للذين ياتون بعده، ومن هنا ينشأ التواصل المجتمعي والاقتصادي والسياسي والديني.

لقد جاء الانبياء قبل الرسل وزرعوا بحياتهم والامهم وكلماتهم بذرة محبة الله, غير ان كثيراً منهم لم يقطفوا ثمرة اتعابهم: اخرون حصدوا اتعابهم. يقول المسيح للرسل: انتم تفرحون بالحصاد، ولكن تذكروا ان غيركم زرعوا.

ان التأمل في هذه الاخوة البشرية هو سبب فرح لنا. غير ان هناك من يظن ان النعمة التي ينعم فيها، امر طبيعي، وينسى كل الذين تعبوا باعدادها له. اليس ان تلبية كل حاجة وكل اختراع قد تطلبت جهود اشخاص عديدين واجيالاً من البحث والتجربة،

كالكهرباء والسيارة والطائرة وغيرها. ليس الانسان كائنا معزولا وحيدا، فهو مدين لمن سبقوه، وله دَين على من يأتون بعده. قبله عبّدوا الطريق اليه، وعليه ان يعبّد ما استطاع اليه سبيلاً لغيره.

ان الانتباه لهذه الحقيقة هو الذي يعطي الحياة قيمتها، وكل الانجيل ينطلق من هذا المبدأ: البشر اسرة، والله اب للجميع، وكما ان على الاخوة ان يتحابوا ويتضامنوا، فكذلك البشر، وقد فهم بتهوفن هذه الحقيقة عندما كتب سمفونيته التاسعة والاخيرة بعنوان الفرح: "افرحوا لان البشر اخوة". هذه الاخوّة عميقة الجذور تتعدى الظواهر الملموسة: كل شيء صنعه انسان ما، ماديا كان ام فكرياً، يفيد غيره. كل كلمة قالها حكيم تغذي اجيالاً واجيالاً. كل صداقة حقة ترفع البشرية. حتى الالم يعتصر الاخوة البشرية فتبدو تحت اوجه غير متوقعة. فحزن البعض قد يكون فرصة لاشتراك اخرين فيه ولتلاحم انساني رائع. ان الالم زرع مقدس: اذا سقي بالايمان والرجاء والمحبة يحمل ثمارا يانعة.

كنت في عائلة استشهد احد اولادها في الحرب، فالتحم حولها جمع من الاصدقاء كما تلتحم خلية النحل حول الملكة: الناس لا ينقطعون، كل يجيء مع قدر من الحزن، ويخرج بقدر من الامل، وهكذا يزداد رصيد الاخوّة والمحبة ويصبح الحزن اخف والامل اقوى. وفي الاسرة ذاتها تتشابك اواصر القرابة وتسقط الخلافات التافهة ويبرز ما هو اهم وما هو جوهري: الحاجة الى الاخرين والتلاحم معهم.

ماذا بوسعنا ان ناخذ، وماذا بوسعنا ان نعطي؟

ان اقتسام الخبز المادي جيد، ولكن هناك امور معنوية وروحية كثيرة غير هذه يمكن اقتسامها، فقد قال يسوع: ان طعامي هو ان اعمل مشيئة الذي ارسلني، اي ان انضم الى الله لتحقيق ارادته ومحبته بين البشر. الله يعطي، وعلى الانسان ان يعطي ايضا، كالزارع، آملا ان ما يبذره سينبت يوما. بهذا تزداد قيمة الانسان ويخرج من قوقعته، فيصبح الاخرون مصدر سعادة له، بعكس ما تقوله الوجودية على لسان احد اقطابها جان بول سارتر من ان "الاخرين هم الجحيم"! انهم جحيم فعلا لمن لا يفكر سوى بالمتاعب التي يسببها الاخرون له، ولا يرى، في انانيته، ان ما عنده من خير، انما مصدره الاخرون.

انها حقائق، تاريخ الشعوب كلها مليء بها. عندما كنا صغارا كنا نقرأ في كتاب القراءة قصة الملك العربي الذي شاهد شيخا يناهز المئة يزرع نخلة، فتعجب الملك وسأل الشيخ اذا ما كان يأمل ان يأكل من ثمارها، فأجابه الشيخ: "زرعوا فأكلنا، ونزرع فيأكلون"!

المعرفة التي ترفع

"في ذلكَ الوقتِ تكلَّمَ يسوعُ فقال: أَحمَدُكَ يا أَبَتِ، رَبَّ السَّمَواتِ والأَرض، على أَنَّكَ أَخفَيتَ هذه الأَشياءَ على الحُكَماءِ والأَذكياء، وكَشَفتَها لِلصِّغار. نَعَم يا أَبَتِ، هذا ما كانَ رِضاك. قد سَلَّمَني أَبي كُلَّ شَيء، فما مِن أَحَدٍ يَعرِفُ الابنَ إِلاَّ الآب، ولا مِن أَحَدٍ يَعرِفُ الآبَ إِلاَّ الابْن ومَن شاءَ الابنُ أَن يَكشِفَه لَه. تَعالَوا إِليَّ جَميعاً أَيُّها المُرهَقونَ المُثقَلون، وأَنا أُريحُكم. إِحمِلوا نيري وتَتَلمَذوا لي فإِنِّي وَديعٌ مُتواضِعُ القَلْب، تَجِدوا الرَّاحَةَ لِنُفوسِكم، لأَنَّ نيري لَطيفٌ وحِملي خَفيف".

(متى ١١: ٢٥-٣٠)

فتح الانسان عينيه فدرس كل ما يحيط به من اجرام الفلك اللامتناهية وحتى الذرة. درس الظواهر الطبيعية ودرس الحالات الاستثنائية: بوّب، ونظّم، ونسّق كل ما تقع عليه عيناه المجردة والمجهرية، واصبح كل شيء لديه موضوعا للبحث. ولكنه اكتشف ان هناك موضوعا لم يدرس بالكفاية، موضوع عنوانه "الانسان" (كتب الكسي كاريل قبل سنوات كتابا شهيرا اسماه: "الانسان ذلك المجهول")، فانكب عليه بالحمية ذاتها وبالحماس نفسه: وزَنَه، جزّأه، قاسَه، شرحَه جسدا وفكرا.. ولكن الانسان، لعدم كونه "شيئا" ولا مجرد عنصر من عناصر الطبيعة او المادة، لم يتمكن العقل البشري المحدود من ان يحصره. فتضاربت الاراء حوله ولا تزال!... وصار العلم لغزا: من حيث اتساعه وغوره الذي لا يسبر، من جهة، ومن حيث محدوديته وقصوره عن ان يقول لنا ابسط الامور عنا: من نحن؟ من جهة اخرى!

وهنا تاتي كلمات الانجيل هادئة متفائلة: "تعالوا الي يا جميع المتعبين وانا اريحكم...". يسوع يدعو الانسان كي ياتيه باثقاله، وتساؤلاته، وهمومه، وطموحاته، وشكوكه، ومحدوديته... ولكن لا ليستلقي بكسل واستسلام، بل ليحمل حملا اخر: "احملوا

نيري عليكم..." (والنير هو الخشبة المعترضة في عنقي الثورين بها يسحبان المحراث). اقول بان التشبيه بالرغم من خشونته، فهو موفق! السنا نلهث في حياتنا، نحرث الارض ملتصقين بها، نقتلع منها قوتنا وحياتنا ومعرفتنا؟! بهذا التشبيه يدعونا يسوع الى تبديل نمط حياتنا، الى استبدال قناعاتنا المهزوزة بقناعات جديدة تستمد رسوخها وفاعليتها منه (أليس هذا معنى دعوته الى استبدال نيرنا بنيره هو). انه يدعونا لان نصير له تلاميذ، اي ان نعمل في الارض على شاكلته: "تعلموا مني". وكيف هو؟ -"تعلموا مني فاني وديع ومتواضع القلب".

هذه هي صفات العالم الحقيقي: الوداعة والتواضع، وهي ايضا صفات الاطفال؛ فكل من يريد ان يتعلم، عليه ان يطلب العلم بجدية: بجدية من يزرع الارض ويفلحها بصبر ومثابرة ومعاناة وعمق. فالمعرفة الحقة لا يمكن ان تكون سطحية: انها كالمحراث، لا يكتفي بتخطيط الارض من فوق، بل يشقها شقا ويدخل في الاعماق، وهناك يودع البذرة، ومن هناك يأتي الجواب يوم الحصاد. بعرق الجبين يؤكل الخبز، وبسهر الليالي تُكتَسب المعرفة.

ويُطلَب العلم بالوداعة والتواضع ايضا: ومعنى ذلك ان يخرج الانسان من ذاته، ان يكون مستعدا لاكتشاف الحقيقة، ان لا يكوّن افكارا مسبقة وثابتة عن كل شيء. فافتراض وجود الحقيقة خارجا عنا هو بداية المعرفة. وهذا الافتراض ذاته هو ركيزة من ركائز روحانية الطفولة التي لا تنطوي على ذاتها. الطفولة انفتاح، وكل كيان الطفل حاجة ودعوة الى التعلم والاكتمال؛ واذا اكتمل نمو جسم الانسان في مرحلة من مراحل عمره، فنمو المعرفة لديه لا يكتمل ابدا: لذا فنحن دائما "بحاجة"، ونحن دائما "جهلة".

غير ان هذا الجهل وتلك الحاجة ليسا حالة عليلة لا مناص منها، وانما هما بمثابة نداء في اعماقنا نحو المزيد والمزيد، طموح نحو الافضل، ونابض دائم الحركة للخروج عن ذاتنا نحو العالم الارحب. لذا فدعوة يسوع لان نصير اطفالا، او بالاحرى "كالاطفال" ليست دعوة للعودة الى الوراء، بل نداء لاستعادة الشباب كل يوم. يسوع، اذ يدعونا الى الراحة، يدعونا الى نبذ القلق والغصة وروح الاخفاق، انه يحيي الطموح فينا فيكون ايماننا حيا، متطورا لا ضمّا جامدا: الايمان حياة وانفتاح ومثابرة على العمل والاكتشاف مدى الحياة.

لقد اخفق العلم في الاحاطة بالانسان وبالله. ذلك لانه يأتي بافكار مسبقة ومعارف ناقصة يحاول تطبيقها عليهما. ويسوع يَسُرّ لنا بان الله لا يُكتشَف، بل يكشف عن ذاته. ولمن؟ -للاطفال، اي لذوي القلوب السليمة، لمن يحسون بانهم بحاجة الى الله، لمن يأتون لا للبحث عن النطق الفلسفي، او لاختبار قياساتهم العلمية والمجهرية، بل لان فيهم جوعا وعطشا الى الحقيقة، لانهم يشعرون ان ارواحهم سجينة جهل لا يرتوي الا في الله، لانهم، في بحثهم عن الله، لا يريدون ان يدخل الله في عقولهم وقياساتهم، بل ان يدخلوا هم في حضرة الله.. اولئك الذين يبحثون عنه في اعماق وجدانهم وحنايا قلوبهم، الذين يطلبونه في ضحكة طفل وابتسامه شيخ وفي كل ذرة فرح صاف وحب غامر.

اب-ايلول ١٩٨١ — الأب يوسف توما مرقس

افكار الله

"وبَدأَ يسوعُ مِن ذلِكَ الحينِ يُظهِرُ لِتَلاميذِه أَنَّه يَجِبُ عليهِ أَن يَذهَبَ إِلى أُورَشَليم ويُعانِيَ آلاماً شَديدة مِنَ الشُّيوخِ وعُظَماءِ الكَهَنَةِ والكَتَبَة ويُقتَلَ ويقومَ في اليومِ الثَّالث. فَانفَرَدَ به بُطرُس وجَعَلَ يُعاتِبُه فيَقول: حاشَ لَكَ يا رَبّ! لن يُصيبَكَ هذا! فالتَفتَ وقالَ لِبُطرس: إِنسَحِب! وَرائي! يا شَيطان، فأَنتَ لي حَجَرُ عَثْرَة، لأَنَّ أَفكارَكَ لَيسَت أَفكارَ اللهِ، بل أَفكارُ البَشَر.

ثُمَّ قالَ يسوعُ لِتَلاميذِه: مَن أَرادَ أَن يَتبَعَني، فَلْيَزْهَدْ في نَفْسِه ويَحمِلْ صَليبَه ويَتبَعْني، لأَنَّ الَّذي يُريدُ أَن يُخَلِّصَ حَياتَه يَفقِدُها، وأَمَّا الَّذي يَفقِدُ حَياتَهُ في سبيلي فإِنَّه يَجِدُها. ماذا يَنفَعُ الإِنسانَ لو رَبِحَ العالَمَ كُلَّه وخَسِرَ نَفسَه؟ وماذا يُعطي الإِنسانُ بَدَلاً لِنَفسِه؟ فسَوفَ يَأتي ابنُ الإِنسانِ في مَجدِ أَبيهِ ومعَه مَلائكتُه، فيُجازي يَومَئِذٍ كُلَّ امرِئٍ على قَدْرِ أَعمالِه".

(متى ١٦: ٢١-٢٧)

ان شخصية بطرس تثير العجب! فهو رجل المواقف المتطرفة: قلبه على كفه، كما يقال، سريع الانفعال، الى جانب سخاء لا حدود له. فلو قرأنا بداية هذا الفصل من الانجيل، لراينا كيف يمتدحه المسيح على اعترافه بالسر المسيحاني: "طوبى لك ياسمعان بن يونا، فانه ليس اللحم والدم كشفا لك هذا، بل ابي الذي في السماوات". وها هو المسيح نفسه يوبخه ويدعوه "شيطانا" (اي مجربا) عندما استبعد ان يموت معلمه، حتى وان كان هذا الموت لفداء العالم: "اذهب خلفي ياشيطان، انك لي معثرة". فبطرس يحمل افكاراً بشرية تختلف عن افكار الله: فافكار البشر، انانية وجمود وهرب من التضحية؛ اما افكار الله، فعطاء وخلق وانفتاح نحو المستقبل.

بطرس هو كل واحد منا: فالانسان قادر على اعظم الامور، وهو قادر ايضاً على احقرها: وتقييم عمله انما يقاس بالاختيار، والاختيار نتيجة المعرفة.

يقول مثل فرنسي: يرسم الله مستقيما على خطوط معوجة: اي ان الله قد يُخرج خيرا مما كان الانسان يتوقع شرا، ذلك لان احكام الله ليست بالضرورة بحسب توقعات البشر. بكلمة اخرى ان افكار الله قد نلقاها في حركة التاريخ نفسها: فلو تسنى لاي منا ان ينظر بشمولية وايجابية الى هذا التاريخ، لفهم امورا كثيرة: لفهم ان افكار الله هي خلاص الانسان، هي تحقيق العدالة والسلام في العالم، هي ان "ياكل المساكين ويشبعون" كما يقول المزمور، هي ان يحصل كل انسان على حقه في الطعام واللباس والفرح، وفوق كل شيء ان يحصل على حقه في الحياة، وفي الحياة الانسانية الكريمة.

افكار الله.. هي موجَزة في فكرة واحدة: كلمة الله التي صارت انسانا. فالمسيح، به "ينحني" الله نحو البشر فيكلمهم: "طوبى لفاعلي السلام، طوبى للجياع والعطاش للبر..."، فيشفي امراضهم، ويدعوهم الى حمل نير الحياة مثله وتجديدها وتطعيمها بالمحبة والعطاء.

يريد يسوع ان يخلص الانسان، اي ان يفتح له من جديد باب التحرر من ضعفه وانانيته وخوفه ومحدودية طموحاته الارضية والمادية. يريد له الانطلاق نحو الله الذي لا يعطيه سوى المحبة والسخاء والكمال والطموح الى المطلق، الى الخلود؛ يريد له ان يشعر من جديد بان الله يحبه محبة الاب لابنه، وان يعيش -هو الانسان المحدود- بمنطق هذه البنوة الالهية اللامحدودة. المسيح يسوع، في سبيل تحقيق هذا التحرر والفداء للانسان، كان مستعدا للموت، وكان يعرف انه بموته سيخلص الانسان، لذا يقول: "ان من يريد ان يخلص حياته يفقدها، واما الذي يفقد حياته في سبيلي يجدها"، اي ان من يعيش لنفسه فقط، فيا لتعسه، لان كل المصائب تاتي من الانانية والانطواء على الذات، وكل سلام وسعادة ياتيان من العطاء والبذل والخدمة.

قد تكون هذه الكلمات فقدت من جاذبيتها لكثرة تكرارها، ولكن المسيح طبّقها حرفيا حيث بذل حياته حتى الموت، موت الصليب، من اجل خلاص الجميع، رافضا اجتذاب الناس بالتسلط او بتنصيب نفسه ملكا عليهم او زعيما سياسيا. لقد اتخذ اسلوب الدعوة الى ملكوت الله بالاقناع وبعمل الخير وتجسيد المحبة والعطاء لكل انسان: فعاشر الفقراء والوضعاء، واكل مع الخطاة والعشارين، واحب صغار الناس، ولكنه لم يتردد عن شجب التسلط والانانية والتنديد بالمرائين والمستغلين، حتى وان كانوا من علية القوم، دينا ودنيا. وفوق هذا عاش في حضرة الله وجعل من ارادته طعامه وشرابه.

ان حياتنا اقصر من ان نقضيها في السطحية والضياع. ويسوع يدعونا الى الاقتداء به: الى الانفتاح الى افكار الله، الى الارتقاء الى مستوى العطاء والمحبة، الى مشاركة الاخوة همومهم وطموحاتهم، الى تسهيل العلاقات الصادقة بينهم، الى غفران الاساءة واقتسام الخبز مع الجميع -وليس الخبز المادي فقط، بل خبز التعزية والمشاركة الانسانية بكل اوجهها. فما نصرفه مع الاخرين، من وقت وطاقة ومال، هو بمثابة حجارة نضعها في اساس العالم الجديد الذي يريد الله ان نبنيه معه. فقيامة المسيح جاءت بعد ان بذل المسيح نفسه حتى الموت،وقيامة العالم الجديد ستاتي هي ايضا حين ينبذ كل منا انانيته، فيرتفع بنيان هذا العالم المتجدد الذي تعود مسؤولية تشييده الى كل انسان. والحساب النهائي سيكون على العمل في المشروع: "سوف ياتي ابن الانسان فيجازي يومئذ كل واحد بحسب اعماله".

تشرين الاول ١٩٨١ — الأب يوسف توما مرقس

"مرتا.. مرتا"

"وبَينَما هُم سائرون، دَخَلَ قَريَةً فَأَضافَتهُ امرَأَةٌ اسمُها مَرتا. وكانَ لَها أُختٌ تُدعى مَريم، جَلَسَت عِندَ قَدَمَي الرَّبِّ تَستَمِعُ إِلى كَلامِه. وكانَت مَرتا مَشغولَةً بِأُمورٍ كَثيرَةٍ مِنَ الخِدمَة، فَأَقبلَت وقالت: يا ربّ، أَما تُبالي أَنَّ أُختي تَرَكَتني أَخدُمُ وَحْدي؟ فمُرها أَن تُساعِدَني. فأَجابَها الرَبُّ: مَرتا، مَرتا، إِنَّكِ في هَمٍّ وارتِباكٍ بِأُمورٍ كَثيرَة، مع أَنَّ الحاجَةَ إِلى أَمرٍ واحِد. فَقَد اختارَت مَريمُ النَّصيبَ الأَفضَل، ولَن يُنزَعَ مِنها".

(لوقا ١٠: ٣٨-٤٢)

كانت بيت عنيا بمثابة "واحة" يتوقف فيها يسوع وتلاميذه لقسط من الراحة، ويحلون ضيوفا على مريم ومرتا واخيهما لعازر. وهذه الزيارة التي يغطي لوقا احداثها تتميز بمواقف كشفت عن خصوصية الاختين، وكلتاهما يكنان ليسوع الحب والاحترام: فمرتا الاخت الكبيرة، هي ربة بيت ناجحة تشعر بمسؤوليتها في ادارة المنزل وتعرف جيدا واجباتها تجاه ضيف صديق كيسوع: فعبرت عن حبها بلغة الضيافة وما ينطوي عليها من علامات الصداقة والحب والاكرام. اما مريم فكانت تنظر الى هذا الضيف نظرة اخرى، مدركة بان حبها له يتعدى واجب الضيافة الى الاصغاء اليه، اذ ان لهذا المعلم الصديق رسالة يحملها ويتوجب الانتباه اليها، فكانت وكأنها تعيش ما قاله صموئيل النبي: "تكلم يا رب، فان عبدك يسمع".

لقد كانت لمريم حاسة خاصة تجاه المعلم، وهي تعلم انه لا يهتم كثيرا بالاكل والشرب بقدر اهتمامه بالتحدث عن الله. وقد تكون تذكرت جوابه للرسل الذين جاءوا اليه بطعام، بعد نهار متعب: "طعامي هو ان اعمل بمشيئة الذي ارسلني"، وقد يكون حيا

في ذاكرتها ما قاله يسوع للجموع التي لحقت به، بعد معجزة تكثير الارغفة: "انكم تطلبوني.. لانكم اكلتم الخبز وشبعتم! فاقتنوا، لا الطعام الذي يزول، بل الطعام الذي يبقى للحياة الابدية الذي يعطيكموه ابن البشر".

اما مرتا فكان خير لها لو لم تتكلم! لقد تقدمت من يسوع، وفي صوتها نبرة الشكاية والتوبيخ: "اما تبالي أن اختي قد تركتني اخدم وحدي؟ فمرها ان تساعدني"، فجاءها جواب يسوع يحمل عتابا رقيقا وفي طيه دعوة! "مرتا مرتا، انك مهتمة ومضطربة في امور كثيرة، وانما الحاجة الى شيء قليل، بل الى امر واحد". هذا الجواب حري بنا ان نتوقف عنده برهة لنكتشف ما ينطوي عليه من ابعاد.

نظرة واحدة الى واقعنا تكفي لنكتشف باننا غالبا ما نشبه مرتا اكثر مما نشبه مريم! فكثيرا ما نهتم ونضطرب في شؤون الحياة دون ان نميز جيدا بين ما هو جوهري وما هو ثانوي؛ ولكن هل يعني هذا ان يسوع يدعونا الى الزهد والتخلي عن الامور الارضية واحتقار الحياة؟

يسوع يدعونا بالحري الى ان نعطي لكل شيء حقه، وفق اولويات يلفت اليها انتباهنا. فيسوع يدرك جيدا حاجة الانسان الى الاكل والشرب واللباس والراحة الخ... ولقد اختبرها بنفسه وهرع الى تلبيتها سواء حين نفد الخمر في قانا الجليل، ام حين لم يكن لرسله ما يسد جوع الجماهير التي كانت تتبعه سوى بضعة ارغفة.. انها حاجات طبيعية، الا ان الرغبة الجامحة في تلبيتها لاسيما حين يرافقها الجشع، تحرم الانسان من الفرح وتسبب له المتاعب والهموم، وقد تؤدي به هذه الهموم الى اهمال الامور الاكثر اهمية في حياته. فالبيت مهم، ولكن الحب الذي يسكن فيه هو اكثر اهمية! والطعام مهم، ولكن اقتسامه يتخذ اهمية اعظم! وحياة الجسد مهمة، ولكن حياة الفكر والروح مهمة ايضا! فالقاعدة المثلى هو ان نهتم بهذه ولا نهمل تلك!

حضارة القرن العشرين تتسم بالتشتت والسطحية، تطبعها النزعة الى الاستهلاك والتهالك على المادة بحيث يتخذ "الثانوي" اولوية على "الجوهري"، على الصعيدين الفردي والجماعي.. وازاء الامكانات التي فتحها العالم، يقف الانسان مشدوها، تغره المظاهر فتمتص كل طاقاته في اتجاه واحد بحيث لا يعود يقوى على تحقيق توازن انساني حقيقي في ذاته، لاسيما حين يبدأ بتقييم ذاته وفقاً لما يملك، لا لما هو! وبحسب هذا المفهوم لا عجب ان نرى الكثير من الشباب، قبيل الزواج، يتهافتون على كسب المال، وباي ثمن، وفي ظنهم ان الثروة والبيت والاثاث والسيارة الخ... ستحقق لهم السعادة، بينما تعلمنا الخبرة ان الثروة، لوحدها لم تكن يوما مصدر سعادة الانسان: ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم باسره وخسر نفسه؟

فلو حلّلنا همومنا ومتاعبنا وقلقنا، في محاولة لاكتشاف اسبابها العميقة، لوجدنا وراءها رغبة في الانسان الى استغلال قابلياته وامكاناته، الى اقصى ما يمكن، سواء بهدف تحقيق الذات ام بهدف الشهرة واكتساب مكانة اجتماعية مرموقة.. وقد تصل به هذه الرغبة الى الانهماك المفرط بحيث لا يعود يشعر، لا بنفسه، ولا بمن حوله، ويضحي في شبه دوامة من العمل، فيستيقظ اذ ذاك على فراغ مرير!

لعل رغبة مرتا العميقة كانت في ان تبدو امام يسوع بصفة ربة بيت ممتازة تستحق الثناء والاكرام.. الا ان يسوع امتدح مريم قائلا: "لقد اختارت النصيب الاصلح". وهكذا يدعونا يسوع الى اكتشاف الاولويات في حياتنا، بما يحقق لنا الفرح الحقيقي والسعادة الحقة. الم يَدْعُنا يسوع الى الثقة بالعناية الالهية حين قال: "لا تهتموا لانفسكم بما تاكلون، ولا لاجسادكم بما تلبسون. اليست النفس اعظم من الطعام والجسد اعظم من اللباس.. فلا تقلقوا قائلين: ماذا ناكل؟ او ماذا نشرب؟ او ماذا نلبس؟.. بل اطلبوا ملكوت الله وبره، وهذا كله يُزاد لكم" (متى ٦: ٢٥-٣٤).

احبب وافعل ما تشاء!

"وبلَغَ الفرّيسيّينَ أنّهُ أفحَمَ الصدّوقيّين فاجتَمَعوا مَعاً. فسأله واحدٌ منهم ليُحرِجَه: يا مُعلِّم، ما هي الوَصيّةُ الكُبرى في الشّريعة؟ فقالَ له: أحبِبِ الرَّبَّ إلهَكَ بِكُلِّ قَلبِكَ وكُلِّ نَفْسِكَ وكُلِّ ذِهنِكَ. تِلكَ هي الوَصيّةُ الكُبرى والأولى. والثّانيَةُ مِثلُها: أحبِبْ قريبَكَ حُبَّكَ لِنَفسِكَ. بهاتَينِ الوَصيَّتَينِ تَرتَبِطُ الشَّريعَةُ كُلُّها والأنبياء".

(متى ٢٢: ٣٤-٤٠)

احبب الله والقريب: بهاتين الوصيتين المتشابهتين يتعلق الناموس كله والانبياء، يقول يسوع. وعندما يعلن: هذه هي الوصية الكبرى الاولى، والثانية تشبهها.. فهو يحررنا من كل تعقيد وخوف ويدخلنا الى البيت؛ ومن يعيش داخل الدار فهو كالولد المحب، وليس كالخادم الواقف امام الباب "ويده على قلبه" في كل وقت، خوفا من المخالفة والعقاب: "دعوتكم اصدقائي لاني اطلعتكم على كل ما سمعت من ابي" (يوحنا ١٥:١٥).

قد لا تُقَدَّر بالكفاية حراجة الموقف الذي وجد يسوع نفسه فيه امام هذا السؤال: "ما هي اكبر وصية في الشريعة؟". فلقد كان معاصرو يسوع من المتدينين، في جدال مستمر حول اهم الوصايا واكبرها، وكانت بعض الفئات تفرط في حرفية تطبيقها، لا لشريعة موسى فحسب، بل لما ينيف على ٦٠٠ وصية اضافها احبارهم وربابنتهم.

ويأتي احدهم ليحرج يسوع وينازله كي يتخذ موقفا من الجدالات... فينضم، مثلا، الى مدرسة رابي هلليل، او مدرسة رابي شمعي، او غيرهم... لكن يسوع، كعادته، يأتي بجواب غير متوقع، بسيط، قصير، اساسي: "احبب الله والقريب...". احبب! هذا جوهر الدين، وهذا هو جوهر العلاقات الاجتماعية. ان محبة الله واحدة، وعلى الانسان ايضا ان يرمي الى ان يصير واحدا فيتخلص من مأساة التجزئة والازدواجية التي تهدد حياتنا جميعا، ويعيش حياة "موحدة" يتطابق فيها الظاهر والباطن، القول والفعل، القناعة والحياة، الايمان

والسلوك، دون التواء او تشتت او تعقيد. هذا هو اهم مشروع للحياة، وعلى المرء ان يركز عليه نشاطه وقواه، ويقوم على اتصال الانسان بالله، فتتوحد حياته تماما، ولكنه لن يصل اليه مطلقا ان لم يلتق اولا باخيه الانسان. وما ممارسات الرحمة والبذل والعطاء والانفتاح والتسامح والسماع والغفران والتعاون سوى تمارين "رياضية" للتعود على المحبة وعيشها في الواقع الملموس: بذلك يكشف الانسان عن وجه الله.

لذلك، فالاهمية ليست بما يملك الانسان او بما يعرف، بل كيفية تعامله مع ما يملك ومع ما يعرف: فما الفائدة من مكتبة عامرة لا يقرأها احد، او من دولاب مكتظ بالملابس ولا يلبس منه صاحبه: هكذا لا تفيد الشريعة والوصايا والديانة نفسها شيئاً، اذا لم تتحول الى حياة افضل.

لذا قال القديس اوغسطينوس (القرن ٤): "احبب وافعل ما تشاء"، وما ذلك الا امتداد لقول يسوع. ولكن اوغسطينوس لا يدعو بذلك الى الانفلات واللامبالاة، وانما يشير الى الخطوة الاولى من مشروع التبدل الداخلي؛ فتاريخ الاديان يُظهر ان اغلب الوصايا ليس لها الا فعل الدواء الواقي او الشافي، ولكنها لا تغذي ولا تنمي بحد ذاتها. وكل من يتعامل مع الدين تعامل دائن ومدين، لا يمكنه ان يتطور وينمو في الروح، بل يبقى هزيلاً، قاصرا. اما المحبة النابعة من الله والعائدة اليه، عبر القريب، فهي وحدها التي تصل الى القلب، فيتحول الانسان جذريا من الداخل و "يهتدي" الى الله (اي انه يتخذ اتجاها صحيحا نحو الله)، ليس فقط بعقله وفكره، بل بنفسه وجسده، اي بانسانيته كلها، فيندفع نحو معنى حياته كانسان على صورة الله ومثاله.

احبب الله والقريب واعمل ما تشاء: هو السبيل للحد من مآسي هذا العالم. فالخير والخلاص لن يتحققا بتبني الصراعات والبغضاء، بل بزرع بذور المحبة والاحترام والمساواة في كل مكان، وبوضع طاقاتنا رهن انتصار المحبة على الكراهية. فعندما يفرغ القلب من المحبة، يضعف بصر العقل وتنقلب الموازين ويصبح الشر خيرا والخير شرا، اذ ليس في العالم اخطر من الجاهل الاحمق المطمئن في جهله، او الضمير الغبي الواثق من نفسه. لقد كتب شكسبير: "ان اطيب الاشياء تسوء اذا ساءت نتائجها. فرائحة الزنبق الفاسد اكره من الحشائش الضارة!".

والكلمة صار جسدا

"في البَدء كانَ الكَلِمَة والكَلِمَةُ كانَ لَدى الله والكَلِمَةُ هوَ الله. كانَ في البَدء لَدى الله. به كانَ كُلُّ شَيء وبدونه ما كانَ شَيءٌ مِمَّا كان. فيهِ كانَتِ الحَياة والحَياةُ نورُ النَّاس والنُّورُ يَشرِقُ في الظُّلمات ولَم تُدرِكه الظُّلمات. ظَهَرَ رَجُلٌ مُرسَلٌ مِن لَدُنِ الله إسْمُه يوحَنَّا جاءَ شاهِداً لِيَشهَدَ لِلنُّور فَيُؤمِنَ عن شَهادته جَميعُ النَّاس. لم يَكُنْ هو النُّور بل جاءَ لِيَشهَدَ لِلنُّور. كان النُّورُ الحَقّ الَّذي يُنيرُ كُلَّ إنْسان آتِياً إلى العالَم. كانَ في العالَم وبه كانَ العالَم والعالَمُ لَم يَعرِفْهُ. جاءَ إلى بَيتِه. فما قَبِلَه أَهْلُ بَيتِه. أَمَّا الَّذينَ قَبِلوه، وهُمُ الَّذينَ يُؤمِنونَ باسمِه، فقَد مَكَّنَهم أَنْ يَصيروا أَبْناءَ الله: فهُمُ الَّذينَ لا مِن دَم ولا مِن رَغبَةِ لَحْم ولا مِن رَغبَةِ رَجُل بل مِنَ اللهِ وُلِدوا. والكَلِمَةُ صارَ بَشَراً فسَكَنَ بَينَنا فرأَينا مَجدَه مَجداً مِن لَدُنِ الآبِ لابنٍ وَحيد مِلؤُه النِّعمَةُ والحَقّ".
(يوحنا ١: ١-١٤)

كاتب هذا النص الرائع هو يوحنا وكأني به يحار في اختيار كلماته للتعريف بذاك الذي "كان منذ البدء، وسمعناه، ورأيناه باعيننا، وتأملناه، ولمسته ايدينا.." (١يوحنا ١: ١)، فيسميه حينا "الكلمة" وحينا اخر "النور"، ومرة يدعوه "الحياة" واخرى "ابن الله"...

ولو تعمقنا في معنى "الكلمة" لرأينا فيها اصدق تعبير عن الله: الله كلمة، وكلمته خلاقة، هو الذي يقول: كن فيكون كل شيء (تكوين ١: ٣). والتاريخ المقدس كله، إن هو الا محاولة اتصال بين الله والبشر. فالانسان -كما يقال- حيوان ناطق حاول منذ يقظة فكره ان يعبر عما يجيش في نفسه بكافة الوسائل، ووسائل التعبير هي من اكثر الامور التي شهددت تطورا كبيرا: فمن خلال النقوش البدائية، مرورا بالكتابة، وعبر الراديو والتلفزيون ووسائل الابلاغ الاخرى، حاول الانسان ان يوصل كلمته الى اخيه الانسان، وما زال يبحث يوما بعد يوم عن وسائل اخرى للتعبير. اما الله، فهو ايضا، منذ يقظة الانسان، ما فتئ يحاول الاتصال بالانسان بشتى الطرق، رغبة منه في الكشف عن ذاته والدخول في حوار مع الانسان.

لنصغ الى ما قاله كاتب الرسالة الى العبرانيين: "ان الله بعد أن كلم الآبـاء قـديما، بالانبياء، مرارا عديدة وبشتى الطرق، كلمنا نحن، في هذه الايام الاخيرة بـالابن" (١:١). لقد تكلم الله، وكلمته هي ذاته -واذا دعوناها ابنه فليس المقصود بنوة جسدية وانما بنـوة روحية وجدانية عميقة. فكما ان كلام الانسان يدل على ذاته ويعبر عن شخصيته بعمـق، هكذا كلام الله انعكاس لذاته وتعبير عن ماهيته وجوهره. واذا كان كلام الانسان ناقصـا وضعيفا، فلان الانسان ذاته ناقص ومحدود: اما الله فهو كامل وغير متناه، ولـذا كانـت كلمته واحدة، كاملة، غير متناهية، لها القدرة على التعبير باكمل وجه.

"فيه كانت الحياة"! الله هو الحياة، وقد شاء أن يشرك الانسان بالحياة المتدفقة فيه. الا انه لم يكتف باعطاء الحياة للانسان، بل منحه قدرة على الدخول في سر حياته الالهية. فلقد حاول الله خلال التاريخ المقدس كله ان يكلم الانسان ويقترب منه ويدخل في الفـة وصداقة معه. وبلغت محبة الله أوجَها حين ارسل ابنه "في ملء الزمان" ليسكن في ما بيننا، او بالاحرى لينصب بيننا خيمته: "والكلمة صار جسدا وسكن في ما بيننا". هكذا أحبنا الله بحيث شاء ان يشاركنا المسيرة، جنبا الى جنب، ويذهب بنا، مثل الراعي الصالح، الى المراعي الخصبة.

"والكلمة صار جسدا"! لقد اراد الله ان يسكن بين البشر، لا تحت شكل مـادي يتجسد في حجر أو ذهب، ولا تحت شكل شريعة او ناموس، بل تحت ملامح وجه انساني يجسد صفات الانسانية باكمل شكل: ولد من امرأة وعاش طفلا أعزل، وتربى في حضـن اسرة وضيعة، وانكب على العمل وهو شاب يافع.. شاركنا أفراحنا وأحزاننـا.. انـدمج بمآسينا وتطلعاتنا.. وبكلمة اصبح شبيها بنا في كل شيء، هو الذي "لم يكن يعتد مساواته لله حالة مختلسة". كلمنا ببساطة عن ملكوت الله، داعيا اليه المساكين والفقراء والودعـاء والمتواضعين... وقال لنا ما لم نكن نعرفه عن انفسنا: انتم ابناء الله!

"أتي الى خاصته، وخاصته لم تقبله"! كثيرون لم يعرفوه وما قبلوه. الا انه لم يغضب ولم يقنط، وظل يكرر النداء "لذوي الارادة الصالحة"، باحثا عنهم بحب عميق وبصبر وطول أناة.. فآتاهم "سلطانا ان يصيروا ابناء الله"، لانهم امنوا باسمه.

في هذا النص، كما في كتاباته الاخرى، يزيح يوحنا الانجيلي الستار عن سر عظيم، ليس لاشباع فضولنا الفكري، بل ليحملنا على اكتشاف ذلك النور الذي اشرق في ارض الظلمة واستنارت به المسكونة كلها. ان تجسد الكلمة في مفهوم يوحنا هو ولادة جديـدة للانسان: فمن يقبل كلمة الله يولد من جديد لحياة جديدة، ويتم في اعماقه تحولٌ جذري، وتتخذ اعماله كلها بعدا جديدا، فيسلك في النور ويصبح من ابناء النور. الا ان كل ولادة جديدة يرافقها مخاض والم، والولادة الى حياة الهية تتطلب تحولا بطيئا وجذريا في اعمـاق الانسان لا يخلو أحيانا من معاناة اليمة، ليس على الصعيد الروحي وحسب، بـل علـى الصعيد البشري أيضا: فقول كلمة الحق صعب، والالتزام بالمبادئ صعب والثبـات حـتى النهاية صعب.. وكل ذلك ما هو الا بداية في الطريق المؤدية الى بنوة الله! أليس هذا هـو فحوى بشارة الانجيل؟ وهذه البشارة تقوم في هذا الخبر السار: لقد كلمنا الله وسـكن في ما بيننا، وقد شاهدنا مجده..

البرية

كُتِبَ في سِفرِ النَّبيِّ أَشَعيا: هاءنذا أُرسِلُ رَسولي قُدّامَكَ لِيُعِدَّ طَريقَكَ. صَوتُ مُنادٍ في البَرِّيَّة: أَعِدُّوا طَريقَ الرَّبِّ وَاجعَلوا سُبُلَه قَويمة. تَمَّ ذلكَ يَومَ ظَهَرَ يوحَنَّا المَعمَدانُ في البَرِّيَّة، يُنادي بِمَعموديَّةِ تَوبَةٍ لِغُفرانِ الخَطايا. وكانَت تَخرُجُ إِليه بِلادُ اليَهوديَّةِ كُلُّها وجَميعُ أَهلِ أُورَشَليم، فيَعتَمِدونَ عن يَدِه في نَهرِ الأُردُنِّ مُعتَرِفينَ بِخطاياهم. وكانَ يوحَنَّا يَلبَسُ وَبَرَ الإِبِل، وزُنّاراً مِن جِلدٍ حَولَ وَسَطِه. وكانَ يَأكُلُ الجَرادَ والعَسَلَ البَرِّيّ وكانَ يُعلِنُ فيَقول: يَأتي بَعدي مَن هو أَقوى مِنِّي، مَن لَستُ أَهلاً لأَن أَنحَنِيَ فأَفُكَ رِباطَ حِذائِه. أَنا عَمَّدتُكُم بِالماء، وأَمَّا هُوَ فيُعَمِّدُكُم بِالرُّوحِ القُدُس".

(مرقس ١: ٢-٨)

يبدو ان البرية كانت قد اجتذبت المعمذان يوحنا بن زكريا، فعاش فيها ببساطة اللباس وشظف الماكل والمشرب، اذ كان يلبس ثوبا من وبر الابل، ويشد على حقويه منطقة من جلد، وكان طعامه من الجراد والعسل البري. يوحنا، بفضل البرية، يتعرف على ذاته بصورة افضل ويكتشف ابعاد دعوته بوعي اكبر، فهو الصوت المنادي: "اعدوا طريق الرب". ويبدو ان هذا النداء قد أثّر في معاصريه من سكان المدن فخرجوا اليه، وقبلوا ان يقروا بخطاياهم وهمومهم واعوجاجاتهم. لا بد ان يوحنا كان من معدن الانبياء الكبار: فكلمته كالنار كانت قوية، قاسية، محرقة تصل الى الاعماق.

كان يدعو الى التوبة، اي الى تجديد الذات والمصالحة واستقامة السيرة، ويعمّد بالماء، اشارة الى حاجة المرء الى التطهير، الى الاستعداد لاستقبال من "هو اقوى مني ولست انا باهل ان انحني واحل سيور نعليه" كما يصرخ هو نفسه! يوحنا يعرف ان هذا "الاخر" يملك القوة الفعلية للتطهير وانه سيفعل. ولا بد ان معاصري يوحنا قد فهموا ان دعوته ليست مجرد هرب من المدينة ومن اصنامها وهمومها، وانما تاتي حلقة مكملة في تاريخ الخلاص.

فلقد كان الانبياء يبحثون في الصحراء عن الوحي، عن كلام الله المحيي: فهذا ايليا يهرب اليها، وهذا هوشع يشبه شعبه بامراة ناشزة تستهويها اضواء المدينة فيقول على لسان الرب: "لذلك ها انذا املقها وآتي بها الى البرية واخاطب قلبها". اما يسوع الذي استعد لرسالته في البرية وفيها قهر الشيطان وانتصر لسمو الانسان ولشرف الله، فسيقول لتلاميذه بعد نهار متعب: تعالوا الى البرية واستريحوا قليلا.

ان من لا يشعر بحاجة الى الاختلاء والصمت لا يفهم اهمية البرية. كثيرا ما نشعر بالتعب والارهاق، ولا ندري ان بضعة ساعات من الصمت والاختلاء هي دواؤنا، ولا حاجة دوما للذهاب الى البرية ماديا كي نجد هذا الصمت، ومن ثم كي نجد انفسنا. فساكن المدينة يقدر، اذا اراد، ان يجد هذا الصمت في بيته او في خلوة ما، وفي ذاته قبل كل شيء. وليس كل من يخرج الى البرية يستفيد منها: هناك كثيرون يخرجون في الربيع الى البرية، حاملين معهم ضوضاء المدينة من راديو ومسجل وحتى تلفزيون...

البرية الحقيقية هي في استعداد القلب، هي في فتح ابوابه واسعة لاستقبال الاخر، كما هو وكما يريد ان يكون. فالرب لا ياتي دائما كما نريد وبحسب هوانا، بل ياتي في وقت وبصورة لا نتوقعها. في البرية نجد الشجاعة للاعتراف باننا خطأة، وباننا بحاجة، من حين لاخر الى التطهير. والسبيل الى هذا الاكتشاف الجوهري هو الاصغاء الداخلي والصلاة التي تصبح جزءا من الحياة. فالصلاة جيدة في كل اشكالها وأطرها، شريطة ان تاتي من الاعماق. يقول يسوع: "اذا اردت ان تصلي فادخل مخدعك واغلق بابك وصل في الخفية...". البرية يمكن ان تكون، اذن، في غرفتنا، خلف بابنا، في صمت الليل، او في خمس دقائق نختلي بها في الكنيسة، او في ساعة نفتح فيها الانجيل ونقرأ.

عندما يُسكت المرء كل ضوضاء، سيمكنه الاصغاء حينذاك الى ادق الامور، سيتنبه الى ما حوله فيرى جوهر الاشياء وما وراءها، ويستمع الى صوت الروح. بعضهم يعيش ببساطة وهدوء يحملهما معه حيثما حل، في الشارع او في البيت او في العمل: هؤلاء ليسوا غرباء عن مشاكل الناس ولا عن ما يجري حواليهم، بل انهم بالعكس يسمعون ادق الاصوات ويفهمون دون ضجة، لذا لا يعرف السأم طريقه اليهم، لانهم صادقون مع انفسهم؛ فعزلتهم ليست هروبا، بل استعدادا لاقتسام اعمق ما فيهم مع الاخرين؛ وصمتهم انصات: فطوبى لهم.

فالعزلة التي نحن بصددها ليست للراحة والارتخاء، ولا للبحث عن الاشباح واحلام اليقظة، بل انها انفتاح مثل سجادة صلاة مطوية. انها كشف عن العيوب الخفية وعن القلق والخوف ونفض لكل ضعف او تردد.. في مثل هذه العزلة، بل قل في مثل هذه الخلوة، نترك المجال لكلام الله ان يزورنا مثل مصباح منير: لا ليشير الى البقع والاوساخ فقط، بل ليعيد الينا جمال الخطوط الاصلية.

شباط ١٩٨٢ — الأب يوسف توما مرقس

بينكم من لستم تعرفونه

"ظَهَرَ رَجُلٌ مُرسَلٌ مِن لَدُنِ اللهِ إسْمُه يوحَنَّا جاءَ شاهِداً لِيَشهَدَ لِلنُّور فَيُؤمِنَ عن شَهادتِه جَميعُ النَّاس. لم يَكُنْ هو النُّور بل جاءَ لِيَشهَدَ لِلنُّور (...)

وهذه شَهادَةُ يوحَنَّا، إذ أَرسَلَ إِلَيه اليَهودُ مِن أُورَشَليمَ بَعضَ الكَهَنَةِ واللاَّوِيِّينَ يَسأَلونَه: مَن أَنتَ؟ فاعتَرَفَ ولَم يُنكِرْ، إعتَرَفَ: لَستُ المسيح. فسأَلوه: مَن أَنتَ إِذاً؟ أَأَنتَ إيليَّا؟ قال: لَستُ إيَّاه. أَأَنتَ النَّبيّ؟ أَجابَ: لا! فقالوا له: مَن أَنتَ فنَحمِلَ الجَوابَ إلى الَّذينَ أَرسَلونا؟ ماذا تَقولُ في نَفسِكَ؟ قال: أَنا صَوتُ مُنادٍ في البَرِّيَّة: قَوِّموا طَريقَ الرَّبّ. كَما قالَ النَّبيُّ أَشَعْيا. وكانَ المُرسَلونَ مِنَ الفَرِّيسيِّين، فسَأَلوهُ أَيضاً: إذا لم تَكُنِ المسيحَ ولا إيليَّا ولا النَّبيّ، فلِمَ تُعَمِّدُ إذاً؟ أَجابَهُم يوحَنَّا: أَنا أُعَمِّدُ في الماء، وبَينَكم مَن لا تَعرِفونَه، ذاكَ الآتي بَعدي، مَن لَستُ أَهلاً لأَن أَفُكَّ رِباطَ حِذائِه".

(يوحنا ١: ٦-٨، ١٩-٢٧)

الاسم، العمر، المهنة، العنوان.. انها العناصر الهامه للتعبير عن الهوية الشخصية، فمن منا لم يملأ قسائم لا تحصى للكشف عن هويته، ومن لم يقلق لانه نسي في البيت هويته التي تثبت شخصيته؟

والهوية لا تكشف فقط عن الشخص، ولكنها تحدد ايضا صلاحياته ومبررات تصرفاته. لهذا السبب اوفد اليهود كهنة ولاويين يطلبون الى يوحنا هويته، لان المبادرات التي اخذها تستوجب تدخل السلطات: هل له الحق ان يفعل ما فعل ام لا؛ واذا كان له الحق، فلماذا لم يطلب اولا الاذن اللازم من هذه السلطات؟

ان تدخل كهذا من جانب اليهود له ما يبرره، فكل عضو في المجتمع ينبغي ان يحصل على موافقة هذا المجتمع عند القيام بعمل ما، يمس الوضع العام، ومثل هذه الموافقة لازمة اذا كان التصرف يهم هذا المجتمع ومستقبله.

ولكن اليهود نسوا او تناسوا ان النبوءة لا تخضع لترخيص السلطات: فالانبياء لم يقوموا قط بارادة ملكية او بمرسوم جمهوري، ولا في اعقاب انتخابات عامة او تعيين رسمي، وانما برزوا بدافع من اعماقهم لتقويم المجتمع، فيرفضون فيه ما يحيد عن الغاية التي خُلق الانسان من اجلها، ويدعون الى ما ينميه ويضمن سلامته وصحته. ويوحنا كان صوتاً مناديا في البرية: "قوّموا طريق الرب". فيوحنا نبي، اذن، يسير في خط الانبياء الذين سبقوه.

لكن الناس ضيّقو الافاق، قصيرو النظر، يحاولون تحديد مجال النبوة ومفعولها. فاليهود كانوا قد وضعوا مقاييس ثابتة للنبوة ولشخصية المسيح الاتي: يجب ان يكون بحسب رغبة الشعب مسيحاً مثل ايليا، زعيماً على غرار موسى يحرر الشعب بالقوة. ولكن يوحنا لا يدخل ولا يريد ان يدخل في هذا الاطار، فهو نفسه ليس المسيح، ولا ايليا، ولا موسى: انه صوت مُناد، شاهد للنور، يُعدّ طريق الاتي باسم الرب، ذلك الذي سيكون اعظم من كل ما توقعوه، ذلك الذي لم تقدم عنه الكتب المقدسة والتوراة سوى صورة باهتة حين حاولت وصفه.

المسيح قائم بينهم ولكنهم لا يعرفونه؛ اما يوحنا فيعرفه، لانه يرى، ولان الله كشف له عنه في اعماقه -والله يكشف لكل من يريد ان يرى. والذي يرى يشهد، ويوحنا شهد، ليس فقط بكلامه، بل بحياته كلها، والشهادة بالحياة اعمق من الشهادة بالكلام. وهذا ما يشير اليه عندما يمتنع عن الاجابة الى سؤال اليهود. لقد وضع يوحنا نفسه في طريق اللقاء، فالتقى. لقد اختار ان يبحث بنفسه، فوجد وعرف نفسه على حقيقتها: "لست اهلاً لان احل سير نعليه". ان معرفة الذات تقود الى التواضع، ومعرفة الله تقود الى الحقيقة.

ان الدرس الذي يمنحنا اياه يوحنا في هذا النص الانجيلي هو ذو بعدين: الاول يعلمنا ان نعرف ما في ذواتنا، اي طاقاتنا الدفينة، طاقات الخير والمحبة والمساواة والايجابيات التي تحتاج الى نمو وتطوير، وَهويتنا الحقيقية هي هنا، في الذات. فلا قيمة للحياة من دون عمل، ولا قيمة للاعمال من دون ايمان، وهذا هو بالذات ما يوحد الاتجاه الذي يسير عليه كل انسان، ليخلص كل ما في الانسان. فكل ما فيه هو خير، لان خالقه هو الخير، والسلبي الذي فيه هو دليل على انه يقدم الثانوي على الاساسي.

اما البعد الثاني فيعلمنا معرفة الاخرين: "بينكم من لستم تعرفونه"، فعلينا ان نكتشف صفات الناس الحقيقية، بغضّ النظر عن السلبيات التي تبدو عندهم. ان الخلل في

علاقاتنا مع الاخرين يكمن في نظرتنا الضيقة اليهم، فنحن ميالون الى تصنيف الناس: هذا طويل وذاك قصير، هذا جميل وذاك قبيح.. الى غير ذلك من الالقاب والنعوت التي نلبسهم اياها، وننسى ان كل انسان عالَم بالغ التعقيد، فيه الغث والسمين، فيه السلبي والايجابي، فيه الخير والشر، وان كل انسان يحتاج الى تشجيع وتقييم ليُبرز العنصر الطيب والجيد فيه: انه كحقل حنطة، يحتاج، لكي يدر، الى العناية والفلاحة والى البذر الصالح.

ان يوحنا يعمذ بالماء، اي انه يدعو الناس الى الستطهير، الى تبديل النظرة، الى الاعتراف بأن كل امرء هو خاطىء، ولكنه يتوق الى حياة جديدة. اما المسيح فسيعمّذ بالروح القدس، اي انه لن يطالب فقط بالتغيير الخارجي، بل سيمنح لكل مؤمن القوة الكافية للاستمرار في الخير، وهذه هي النعمة. والنعمة الاكبر هي المحبة لاننا بها نعرف الله -"الله محبة"- ونعرف الناس على انهم اخوتنا.

الديانة الحقيقية

"وَلَمَّا سَمِعَ الْفَرِّيسِيُّونَ أَنَّهُ أَفْحَمَ الصَّدُّوقِيِّينَ فَاجْتَمَعُوا مَعاً. فَسَأَلَهُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ لِيُحَرِّجَهُ: يَا مُعَلِّمُ، مَا هِيَ الْوَصِيَّةُ الْكُبْرَى فِي الشَّرِيعَةِ؟ فَقَالَ لَهُ: أَحِبَّ الرَّبَّ إِلهَكَ بِكُلِّ قَلْبِكَ وَكُلِّ نَفْسِكَ وَكُلِّ ذِهْنِكَ. تِلْكَ هِيَ الْوَصِيَّةُ الْكُبْرَى وَالأُولَى. وَالثَّانِيَةُ مِثْلُهَا: أَحِبَّ قَرِيبَكَ حُبَّكَ لِنَفْسِكَ. بِهَاتَيْنِ الْوَصِيَّتَيْنِ تَرْتَبِطُ الشَّرِيعَةُ كُلُّهَا وَالأَنْبِيَاءُ".

(متى ٢٢: ٣٤-٤٠)

لا نعلم ما هو المحرج في مثل هذا السؤال: "ما هي اكبر وصية في الشريعة؟" ان لم نضعه في اطاره الزماني والمكاني. فأي واحد من معاصري يسوع -عداه- لارتبك وحاول أن ينقذ نفسه من الورطة، مستشهدا بأقوال علماء الناموس والشريعة.

لماذا؟ لان شريعة اليهود كانت معقدة حقا بنودها الـ ٦١٣ : ٣٦٥ منها ناهية و ٢٤٨ آمرة. وفي هذه المجموعة الضخمة، وصايا وقوانين كان الكتبة يدرسونها سنوات طويلة، ويحصلون بعدها على شهادة تخولهم الحل والربط في المناقشات الدينية والمدنية. وكانت هذه القوانين تعانق كل ما يخص حياة الفرد الدينية والطقسية والخلقية والاقتصادية والاجتماعية. وكانت الوصايا، في نظر البعض، متساوية في الاهمية، بحيث ان من يخالف الصغرى كالذي يخالف الكبرى. غير ان البعض الآخر كان يرى فيها الاهم ثم المهم، ولكنه يحتار في التمييز، فكثرت الجدالات بين الربابنة حول اكبر الوصايا، واختار الفريسيون كل الوصايا حتى أصغرها وأثقلوا كاهل الناس بالممنوع والمسموح، واحتقروا كل من خرج عن رأيهم!

أما يسوع، فقد اختار حرية أبناء الله التي تنفي كل "عقدة" تجاه الشريعة، فشفى المرضى يوم السبت، ودافع عن اصدقائه "لفعلهم ما لا يحل فعله يوم السبت"، في ضيق نظر خصومه، وعوض أن يحتقر من يخرج عن حرف الشريعة، تقرب منه: فخالط العشارين والخطأة وأكل وشرب معهم لذا، فلا عجب أن يثير يسوع بمواقفه هذه جواً مكهرباً

وامتعاضاً لدى الفريسيين رعاة الشريعة وحراسها. فهذا السؤال الذي يلقيه فريسي هو محرج حقا، ويقصد منه الايقاع بيسوع. فاذا اعترف بتفاوت الوصايا وقع في معسكر المنـاوئين؛ واذا قال بمساواتها دخل في معسكرهم، فلماذا لا يتبعهم، وفي كلتا الحالتين يكون قد صنف نفسه وحدد موقعه.

ولكن يسوع عوض أن يقع في الفخ، أي عوض أن يدخل في جدال عقيم معهـم حول أسبقية لفظية أو مماحكة ناموسية، يشير بوضوح الى جوهر الشريعة ليكشـف عـن حقيقة الله خالق الشريعة. فالشريعة لا معنى لها من دون محبة الله؛ وخارجا عن هذه المحبـة تبقى اطاراً فارغاً. والحال انه لا يمكن ان يحب الانسان الله من دون ان يحب أخاه الانسان، فالوصية واحدة بوجهين: من لا يحب الله، لا يحب الانسان حقاً، ومن لا يحب الانسـان، لا يمكنه أن يدعي محبة الله.

أما، ما هو غير متوقع في جواب يسوع، فليس اعلانه عن محبة الله ومحبة الانسـان، فذلك مكتوب في التوراة منذ زمن طويل: ان الغير المتوقع هو أن يسوع يضع المحبتين على المستوى ذاته. أجل، بامكاننا أن نميز بينهما، ولكن لا أن نفصل أو نختار بينهما كما يحلو لنا.. والتوازن صعب على الانسان: التوازن بين الصلاة والعمل، بـين التقـوى والحيـاة الاجتماعية، بين الدين والعلم، بين الكنيسة والشارع... أمور تبدو وكأنها متضادة، يدعونا المسيح، بوصيته، الى أن نجمع بينها بتوازن.

لقد شرح يوحنا هذا التوازن في رسالته حين كتب: "اذا قال أحد: أني احب الله، وهو لا يحب اخاه كان كاذبا، لان الذي لا يحب اخاه وهو يراه لا يستطيع ان يحـب الله وهو لا يره" (١ يوحنا ٤: ٢٠)! مثل هذه الكلمات، لا بد انها كانت تثير القشعريرة في المسيحيين الاولين، لانه ليس من السهل في الواقع أن نحب الله حين يكون مقياس محبتنا له محبة اخوتنا.

من هذا المنظور نرى أن المؤمنين الحقيقيين بالله ليسوا بالضرورة من هؤلاء الـذين يتكلمون عنه أكثر من سواهم. فهناك أناس بسطاء، لا نظريات لهم ولا دراسات، هم أكثر قربا الى الله: هؤلاء هم الذين يسميهم يسوع في تطويباته "أطهار القلوب": "طوبى لأطهار القلوب، فانهم يشاهدون الله". ومشاهدة الله هي أن يحب الانسان اخاه الانسان ويحترمـه بقلب صاف ويغفر له ويتمنى له الخير مهما اختلف عنه، وبكلمة واحدة ان يحبه بقلب الله.

"كيف يمكنني أن اكره شخصا يحبه الله"؟ هذا ينبغي أن يكون شعار كل من يريد أن يصير طاهر القلب ويعاين الله: اليوم في الاخرين، وغدا وجها لوجه، فيجمع بذلك بين الوصيتين اللتين هما في نهاية الامر وصية واحدة.. ومن فعل الخير وعاش المحبة، حـتى وان لم يع ذلك، فهو يحب الله ويكرمه بالفعل ذاته.. وهو قريب منه ويراه بعيني قلبه النقي.

اعطوا ما لقيصر لقيصر

"فذهبَ الفرّيسيُّونَ وعقَدوا مَجلسَ شورى ليَصطادوه بِكَلِمَة. ثُمَّ أرسَلوا إليه تَلاميذَهم والهيرودُسيِّينَ يقولونَ له: يا مُعَلِّم، نَحنُ نَعلَمُ أنَّكَ صادق، تُعَلِّمُ سَبيلَ اللهِ بالحَقّ، ولا تُبالي بِأَحَد، لأَنَّكَ لا تُراعي مَقامَ النَّاس. فقُلْ لَنا ما رأيُكَ: أَيحِلُّ دَفعُ الجِزيَةِ إلى قَيصَر أَم لا؟ فشَعَرَ يَسوع بِخُبْثِهم فقال: لِماذا تُحاوِلونَ إِحراجي، أيُّها المُراؤُون! أَروني نَقْدَ الجِزيَة. فأَتَوهُ بِدينار. فقالَ لَهم: لِمَنِ الصُّورَةُ هذه والكِتابة؟ قالوا: لِقَيصَر. فقالَ لَهم: أَدُّوا إِذاً لِقَيصَرَ ما لِقَيصَر، ولِلّهِ ما لله".

(متى ٢٢: ١٥-٢١)

كانت فلسطين في زمن السيد المسيح مجزّأة الى مناطق سياسية مختلفة. فمنطقة الجليل كان يحكمها ملكٌ نصف يهودي ولا يدفع الجزية للرومان؛ أما منطقة اليهودية، فقد ضُمّت منذ سنة ٦ ميلادية الى الجهاز الاداري الروماني، وكان سكانها خاضعين لضريبة الجزية لقيصر.. ولكن هذه الجزية كانت قد أثارت أزمة ايمانية عند اليهود، لان دفع الجزية لملك وثني كان يعني الاعتراف بملوكيته، الامر الذي تحرمه الشريعة. وبالفعل، فلقد تكتل بعض اليهود، مثل جماعة الغيورين، ورفضوا دفع الجزية، أما الفريسيون والصدّوقيون، فقد قبلوا بها على مضض. وكان الناس يلتجئون الى الربابنة المشهورين ليسألوهم رأيهم في الموقف الاسلم.

وجاء خصوم يسوع من الفريسيين والهيرودسيين اليه ليُلقوا عليه سؤالا هو بالاحرى فخ حقيقي! فاذا أجاب بالايجاب لتركه الشعب وابتعد عنه كمتعامل مع المستعمر، أما اذا أجاب بالنفي فسيتكفل الرومان بالقضاء عليه. واذا كان يسوع، هو المسيح المنتظر، فسيكون الفخ بمثابة شرارة الانطلاق لثورة يقودها حتى التحرير والقاء المعتدين خارج الحدود. ذلك لان رفض دفع الجزية للرومان يعتبر بمثابة اعلان للحرب المقدسة!

ولكن يسوع، عوض ان يبني أجوبته على المفاهيم السائدة لدى مواطنيه، كان يفضل دوما دعوتهم الى اعادة نظر جذرية في كل شيء: فهو لا يرغب ان يقود الناس بقدر رغبته في ان يوقظ كل ما فيهم من أصالة وعمق يمس وجودهم السياسي أو شعورهم الديني. انه يريد منهم ان يتوجهوا الى الله ويكرموه، لا فقط لكي يحل مشاكل جزيتهم، بل خاصة لانهم مدعوون للاشتراك في حياته. يسوع يريد اناسا واثقين بانفسهم، واقفين على ارجلهم، لا ينالهم اليأس. لذا جاء جواب يسوع رائعا لانه، كعادته، يرفع الانسان الى أعلى.

المال سرعان ما يصبح الها صنما، وفيما يظن الناس انه يخدمهم، فهو في الحقيقة يستعبدهم. ألم يهتف يسوع منبّها: "لا تقدرون ان تعبدوا ربين: الله والمال". فغالبا ما يكون المال هو المنتصر، مهما بدا ذلك غريبا، ليس فقط، في قلوب الافراد، بل في صفوف الجموع ايضاً، فيخلق الطبقات المنكفئة والانانيات الجماعية، ويبرر كثيرا من الظلم الذي يُرتكب في العالم، ويقسم الناس الى متخمين وجائعين.

منذ زمن طويل والناس يتعاملون بالنقود المعدنية، الذهبية والفضية، ويرسمون عليها صور آلهتهم وملوكهم. لماذا، ترى، ربطوا بين الاله والمال في قطعة النقد؟ هل لتذكير الناس بضرورة "التعامل الخلقي" في التجارة؟ أم تسليما بأن من شأن المال ان يجنح الى السيطرة والسيادة على هذا العالم؟!

الدينار الذي طلبه يسوع كانت مرسومة عليه صورة الامبراطور، وكان مكتوبا عليه "طيباريوس قيصر اغسطس بن اغسطس الاهي" فما افضع العبارة لليهود! المستعمر الروماني الوثني لا يسيطر على الارض فقط، بل يتمادى الى ادعاء الألوهية. هكذا، اذن، كانت قطعة نقد تجديفا لمن قال في التوراة: "لا يكن لك اله غيري". وعندما طلب يسوع ان يرى دينارا، فإنما أراد إحراج محرجيه. فما ان اتوه بالدينار، حتى خسروا المعركة، لانهم حملوا اليه صورة "القيصر — الاله": "لمن الصورة والكتابة"؟

سؤال يسوع لليهود محرج حقا لانه يضعهم امام أنفسهم، هم الذين وضعوا الله على المستوى ذاته مع قيصر، فشوهوا صورة الاله الحقيقي الدائم. لقد جعلتهم نظرتهم الضيقة تعساء بسبب استعمار زمني، ونسوا ان الله اكبر واقوى من قيصر، وملكه اعمق واشمل ودائم. انه ملك على القلوب لا على الرقاب. لذا جاء جواب يسوع واضحا، قاطعا، عبقريا: "اعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله"! ومعنى ذلك: ان ظننتم انكم بمجرد رفضكم دفع الجزية لقيصر تؤدون حق الله، فأنتم على ضلال مبين. ابدأوا اولا باصلاح ذواتكم وقلوبكم من الاعماق قبل التفكير باصلاح الظروف التي تتعدى ارادتكم. الم يقل يسوع يوما: "انكم تطهرون ظاهر الكأس والصفحة وباطنها ممتلىء نهبا وطمعا. ايها الفريسي الاعمى، طهر باطن الكأس والصفحة، ليصير الظاهر مثله طاهراً" (متى ٢٣: ٢٥).

فالقولان قول واحد: ملّكوا الله على ما ينبغي ان يملك عليه، قلوبكم؛ وأما قيصر فأعيدوا اليه صورته، ولا تشركوا، وتخلطوا، أو تبرروا انفسكم بالباطل.

التجدد في الروح القدس

"إذا كُنتُم تُحبُّوني، حَفِظتُم وَصاياي. وَأَنا سأَسأَلُ الآب فيَهَبُ لَكم مُؤَيِّداً آخَرَ يَكونُ معَكم لِلأَبَد (...)

وفي مَساءِ ذلك اليَوم، يومِ الأحد، كانَ التَّلاميذُ في دارٍ أُغلِقَتْ أَبوابُها خَوفاً مِنَ اليَهود، فجاءَ يسوعُ ووَقَفَ بَينَهم وقالَ لَهم: السَّلامُ علَيكم! قالَ ذلك، وأَراهم يَدَيهِ وجَنبَه ففرِحَ التَّلاميذُ لِمُشاهَدَتِهمِ الرَّبّ. فقالَ لَهم ثانِيَةً: السَّلامُ علَيكم! كما أَرسَلَني الآب أُرسِلُكم أَنا أَيضاً. قالَ هذا ونَفَخَ فيهم وقالَ لَهم: خُذوا الرُّوحَ القُدُس. مَن غَفَرتُم لَهم خَطاياهم تُغفَرُ لَهم، ومَن أَمسَكتُم عليهمِ الغُفْران يُمسَكُ علَيهم".

(يوحنا ١٤: ١٥-١٦، ٢٠: ١٩-٢٣)

اريخ الانسان، فردا وجماعة، يمكن ان نوجزه بكلمة "التجدد". والتجدد هو كل مرة يثور الانسان على واقعه ومساوئ حالته، وينشد واقعاً جديداً ويسعى الى حالة جديدة تمكنه من الارتقاء الى أعلى. من هذا المنطلق قامت الافكار والفلسفات والديانات والايديولوجيات، يجمعها قاسم مشترك اعظم: التجديد. كلها تقول ان الانسان بحاجة الى حياة جديدة، وتضع اسساً لهذه الحياة الجديدة بهدف الوصول بالانسان الى حياة اكثر انسانية واكثر سعادة.

فما هو هذا التجدد يا ترى؟ انه الحياة! والحياة، في واقعها، ليست سوى هذا الخليط من الفرح والحزن، من السعادة والمأساة، من الانتظار واللقاء، من الامل واليأس، من التفاؤل والتشاؤم... في هذا الاطار يبدو التجدد مسيرة نحو هدف ما.

التجدد الذي يدعو اليه الكتاب المقدس، من سفر التكوين الى سفر الرؤيا، يرتكز على الروح القدس الذي قال عنه يسوع: "روح الحق.. الذي يرسله الآب باسمي. وهو

الذي يعلمكم كل شيء ويذكركم بجميع ما قلته لكم". انه الروح -الريح-، النفَس الخلاق لكل العوالم والكائنات، الحي القدوس الازلي الذي يخلق كل شيء ويجدد كل شيء. روح الله الذي يفحص الكلى والقلوب ويخترق الحوادث ويجدد وجه الارض ويدفع بالبشرية الى كمال التاريخ. فبوحي الروح القدس، يكتشف الانسان ان غايته القصوى لا تقوم في الاكل حتى الشبع وفي الشرب حتى الارتواء... وانما في السير نحو الانعتاق من كل الاستلابات التي تسحقه وتذله، والاتجاه نحو البعث والقيامة. وللوصول الى هذه القيامة، لا بد من السير وراء المسيح الناهض الذي ظفر بالألم والموت واصبحت قيامته مفتاح الألم والرجاء.

الروح لم يره احد قط، ولم يسمع أحد صوته.. لا نعرف من اين يأتي ولا الى اين يذهب.. انه كالريح "تهب حيث تشاء فتسمع هزيزها ولا تدري من اين تأتي والى اين تذهب"...

ولكن كيف يتسنى للانسان ان يتعرف على الروح؟ وكيف يمكنه ان يكتشف الروح الذي تكلم عنه يسوع، "روح الحق" وليس روح الكذب؟ يحتاج الانسان الى الفطنة والحكمة ليتسنى له ان "يميز الارواح". ولقد اشار القديس بولس الى ان علامة حضور الروح في مكان ما، انما هي في "خدمة الجماعة": فالروح ليس ملك الافراد، ولا يمكن ان يتصرف كل واحد على هواه كما يشاء. الروح واحد والمسيح واحد والكنيسة واحدة، وكل شيء يقترب من هذه الوحدة هو من الروح.

على ضفاف الاردن، نزل الروح على يسوع فانطلق، بقوة الروح، يبشر بملكوت الله. وسمع الناس البشارة، وامتنع بعضهم عن قبولها في رفض للروح الجديدة التي جاء يسوع يحملها، وبدا لهم ان كل شيء انتهى بصلب المسيح وموته... إلا ان الروح اقام يسوع حيا وأعاد الأمل الى كل الذين آمنوا به. وها هو يسوع يعيد الى رسله الثقة حين نفخ فيهم -كما في يوم الخلقة- وقال لهم: "خذوا الروح القدس"، وارسلهم ليواصلوا عمله في العالم من اجل تجديد البشرية.

وبعد صعود يسوع، فيما كان التلاميذ مجتمعين، هبت عاصفة "كصوت ريح شديدة"، وظهرت لهم ألسنة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم، فانطلقوا -وقد امتلأوا من الروح القدس- الى العالم ليعلنوا، دون خوف او تردد، ان الله يحب البشر وان على البشر ان يحب بعضهم بعضا كما احبهم الله، ويخدم بعضهم بعضا على مثال ذاك الذي ما جاء ليُخدَم بل ليَخدِم...

فحين نجد انفسنا في نهاية الخيط، منهكين مثقلين؛ وحين نشعر ان البشرية كلها تعبة، يلفها القلق والتشاؤم؛ وحين نرى ان الافكار والفلسفات قد اقتربت من فراش الموت... حينذاك نشعر، بقوة، بالحاجة الى التجدد والشباب، وينبعث فينا الأمل بان الله قادر ان يبعث روحه من جديد ليجدد وجه الارض.

الارواح الشريرة

"ودَعا الاثْنَيْ عَشَرَ وأَخَذَ يُرسِلُهُمُ اثنَينِ اثنَين، وأَولاهُم سُلْطاناً على الأَرواحِ النَّجِسَة. وأَوصاهُم أَلاَّ يَأخُذُوا لِلطَّريقِ شَيئاً سِوى عَصاً: لا خُبزاً ولا مِزوَداً ولا نُقداً مِن نُحاسٍ في زُنَّارِهم، بل: لِيَشُدُّوا النِّعالَ على أَقْدامِهم، ولا تَلبَسوا قَميصَين. وقالَ لَهم: وحيثُما دَخَلتُم بَيتاً، فأَقيموا فيه إِلى أَن تَرحَلوا. وإِن لم يَقبَلْكُم مَكانٌ ولم يَستَمِعْ فيه النَّاسُ إِليكم، فارحَلوا عنهُ نافِضينَ الغُبارَ مِن تَحتِ أَقدامِكم شَهادَةً علَيهم. فمَضَوا يَدْعونَ النَّاسَ إِلى التَّوبَة، وطرَدوا كَثيراً مِنَ الشَّياطين، ومَسَحوا بالزَّيْتِ كَثيراً مِنَ المَرْضى فشَفَوْهم".
(مرقس ٦: ٧-١٣)

طردها زوجها ومعها ستة اطفال، اكبرهم في العاشرة من عمره، واصغرهم في الشهر الثامن. واذ لم تجد لها مأوى، لجأت الى ظل حائط بناية لا زالت في طور الانشاء. وكانت تعمل "فرّاشة" في احدى الدوائر لتعيل اطفالها، وكانت تترك الصغير عرضة لحر الشمس والغبار مربوطاً في مهده الى ان تعود. ومرض الطفل، فاستأذنت المدير ان تأخذه معها الى الدائرة، ولكنه رفض طلبها رفضا قاطعاً. وعادت يوما بعد العمل لتجد طفلها ميتا في مهده!

لا ادري لماذا جاءت في خاطري هذه الحادثة التي جرت امامي قبل ايام في العمارة، عندما قرأت هذا الانجيل؟ فيسوع يرسل رسله ليطردوا الارواح الشريرة ويكرزوا بملكوت الله، بعالم جديد لا يكون فيه ظالم ومظلوم، متخم بكل شيء، وجائع الى كل شيء. فيسوع ينصحهم ألا يأخذوا معهم شيئاً، بل ليقاسموا الناس ما عندهم، وليشعروا بالحاجة اليهم، فيكتشفوا حقيقة الانسان. وحقيقة الانسان مثل حقل حنطة، فيها الجيد، وفيها الزؤان، وفيها اعشاب رديئة اخرى. الانسان ايضا يختلط فيه الشر بالخير، المرض بالعافية.

وكما انه لا يمكن ان نفرز الزؤان عن الحنطة من دون ان نعرض الحنطة للأذى، كذلك لا يمكننا ان نفصل البشر الى اشرار وصالحين من دون ان نظلم هذا او ذاك. ففي كل واحد منا كمية لا بأس بها من هذا الخليط.

في حادثة هذه المرأة البائسة، من المسؤول؟ -هي؟ أم زوجها السكير؟ ام مديرها، أم المجتمع، أم الشيطان، أم الله؟.. أم كل هؤلاء سوية؟

لقد تعودنا على هذا العالم كما هو، فلم نعد نلقي الاسئلة الجوهرية: ما هو الشر، وما هو الخير؟ كيف؟ واين نجدهما؟ هذا السؤال طرحه كاتب اول اسفار الكتاب المقدس عندما كتب قصة ادم وحواء وكيف ظنّا في الله شراً، وبحثا عن معرفة الخير والشر في شجرة: قصة ابتعادهما عن المنطلق الروحي، ليبحثا في عالم المادة والاكل والحس عن اجوبة لأسئلتهم المصيرية! انها قصة التيه في الجوانب الثانوية والهامشية للامور، والابتعاد عن الاسئلة الاساسية. تماما كما حين نصور الارواح الشريرة على شكل حيّات وعقارب، والشيطان على هيئة كائن اسود ذي ذيل طويل مدبب ونرتاح الى هذه الصورة، ناسين ان "الارواح الشريرة" الحقيقية لها اسماء اخرى اقرب الينا: البغضاء، الحقد، العنف، الظلم، الكذب، الاحتقار، التكبر، العناد، اللامبالاة، الانانية، الحرب... هناك ارواح شريرة لها وجهان: وجه جذاب، ووجه قبيح. فللمال، مثلا، وجه جذاب من حيث ضرورته للعيش والخدمات الجلى التي يقدمها للانسان؛ اما وجهه القبيح، فهو حين يتحول الى غاية -وهو الوسيلة فقط- والى إله صنم يتسلط على قلوب الناس ويصبح اساسا لكل قطيعة وطمع وجريمة! السلطة، هي الاخرى، لا بد منها لأي تنظيم مجتمعي، وهي في الاساس من كل تنسيق للخير العام وخدمة المجموع، غير انها تتحول الى نقمة يوم تصبح تسلطاً وطغياناً واستغلالاً واستئثاراً.

هذه هي الارواح الشريرة المعاصرة التي يأمرنا يسوع بطردها. لا بالكلام والنصح وحسب، بل بالعمل والمحبة. فيسوع يدعو تلاميذه أن يكونوا مستعدين لدفع الثمن: الجوع، العطش، المهانة... واذا ارادوا ان يسمعهم الناس، فعليهم ان يكونوا تحت رحمة الناس، اذ لا سبيل الى فرض القناعة من دون مثال، ولا اصلاح من دون تضحية، والتضحية تنبع من الشعور بالاشتراك في المسؤولية. والبشر كلهم مثل ركاب باخرة واحدة: إن غرقت هلكوا جميعا، وإن تسرب الماء فيها، لا يهم في غرفة من تسرب: المهم اصلاح الخلل.

الارواح الشريرة هي الافكار الخاطئة، هي الانعزالية، هي الانانية... التي تمنع الانسان عن المبادرة الى اصلاح نفسه واصلاح العالم. واول خطوة في اصلاح الذات تبدأ باصلاح النظرة، فسراج الجسد هو العين، وكثيرا ما ننظر ولا نبصر، او لا نرى بوضوح:

في اسبانيا، في مدينة قرطبة، جامع رائع بناه العرب، فيه عدد هائل من الاعمدة الرخامية تبدو وكأنها موزعة بطريقة عشوائية الى أن يأخذك الدليل الى نقطة يعرفها هو، فترى ان التوزيع ليس اعتباطيا، ومن هذه النقطة ترى ان هناك تناسقا رائعاً. ولكن، لا بد من دليل يضعك في المنظار المناسب! هكذا يضعنا المسيح في المنظار المناسب، وهذا المنظار هو منظار الاهتداء، منظار التوبة، منظار الرؤية الصحيحة: على الانسان ان يتوب، اي ان يتخلص من الارواح (الافكار والاحكام) الشريرة التي تسيطر عليه؛ ان ينظر الى الله والحياة من موقع المحبة والرحمة، لا من موقع الانغلاق على الذات والحقد والانتقام.

في قصة الام المسكينة، فان معاقبة الزوج اللامسؤول، او مدير الدائرة المتعنت في "تعليماته"، او انتظار نزول عقاب الله في هذا او ذاك، لن يصلح شيئاً من الواقع المرير: فالطفل مات، والعائلة تشردت، وكان يجب تجنب هذا وذاك! لذا ينبغي توسيع جدران السؤال الى افق آخر.. وينبغي اصلاح عواقب الحدث ومعالجة جذوره ومسبباته لئلا يتكرر.. بطرد الارواح الشريرة ووضع الناس في المنظار المناسب ليروا ويعوا مسؤولياتهم التي تبدأ بترع الاحكام المسبقة وتطهير نظرتهم الى الاخرين.. ثم احترامهم كبشر متساوين، لهم الحق في الحياة والكرامة.

طبيعة العلاقات الزوجية

"فدنا بعض الفريسيين وسألوه ليحرجوه: هل يحل للزوج أن يطلق امرأته. فأجابهم: بماذا أوصاكم موسى؟ قالوا: إن موسى رخص أن يكتب لها كتاب طلاق وتسرح. فقال لهم يسوع: من أجل قساوة قلوبكم كتب لكم هذه الوصية. فمنذ بدء الخليقة جعلهما الله ذكراً وأنثى. ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته. ويصير الاثنان جسداً واحداً. فلا يكونان اثنين بعد ذلك، بل جسد واحد. فما جمعه الله فلا يفرقنه الإنسان. وسأله التلاميذ في البيت أيضاً عن ذلك، فقال لهم: من طلق امرأته وتزوج غيرها فقد زنى عليها. وإن طلقت المرأة زوجها وتزوجت غيره فقد زنت".

(مرقس ١٠: ٢-١٢)

في هذا النص الانجيلي يختلف موقف يسوع عن معاصريه، فهو، في تعليقه على السؤال المطروح، لا يشرّع قانونا للعلاقات الزوجية، وانما يدعو الى اعادة النظر في العلاقة (وفي العلاقة الثلاثية ما بين الانسان والانسان، والانسان والله) على ضوء جوهر الانسان بالذات. فالفريسيون يجربون يسوع، اي يحاولون استدراجه الى ايضاح موقفه من اجتهاداتهم بشأن الطلاق، او لتبني موقف احدى فرقهم، لان الجدالات كانت قائمة منذ زمن طويل حول شرعية الطلاق وحول العلل الموجبة (في متى ١٩: ٤ تختلف صيغة سؤال الفريسيين عما هو في مرقس، ويرد كالاتي: "أيحلّ لأحد ان يطلق امرأته لأية علة كانت؟"). الفريسيون غرقى في وجهات نظرهم الضيقة، وهم لا ينتظرون من يسوع حلا، بل موقفاً ليحكموا عليه. فيأتي جواب يسوع -كالعادة- ليعيد الامور الى اصولها، فيتعدى حدود السؤال وينسلّ من الشرْك المنصوب. فالسؤال ينطلق من معطيات الشريعة اليهودية: "موسى أذن..."، فيجيب يسوع: "موسى أذن لقساوة قلوبكم..." -اي لانحرافكم عن شريعة الله الحقيقية- والشريعة الحقيقية هي التي كتبها الله في طبيعة الانسان منذ الخليقة: "ذكراً وانثى

خلقهما، فلذلك يترك الرجل اباه وامه ويلزم امرأته... ومن ثم فليسا هما اثنين بعد، بل واحد، فما جمعه الله لا يفرقه انسان".

هنا المفتاح: الله هو خالق الحب الزوجي. فالزواج البشري ليس فقط سنّة من سنن الطبيعة المادية؛ انه مسيرة انسانية عظيمة، ولا يكتمل حقا باتحاد الاجساد وحدها، بل بارتباط الرجل والمرأة ارتباطا كاملا بالروح والجسد، "فيصيران كلاهما جسدا واحدا"، اي شخصا واحدا. اما الانحرافات وتساهل بعض التشريعات، فلا يجوز ان تعتّم على جلاء الحقيقة وهي، ان الزواج في جوهره عطاء الحب ووحدة الحياة بين بشريين متساويين متكاملين، وان الزواج مختبر للمحبة والسعادة.

يقول مثل هندي: "عمر الانسان ينقسم الى ثلاث مراحل: في الاولى يعلّم نفسه، وفي الثانية يعلّم بيته، وفي الثالثة يعلّم المجتمع". والحال ان من لا يتعلم لا يمكن ان يعلّم. ومن هنا ياتي الإشكال. فعوض ان يكون الزواج عطاء، يصير مصلحة، فتضطرب الموازين ولا تعود هناك مساواة بين الرجل والمرأة. هكذا كان مفهوم المرأة عند معاصري يسوع: فقد كانت تُعتبر من الطبقات الدنيا في المجتمع، على مستوى الاطفال والعبيد. وسفر يشوع بن سيراخ نفسه (فصل ٢٥) يعكس هذه العقلية. فلقد كانت المرأة كالبضاعة تُشترى وتُباع: فهي تنتقل من ملكية ابيها الى ملكية زوجها، ويطلقها هذا متى يشاء او يبقيها. وقد حدد الربابنة بعض شروط الطلاق واختلفوا حول بعضها الاخر، فقال قوم بان الزنى، او اي سلوك مخل بالشرف، سبب كاف للطلاق، وقال غيرهم ان للرجل كل الحق في أن يطلق امرأته بمجرد ان يجد امرأة اجمل منها ويرغب في الزواج منها، او حتى اذا احرقت الطعام مثلا.. فتأمل المصير المهدد لهذه المخلوقة العزلاء!

ويأتي جواب يسوع، لا ليفتي في ما بينهم، او ليتدنى الى مستويات تفكيرهم، بل ليتكلم عن العلاقات الصحيحة والسليمة بين البشر. انه، بجوابه، يكسر طوق الاستبداد الذكوري ويعلن الثورة على مفاهيم زمانه حول المرأة وحول الزوج: ان الرجل والمرأة متساويان امام الله وامام البشر، لانهما مخلوقان كلاهما على صورة الله -المحبة، ومدعوان كلاهما الى ان يجسدا هذه المحبة في حياة العطاء المتبادل وفي هبة الحياة التي يشتركان سوية في منحها.

هذا الكلام مضت عليه الفا سنة، ومع ذلك فلا زال اليوم كثيرون يعتبرون المرأة ككائن ناقص قاصر، ولا ينتظرون منها سوى الدور الذي يرسمونه لها.

على هذا المنطق ثار المسيح: اولاً، لان كل استعلاء او استعباد او قسر، لا يتفق مع الحب. وثانياً، لان الاختلاف الطبيعي بين الرجل والمرأة لا يعني ان الواحد خير من الاخر. انه غنى وثروة اذا ماعرف كل منهما ان يخرج من ذاته ليتعلم من الاخر، فالواحد يكمل

بالاخر. علما بان طريق الحب ليس سهلا ابدا، وعليه ان يجتاز ويتجاوز كثيرا من الصعوبات والعقبات التي هي بمثابة مصاهر للتطهير، كي يكتمل. فكم من مشكلة بين الزوجين كان بالامكان ان تتحول الى طاقة جديدة من المحبة، عوض ان تكون معولا يصدّعها او خطوة تعيسة نحو القطيعة.

اني اعجب من مفهوم بعضهم حول طبيعة الحب والزواج، إذ ما أن تظهر الخلافات حتى يفكروا بالحل الاسهل والافجع الا وهو الفراق! اليس في هذا تسرع وانانية وعدم مبالاة بقيمة الشخص الذي ارتبطوا به. فاين الشعور بالمسؤولية والوعد الذي قطعوه على أنفسهم يوما، باقتسام الحياة سوية، بسرائها وضرائها، بحلوها ومرّها! اني اسأل هؤلاء هل، ترى، يلقون عنهم اي غرض او اداة معطوبة قبل التفكير في اصلاحها؟

ان المسيح يدعونا الى تجديد نظرتنا والى الانتصار على الانسان العتيق الذي فينا، فينبعث الانسان الجديد. وحتى يتحقق هذا، سيستمر الصراع قائماً، هذا الصراع الذي يُلزمنا بالحذر من انفسنا، من طبعنا وتطبعنا، من مجتمعنا ومفاهيمه المغلوطة. فغالبا ما نتخلص من تحمل المسؤولية ونلقي التبعة على الغير، ونبحث عن كبش فداء، فيكون اقربهم الينا أضعفهم تجاهنا. وكم دفعت المرأة ثمن ذلك في التاريخ، لان الرجل كان في الغالب صاحب القرار: قرار الزواج وقرار الطلاق!

الناس ذوو الارادة الصالحة

"ولَمَّا وُلِدَ يسوعُ في بَيتَ لَحمِ اليهودِيَّة، في أيَّامِ المَلِكِ هيرودُس، إذا مَجوسٌ قدِمُوا أُورَشليمَ مِنَ المَشرِقِ وقالوا: أينَ مَلِكُ اليهودِ الَّذي وُلِد؟ فقَد رأَينا نَجمَه في المَشرِق، فجِئْنا لِنَسجُدَ لَه. فلمَّا بلَغَ الخَبَرُ المَلِكَ هيرودُس، إضْطَرَبَ واضطَرَبَت مَعه أُورَشليمُ كُلُّها. فَجَمَعَ عُظَماءَ الكَهَنَةِ وكَتَبَةَ الشَّعْبِ كُلَّهم واستَخْبَرهم أَين يُولَدُ المسيح. فقالوا له: في بَيتَ لَحمِ اليَهودِيَّة، فقَد أُوحِيَ إلى النَّبيِّ فكَتَب: وأَنتِ يا بَيتَ لَحمُ، أَرضَ يَهوذا لَستِ أَصغَرَ وِلاياتِ يَهوذا فمِنكِ يَخرُجُ الوالي الَّذي يَرْعى شَعْبي إسرائيل. فدَعا هيرودُسُ المَجوسَ سِرّاً وتَحقَّقَ منهم في أَيِّ وَقْتٍ ظهَرَ النَّجْم. ثُمَّ أَرْسَلَهم إلى بَيتَ لَحمَ وقال: إذْهَبوا فابحَثوا عنِ الطِّفْلِ بَحْثاً دَقيقاً، فإذا وَجَدْتُموه فأَخبِروني لأذهَبَ أَنا أَيضاً وأَسجُدَ له. فلمَّا سَمِعوا كَلامَ المَلِكِ ذَهَبوا. وإذا النَّجْمُ الَّذي رأَوهُ في المَشرِقِ يَتَقَدَّمُهم حتَّى بَلَغَ المَكانَ الَّذي فيه الطِّفْلُ فوَقَفَ فَوقَه. فلمَّا أَبصَروا النَّجْمَ فَرِحوا فَرَحاً عَظيماً جِدّاً. وَدخَلوا البَيتَ فرأَوا الطِّفْلَ مع أُمِّه مَريم. فجَثَوا له ساجِدين، ثُمَّ فتَحوا خَزائِنَهم وأَهْدَوا إليه ذَهباً وبَخوراً ومُرّاً. ثُمَّ أُوحِيَ إليهِم في الحُلمِ أَلاَّ يَرجِعوا إلى هيرودُس، فانصَرَفوا في طَريقٍ آخَرَ إلى بِلادِهم".

(متى ٢: ١-١٢)

من هم هؤلاء المجوس القادمون من المشرق؟ هل هم منجمون من الكلدانيين؟ أم كهنة وثنيون قادمون من ابعد؟

هذه التصورات وغيرها، لا تاخذ بعدها الحقيقي الا اذا اعتبرنا اولئك المجوس من ضمن هؤلاء الناس ذوي الارادة الصالحة الذين يتكلم عنهم الانجيل، وقد اشرق عليهم الفرح والرجاء الصالح في يوم مولد المسيح. انهم ليسوا "أولادا لابراهيم" حسب الشريعة، اي انهم غرباء عن شعب الموعد، هؤلاء الذين لم يعرفوا المولود الجديد. فمجيء هؤلاء

المجوس الوثنيين القادمين الى النور من ارض بعيدة هم رمز لشمولية البشرى السارة، وأن من حق الوثنيين، منذ اليوم، الدخول في شعب العهد الجديد.

من جانب آخر، يوقفنا هذا النص الانجيلي على التناقض الذي كان قائما بين فئتين من الناس: بين جماعة الكهنة والشيوخ وعلماء الشريعة وأصحاب المعرفة المتمركزين في اورشليم وفي الهيكل حيث يستقرئون الكتب في انتظار المسيح الآتي، من جهة، ومن جهة اخرى بين هؤلاء الرجال الذين نجهل هويتهم الحقيقية، ولا تذكر الاناجيل اية معلومات عنهم سوى حبهم للمغامرة وترك اوطانهم وتجشم السفر للقاء رضيع عجيب رأوا "نجمه". انهم اشبه بابراهيم، ابيهم الجديد، الذي ترك بيت ابيه ووطنه حال سماعه نداء الرب وذهب ليعيش في الغربة، اتباعا لله الذي أحبه. ان الله يحب هؤلاء الذين يتخلون عن مناصبهم ويتركون مالهم وغناهم في سبيل الرغبة التي تتآكلهم، رغبة الاكتمال والوصول الى الحق. اما اولئك الذين يتسمرون في مناصبهم وفي مالهم وثرواتهم، وحتى في شخصيتهم وفضيلتهم، فالله يتركهم لقواهم الذاتية المحدودة. فيسوع هو موضوع قلق، اذن، لهاتين الفئتين: الفئة الاولى تقلق لسماعها ان نجم العدل والحق اشرق، وسوف ينجلي كذبهم وخداعهم وتتجلى حقيقتهم، لذا فقد اضطربوا وخافوا. أما هؤلاء الغرباء، فقد احسوا ان النجم الذي اشرق عليهم سيهديهم ويحررهم. فالتناقض قائم، اذن، بين الكتبة والعلماء واختصاصيي الشريعة والدين الذين يبحثون عن المسيح المنتظر في الكتب، ولكنهم لا يبصرونه عندما يحل في ما بينهم؛ وبين هؤلاء القادمين الى اورشليم من بعيد ليسجدوا للذي يجهلون كل شيء عنه.

اما التناقض الاخر الذي يعكسه الانجيل، فهو بين هيرودس نفسه ويسوع: فمن جهة نحن امام هيرودس العظيم، الملك المتنفذ الذي نال شهرته بالظلم والتعسف والفسق والتواطؤ والمساومة؛ ومن جهة اخرى امام يسوع، الضعيف، المسكين، الاعزل. هيرودس الكبير الملتحف بالعظمة في أورشليم عاصمته، أورشليم مدينة الملوك القدامى ورمز حضور الله في هيكلها الضخم حيث الشريعة والانبياء والعلماء؛ قبالة بيت لحم بلدة داؤد الوضيعة، المهملة، حيث جاء هؤلاء الغرباء، وحيث ولد المسيح المنتظر. فأورشليم لم تعد محط رحال الحجاج القادمين من اطراف الامبراطورية، لان بيت لحم حلت محلها لتستقبل رجال المشرق القادمين لتحية الملك الحقيقي. واذا بسط الاول (هيرودس) سلطانه بالظلم والقوة، فالثاني (يسوع) سيرسي اسس ملكوته على الحب والرحمة والحنان. وبينما واجه هيرودس يسوع بالعداء والحقد، وحاول قتله، نرى ذوي الارادة الصالحة هؤلاء يطلبونه باهتمام ليسجدوا له.

هكذا سيظل يسوع موضوع تناقض باستمرار، يدعو الانسان الى اتخاذ موقف منه، موقف الحق والخير والنور والتضحية والعطاء، لا موقف الانانية او التزلف. فسيقولها يوماً: "لن يكون لي تلميذا الا من حمل صليبه وسار على خطاي"!

المظاهر تخدع

"وقالَ في تَعليمهِ: إيَّاكُم والكَتَبة، فإنَّهم يُحبُّونَ المَشيَ بالجُبَب، وتَلَقّيَ التَّحيّاتِ في السَّاحاتِ وصُدورَ المجالِسِ في المجامِعِ، والمَقاعِدَ الأولى في المآدِب. يأكلونَ بُيوتَ الأرامِلِ، وهُم يُظهِرونَ أنَّهُم يُطيلونَ الصَّلاةَ. هؤلاءِ سينالُهُم العِقابُ الأشدّ.

وجَلَسَ يَسوعُ قُبالَةَ الخِزانةِ يَنظُرُ كيفَ يُلقي الجَمعُ في الخِزانةِ نُقوداً من نُحاس. فألقى كثيرٌ مِنَ الأغنياءِ شيئاً كثيراً. وجاءَت أرمَلَةٌ فَقيرةٌ فألقَت عُشرَين، أي فَلْساً. فدَعا تلاميذَهُ وقال لهُم: الحَقَّ أقولُ لكُم إنَّ هذهِ الأرمَلَةَ الفَقيرةَ ألقَت أكثرَ من جميعِ الذينَ ألقَوا في الخِزانة، لأنَّهُم كُلَّهم ألقَوا مِنَ الفاضِلِ عَنْ حاجاتِهِم. وأمّا هي فإنَّها مِنْ حاجَتِها ألقَت جميعَ ما تملِكُ، كُلَّ رِزقِها".

(مرقس ١٢: ٣٨-٤٤)

انه لملفت للانتباه ان الانجيليين يقدمون لنا دوما اشخاصا على طرفي نقيض! واذ يعكسون لنا موقف يسوع من بني جيله، لا ينون يلقون علينا الاسئلة المتعددة حتى اليوم!

مرة، في هذا النص، يشير الانجيل الى ان ملكوت الله هو للفقراء والمساكين. ومرة اخرى يوجه يسوع اللوم الى فئة من الناس اصبحت صورهم في الانجيل، وحتى لنا نحن ابناء القرن العشرين، صورة سلبية. الانجيل يحذرنا من هذه الفئة، فئة الكتبة والفريسيين. واذا اعطينا لهؤلاء اسما آخر اليوم، فهم، في الحالتين: من هؤلاء الذين يتميزون ببحثهم عن حب المظاهر، أو يحصلون على المناصب من دون جهد أو تعب، أو هم فارغون من اي عمق انساني وفكري، ويستغلون مناصبهم للصعود على أكتاف الاخرين كي يتسنى لهم أن ينظروا أبعد ويمسكوا بزمام الامور أو يتفرجوا على الاحداث! في حين يرزح المساكين تحت ثقلهم وعيونهم مكبوبة الى الارض، فيتعذر عليهم تحقيق آمالهم، وان امتد تفكيرهم الى أبعد من حيز نظرهم.

هؤلاء الكتبة هم الذين يحذّر الانجيل منهم، اذ يستغلون مناصبهم الدينية لبسط نفوذهم وسيطرتهم على الضعفاء والمساكين. هذه الفئة من الناس، لم يتردد المسيح من ردعها بكلمات قاسية، موضحاً أن البشرى السارة ليست الا للفقراء والضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة الا بالله؛ الذين ليست لهم المقدرة على الكلام، واذا تكلموا لا تُسمع أصواتهم؛ الذين، اينما اتجهوا، توصد الابواب في وجوههم.. ولكنهم سعداء لانهم يحملون في داخلهم قوة نفسية تجعلهم كالطود شامخين. ان البشرى السارة أُعلنت لهؤلاء "المساكين"، لانهم لا يكذبون، ولا يغشون، ولا يستغلون... واذا أعطوا، فبفرح يعطون، لانهم لا يعطون من فيض ما لديهم، ولا من فضلات مالهم وطعامهم، بل انما يعطون كل حاجتهم.. وهذا العطاء هو ما يشكل سر سعادتهم.

في زمن يسوع كان "الربينيون" (الرؤساء الدينيون) يلبسون الثياب الرسمية، وكانت هذه الثياب نوعا من المعاطف الفضفاضة التي تميزهم عن بقية الناس. وذهب كثير من الكتبة والفريسيين يطيلون اهداب ثيابهم رغبة في جلب نظر الناس واحترامهم. ولكن المظاهر الجوفاء ما هي الا وجه آخر للضعف. فالمرء، اذا شعر بمركب نقص وخوف من الاخرين، فانه يبحث عن البديل لمشاعره، به يزيل اثار نقصه ويغطي ضعفه.. فيذهب الى التصنع في تصرفه وحتى في ملابسه ومظهره الخارجي وفي كلامه، ليتظاهر بالقوة في بناء علاقته مع الاخرين، ويلجأ احيانا الى الكذب والرياء والخداع والمساومة..

ويسوع يتكلم عن الكتبة الذين يحتكرون "مفاتيح المعرفة" الروحية والزمنية، وكانوا يقوّون مراكزهم من منطلق هذا النفوذ. وكانوا ايضا يُعتَبرون مفسري الشريعة الرسميين، فكان ذلك ينعكس على لباسهم وتصرفاتهم المرائية، فيتظاهرون امام الناس بمظهر الحملان الوديعة. وبسبب تقواهم الزائفة وموقعهم الاجتماعي، كانت العادة تفرض على الناس ان يردوا لهم السلام والتحية في الشوارع، واليهم كان يعود ترؤس المجالس في المجامع وأول المتكآت في الولائم. أما عن تلميح يسوع الى علاقتهم ببيوت الارامل، فيقال ان بعض الكتبة كانوا يطالبون النساء الفقيرات بدفع اجور باهظة مقابل صلوات يطيلونها وارشادات يوزعونها، بل كان البعض يطالبون باجور اضافية.

هذه الصورة من زمان يسوع قد تبدو كاريكاتورية وبعيدة، ولكن أمثال هؤلاء المرائين لم يختفوا تماما من شوارعنا، وما زال الانسان معرضا لخطر نشوة الكبرياء واستدرار مديح الناس، بينما يبقى من الداخل فارغا.

لنعد الى أذهاننا قصة ذلك الحمار الذي تشرف، في زمان ما، بحمل ذخائر قديسين على ظهره ليطوف بها من قرية الى قرية للتبرك بها. وكم ازداد الحمار زهوا واعجابا عندما رأى الجموع تحتشد وتجثو خاشعة في كل زقاق يمر به والبخور تقدم نحوه من كل مكان: فكان يعود في المساء الى اسطبله وهو يفكر ما معنى هذه الحفاوة به وما معنى هذا الانقلاب تجاهه!!

تجارب يسوع

"ورَجَعَ يسوعُ مِنَ الأُردُنّ، وهو مُمتَلِئٌ مِنَ الرُّوحِ القُدُس، فكانَ يَقودُه الرُّوحُ في البرِّيَّةِ أَربَعينَ يوماً، وإبليسُ يُجَرِّبُه، ولَم يأكُلْ شَيئاً في تِلكَ الأَيَّام. فلَمَّا انقَضَت أَحَسَّ بالجوع. فقالَ له إبليس: إن كُنتَ ابنَ الله، فَمُر هذا الحَجَرَ أَن يَصيرَ رَغيفاً. فأَجابَه يسوع: مَكتوبٌ: لَيسَ بالخُبزِ وَحدَه يَحيا الإنسان. فصَعِدَ بِهِ إبليس، وأَراهُ جَميعَ مَمالِكِ الأَرضِ في لَحظَةٍ مِنَ الزَّمَن، وقالَ له: أُوليكَ هذا السُّلطانَ كُلَّه ومَجدَ هذهِ المَمالِك، لأَنَّه سُلِّمَ إِليَّ وأَنا أُوليه مَن أَشاء. فَإِن سَجَدتَ لي، يَعودُ إِلَيكَ ذلكَ كُلُّه. فأَجابَه يسوع: مَكتوبٌ: لِلرَّبِّ إِلهكَ تَسجُد، وإِيَّاه وَحدَه تَعبُد. فمَضى به إِلى أُورَشَليم، وأَقامَه على شُرفَةِ الهَيكَلِ وقالَ له: إِن كُنتَ ابنَ الله، فأَلْقِ بِنَفسِكَ مِن ههُنا إِلى الأَسفَل، لأَنَّهُ مَكتوبٌ: يُوصي مَلائِكَتَه بِكَ لِيَحفَظوكَ، ومَكتوبٌ أَيضاً: على أَيديهم يَحمِلونَكَ لِئَلاَّ تَصدِمَ بِحَجَرٍ رِجلَكَ. فأَجابَه يسوع: لَقَد قيل: لا تُجَرِّبَنَّ الرَّبَّ إِلهَكَ. فلَمَّا أَنهى إِبليسُ جميعَ مَا عِندَه مِن تَجرِبَة، إِنصَرَفَ عَنه إِلى أَن يَحينَ الوَقت".

(لوقا ٤: ١-١٣)

في خضم حياتنا البشرية، نلاقي مجابهات ثلاثاً هي تعبير عن رغبتنا في البقاء، والبقاء الافضل، وهي: ١. الحاجة الى الخبز للاستمرار في الحياة، ٢. الحاجة الى المال للتفاعل مع احداث الحياة والناس، ٣. الحاجة الى الحرية لتقرير المصير الذاتي والتوجه في افاق العالم الفسيح. حاجات اساسية، عليها يقوم بناء الذات، وبناء الحياة، وبناء العالم. غير أن هذه الحاجات تنقلب الى شهوات مضرة، اذا انحرفت عن تصميم الله الخالق، بانحرافها عن بناء الانسان الكامل والحياة الفضلى والعالم الجميل المنسجم مع ارادة الخالق. فالشهوة، اذن، تحت هذا المنظار، حاجة حياتية انحرفت عن غايتها الاصلية والاصيلة، فأضحت رغبة هدامة

كاذبة، لانها تبقى أرضية وحسية لا غير، ولا تخدم حاجات الانسان الثابتة النابعة من الروح والضمير والاهداف الانسانية المثلى. فيصير كل ما في الحياة "شهوة الجسد، وشهوة العين،وكبرياء الحياة".

وما اختلاء يسوع في البرية، متفرغا لله استعدادا لرسالته، الا ليضع أمامنا هذه الرغبات الثلاث في موضعها الصحيح، ويوجهها صوب غايتها الحقة البناءة. فالانسان، لكي يحيا حياة حقيقية بكل شموليتها، لا يكفيه الخبز وحده، بل ينبغي له أن يتغذى أيضا بكلام الله الذي فيه يتعلم كيف يكسب خبزه بشرف وكرامة، وكيف يقتسمه مع الناس، رمزا للمحبة وشعورا بالتضامن، دون أن يفقد الجوع والعطش الى الحق والخير والعدالة، ودون أن ينسى أن للحياة الانسانية حاجات روحية وفكرية ووجدانية ونفسية وجمالية واجتماعية.. غير الخبز. وفي التفاعل مع أحداث الحياة والناس، لا يجوز لنا الركوب على اجنحة الاطماع الانانية المادية، اذ ان في العالم بشرا غيرنا، لهم الحق في هذا الوجود، ولهم حصتهم من الحياة، بكل ما لهم من مقومات. وبالتوجه الى افاق العالم الفسيح وتقرير مصيره بنفسه، لا يجوز للانسان ان يزج بنفسه في مخاطر لا جدوى منها، أو يظهر بمظاهر بطولية زيفة استرضاء للناس. من جهة اخرى، اذا كان الاتكال على الله والثقة المطلقة به يُعتبران عبادة حقة، فان التخلي عن المسؤولية الذاتية وعن التروي والفطنة وانتظار ان يعمل الله عوضنا وينشلنا من المآزق التي نسجناها نحن بأيدينا لانفسنا.. تعتبر استخفافاً برحمة الله وقدرته وابوته.

وفي اخر الامر، ماذا تريد التجربة من مراودة الانسان؟ انها تريد ان يستقل الانسان عن الله، ويقيم نفسه الها باطلا للكون والحياة، ويستسلم لقدراته المحدودة ولشهواته المضلة، منغلقا على انانيته الذليلة والمذلة.

أما النصر على التجربة، فهو حصيلة موقف الانسان المؤمن بالله، الذي يتعامل مع الحياة ومقوماتها بكل أبعادها الفردية والجماعية، الزمنية والابدية، المادية والروحية، بعقلية مستنيرة بالايمان، وشفافية تنفذ اليها المحبة، وصمود يعززه الروح القدس: ويسوع هو مثالنا الامثل في هذا الصدد.

شخص المسيح، اعظم الآيات

"وكَلَّمَه بَعضُ الكَتَبَةِ والفِرِّيسيِّينَ فقالوا: يا مُعلِّم، نُريدُ أَن نَرى مِنكَ آية. فأَجابهم: جيلٌ فاسِدٌ فاسِقٌ يُطالِبُ بآية، ولَن يُعْطى سِوى آيةِ النَّبيِّ يونان. فكما بَقِيَ يُونانُ في بَطنِ الحُوتِ ثَلاثةَ أَيَّامٍ وثَلاثَ لَيال، فكذلكَ يَبقى ابنُ الإِنسانِ في جَوفِ الأَرضِ ثَلاثةَ أَيَّامٍ وثَلاثَ لَيال. رِجالُ نِينَوى يَقومونَ يَومَ الدَّينونةِ معَ هذا الجيلِ ويَحكُمونَ عليه، لأَنَّهم تابوا بإِنذارِ يُونان، وههُنا أَعظَمُ مِن يُونان. مَلِكةُ التَّيمَنِ تقومُ يَومَ الدَّينونةِ مع هذا الجيلِ وتَحكُمُ عليه، لأَنَّها جاءَت مِن أَقاصي الأَرضِ لِتَسمَعَ حِكمةَ سُلَيمان، وههُنا أَعظَمُ مِن سُلَيمان".

(متى ١٢: ٣٨-٤٢)

لقد تعودنا على اعتراضات الفريسيين والكتبة على كلام يسوع ومواقفه كلما استهدف سننهم: "أية آية ترينا فنصدقك؟". وفي كل مرة يطلبون آية كي يؤمنوا، ينتهون بالرفض. ذلك لان اياته تثير اعصابهم، كونها تحدث خارجا عن مدار سلطتهم وتعليمهم، فهم يفضلونها استجابة لرغبة منهم وتحت اشرافهم، كي يتمكنوا من مراقبتها باسلوبهم ومنطقهم، فيفندوها أو يقيّموا شخصيته من خلالها.

غير ان يسوع يصدهم بآياته، فيبتدئون يشكّون في انه هو المسيح، لانهم توقعوا المسيح على وجه آخر. أما هذا، فيخالف شرائعهم وسننهم ويندد بتصرفاتهم بالرغم من ادعائه تكميل الشريعة الموسوية. لقد أرادوا مسيحا يسير، على ما يبدو، في خطهم ويأتمر بسنتهم. وبما انه ليس كذلك، بل انه لم يترك فرصة الا واثبت أستقلاليته تجاههم، فسيحاولون التخلص منه، لانه أخذ يهدد وجودهم. وستكون اياته سبب التعجيل في قرار ادانته وقتله.

يطلبون منه آية!!

لقد أدرك يسوع نواياهم وقرأ الشر في عيونهم، ولمس الجحود في نفوسهم. لقد اجرى من الايات ما يكفي، ولكنهم رفضوا الحق. لذا نعتهم يسوع بالجيل الفاسد الفاسق! انهم لم يميزوا النعمة العظيمة التي أُوتوها، وهي ان الله جاء في ما بينهم: الكلمة تجسد وحل فيهم! فوجود يسوع المسيح ذاته هو أعجز الايات! وما يجريه من المعجزات، حتى إحياؤه الموتى، فليست -كما قال العلامة دانيال روبس في كتاب "يسوع في زمانه"- الا معجزات ملحقة تنبع من المعجزة الحقيقية الراهنة لشخص يسوع نفسه، اي كونه مسيحا ومخلصا. فالخلاف، اذن، هو خلاف حول شخص يسوع بالذات. لذا سيقدم لهم يسوع الدليل في شخصه، لا في أعماله فقط. وما الاية التي يقدمها لهم سوى آية موته وقيامته حيا في اليوم الثالث؛ ومن اجل أن يدركوا قصده، يعود بهم الى قصة يونان النبي ليروا فيها رمز حقيقته هو. فيونان، اذ ابتلعه الحوت، أعاده حيا بعد ثلاثة أيام، هكذا يسوع سيبتلعه الحوت بحكم الرؤساء، غير انه سيفلت من قبضتهم وسترده الارض حيا، منتصرا.. ورسالته ستستمر وتحيي: تلك أعظم آية تثبت حقيقة قوله انه المسيح ابن الله.

ولكن الكتبة والفريسيين تعاموا عن هذه الحقيقة، ويا ليتهم كانوا حقا عميانا لا يبصرون.. اذن لما أُدينوا! أما الان وقد رأوا الاية العظمى ورفضوا ان يؤمنوا، فسيحاسَبون ويُدانون. وهذا هو ما قصده يسوع عندما أضاف أن أهل نينوى وملكة التيمن سيدينون علماء اليهود الذين تنكروا للمسيح، وسيتنكرون لقيامته أيضا: "رشوا الجنود بمال كثير وقالوا لهم: اشيعوا ان تلاميذه جاءوا ليلاً وسرقوه"! أليس هذا ما أشاعوه بعد أن نهض الرب من بين الاموات حيا؟! أهل نينوى الجهال بالشريعة، الخطأة في نظر اليهود، آمنوا بيونان ورسالته وتابوا! ملكة التيمن الغريبة عن شعب الله ومواعيده، آمنت بسليمان وحكمته وتحملت مشاق السفر لسماعه! أما الكتبة والفريسيون، فقد تنكروا للمسيح ابن الله الذي عاش بينهم وعلمهم الحق. لقد تنكروا للمسيح الذي هو أعظم من يونان وأعظم من سليمان!

فكما كانت آية شخص يسوع ومعجزاته هي سبب ادانته من قبل الرؤساء والكهنة، هكذا ستكون هذه "الاية" نفسها دينونة لمن ينكره؛ وسيبقى يسوع الاية الباهرة الراهنة لكل الاجيال، وستبقى قيامته مقياس المحاسبة لفريسيي كل العصور.. اولئك الذين يحاولون فهم المسيح وفق أطرهم الفكرية وقياساتهم المحددة، وعلى هواهم وسننهم المغرضة، لا على حقيقته هو.

التلاميذ الحقيقيون

"لَيسَ مَن يَقولُ لي يا ربّ، يا ربّ يَدخُلُ مَلكوتَ السَّمَوات، بل مَن يَعمَلُ بِمَشيئَةِ أَبي الَّذي في السَّمَوات. فَسَوفَ يقولُ لي كثيرٌ منَ النَّاسِ في ذلكَ اليَوم: يا ربّ، يا ربّ، أَما باسْمِكَ تَنبَّأْنا؟ وباسمِكَ طرَدْنا الشَّياطين؟ وباسْمِكَ أَتَيْنا بالمُعْجِزاتِ الكثيرة؟ فأَقولُ لَهم عَلانيةً: ما عرَفْتُكُم قَطّ. إِلَيْكُم عَنِّي أَيُّها الأَثَمَة! فمَثَلُ مَن يَسمَعُ كَلامي هذا فيَعمَلُ به كَمَثَلِ رَجُلٍ عاقِلٍ بَنى بيتَه على الصَّخْر. فنزَلَ المطَرُ وسالتِ الأَودِيَةُ وعَصفَتِ الرِّياح، فثارت على ذلكَ البَيتِ فلَم يَسقُطْ، لأَنَّ أساسَه على الصَّخر. ومَثَلُ مَن سَمِعَ كلامي هذا فلَم يَعْمَلْ به كَمَثَلِ رَجُلٍ جاهِلٍ بَنى بَيتَه على الرَّمْل. فنزَلَ المطَرُ وسالتِ الأَودِيةُ وعَصَفَتِ الرِّياح، فضَرَبَت ذلكَ البيتَ فسَقَط، وكان سُقوطُه شديداً".

(متى ٧: ٢١-٢٧)

يتوهم البعض من أدعياء الايمان بالله ان دخول ملكوت الله منوط بمجرد دعاء يرفعونه الى الله، أو طلب يرددنونه دون عناء أو تعب، وكأن ملكوت الله طعام لذيذ يقدمه الله على طبق لطالبيه، لمجرد انهم طلبوه بالكلام. انهم لعلى ضلال، لان ملكوت الله ليس اكلا ولا شربا، ولا يناله الانسان الا بالعمل الدؤوب وبالسير بحسب ارادة الاب السماوي. فالقول والعمل في الحياة الايمانية موقفان متلازمان أو متنافران، بمقدار ما يكون بينهما من الترابط والانسجام، أو من التفكك والانفصام في السلوكية والتصرف.

ان من بين مشاكل الانسان المعاصر، مشكلة الفصل بين ما يقال وما يُعمل. فكم هم كثر اليوم المنادون بالخير والصلاح، وذارفو دموع التماسيح حزنا على الاخلاق والمثل العليا، وادعياء الحق والعدالة، مع ان عالمنا اليوم يعيش في دوامة مليئة بالتناقضات، ينهشها

الطمع والحسد، وتتآكلها الانانيات والاحقاد، وتجرفها المادة والتهافت على الحاجات المحسوسة المباشرة!

ان الرب يريدنا حكماء، نفهم معنى الحياة. انه، هو الرب الاله، خالق الكون وصانع الانسان ومخلصه، بقوله لنا: "ليس كل من يقول لي: يا رب، يا رب، يدخل ملكوت السماوات، بل الذي يعمل ارادة ابي الذي في السماوات"، انما يريد ان يفهمنا بأنه تعالى ليس شعارا نرفعه، ولا زيا نتزيا به، ولا واجهة نختفي وراءها. ان الرب الاله هو محبة في ذاته وتجاه البشر، ورغبته هي ان يعيش البشر هذه المحبة فيما بينهم، بغض النظر عن تبايناتهم الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية أو الدينية. هذا هو معنى القول المأثور "الدين لله"، وهذا هو جوهر الايمان بالله. ومن دون هذه المحبة التي تشع من الله على البشر، ومن كل واحد على اخوته البشر الاخرين، لا يكون الدين والتدين الا فعلا أجوف لا روح له، مهما بدت عليه مظاهر التقوى.

فالمؤمن بالله ايمانا صادقا، عاملا بالمحبة، هو رجل حكيم، متماسك الشخصية، يكون قوله مرآة لعمله، وعمله ناطقا بقوله، راسخا في مبادئه، لا يتزعزع امام المغريات والصعاب مهما طغت عليه. واذا كان كذلك، فلأنه ثابت مع الله وفي الله، لاخوف عليه من السقوط في مهاوي الشر. لحكيم مثل هذا ولأمثاله، ملكوت الله! حيث انه بنى بيته على الصخرة، فلا خوف عليه من المطر والسيول والرياح والزوابع.

هكذا اذن لا يدخل ملكوت الله في السماء الا من ساهم في بناء هذا الملكوت على الارض. وبناء الملكوت على الارض يعني العمل بالحق والخير والمحبة: "ليأت ملكوتك كما في السماء كذلك على الارض". بناء ملكوت الله هو المساهمة في اقامة هذا المجتمع الذي يكون الله منبعه ومصبّه، مجتمع العدل والانسانية، مجتمع يتكاتف فيه الانسان مع اخيه الانسان، لا كفرد وحسب، بل كجماعة دولية، في تكوين حضارة اكثر انسانية تشمل الكائن البشري كله، روحاً وجسداً، وتجعل الارض موطناً حقيقياً للسلام والمحبة والتآخي والبناء والايمان بالله الواحد أب الجميع.

واذا كان ذلك مطلوباً من كل انسان مخلوق على صورة الله ومثاله، فكم بالاحرى من تلاميذ يسوع الذين أقامهم في المجتمع نوراً وملحاً!

بالايمان تقاس النعم

"ودخَلَ كَفَرْناحوم، فدَنا مِنه قائِدُ مائَةٍ يَتَوَسَّلُ إلَيه فيَقول: يا رَبّ، إنَّ خادِمي مُلقىً على الفِراشِ في بَيْتي مُقعَداً يُعاني أشَدَّ الآلام. فقال لَه: أأَذْهَبُ أنا لأشفيَه؟. فأجابَ قائدُ المِائة: يا رَبّ، لَستُ أهْلاً لأن تَدخُلَ تَحتَ سَقفِي، ولكِن يَكفِي أن تَقولَ كَلِمَةً فيَبرأ خادِمي. فأنا مَرؤوسٌ ولي جُندٌ بإمرَتي، أقولُ لِهذا: إذهَبْ! فيَذهَب، ولِلآخَر: تَعالَ! فيأتي، ولِخادِمي: إفعَلْ هذا! فيَفعَلُه. فلَمَّا سَمِعَ يسوعُ كَلامَه، أُعْجِبَ به وقالَ لِلَّذينَ يَتبَعونَه: الحَقَّ أقولُ لَكم: لَم أجِدْ مِثلَ هذا الإيمانِ في أحَدٍ مِنَ إسرائيل. أقولُ لَكم: سَوفَ يَأتي أُناسٌ كَثيرونَ مِنَ المَشرِقِ والمَغرِب، فيُجالِسونَ إبراهيمَ وإسحقَ ويَعقوب على المائِدةِ في مَلَكوتِ السَّمَوات، وأمَّا بَنو المَلَكوت فيُلقَوْنَ في الظُّلمَةِ البَرَّانِيَّة، وهُناكَ البُكاءُ وصَريفُ الأسنان ثُمَّ قالَ يسوعُ لِقائِدِ المِائة: إذهَبْ، ولْيَكُنْ لَكَ بِحَسَبِ ما آمَنتَ. فبَرِئَ الخادِمُ في تِلكَ السَّاعَة".

(متى ٨: ٥-١٣)

لقد اختلف الانجيليون بعض الشيء في تفاصيل رواية الحدث. فيوحنا يجعله في قانا الجليل (٤: ٤٦)، بينما يتحدث لوقا عن وفدين ارسلهما القائد الى يسوع (٧: ٣ و٦). واذ يبدو يسوع، لدى يوحنا، وكأنه يلوم الضابط: "اذا لم تروا الايات والاعاجيب لا تؤمنون"، نراه في متى ولوقا يمتدح ايمان الضابط الوثني ويعلن انه لم ير له مثيلا. ولكن بالرغم من هذا الاختلاف في التفاصيل، فقد اتفق الانجيليون على جوهر القصة ونتائجها، أي على موقف الضابط. فهذا الضابط الوثني يتكلم ببساطة وصراحة وعن ادراك. لا التواء في كلامه ولا دهاء، لا سياسة ولا تمليق. الضابط يعرف من هو: انه جندي روماني غريب، ويعرف من هو يسوع في اعين الشعب: انه نبي اليهود المنتظر. والرومان لا يعترفون بالله الواحد ولا ينتمون الى جماعة اليهود، بل يعرف الضابط ان دخول اليهودي بيتا وثنيا يعتبر

نجاسة لليهودي، لذا يعترف بتواضع بليغ انه لا يستحق أن يدخل يسوع بيته. ولكن الحاجة تتخطى هذه الاعتبارات، والايمان الذي يحرك الضابط الروماني يتجاوز هذه الموانع.. اضافة الى ان القائد يعي تماما أن ما يطلبه ليس حقا، وان كان مؤمنا بقدرة يسوع. فالشفاء المطلوب يبقى نعمة مجانية يقررها الرب.. لذا لم ير نفسه اهلا لان يكلف المعلم عناء زيارته في بيته، ولا رأى من الضرورة أن يتجاوز المعلم تقاليد امته، فيعرّضه للملامة والادانة.

وما يبدو اكثر نكهة في هذه القصة هو أن الضابط ينطلق بعفوية من موقعه العسكري. فهو اذ يعرف ان القيادة لا تلزم حضور القائد ذاته في موقع العمل لاصدار الاوامر او للاشراف على تنفيذها، فهو يأمر من مقره، واوامره تنفذ في أقصى البلاد، لذا لا يرى حاجة الى حضور يسوع بشخصه. فالضروري الاهم هو أن يقبل يسوع باجراء الشفاء. فيسوع، في نظر القائد الروماني، لا يحتاج كسائر الاطباء الى فحص المريض حتى يعالجه: انه النبي، صديق الله ووليه؛ الله لا يحتاج، لا الى حضور مادي ولا الى وسيط، لان الطبيعة تستجيب لاوامره مباشرة... هذه هي القناعة الهادئة التي يعكسها ايمان الضابط، وهذا هو بالذات ما امتدحه يسوع عليه حين اعلن انه لم يجد مثل هذا الايمان ولا بين اليهود انفسهم، هم الذين يدّعون انهم شعب الله، شعب الانبياء والمواعيد، شعب الايمان. وبيدهم مفتاح المعرفة، وقد اقامهم الرب نورا للامم، كما جاء في اشعيا (٤٩: ٦).

هذه هي عفوية الضابط، وكأني بما تقول: "هذا انا، هذه قناعتي، هذا املي.. فلا حاجة ان تكلف نفسك. استخدم سلطاتك، امر من عندك يكفي. مُرْ فتطاع!".

هكذا يصبح قائد المئة الروماني الوثني مثلا للمؤمنين ببساطته وثقته. لقد امن بيسوع والله، قبل حدوث المعجزة، لا بل لم تحدث المعجزة الا على اثر الايمان. فالايمان هو الذي اثار المعجزة، لا العكس. فليت المؤمنين لا ينتظرون المعجزات كي يؤمنوا! ليتهم لا يؤسسون ايمانهم على المعجزة! ان الايمان قبل كل شيء التزام، والالتزام يقاس بالافعال، والافعال تُقيَّم بما تستند اليه من بساطة قلب وصفاء فكر وجرأة وثقة.

اذا ما تحلى المؤمن بمثل هذا الموقف فسيعرف كيف يتوجه بطلباته الى الله.. سيتوجه اليه كما يتوجه الطفل الى ابيه، أو الصديق الى صديقه، عارضا حاله عليه، واضعا حاجته بين يديه بثقة ومحبة.. مع استعداد لتقبل الجواب مهما كان، حتى اذا لم يأت بالصيغة المنتظرة. فالايمان ليس منطقا بشريا يُقاس بالكيل والميزان، ولا عاطفة عابرة أو انفعالا: انه قناعة وثقة واطمئنان الى الرب، والرب يجازي كل واحد على قدر ثقته وقناعته التي تلهم اعماله (متى ١٦: ٢٧).

الصلاة وابعادها

"وضرَبَ لَهم مثلاً في وُجوبِ المُداوَمةِ على الصَّلاةِ مِن غَيرِ مَلَل، قال: كانَ في إحدى المُدُنِ قاضٍ لا يَخافُ اللهَ ولا يَهابُ النَّاس. وكانَ في تلك المَدينَةِ أَرمَلَةٌ تَأتيهِ فتَقول: أَنصِفْني من خَصْمي، فأَبى عليها ذلِكَ مُدَّةً طَويلة، ثُمَّ قالَ في نَفْسِه: أَنا لا أَخافُ اللهَ ولا أَهابُ النَّاس، ولكِنَّ هذه الأَرمَلَةَ تُزعِجُني، فسَأُنصِفُها لِئَلاَّ تَظَلَّ تَأتي وتَصدَعَ رَأسي. ثُمَّ قالَ الرَّبّ: إسمَعوا ما قالَ القاضي الظَّالِم. أَفما يُنصِفُ اللهُ مُختاريهِ الَّذينَ يُنادونه نهاراً ولَيلاً وهو يَتَمهَّلُ في أَمرِهم؟ أَقولُ لَكم: إِنَّه يُسرِعُ إِلى إِنصافِهم. ولكِن، متى جاءَ ابنُ الإِنسان، أَفَتُراه يَجِدُ الإِيمانَ على الأَرض؟".

(لوقا ١٨: ١-٨)

هذا مثل عن الصلاة من دون ملل. وكما في كل امثال الانجيل، يعلمنا يسوع فيه من هو الله وكيف نبني علاقتنا به. فيبدو هنا أن التلاميذ قد عانوا حقا من مشكلة الصلاة، مما أثار فيهم التساؤل، ولربما ملّوا كما نمل نحن اليوم من الصلاة. لقد كانت الصلاة مشكلة الجماعات المسيحية الاولى منذ القدم، وهي مشكلتنا نحن ايضاً، اذ اننا لا نعرف كيف نصلي، ونكاد نجهل أية صيغة أخرى للصلاة غير الطلب. واذا طلبنا لا نعرف ماذا نطلب وكيف نطلب، فنطرح على انفسنا اسئلة عديدة: كيف نصلي؟ كم مرة نصلي؟ وهل يستجيب الله لصلاتنا؟

ان الصلاة مملة لمن كان نَفَسُه قصيرا. فترانا نطيل الصلاة وقت الضيق والشدة ونحاول أن نخفي مخاوفنا، واذا خابت امالنا، فسرعان ما تخبو صلاتنا. من الناس من يصبح شعلة نار بسبب فكرة خاطفة، أو صلاة عاطفية تلاها مع اصدقاء فيتقد غيرة وحماسا، غير ان مشكلة عابرة تضعف همته فيتخلى عن كل شيء. مثل هؤلاء تغلب عليهم العاطفة،

فلا يستمرون على الصلاة لان نظرتهم الى الحياة قصيرة. نصلي من اجل مريض أو جريح علقنا عليه الامال، وها انه يموت! فنتساءل: ألم نُضِعْ وقتنا واملنا في الصلاة؟ نصلي من اجل السلام، وها أن الحروب تزرع الدمار! نصلي كي ننجح في الامتحان أو في المشروع الفلاني، وتأتي النتيجة أحيانا متناقضة مع طموحاتنا...

ان الصلاة تخيب الامال كلما اعتبرناها مقايضة او وسيلة للحصول على شيء ملموس نضع مقاييسه نحن لانفسنا، او كلما جعلنا من الله منفّذاً لاحلامنا القصيرة المدى، ولكن اذا لم تكن الصلاة انتظارا لما نطلب، فما هي اذن؟

الصلاة قبل كل شيء هي انتظار الله للانسان، الانسان الذي هو كالارض العطشى، ويروي الله عطشه بما يراه، بحكمته وحبه، الافضل له. والانسان في الصلاة يكون كالطفل الواقف بين يدي ابيه، بل في حضنه، يسرد عليه محبته قبل طلباته.. وينتظر جوابه بفرح. ألم نشاهد منظر طفل يأتي بحماس الى ابيه أو امه ليطلب شيئاً، ثم لا يُلبّى طلبه لسبب ما، فيعود الى العابه فرحا مع ذلك؟! هكذا يجب أن تتسم الصلاة بثقة عميقة بذلك الذي يقود الانسان الى الفرح، ولا يريد له سوى السعادة. فنحن، في الصلاة، كهذا الطفل، لا ننتظر شيئاً مادياً أو تسلية حسية أو تلبية طلب بحرفيته، بقدر ما نطمئن في اشراك الله ابينا في أفراحنا ومحننا وحاجاتنا، ونكون مستعدين لقبول كل شيء بثقة وانفتاح الى الله المحب، وبقناعة من ان الله يحبنا اكثر مما نحب انفسنا.

الصلاة تعبر عن علاقة الحب والصداقة: بحسب هذا المفهوم، لا ينظر الانسان الى الله وكأنه مُلزَم باستجابة كل ما نطلبه وكما نطلبه.. والا لكنا كمن يجرب الله ويقول له: اذا كنت تحبني فأظهر صدق محبتك، والا شككت في صدقك! عليك أن تفعل كما نطلب، وكأننا نقلب الاية فنقول: لتكن مشيئتنا لا مشيئتك! ولكن الله لا يعاملنا بحسب منطقنا المحدود. فعلامة الحب هي علامة الصداقة، والصداقة تبنى على مراحل وخبرات. فسواء حصلنا على امنياتنا ام لم نحصل، في الصلاة، اذا كنا في علاقة بنوة ومحبة مع الله، فلن يغير ذلك من طبيعة علاقتنا معه. واذا كانت علاقتنا مع الله نفعية، فصداقة الله معنا ليست سوى حب وعطاء وعطف ورحمة.

الصلاة جزء من حياتنا الايمانية والتزامنا في الحياة. فالصلاة الواثقة تُجرد الانسان من الاتكالية العمياء وانتظار كل شيء من الله من دون عناء. يتمنى شبابنا بناء المستقبل، ولكن المستقبل نبنيه بسواعدنا التي يسندها الله. الطموح شيء والواقع شيء اخر. فالواقع كأس ممزوج بصراحة الواقع والحياة التي لاترحم احيانا. والله الذي يسندنا حتما لا يحل مشاكلنا بعصا سحرية عوضنا كما في الافلام: الله يعمل من خلال ارادتنا وجهدنا ومن خلال تلمسنا للواقع. فالحالمون يظنون ان الحياة الهنيئة والسعادة (الابدية والحاضرة) تشترى

بالصلوات: هؤلاء هم الذين يصلون بعاطفة سطحية، ولكنهم لا يتذوقون طعم الحياة الحقيقية، لانهم يعتبرون الصلاة عنصرا مستقلا عن الحياة العملية. لذا فالعلاقة مع الله في الصلاة لا تقاس الا بعمق علاقتنا مع اخوتنا.

الله لا يحتاج الى صلاتنا بقدر ما يحتاج الى ان نتحسس بعمق حاجات اخوتنا. انه لا يحتاج الى غنانا، بل الى فقرنا، والفقر هو ان ننتظر كل شيء من الله بثقة وإيمان، لا انتظار الكسالى والعاطلين والطفيليين، بل انتظار الفلاح الذي يشق الارض ويبذر وينظر الى السماء في الوقت عينه.

اذا فعلنا كل ذلك، لا نخف اذ ذاك من ان نطرق باب الله الرحوم. فاذا كان قاضي الظلم قد استجاب الى طلب الارملة، فكم بالحري الله الذي يعطينا اكثر وافضل مما نطلب: "ابن من منكم يسأل اباه خبزا فيعطيه حجرا؟ أو سمكة فيعطيه بدل السمكة حية؟... فكم بالاحرى ابوكم السماوي يمنح الروح القدس لمن يسأله! (لوقا ١١: ١١-١٣).

بين الاستقرار والشكليات: المغامرة

"أَمَّا أَصلُ يسوعَ المسيح فكانَ أنَّ مَريمَ أُمَّه، لَمَّا كانَت مَخطوبةً لِيُوسُف، وُجِدَت قَبلَ أَن يَتَساكنا حامِلاً مِنَ الرُّوحِ القُدُس. وكانَ يُوسُفُ زَوجُها باراً، فَلَمْ يُرِدْ أَن يَشهَرَ أَمْرَها، فعزَمَ على أَن يُطلِّقَها سِرّاً. وما نَوى ذلك حتَّى تراءَى له مَلاكُ الرَّبِّ في الحُلمِ وقالَ له: يا يُوسُفَ ابنَ داود، لا تَخَفْ أَن تَأتِيَ بامرأَتِكَ مَريمَ إِلى بَيتِك. فإِنَّ الَّذي كُوِّنَ فيها هوَ مِنَ الرُّوحِ القُدُس، وستَلِدُ ابناً فسَمِّهِ يسوع، لأَنَّه هوَ الَّذي يُخَلِّصُ شَعبَه مِن خَطاياهم. وكانَ هذا كُلُّه لِيَتِمَّ ما قالَ الرَّبُّ على لِسانِ النَّبِيّ: ها إِنَّ العَذراءَ تَحْمِلُ فتَلِدُ ابناً يُسمُّونَه عِمَّانوئيل أَيِ اللهُ معَنا. فلمَّا قامَ يُوسُفُ مِنَ النَّوم، فَعلَ كَما أَمرَه مَلاكُ الرَّبِّ فأَتى بامرأَتِه إِلى بَيتِه، على أَنَّه لم يَعرِفْها حتَّى ولَدَتِ ابناً فسمَّاه يسوع.

ولَمَّا وُلِدَ يسوعُ في بَيتَ لَحمِ اليهوديَّة، في أَيَّامِ المَلِكِ هيرودُس، إِذا مَجوسٌ قدِمُوا أُورَشليمَ مِنَ المَشرِقِ وقالوا: أَينَ مَلِكُ اليهودِ الَّذي وُلِد؟ فقَد رأَينا نَجمَه في المَشرِق، فجِئْنا لِنَسجُدَ لَه. فلمَّا بلَغَ الخَبَرُ المَلِكَ هيرودُس، اضْطَرَبَ واضطَرَبَت مَعه أُورَشليمُ كُلُّها".

(متى ١: ١٨-٢٥؛ ٢: ١-٣)

كم من شاعر تغنى بالوليد الجديد، وكم ادهش الناس من كافة الاديان والامصار. كم من ام ناغت طفلها باسمه، وأسمع شاعرنا السرياني يقول: "مررت ببيت لحم وسمعت مريم تناغي طفلها بأحلى الكلمات..."

اسم "يسوع"، ما أحلاه! وكم هو حلو عندما ينطق به الطفل الصغير، وهو بالكاد يكون قد تعلم ان يلفظ الكلمات الاولى: بابا وماما. في الكنيسة عندما نسمع هذه الكلمة نحني رؤوسنا احتراما واجلالا. واذكر ايام كان اباؤنا واجدادنا يترعون أغطية رؤوسهم لدى سماعهم كلمة "يسوع" احتراماً.

فما سر هذا الاسم الحلو يسوع؟ لماذا ينفذ شذاه الى القلوب كنفاذ المطر الناعم في الارض العطشى؟

السر هو في كون يسوع حاضرا فيما بيننا، وليس اسطورة ولا وهما او خيالا. اجل، انه ليس فيلسوفا ولا حكيما من الحكماء، ولكنه اعظم. فانجيله لا نقراه كما نقرأ كتاب راما كريشنا أو بوذا أو جبران. يسوع هو ابن زمانه، وينتمي الى عائلة بشرية تمتد جذورها في تربة وحضارة وارض فلسطين. وكم جذبنا هذا الطفل، لا لعينيه الزرقاوين كما نراه في مغارتنا الكارتونية، ولا لوجنتيه الورديتين! لقد جذبنا، وهو الغريب والشريد، تضامنه مع الاف الاطفال الذين ترتسم على عيونهم البراءة وهم بلا مأوى ولا عائلة، اليوم في اماكن كثيرة من الدنيا. اسمه يسوع: الله يخلص، الله معنا، عمانوئيل. وهل من اسم أقرب الى الواقع منه. أراني اسمع بطرس ويوحنا ومتى وتوما وغيرهم من الرسل يكلموننا عن هذا الطفل: الله معنا. انه البشرى! البشرى التي تشفي المرضى اليوم وتسلي الحزانى وتعيد الاسرى احرارا... الله معنا: اليوم يتم الفرح والسعادة ويشع النور في قلوب الالاف من الناس وهم ينتظرون بصيص نور في مغاور قلوبهم. كم اثار هذا الطفل الدهشة للمجوس والرعاة، وكم يثير اليوم ايضا من طاقة لكل انسان أحب الحياة وأحب أن يعيشها حرة كريمة، ويتطلع الى المستقبل عوض ان ينعم مستقرا في هدوء بيته. مثل هؤلاء هم الذين يبتكرون اسلوبا في الحياة غير اسلوب الشكليات في المجتمع: القيود والتقاليد العائلية، في الزواج، في الزيارات، في المجاملة، في العلاقات والمراجعات الرسمية في الدوائر. التعامل بالمجاملات الجوفاء على حساب الصدق والحقيقة وعلى حساب المستضعف والفقير الذي توصد الابواب بوجهه اينما ذهب، في حين يحتاج هؤلاء الى علاقة صداقة وصراحة وبساطة، والى روح انسانية، الى قلب محب والى عيون تبتسم وتخلق الامل وتبعث الرجاء للحياة.

كل شيء مهما كان جيداً يتعرض للابتذال اذا تكرر من دون روح. مثل طعام لذيذ أو لوحة فنية أو صورة شخص عزيز نعتز بها لحين ونوليها مكان الصدارة، ولكن سرعان ما نستبدلها باخرى أو نجعلها على الرفوف، ويأتي الغبار ليمحو اثارها. مثل كلمة "حب" أو "صداقة" تصبح احياناً مبتذلة اذا جردناها من روحها وجعلناها مجرد وسيلة للوصول. يسوع، تولّع به المجوس والرعاة والرسل لانه كلمهم باللغة التي كانوا ينتظرونها، لغة المحبة والصدق والصفاء، واعطاهم من دفئه، وليس كأولئك المتعالين والمستكبرين والذين يحبون ان يصطادوا في الماء العكر بالمجاملات الجوفاء والحيلة والخداع.

فالطريق الى يسوع، الى بيت لحم، هو طريق الحياة، وهو طريق مغامرة ومسيرة من دون توقف. من عاش علاقة صداقة وحب يتذوق طعم المغامرة، والمغامرة هي الطريق الى النضوج، والنضوج في الحياة والايمان يتم عبر الالم.

ان عمانوئيل "الله معنا" أحب أن يدخل في مغامرة مع الانسان، منذ القدم، ورافقه عبر التاريخ. فيسوع تضامن مع الانسان ودعاه الى ان يعيش المغامرة ذاتها. ولكن من يخاف من الحياة لا يجرؤ على التقرب من بيت لحم؛ انه يتهرب من الواقع، هذا الواقع الذي يرى كم هو مرا! مثل هؤلاء الخوافين هم الذين يتمسكون بالشكليات ويحتمون في ظلها، ويتهربون من الحياة ومن الناس ويغرقون في مآسيهم وفي ظلام "مغارتهم"، ولا يحبون أن يسطع النجم المشرق ليزيل مخاوفهم. لقد استقروا في أمكنتهم، لانهم آثروا ان يتقوقعوا على ذواتهم، فأصبحوا في دوامة الحياة عرضة للقلق والخوف.

"الله معنا"، ليس مجرد اسم، انما هو برنامج للحياة يحمل امنيات السلام والمحبة والاخاء، ولكنه طريق للحياة المتحركة لا للاستقرار. فالله يطرق بابنا ويدعونا لنكتشفه كصديق ومحب، له وجه انسان، وينظر الينا بحنان وعطف، ويفتح افاقا جديدة للحياة ويجعلنا نستذوق طعم الحياة ومعناها، وقد كتب على جبيننا "الله معنا" وعلى عيوننا ارتسم بريق الامل في الحياة.

الثقة بالنفس والتعبير بلغة القلب

"وعادَ يسوعُ إِلى الجَليلِ بقُوَّةِ الرُّوح، فانتَشَرَ خَبَرُه في النَّاحِيَةِ كُلِّها. وكانَ يُعَلِّمُ في مَجامِعِهم فيُمَجِّدونه جَميعاً. وأَتى النَّاصِرَةَ حَيثُ نَشَأَ، ودخَلَ المَجْمَعَ يَومَ السَّبتِ على عادَتِه، وقامَ لِيَقرأ. فدُفِعَ إِلَيه سِفْرُ النَّبِيِّ أَشَعْيا، فَفَتَحَ السِّفْرَ فوَجدَ المَكانَ المكتوبَ فيه: رُوحُ الرَّبِّ عَلَيَّ لأَنَّهُ مَسَحَني لأُبَشِّرَ الفُقَراء وأَرسَلَني لأُعلِنَ لِلمَأسورينَ تَخلِيَةَ سَبيلِهم ولِلعُميانِ عَودَةَ البصَرِ إِلَيهم وأُفَرِّجَ عنِ المَظلومين وأُعلِنَ سَنَةَ رِضاً عِندَ الرَّبّ. ثُمَّ طَوَى السِّفرَ فَأَعادَه إِلى الخادِمِ وجَلَسَ. وكانَت عُيونُ أَهلِ المَجمَعِ كُلِّهم شاخِصَةً إِلَيه. فَأَخَذَ يَقولُ لَهم: اليوم تَمَّت هذه الآيةُ بِمَسمَعٍ مِنكم. وكانوا يَشهدونَ لَه بِأَجمَعِهم، ويَعجَبونَ مِن كَلامِ النِّعمَةِ الَّذي يَخرُجُ مِن فَمِه فيَقولون: أَما هذا ابنُ يوسُف؟ فقالَ لَهم: لا شكَّ أَنَّكم تَقولونَ لي هذا المَثَل: يا طَبيبُ اشفِ نَفسَكَ. فاصنَعْ ههُنا في وَطَنِكَ كُلَّ شَيءٍ سَمِعْنا أَنَّه جَرى في كَفَرناحوم".

(لوقا ٤: ١٤-٢٣)

شاب جليلي من قرية وضيعة، الناصرة، يتكلم بنبرة غريبة ومباشرة كالتي نألفها عند القرويين، وفوق ذلك يدّعي بأن الله ارسله ليعلن البشرى السارة للناس!

هناك نصوص في الكتاب المقدس تنقل الينا دعوة الرب لاشخاص مختلفين في المكان والزمان والطباع، أمثال ابراهيم وموسى واشعيا ويونان وارميا... وانبياء غيرهم. هؤلاء كلهم تخوفوا من تحمل المسؤولية التي اراد الرب ان يلقيها على اكتافهم، لانها كانت ثقيلة واكبر من طاقتهم. أما يسوع، فنراه يخاطب الجميع بحماس ويعلّم تعليماً جديداً، ويبدو كمن له ثقة تامة بنفسه وبرسالته. فما هو، ترى، سر هذه الثقة؟

فهذا ارميا يقول: "أنا شاب ولا أحسن الكلام ومن يسمعني؟". موسى يعتذر: "أنا الثغ ولا أستطيع أن أقول ما تريد. هارون أخي يجيد الكلام!". يونان يتهرب ويهرب من وجه الله. والرسل انفسهم الذين واكبوا يسوع، ها هم يتخوفون من تحمل المسؤولية ولا يفهمون ماذا يريد الله منهم.

ولكن، رغم تلك المخاوف وذلك التردد، يَعِدُ الله بارسال روحه، ويعطيه فعلاً، لاعلان الحقيقة صافية واضحة. كان النبي ينال من روح الله روحا جديدا وقلبا جديدا فتنطلق الشفاه من فيض ما في القلب: "اذهب، أنا ارسلك، انا معك، اجعل روحي فيك، تكلم وإن كنت لا تجيد الكلام بحكمة". وبعد أن يستعيد الرسول ثقته بربه وبنفسه يأتي الجواب: "ها أنذا يا رب، أرسلني لاعلن البشارة... أرسلني لأكرز، لأنذر، لأسلّي الحزانى، لأشفي القلوب المجروحة، لأعطي الثقة للفقير وللمسكين...".

ان الشعور بالضعف والقلق والتردد تجاه الله وتجاه الحقيقة وتجاه الافكار الجديدة التي يشعر المرء بأن عليه ان يطرحها أمر طبيعي، اذ ان الانسان يخاف من عواقب الحقيقة التي تقال ومن المستقبل الذي يجهله.

ولكن يسوع، هذا الشاب الذي من الناصرة يشعر بملء الثقة، وينطلق ويطوف في شوارع اورشليم ويجوب طرق فلسطين وقراها ويعلن بان اليوم يتم الفرح والخلاص. فيشعر كل انسان بان حقوقه المهضومة ستعاد اليه كاملة.

اذا كانت هذه هي مخاوف الانسان تجاه الله وتجاه الحقيقة التي ينبغي ان تعلن، أي منا، ترى، لا يخاف من ان يعبّر عن الحقيقة التي يعيشها بصراحة؟ اننا نرتجف ونخجل وتتزعزع ثقتنا بأنفسنا احيانا عندما نطرح قضية ما. ولما كان الجميع يسيرون في اتجاه واحد وبحسب اسلوب مبرمج، فكل جديد في الحياة يُعتبر شذوذا عن الطريق العام. والحال ان من لا يخرج عن الطريق العام لا يحقق شيئا يذكر. اي أن من لا يجازف في حياته ليخطّ لنفسه طريقه الخاص، فسيبقى الى الابد يجرجر نفسه مع التيار، فاقدا شخصيته وخصوصيته.

هناك اشخاص لا ثقة لهم بأنفسهم، بحيث يشعر الواحد بمركب النقص حين يخاطب زملاءه في المدرسة أو في الجامعة أو حتى ذويه في البيت. بينما غيرهم، سرعان ما يبرزون في المجتمع وتتزايد ثقتهم بأنفسهم، فيشعرون بالفخر والاعتزاز. ان الثقة بالنفس تجعل الانسان يُبدع، والقوى الكامنة فيه تدفعه الى العمل لنشر البشارة كما فعل الرسل والانبياء. وهذه الثقة، عندما تكون أصيلة، لا تدع صاحبها ينظر الى الاخرين نظرة استعلاء، فروح الله الخلاق هو الذي يعمل من خلال ضعف الانسان.

لعمري، هل بامكاننا نحن أن نقول بأن روح الله فينا؟ سنثير السخرية والتهكم اذا ما قلنا بأننا نمتلك روح الله حين نكون فارغين ولا نملك سوى روحنا الغارقة في همومنا.

نحن فارغون عندما نعيش ايماننا وحقيقتنا بسطحية، فلا يكون لـدينا أي جديـد نقولـه للاخرين، وتكون احاديثنا فارغة ومملة: نسير مع التيار.

ان روح الله الذي يعمل فينا يصقل شخصيتنا ويخلق فينا الثقة ويزرع الايمان وينمي لدينا طاقات وقابليات جديدة لاعلان البشرى: بشرى يسوع الذي آمن بالانسان وبطاقاته، وثّمن ما في الانسان وجعله يتذوق طعم الحياة؛ بشرى يسوع، بشرى الفرح والسعادة.

فالكلام تعبير عن حقيقتنا وكشف لما نعيشه. وهذا التعبير تتبدل أساليبه بحسـب الزمان والمكان والاشخاص، أما لغة القلب فهي وحدها تلج الى الاعماق. من لا يتكلم بلغة القلب تكون شهادته شكلية غير أصلية، لان بشرى الانجيل، قبل أن تكون كلاما، هي حياة وحب نابعان من القناعة الذاتية ومن روح الله: "من فضلة القلب يتكلم اللسان".

طريق السعادة

"فلمَّا رأى الجُموع، صَعِدَ الجَبَلَ وَجَلَسَ، فدَنا إِلَيه تَلاميذُه فشَرَعَ يُعَلِّمُهم قال: طوبى لِفُقراءِ الرُّوح فإِنَّ لَهم مَلكوتَ السَّمَوات. طوبى لِلوُدَعاء فإِنَّهم يرِثونَ الأَرض. طوبى لِلْمَحزُونين، فإِنَّهم يُعَزَّون. طوبى لِلْجِياعِ والعِطاشِ إِلى البِرّ فإِنَّهم يُشبَعون. طوبى لِلرُّحَماء، فإِنَّهم يُرْحَمون. طوبى لأَطهارِ القُلوب فإِنَّهم يُشاهِدونَ الله. طوبى لِلسَّاعينَ إِلى السَّلام فإِنَّهم أَبناءَ اللهِ يُدعَون. طوبى لِلمُضطَهَدينَ على البِرّ فإِنَّ لَهم مَلكوتَ السَّمَوات. طوبى لكم، إِذا شَتَموكم واضْطَهَدوكم وافْتَرَوْا عَلَيكم كُلَّ كَذبٍ مِن أَجلي، إِفرَحوا وابْتَهِجوا: إِنَّ أَجرَكم في السَّمَواتِ عظيم، فهكذا اضْطَهدوا الأَنبياءَ مِن قَبْلِكم".
(متى ٥: ١-١٢)

التطويبات تحذير؟ سعادة؟..

لمن؟ وكيف؟

يقال بان كل موعود، تزداد حلاوته بقدر ما يصبح حلما، اي امراً يطمح الانسان الى الوصول اليه. ولكن ما اكثر الاحلام التي تحذّر صاحبها!

اننا نحلم بالسعادة، والانجيل نفسه يعد بالسعادة. وتكرار الـ "طوبى" هنا اشبه بمقطوعة موسيقية يمتزج فيها النغم السحري بالكلمات الشعرية التي تنفذ الى الاعماق.

كلمات تتكلم عن السعادة. ولكن السعادة لمن؟ وكيف؟

لقد وعد يسوع بالسعادة وعمل لسعادة الانسان. ولكن هذه التطويبات لم تُفهم دوما بمعناها الحقيقي. فكثيرا ما فُهمت التطويبات كتخدير ومنوّم للفقراء والمساكين والمظلومين.. وكأنها تخاطبهم بقولها: طوبى لكم ايها الفقراء، ما أسعدكم... لان الله يحبكم، فابقوا فقراء، اذن، لان الله يعزيكم، وسيجازيكم بسبب فقركم على الارض؛ سيعطيكم فرح الملكوت لقاء شقائكم، ارضوا بنصيبكم فتكونوا سعداء يوما في السماء! هكذا أُخذت التطويبات بعكس معناها، فاستُعملت لتسكين الالم واخماد تمرد الفقراء: طوبى لكم ايها

الفقراء، طوبى لكم ايها الباكون... قد بكيتم كثيرا، سأكفكف دموعكم، ستستحقون يوماً ما السماء...!

لقد وعد الله ان يبسط ملكه على الارض، وان هذا المُلْك هو مُلك يسوده العدل والمساواة وهو موضع للفقراء والمتروكين والمظلومين. ولكن الواقع الذي نعيشه هو تماماً بعكس التطويبات: فالظلم والابتزاز والقوة هي السلاح الذي نُشهره بوجه المستضعَف. والحكمة والبيان وحدّة الاسلوب والحجج والبلاغة هي السلاح الذي يُسكت صوت الفقير! فالخلل في توازن القوى ما زال قائماً: الفقير ما زال فقيراً، والقوي ما زال قوياً، وتزداد قوته على حساب الفقير. ننادي بالسلام، والسلام الذي نبتغيه يرتكز على الحرب والقوة وإشهار السيف بوجه العدو.

هذا الواقع كان قائما في زمن يسوع -كما هو قائم اليوم- ولهذا اراد يسوع ان يقلب الموازين: انه يقول بان الانجيل موجه الى الفقير والمطرود والى كل انسان تُوصَد الابواب بوجهه حيثما توجه.

ليس ذلك وعدا مستقبليا، وانما كلام رجاء يعطي الفرح والسعادة، اليوم ومنذ هذه اللحظة، للانسان الذي يده نظيفة ولا يعرف أن يكذب، كما يقول صاحب المزامير، ولا يكره ولا يسمح ان يستعبده المال وحب التسلط. مثل هذا الانسان البار ليس ضعيفا، وان كان في نظر الناس مستضعفاً.

فمعنى "طوبى لكم ايها المساكين بالروح"، هو ان ملكوت الله، اي السعادة بملكها، هي لكم، لا لأنكم نلتم شقاءكم، ولكن لانكم اليوم تنالون فرحكم وتنامون مطمئنين، لان قلبكم خال من كل حقد وطمع وجشع وظلم وهتك لحرمة الاخرين وكرامتهم. اما انتم صعدتم على اكتاف الاخرين واستغليتم الضعيف، فقد نلتم عزاءكم؛ غير ان حبل هذا العزاء قصير كالكذب، لانه عزاء كاذب.

السماء، لا ننتظرها كسراب بعد الموت، بل هي حياتنا على الارض. ولهذا يصبح الانجيل صعبا جدا، لانه يدعونا الى ان ننقي مشاعرنا المنحرفة الدفينة التي تقودنا كالعميان، فهي ليست من روح الانجيل. كل ما فينا من إحساس ارضي وعاطفة انفعالية انانية تقودنا الى حمل السلاح لملاقاة من نعتبره خصماً او منافساً، والحاق الهزيمة به: روح الانتقام، روح الخصومة.. اننا نتحين الفرص المؤاتية لنجيب الى عدونا باللغة العدائية ذاتها وبمشاعر الخبث والانتقام. المال، العنف، التسلط، المتاجرة بالحب.. كل هذه ليست علامة قوة، بل علامات استعبادنا.

الفقير هو ذلك الانسان الذي لم يلوث يديه بالاثم، واصبح قلبه شفافاً، رقيقاً، يُرى فيه وجه الله، ونراه منعكساً فيه.

ان كنت تبحث عن السعادة، فلا تذهب بعيدا. ان كانت سعادتك بالاطمئنان الى عضلاتك ومالك، وبالقوة والنفوذ، فلماذا يساورك الخوف ويرافقك القلق حتى في فراشك؟ السعادة في داخلك ان كنت تبحث عن السلام، والسلام في قلبك ان زرعت الثقة في قلوب الاخرين، واطمأن الناس اليك.

آذار ١٩٨٤ — الأب افرام سقط

إبحث عن الانسان

"أَنتُم مِلحُ الأَرض، فإِذا فَسَدَ المِلْح، فأَيُّ شَيءٍ يُمَلِّحُه؟ إِنَّه لا يَصلُحُ بَعدَ ذلك إِلاَّ لأَنْ يُطرَحَ في خارِجِ الدَّار فَيَدوسَه النَّاس. أَنتُم نورُ العالَم. لا تَخْفى مَدينَةٌ قائِمَةٌ عَلى جَبَل، ولا يُوقَدُ سِراجٌ وَيُوضَعُ تَحْتَ المِكيال، بل عَلى المَنارَة، فَيُضيءُ لِجَميعِ الَّذينَ في البَيْت. هكذا فَلْيُضِئْ نُورُكُم لِلنَّاس، لِيَرَوْا أَعمالَكُمُ الصَّالحة، فيُمَجِّدوا أَباكُمُ الَّذي في السَّمَوات".

(متى ٥: ١٣-١٦)

من الناس (فلاسفة أو غيرهم) من يقوم بأعمال غير مألوفة تجلب السخرية والاستهزاء. ومن جملة ما أذكر قول أحدهم عندما أشعل فانوسا وحمله على رأسه وسار يجوب شوارع أثينا ظهرا وهو ينادي: "أبحث عن انسان".

لا اعلم لماذا وجدت صلة بين كلام هذا الفيلسوف وكلام المسيح الواضح: "انتم ملح الارض... أنتم نور العالم...".

من يستطيع أن يقول: "اني نور العالم"؟ لو خرجنا خارج الدار وطفنا في شوارع المدينة وقلنا بأننا نور العالم لاستهزأ الناس بنا وأدخلونا مستشفى الامراض العقلية. ومع ذلك فكلام يسوع واضح، وهو في صيغة المخاطب الجمع: "انتم نور العالم". شخص واحد قال: "انا نور العالم" ولم يستهزئ به احد: انه النور الذي يضيء في الظلمة. انه الشمس المشرقة على كل انسان يتخبط وسط ظلماته، ووسط عالم يتأرجح بين الانهيار والزوال.

صورة المسيح العالقة في فكرنا ومخيلتنا تنير دربنا، وهي مشعة. اننا لسنا مدعوين أن نقلد المسيح بالحرف. فتقليد شخص ما حرفيا يمسخ صاحبه. كما اننا لسنا مدعوين ان نعمل اعمال يسوع بصيغة مادية وتمثيلية. لم يقل يسوع يوما: "قلدوني". انما قال: "اتبعوني.. انا الطريق، انا الحياة. جئت لاشهد للنور...".

المسيح صار نور العالم لأنه كان صاحب قضية، ومن أجل قضيته قُتل. لقد التزم قضيته، فمات من أجلها وبسببها، وموته جعل من قضيته هذه قضية تلاميذه عبر التاريخ:

كان الانسان هو قضية المسيح الكبرى! فلقد احترم يسوع الانسان، كل انسان، مهما كان انتماؤه وقوميته وأصله. أعطاه كرامته. علّم وعمل بموجب ما علّم. وكان الانسان محور كرازته كلها. أصبح نور العالم لانه قال الحقيقة. وجاء شاهدا للنور، ولكن الظلمة، أو بالاحرى بني الظلمة آثروا البقاء في الظلمة فرفضوه، فأُسقط من الحسابات وقُتل من أجل النور ومن اجل الحقيقة التي نادى بها.

لا شيء يميز المسيح عن غيره في المظاهر: لا اللباس ولا الأكل ولا الشرب، ولا العادات أو التقاليد الاجتماعية. لا بل اننا نهتم كل يوم في ألا نكون شاذين. الشاذ عنصر غريب، والغرابة أمر مبتذل، اذا كانت هذه الغرابة انكفائية. فبماذا، اذن، نكون نور العالم؟ أبحكمتنا؟ أم بفصاحتنا في الكلام والرد على أسئلة الاخرين؟ أبعلمنا؟ أم بشخصيتنا؟ هناك مئات من الشخصيات من كل دين، وفي كل أرجاء العالم، تمتاز بالحكمة والعلم والروحانية، ولكنها تجهل يسوع. فلا امتياز للمسيحي في المجتمع بسبب الدين أو الانتماء الاسمي إلى جماعة يسوع، والانتماء بالاسم وحده تشويه للحقيقة. هل نحن، اذن، نور عندما نقارن انفسنا بالاخرين؟ المقارنة تخلق المفارقة وتدخلنا في صفة التفضيل، والحال ان كل شخص جزيرة مستقلة ويدّعي انه افضل الناس، او على الاقل من افضلهم.

فاذا كان ثمة مقارنة واجبة فهي مع شخص يسوع لا مع الناس: انا، فلان، اذا قارنت نفسي مع يسوع ماذا تكون الحصيلة؟

اذن، دعوة يسوع لأن نكون نور العالم ليست امتيازاً في نظر الاخرين، وانما الالتزام بشخص يسوع ورسالته، الالتزام بقضية الانسان. لقد اعطى يسوع الثقة لكل انسان: للمرأة الزانية، للعشار، للخطأة، للمرضى، للبرص الذين أُبعدوا عن المجتمع... والسؤال الموجه الينا، نحن تلاميذ يسوع، هو: هل نحترم الاخرين وخصوصياتهم؟ ام نبرر ذاتنا دون الاخرين، بل على اكتاف الاخرين؟... ذلكم هو الوباء القاتل! فعندما نكون امام قضية كرامة الانسان واحترام حقوقه، عندما نكون امام مفترق طرق ودعوة الى اختيار الحقيقة، فهناك يستوجب البقاء وعدم التملص من تحمل عبء الحقيقة والالتزام بها، وان كلفنا ذلك استئراف دمنا.

اننا نمزح ونستهزئ و"نتندّر" على حساب الاخرين. امثلة تافهة، ولكن مثل هذا التصرف عندما يصدر عن تصميم أو موقف او استعلاء، او حتى عن لامبالاة، يُظهر كم ان المقابل مبتذل في نظرنا، كم انه غير ذي قيمة. كل شيء في الحياة يقاس نسبة الى كرامة الاخر في نظرنا، عندما ننادي بالعدالة والاخوة والمساواة، عندما نكسر خبزنا للجائع، عندما نقتسم ما عندنا من مال او علم او فرح وطيبة، وعندما لا نعطي من فضلاتنا... حينئذ يستنير وجهنا.

من الناس من هم وجوه كئيبة، لا بسبب مرض ما، ولكن بسبب انانيتهم، ولرفضهم ان يشارك الاخرون عالمهم، او بسبب حرصهم على ما لهم، فكما اعطى المسيح المعنى للحياة واصبحت مستذوقة، كذلك يصبح المسيحي نورا وملحا للعالم عندما يفرح بالحياة وبالمستقبل. فالعلامة الفارقة للمسيحي هي الفرح والامل، فرح الاشعاع وامل النور الذي يتآكل من داخله، كي يتجاوز ذاته باستمرار ويستمر على الدرب، ولا بد للاشعاع ان ينير الدرب.

نيسان-ايار ١٩٨٤ — الأب أفرام سقط

ملكوت السماوات.. لمن؟

"سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلأَوَّلِين: لا تَقْتُلْ، فَإِنَّ مَن يَقْتُلُ يَستَوجِبُ حُكْمَ القَضاء. أَمَّا أَنا فأَقولُ لَكم: مَن غَضِبَ على أَخيهِ استَوجَبَ حُكْمَ القَضاء، وَمَن قالَ لأَخيهِ: يا أَحمَق إستَوجَبَ حُكمَ المَجلِس، ومَن قالَ لَه: يا جاهِل إستَوجَبَ نارَ جَهَنَّم. فإِذا كُنْتَ تُقَرِّبُ قُربانَكَ إِلى المَذبَح وذكَرتَ هُناكَ أَنَّ لأَخيكَ عَلَيكَ شيئاً، فَدَعْ قُربانَكَ هُناكَ عِندَ المَذبح، واذهَبْ أَوَّلاً فَصالِحْ أَخاك، ثُمَّ عُدْ فقَرِّبْ قُربانَك. سارِعْ إِلى إِرضاءِ خَصمِكَ ما دُمْتَ مَعَه في الطَّريق، لِئَلاَّ يُسلِمَكَ الخَصمُ إِلى القاضي والقاضي إِلى الشُّرطِيّ، فتُلقى في السِّجْن. الحَقَّ أَقولُ لَكَ: لن تَخرُجَ مِنه حتَّى تُؤَدِّيَ آخِرَ فَلْس.

سَمِعتُم أَنَّه قيل: لا تَزْنِ. أَمَّا أَنا فأَقولُ لكم: مَن نظَرَ إِلى امرأَةٍ بِشَهْوَة، زَنى بها في قَلبِه. فإِذا كانت عينُكَ اليُمنى حَجَرَ عَثْرَةٍ لَكَ، فاقلَعْها وأَلْقِها عنك، فَلأَنْ يَهلِكَ عُضْوٌ مِن أَعضائِكَ خَيْرٌ لَكَ مِن أَن يُلقى جَسَدُكَ كُلُّه في جَهَنَّم. وإِذا كانت يَدُكَ اليُمنى حَجَرَ عَثْرَةٍ لَكَ، فاقطَعْها وأَلْقِها عنك، فَلأَنْ يَهلِكَ عُضوٌ مِن أَعضائِكَ خَيرٌ لكَ مِن أَن يَذهَبَ جسدُكَ كُلُّه إِلى جَهَنَّم".
(متى ٥: ٢-٣٠)

من يدخل الجنة؟

سؤال غريب!

وعندما نقرأ هذا النص من الانجيل قراءة سطحية، يخال لنا ان الجنة ملتقى المعوقين، اولئك الذين أُقتُلِعَت عين من عيونهم، او بُترت لهم رجل او يد من اجل الملكوت!

واستعيد في ذاكرتي تلك الصور التقوية التي انتشرت في وقت من الاوقات، وهي تمثل الجنة وجهنم. فترى الجنة، من جهة، وفيها الاعرج والمشلول والمتسول والمعوق وطريح

الفراش... بينما ترى في جهنم الحسناوات والمترفين والذين تنعموا على الارض في حياة البذخ والدلال! في مثل هذا التصور الساذج، لست ادري ماذا سيكون نصيبنا نحن الذين لا نعرف ان نعيش الحياة!

ان تقديم الامور في الروحانية المسيحية على هذا الشكل الكاريكاتوري لهو مهزلة. فالانجيل لا يدعونا الى التمسك بحرفية النص: اذا شككتك عينك فاقطعها، كما لو فينا اعضاء غير سليمة. اننا لسنا مدعوين الى ان نفقأ اعيننا، ولا ان نقطع رجلنا أو يدنا في عملية وقائية ردعية مزعومة: المهم ان ندخل الجنة سالمين او كاملي الاعضاء، لان كل ما فينا هو هبة من الله ونعمة. أنْ نكون كاملي الاعضاء، معناه ان نكون سعداء. لذا فكل امرىء لم يعش سعيداً على الارض، لا اظن انه سيكون سعيداً في السماء. ولكن ما هي مقاييس السعادة؟ ان من لم يبتسم للحياة ويعش الفرح بعمق، من استمر في الكبت والعقد، من لم يعرف طعم المحبة التي تنبذ كل خوف... لا اظن ان له مكاناً في السماء: هذه هي اسس السعادة الحقة التي تفتح باب الملكوت!

اما خلاف ذلك، فديانة الخوف والقلق والوسواس التي يحصل عليها المرء من تربيته الاساسية -سواء من الكنيسة (رجال الكنيسة)، أو من الوالدين والمجتمع.

الخوف من الله.. ولكن لماذا؟

نتعامل مع الله وكأنه شرطي او سيد عات، فنرى وجهه القاسي يقف بالمرصاد ويراقب الناس. فيأتي تعاملنا معه وتصرفاتنا وممارساتنا بمثابة محاولة لاستمالة رضى الله خوفاً من العاقبة، ونكمل الوصايا حرفياً لنريح ضميرنا.

ولكن الخوف من الله يولّد الخوف من الناس ايضاً، فنستميل رضاهم لئلا نُلام في اعمالنا، ولكي تظل صورتنا بريئة في اعين الجيران، ونتحلى ببراءة تتسم بالدبلوماسية والحذر، فنظهر بلباس الفضيلة وننتسب الى فئة اولئك الذين يتفاخرون بالمثل، اما باطنهم.. فالله وحده عليم به... وقد يكون "مملوءاً خبثاً وحسداً وافكاراً رديئة" كما قال يسوع.

ثم الخوف من الكنيسة، حين تتحكم بالانسان بواسطة قوانينها وشرائعها، فينفّذ المرء دون ان يشعر بحاجة الى فهم وممارسة هذه الشرائع بروحها.

وهكذا يحفي الكثيرون كبتاً مستمراً، فنراهم متأرجحين بين الحرية او الرغبة في كسر القيود، وبين الخوف، فينظرون ولا يبصرون، وكأن ذاتهم اصبحت عبءاً عليهم، فلا يطيقون حملها، ولا يتحملون الاخرين.

يدخل الجنة، اذن، من يحب ويفرح، من يبقي قلبه منفتحاً على الله واخوته.

يشرح المسيح ما هو القتل وما هو الزنى، فيقول بأن قتل الجسد اهون من قتل الانسان. اننا نقتل الانسان في ضميرنا، وفي فرض آرائنا وطريقة تفكيرنا عليه فنتحكم في حريته. نقتله عندما ننظر اليه نظرة الحسد والتنافس على المناصب بسبب رغبتنا في الوصول الى المركز الاول، ولا بد من اجل ذلك ان نزيح الآخرين باكتافنا ليمكثوا هم في المؤخرة. كل شخص يخالف تفكيرنا نعتبره معادياً لنا...

اما عن قول المسيح في الزنى، فينبغي فهمه كدعوة الى الانفتاح على الآخرين دون تملكهم. فالآخرون ليسوا ممتلكات لنا، انما علينا ان نحترمهم ولا نستغل صداقتهم والحب الذي يُحيطوننا به. فالاستغلال اذلال، والحب الحقيقي احترام وعطاء.

يدخل الجنة من اكتسب نظرة مستقيمة على الآخرين: نظرة المسيح الذي لم يستغل احداً في صداقته.

ندخل السماء اذا انفتح القلب الى الآخرين ووجد الآخرون في قلبنا دفءاً وحياة لا تنضب.

-من يسكن بيتك يا الله؟- "الطاهر اليدين والعينين وذو القلب الشفاف".

الأب افرام سقط

هل نحن ضعفاء حقا؟

"سَمِعتُم أَنَّه قيل: العَينُ بالعَين والسِّنُّ بالسِّنّ أَمَّا أَنا فأَقولُ لكم: لا تُقاوِموا الشِّرِّير، بَل مَن لَطَمَكَ على خَدِّكَ الأَيْمَن فاعرِضْ لهُ الآخَر. ومَن أَرادَ أَن يُحاكِمَكَ لِيَأخُذَ قَميصَكَ، فاترُكْ لَه رِداءَكَ أَيضاً. ومَن سَخَّرَكَ أَن تَسيرَ معه ميلاً واحِداً. فسِرْ معَه ميلَيْن. مَن سأَلَكَ فأَعطِه، ومَنِ استَقرَضَكَ فلا تُعرِضْ عنه.

سَمِعتُم أَنَّه قِيل: أَحْبِبْ قَريبَك وأَبْغِضْ عَدُوَّك. أَمَّا أَنا فأَقولُ لكم: أَحِبُّوا أَعداءَكم وصَلُّوا مِن أَجلِ مُضطَهِديكُم، لِتَصيروا بني أَبيكُمُ الَّذي في السَّمَوات، لأَنَّه يُطلِعُ شَمْسَه على الأَشرارِ والأَخيار، ويُنزِلُ المَطَرَ على الأَبرارِ والفُجَّار. فإِن أَحْبَبْتُم مَن يُحِبُّكُم، فأَيُّ أَجْرٍ لكم؟ أَوَلَيسَ الجُباةُ يفعَلونَ ذلك؟ وإِن سلَّمتُم على إِخوانِكم وَحدَهم، فأَيُّ زِيادةٍ فعَلتُم؟ أَوَلَيسَ الوَثَنِيُّونَ يَفعَلونَ ذلك؟ فكونوا أَنتُم كامِلين، كما أَنَّ أَباكُمُ السَّماويَّ كامِل.

(متى ٥: ٣٨-٤٨)

من ذا، يا ترى، يجهل ما معنى شريعة الغاب؟ انها شريعة القوة والبطش للبقاء على اشلاء الاخرين.

أليس ان ما يسيّر مجتمعاتنا هو ان كل امرىء يحتاج الى قوة لتثبيت وجوده. لقد صدق ابن المقفع اذ قال في قصة الذئب والحمل: "حجة الاقوى هي الفضلى"! فالشعور السائد لدى غالبية الناس، هو ان اثبات الوجود قوامه الدفاع عن النفس؛ ومن الدفاع عن النفس ننساق الى الانتقام بسبب مشاعر الحسد والحقد والكراهية الدفينة التي نظهرها تجاه كل من يريد إلحاق الاذى بنا أو يؤذينا حقا. واذا كانت هذه هي المشاعر التي تعشعش فينا وتسيّر سلوكيتنا وعلاقاتنا، فلست اعلم لمن سيكون البقاء في نهاية الامر. أللقوي، أم للافضل؟

هذه المشاعر المتأصلة فينا تطفو على السطح، بين حين وآخر، كلما دعتنا الحاجة الى ابراز شخصيتنا. فهل هذا هو السبيل الاصلح؟

ازاء ردة الفعل هذه يبرز أمامنا كلام المسيح الانف الذكر، وكأنه الضوء الاحمر الذي لا يجوز تخطيه. هذا الكلام صعب، من يستطيع سماعه؟!

المسيح لا يدعو الانسان الى ان يتصف بطابع ملائكي. ولا هو يدعو الى الجبن، او الضعف، او تحمل الضربات بصمت. من يسكت على الظلم، فهو يشارك الظالم ظلمه. ان الموقف الذي يدعو اليه المسيح هو موقف الحزم والجرأة في الكلام والفعل، ولكن من دون حقد أو ضغينة، فالحقد مدمر، والمسيح يدعو الى مد الجسور، لا الى قطعها. وهو نفسه يجيب الحارس لدى مثوله أمام المحفل: "ان كنت أسأت الكلام، فقل لي أين الاساءة. وان كنت احسنت الكلام، فلماذا تضربني؟". ان شريعة العين بالعين والسن بالسن ليست دستور الانسان البدائي المتخلف حسب، فكل قانون او تشريع ردعي يبنى على مبدأ: لكل مخالفة عقوبة. فلا زلنا اذن بدائيين وانفعاليين في تعاملنا.

فأين الجديد في المسيحية، وما الجديد في موقف المسيح؟

-لا تقاوم الشر بالشر!

ولكن، لا ينبغي ان يُفهم ذلك وكأنه تراجع، بسبب كسلنا أو خوفنا؛ فالانجيل يرفض الخنوع وانقسام الشخصية. ان صون كرامتنا وحقوقنا هو واجب واساس، وكل تعامل سليم ينبغي ان يبنى انطلاقا من مبدأ احترام كرامتنا وكرامة الانسان، أي انسان، مهما كان اصله وقوميته ودينه ولونه. أجل، ان الانجيل يدعو الى اللاعنف، ولكنه يرفض الخوف. ومن قال ان اللاعنف ضعف وتنازل ومذلة؟! وكما كان الانسان مركز رسالة المسيح، كذلك يجب ان يكون الانسان -كل انسان- جوهر اهتمامنا، وتكون كرامته خبزنا اليومي.

أما المقاومة التي يرفضها الانجيل، فهي ألا نصرف قوانا عبثا في امور لا مندوحة في التوقف عندها. بينما تبقى مقاومة تيار الشر أمرا اساسيا يستوجب ان نتحدى حالة الضعف فينا، فلا نتخذ موقف المتفرج من قضايا ايماننا وانسانيتنا.

ان مجتمعاتنا، اليوم، مبنية على العنف، ولهذا يبدو انسان اليوم أكثر توتراً وقلقاً. موقف المسيح يعلمنا ان نخرج من هذا المأزق، أي ألا تنجاوز الدفاع المشروع الى الانتقام، ومن ثم الى محو الاخر من الوجود والقيام على اشلائه.

الجديد في الانجيل هو انه يدعونا الى الخروج من هذه الحلقة المفرغة التي تقوم في المحافظة على حريتنا بالانتقام وتدمير الاخر.

واذا ما انتابنا شعور بالعجز عن مقاومة الشر الذي في العالم لانه اقوى من طاقاتنا الفردية وحتى الجماعية، فالانجيل يدعونا الى بذل كل ما في وسعنا حتى النهاية: التحلي بالطيبة وانماء القوة الادبية التي هي أفضل سلاح. اننا نحب العالم لاننا منه وفيه، ونحب الحياة لانها جميلة ونحن جزء منها. والناس، على اختلاف جنسياتهم وقومياتهم هم اخوتنا: العالم ملكنا، والناس نراهم ونلمسهم، ولنا لغة مشتركة معهم. فالعالم نبنيه بعرق جباهنا، والاخوّة نحصل عليها بدموع مشتركة.

أخيرا يدعونا الانجيل الى تنقية مشاعرنا المبنية على منطق واحد هو منطق الحساب: نَعُدّ ما حصلنا، ونحسب الحساب لضرباتنا! انه يدعونا الى ان نغفر، نعم، ولكن ان نغفر معناه ان نقر بضعفنا. أخطأت اليك يا اخي فاغفر لي، أخطأتم الينا فنحن مستعدون ان نقول: عفا الله عما سلف!

من يحب يصفح، ومن يصفح فهو الاقوى، وهو الحر الحقيقي!

بين القول والفعل مسافة

"لَيسَ مَن يَقولُ لي يا ربّ، يا ربّ يَدخُلُ مَلكوتَ السَّمَوات، بل مَن يَعمَلُ بِمَشيئَةِ أَبي الَّذي في السَّمَوات. فَسَوفَ يقولُ لي كثيرٌ منَ النَّاسِ في ذلكَ اليَوم: يا ربّ، يا ربّ، أَما باسْمِكَ تَنبَّأْنا؟ وباسمِكَ طرَدْنا الشَّياطين؟ وباسْمِكَ أَتَيْنا بالمُعْجِزاتِ الكثيرة؟ فأَقولُ لَهم عَلانِيةً: ما عرَفْتُكُم قَطّ. إِلَيْكُم عَنِّي أَيُّها الأَثَمَة! فمَثَلُ مَن يَسمَعُ كَلامي هذا فيَعمَلُ به كَمَثَلِ رَجُلٍ عاقِلٍ بَنى بيتَه على الصَّخْر. فنزَلَ المطَرُ وسالتِ الأَودِيَةُ وعَصفَتِ الرِّياح، فثارت على ذلكَ البَيتِ فلَم يَسقُطْ، لأَنَّ أَساسَه على الصَّخر. ومَثَلُ مَن سَمِعَ كلامي هذا فلَم يَعْمَلْ به كَمَثَلِ رَجُلٍ جاهِلٍ بَنى بَيتَه على الرَّمْل. فنزَلَ المطَرُ وسالتِ الأَودِيةُ وعَصَفَتِ الرِّياح، فضَرَبَت ذلكَ البيتَ فسَقَط، وكان سُقوطُه شديداً".

(متى ٧: ٢١-٢٧)

يسوع يفتتح عهدا جديدا يسميه ملكوتا، والسير في هذا الملكوت ليس سهلاً. والانجيلي متى يبدي ملاحظتين في اختتام خطبة يسوع على الجبل التي فيها اعلن عن مقومات هذا الملكوت:

الملاحظة الاولى تدور حول اولئك الذين يقولون ولا يعملون.

تصريحات الايمان وحدها، ان لم تقترن بالفعل، لا تكفي! كما انه بامكان امرىء ما ان يقول، بانه تلميذ المسيح، ولكن ان كان قوله لا يتعدى القول، فسيقول له المسيح علنا: انا لا اعرفك. فقيمة الحياة الجديدة في نهج المسيح تُبنى، اذن، على التطبيق فعلا وسط المخاطر والتجارب. فحذار من الادعاء بالايمان، لانه لا يكفي ان نكون منتمين بالهوية فقط، وتكون هويتنا المسيحية مجرد وثيقة نعرضها لنتباهى بها: هذا هو الجاهل الذي قال عنه يسوع بانه بنى بيته على الرمل. اما العاقل الذي يسمع ويعمل، فهو كالصخر الثابت لا يتزعزع، وهو مثل تلك الشجرة التي امتدت جذورها الى العمق وبسطت اغصانها نحو الذرى شامخة عزيزة.

فمن هذا المنطلق يميز يسوع فئتين من الناس. فتكون الملاحظة الثانية التي ابداها متى هي: ترى، من هو التلميذ الحقيقي؟ الذي يبني على الرمل، ام الذي يبني على الحجر؟

من الناس من هم سطحيون في ايمانهم واقوالهم واعمالهم. يتكلمون كثيرا، وكلامهم لا ينبع من اساس متين في الثقافة والشخصية وبعد النظر. يتأرجحون ويتقلبون مع كل ريح على مفترق الطرق، يعيشون بلا اساس، ومع ذلك يدّعون انهم حكماء وفلاسفة..

اذكر مثلا شعبيا يقول: "بين الكاس والشفاه طريق طويل"، اي بين الكلام والفعل مسافة طويلة لا نجتازها من دون مشقة، من دون صراع، للثبات في العمق الانساني والروحي والفكري. فمن الناس من يحسن الكلام ويلم بفنون الخطابة والبلاغة، فنعجب به، ولكن اذا قارنا بين الكلام الذي ينادي به ومواقفه، فيا للتباين!

هذا على الصعيد الاجتماعي. اما على صعيد الخبرة الايمانية، فهناك ايضا مسيحيون بالوراثة. وحين لا يتعدى الايمان هذه المرحلة، فالايمان بالوراثة قد يبقى رهين التشبث بالقشور الزائفة وبالامور الثانوية كمن يتباهى بالكنيسة الفلانية لأنها "كنيسة طفولته"، لانه فيها تعمد وأخذ تناوله الاول الخ.... انه قد لا يعني اكثر من المفاخرة بالدين، بالطائفة، باللغة، بالتغني بالاجداد لا غير. ويعيش مثل هؤلاء من دون التزام، في ايمان سطحي لا يغوص في تضاعيف الحياة، لذا نراهم متذبذبين أمام كل ريح عاصف ويتبخر ايمانهم، أو يكاد، امام أول صعوبة. الحياة قاسية لكنها تدعونا الى البحث والتعمق والاصالة. اليست مشكلة المئات من الشباب وغيرهم عندما يتخلون عن كل شيء. انهم لا يعرفون قراءة حوادث الحياة و لم يتعلموا شيئاً جديداً منها، لا يرددون الا ما قيل لهم؟ فالضعيف والمتقلب تهزه العاصفة، لانه من دون اساس متين. اما من تعب على نفسه وجاهد، فلا خوف عليه، لانه، وسط الازمات والمشاكل وهموم الدنيا، يظل صامداً.

حسن ان نكون قد ورثنا الكثير من والدينا واجدادنا وتربتنا -ومن ضمن هذا الكثير ايماننا ذاته- ولكن شيئاً واحداً لم نرثه: هو حريتنا في بناء بيتنا على الشكل الذي نريده. فانتسابنا الى المسيح ينبغي ان يصبح انتساباً شخصيا، وبقدر ما ننضج في الحياة والسن، بقدر ذلك يجب ان ينضج ايماننا ويترسخ ويصبح اكثر وعياً واقتناعاً والتزاماً. حينذاك اذا مررنا بالشك، فستكون التجربة فرصة لنختبر معنى حياتنا وعمق انتمائنا المسيحي.

مثل هؤلاء المؤمنين الناضجين، الذين بناؤهم على الصخر، تسألهم لماذا تؤمنون، او بمن تؤمنون؟ يأتيك الجواب واضحا، ينبع من اعماقهم ولا يكتفون بترديد ما تعلموه. انهم يبتكرون صيغا جديدة ومتجددة دوما لاظهار التزامهم وصدق ايمانهم. انهم احرار وجريئون في اتخاذ مواقف صريحة من الحياة بوعي ونضوج وثقة عالية بالله وبالذات.

الخلاص بادرة من الله، الدينونة رفض من الانسان

"فإِنَّ اللّهَ لَم يُرسِلِ ابنَه إِلى العالَم لِيَدينَ العالَم بل لِيُخَلِّصَ به العالَم. مَن آمَنَ به لا يُدان ومَن لم يُؤمِنْ به فقَد دِينَ مُنذُ الآن لأَنَّه لم يُؤمِنْ باسمِ ابنِ اللّهِ الوَحيد. وإِنَّما الدَّينونَةُ هي أَنَّ النُّورَ جاءَ إِلى العالَم ففضَّلَ النَّاسُ الظَّلامَ على النُّور لأَنَّ أَعمالَهم كانت سَيِّئَة. فكُلُّ مَن يَعمَلُ السَّيِّئات يُبغِضُ النُّور فلا يُقبِلُ إِلى النُّورِ لِئلاَّ تُفضَحَ أَعمالُه. وأَمَّا الَّذي يَعمَلُ لِلحَقّ فيُقبِلُ إِلى النُّور لِتُظهَرَ أَعمالُه وقَد صُنِعَت في اللّه".

(يوحنا ٣: ١٧-٢١)

لقد كان تجسد المسيح المناسبة الكبرى التي اظهر بها الله للانسان محبته اللامتناهية. هذه المحبة التي دفعت به ليرسل ابنه الى العالم بهدف واحد وهو: خلاص الانسان، كل انسان. لذا فتدبير الله الخلاصي ايجابي وشامل، والمسيح لم يأت الى العالم بمهمة ادانة ورفض البعض على البعض الاخر. انه لم يأت للتمييز والتفرقة داخل الشعب المختار انذاك، او بينه وبين شعوب اخرى. فقد انتهى عهد الامتيازات، واصبح الخلاص في متناول الجميع. والخلاص هو الانتقال من الموت الى الحياة بواسطة المسيح الذي يعطينا الروح.

ان المسؤولية تقع على الانسان وليس على الله. فانصاف الحلول والمواقف اللامبالية والهروبية مرفوضة. عطية الله تُقبل او تُرفض. والقبول لا يكون بالالتزام بالمسيح كمجرد مصلح، وانما كواهب الحياة. ان الانسانية الجديدة هي ثمرة الانسان الجديد. والايمان بالمسيح كواهب الحياة، كابن الله، هو الايمان بامكانيات الانسان، بالافاق الجديدة التي فتحتها امامه محبة الله.

للتعبير عن هذه الحقائق، يلجأ يوحنا الى تعابير وصور سبق ان استعملها في مدخل انجيله مثل: النور والظلام. فالنور عنده هو الحياة. اما الظلام فيعني الموت، وله سلطان مميت. وهنا يشدد يوحنا على دور الانسان وسلوكه. اما القبول والرفض، فيعنيان الحب والبغضاء، الاقتراب من النور او الابتعاد عنه؛ وللحب والبغضاء جذور تتحكّم في التصرف.

لقد جاء النور الى العالم لينير كل شيء حتى خفايا القلوب. والنور رمز الى الابن، في وظيفته الخلاصية كواهب الحياة، وبرهان على محبة الله الاب للانسانية: "انا نور العالم".

في العهد القديم اعتبر رؤساء الكهنة والفريسيون الناموس نوراً يعطي الحياة للانسان وللشعب، ويكشف عن ارادة الله، لذا اعتبر مقياساً للسلوك البشري. اما في العهد الجديد، فيأتي بديلاً لهذا الناموس، فيقيّم سلوك الانسان على ضوئه، هذا الضوء الذي يكشف عن صلاح اعمال الانسان او شرها.

ومع ذلك، فقد تنكرت له اكثرية الناس: هذا الرفض الشامل يعكس تماماً حب الله الشامل. ذلك انه قبل مجيء النور، كانت الانسانية غارقة في الظلام وفضلت البقاء فيه وكأنها تغمض عينيها تعمداً كي لا ترى النور، وتصم اذنيها كي لا تسمع الحقيقة. هكذا احتقر الناس محبة الله لهم بملء ارادتهم، وتجاهلوا يديه الممدودتين اليهم، فأدانوا انفسهم بأنفسهم. اما نتائج هذه السلوكية المظلمة فهي: اخفاء النور والسير بالعالم الى الهلاك، بالكذب والرياء والعنف كوسيلة للبقاء وابقاء الغير بعيدين عن الحياة والنور.

ان مبدأ المسيح يقول: "كل من يعمل الشر يبغض النور". وبقوله هذا، يتخطى حدود الشعب المختار وزمانه لينطبق على جميع الناس وفي جميع الامكنة والازمنة.

ان المسيح لا يعلق اهمية كبرى على الاقوال والافكار والتعاليم، وانما على السلوكية والتصرفات: "من اقبل اليّ لا أُلقيه في الخارج" يقول المسيح. وكلامه هذا يعبر عن استعداده الدائم لقبول كل من يرغب بالايمان به والعمل بمشيئة ابيه القدوسة. ذلك انه اتى الى العالم ليعمل مشيئة الاب، وهذه المشيئة هي ان يَخلُص جميع الناس. فمن يلحق الاذى بالانسان، من يشكّكه، من يساهم في بقائه في الظلام وحمله الى الهلاك، يبغض الله، ويبغض المسيح، ويبغض النور. فالايمان والالتزام بالمسيح يحتمان علينا الايمان بالانسان ايضاً. لذا بدا مستحيلاً التوفيق بين متطلبات الناموس، كما عبر عنها رؤساء الكهنة والفريسيون من جهة، و بين موقف المسيح ومتطلباته من جهة ثانية.

اما الذي "يعمل بالحق" فهو يعمل الخير، ويساهم في خلاص الانسان، ومثل هذا الانسان يُقبل الى النور .

فصراع الخير والشر، والنور والظلام، والخلاص والدينونة، لا يزال ساري المفعول. فاولاد الظلمة كثيرون. لذا على اصحاب الارادات الصالحة ومحبي الخير والعاملين بموجب تعاليم المسيح ان لا يبقوا مكتوفي الايدي. فالمسيح نور ينعكس عليهم فيصبحون بدورهم نور العالم، ليسطع نورهم قدام الناس، ولا يبقى مخفياً تحت المكيال.

السلام استودعكم

"السَّلامَ أَستَودِعُكُم وسَلامي أُعطيكم. لا أُعطي أَنا كما يُعطي العالَم. فلا تَضطَرِبْ قُلوبُكم ولا تَفْزَعْ (...)
"قُلتُ لَكم هذه الأَشياء لِيكونَ لَكُم بيَ السَّلام. تُعانونَ الشِدَّةَ في العالَم ولكن ثِقوا إِنِّي قد غَلَبتُ العالَم".
(يوحنا ١٤: ٢٧؛ ١٦: ٣٣)

في اللقاء وفي الفراق، في الاستقبال وفي الوداع، لم يجد الانسان تحية اجمل واكثر تعبيرا عن حاجاته العميقة، من الدعاء بالسلام. وسلام المسيح نعمة مجانية يمنحنا اياها بواسطة الروح القدس.

السلام في المسيح يمجد الله ويمنح الانسان السعادة بافتدائه ومصالحته مع الله الخالق، جاعلا بينهما عهدا جديدا: فيصبح الخالق ابا، والانسان ابنا له. واول ما يحتاجه الانسان هو هذه العلاقة البنوية مع الله، علاقة صداقة وحب.

ومن السلام مع الله يفيض السلام بين البشر، كما انشد الملائكة: "وعلى الارض السلام للناس ذوي الارادة الصالحة". وهذا السلام هو ايضا ثمرة وساطة المسيح، كما يقول القديس بولس في رسالته الى اهل افسس: "انه سلامنا... جاء وبشركم بالسلام انتم الذين كنتم اباعد، وبشر بالسلام الذين كانوا اقارب، لان لنا به جميعا سبيلا الى الله في روح واحد" (٢: ١٤، ١٧-١٨).

هكذا، إذا كان الله يمنح السلام للناس، فلا بد من ارادة الانسان لقبول عطية الله والتفاعل معها. ولا قبول حقيقيا من دون ارادة صالحة موجهة نحو الخير بصدق، ارادة

وديعة مستعدة للعمل بمشيئة الله القدوسة، ارادة ثابتة لا تهاب الصعاب والتضحية في سبيل احقاق هذا السلام بين البشر، جماعات كانوا ام افراداً.

وكما أُعطينا سلام الرب مجانا، كذلك علينا ان نعطيه للبشر مجانا ايضا. هذه هي المهمة التي وضعها المسيح على عاتق الاثنين والسبعين تلميذا عندما قال لهم: "اذهبوا! فها انا ذا ارسلكم كالحملان بين الذئاب" (لوقا ١٠: ٣). على مثال المسيح الذي ضحى بذاته "محققا السلام بدمه على الصليب".

وعندما قال يسوع لتلاميذه حين بعثهم للرسالة: "اي بيت دخلتم، فقولوا اولا: السلام على هذا البيت. فان كان فيه ابن سلام، فسلامكم يحل به، والا عاد اليكم" (لوقا ١٠: ٥). فهو لم يكن يعني تحية شكلية ومبتذلة، وانما بركة الهية تُحل الخير والخلاص. فمن يقبل هذه البركة يصبح في سلام مع الله والاخوة، ويعيش في النعمة والحب.

كلام يفهم ابعاده من عرف الله فقط. ولكنه كلام يتناقض مع الواقع المرير الذي يعيشه عالم اليوم. غير ان لا داعي الى التشكك والتعجب، فقد نبّهنا مشدِّدا: "لا اعطيكم سلامي كما يعطيه العالم": سلام العالم وعود خلابة، ولكنها واهية، اذ تبشر بسعادة خالية من كل عذاب والم. سلام العالم مجموعة من المسكّنات لا تجدي نفعا، بل تزيد المشكلة تأزما. سلام العالم مبني على العقود والحسابات، على المؤتمرات والتصريحات، على توازن القوى والتعادل في كميات السلاح المكدس. سلام كهذا مشوب بالانانية والطمع، بالصراعات والظلم والقلق. هذا السلام يختلف عن سلام المسيح الذي هو مجانية وعطاء وتضحية، وهو يتجاهل حاجات الانسان الجوهرية وتطلعاته لحساب تكريس واقع التكتلات السياسية والمصالح الاقتصادية والفردية..

لذا كان لا بد للعالم من مراجعة حساباته واعادة النظر في مواقفه وتصحيح البنى والمقاييس التي على اساسها يبحث عن السلام ويعد به. وعلينا جميعاً ان نشرّع ابواب نفوسنا لتدخل نعمة المسيح الى قلوبنا فيسودها السلام، ومنها ينطلق الى اخوتنا.

المطران بولس صحح — شباط-آذار ١٩٨٠

الرحمة أفضل من الذبيحة

"ومَضى يسوعُ فَرأى في طَريقِه رَجُلاً جالِساً في بَيتِ الجِبايَةِ يُقالُ لَه مَتَّى، فقالَ لَه: اتْبَعْني! فقامَ فتَبِعَه. وبَينَما هو على الطَّعامِ في البَيت، جاءَ كثيرٌ مِنَ الجُباةِ والخاطِئين، فجالَسوا يسوعَ وتلاميذَه. فلَمَّا رأَى الفِرِّيسيُّونَ ذلك، قالوا لِتلاميذِه: لِماذا يَأكُلُ مُعَلِّمُكم مَعَ الجُباةِ والخاطِئين؟ فَسَمِعَ يسوعُ كَلامَهم فقالَ: لَيسَ الأصِحَّاءُ بِمُحتاجينَ إلى طَبيب، بَلِ المَرْضى. فهَلاَّ تَتعلَّمونَ مَعْنى هذه الآية: إنَّما أُريدُ الرَّحمَةَ لا الذَّبيحَة، فإنِّي ما جِئتُ لأَدعُوَ الأَبْرارَ، بَلِ الخاطِئين".

(متى ٩: ٩-١٣)

كلّم الرب موسى في سفر الخروج ونادى قائلاً: "الرب الرب اله رحيم ورؤوف، طويل الاناة، كثير المراحم والوفاء، يحفظ الرحمة لألوف، ويغفر الذنب والمعصية والخطيئة، ولا يتزكى أمامه الخاطئ" (خروج ٣٤: ٥-٧).

يحمل حب الله للانسان طابع الرحمة. فالرحمة هي الحب الذي يحنو على البؤساء ليرفعهم ويشفيهم ويغنيهم. الله حب لامتناه، لا يريد هلاك الخاطىء: فهو يشفي بؤسه بجودته، وبحكمته يداوي حماقته، وبنقاوته يطهره من دنسه، وبقدرته يسند ضعفه.

هذه الرحمة حملت الله على ارسال ابنه الى العالم. وابن الله المتجسد بشّر بالرحمة ومارسها، ودعا الناس ليمارسوها مع بعضهم، وقد فضّلها على الذبيحة مُتبنياً ما جاء على لسان هوشع النبي: "فاني اردت رحمة لا ذبيحة..." (٦: ٦).

إن الله لا يحتقر طقوس العبادة، ولكنه لا يتقبلها اذا لم تعبر عن سلوك داخلي يدفع بالانسان نحو الله عن حب صادق، ونحو القريب عن قلب حنون ومستعد للخدمة.

وقد ترجم يسوع، في قصة متى العشار، بكلامه واعماله، ما افصح عنه هوشع النبي: فبينما كان ماراً أمام بيت الجباية، حيث كان متى جالساً، توجه اليه قائلا: "اتبعني"، "فقام وتبعه". إن سرعة سرد وقائع هذا الحدث، كما وردت في الانجيل، تعبر جيداً عن الدعوة المفاجئة والتلبية الفورية، سيما وأن متى ينتمي الى طبقة العشارين، وهم جباة الضرائب المعتبرون خطأة بسبب ارباحهم الفاحشة وغير المشروعة وتعاونهم مع الاجنبي، فكان الشعب يكرههم لذلك ويتبرأ منهم. ومع ذلك يختار المسيح رسولاً من بينهم. فالتزام متى الفوري بالمسيح يبين لنا كم أن هذه الفئة المحتقرة من المجتمع يمكنها أن تفهم المسيح اكثر من الكتبة والفريسيين ورؤساء الكهنة وأمثالهم.

ولشدة فرحه، اقام متى مأدبة على شرف يسوع، دعا اليها جماعة كبيرة من العشارين زملائه. وجلس المسيح وتلاميذه بين هؤلاء من دون اي خوف من العدوى أو تشكيك الناس: من هنا جاء انتقاد الفريسيين للمسيح، وجاء جوابه لهم فورياً ومباشراً: "هلاّ تتعلمون معنى هذه الاية: "إنما اريد الرحمة لا الذبيحة". فالمسيح يطلب من هؤلاء الضالعين في معرفة الكتاب المقدس أن يعيدوا النظر، ولو في بعض معلوماتهم، فيفهموا معنى كلام هوشع النبي على حقيقته. ومن اجل وضعهم في الطريق الصحيح لفهم هوشع، يتابع المسيح قائلاً: "فإني ما جئت لأدعو الابرار بل الخاطئين".

فما ردّده هوشع على مسامع الشعب في العهد القديم، يُسمعنا اياه مجدداً الابن المتجسد الذي اتى الى العالم ليظهر رحمة الآب اللامتناهية، وليُفهم البشر أن عبادة الله بالذبائح لا تجدي نفعاً إلا اذا كانت صادقة وتفضي الى محبة القريب. فهدف الذبيحة هو تمجيد الله، والله يتمجد عندما يَخلُص البشر، والخلاص يتم برحمة منه تعالى: "ما جئت لأدين بل لأخلص". يسوع يدعونا الى ان نكون رحماء كما أن ابانا السماوي هو رحوم، ويدعونا ايضاً الى ترك قرباننا جانباً والذهاب اولاً لمصالحة القريب، ولا مصالحة من دون رحمة.

هكذا فإن قرع الصدور باطل، وتقدمة القرابين باطلة، اذا فقدنا الرحمة. وعبثا نصوم ونصلي اذا لم نرحم. على ضوء ذلك نفهم ما جاء في كتاب خوان ارياس وعنوانه "لا أومن بهذا الاله" حيث يقول: "لن يكون موضوع ايماني إله يرضى بقرابين وذبائح من يتركون البؤساء يتضورون جوعاً على ابوابهم".

نيسان ١٩٨٠ — المطران بولس دحدح

إيماننا بالمسيح

"ولَمَّا كانَ في أُورَشَليمَ مُدَّةَ عيدِ الفِصْحِ، آمَنَ باسمِهِ كثيرٌ مِنَ النَّاسِ، لَمَّا رَأَوا الآياتِ الَّتي أَتى بها. غَيرَ أَنَّ يسوعَ لم يَطمَئِنَّ إِلَيهِم، لأَنَّه كانَ يَعرِفُهم كُلَّهم ولا يَحتاجُ إِلى مَن يَشهَدُ لَه في شَأنِ الإِنسان، فقَد كانَ يَعلَمُ ما في الإِنسان".

(يوحنا ٢: ٢٣-٢٥)

أمام العجائب والايات، ابان الشدائد والازمات، يشعر الانسان بضرورة الرجوع الى الله، وذلك باحياء ايمانه وممارسة أعمال التقوى، ونسمي هذه الظاهرة "وعياً ايمانياً" عادة. أما الايمان، ففيه درجات متفاوتة، وله دوافع وخلفيات وأبعاد.

فما هو طلب الله في الايمان، وما هو جواب الانسان إليه؟ لقد حمل اللقاء بين المسيح وسكان أورشليم، بمناسبة عيد الفصح، الكثير منهم على الايمان بالمسيح والالتفاف حوله.

ولكن يوحنا لا يكتفي بسرد الوقائع، بل يحللها، ويتخطاها، ويقيّم الانسان على اساس ايمانه بالمسيح أو رفضه له. ويطرق يوحنا مرة أخرى موضوع معرفة المسيح لأعماق الأنسان: خواطره، أفكاره، عواطفه، دوافع سلوكه. فكثير من اليهود آمنوا بالمسيح بسبب الايات والعجائب التي صنعها لدى اقامته في المدينة المقدسة، غير أن ايمانهم بقي ناقصاً ودنيوياً، اذ اعتبروا المسيح صانع عجائب ليس إلا، أو نبياً كسائر الانبياء المرسلين من الله، من دون أن يصلوا الى الايمان بالمسيح كابن الله.

وهنا يميز يوحنا ثلاثة نماذج للتفاعل مع المسيح والاجابة الى دعوته، وهي:

أولا، ايمان العذراء مريم والرسل، وهو الايمان الحقيقي. ثانيا، الايمان البدائي المبني على الايات والعجائب. ثالثا، الرفض، لاسيما عند رؤساء الكهنة والفريسيين والكتبة. وبين هؤلاء الذين عايشوا المسيح واختبروه، يختلف الايمان من انسان الى آخر. فما يحدثنا عنه يوحنا، في حادثة السمعانين، هو الايمان السطحي الذي يعكس ردة الفعل العفوية عند من انبهرت أبصارهم برؤية عجائب المسيح وآياته. هذا ايمان ولا شك، ولكنه بدائي. انه الانطلاقة الاولى في مسيرة الايمان الطويلة، وهو موقف ثقة نطل من خلاله على الايمان الصحيح، الطائع، المستسلم استسلام الأبناء لارادة الله القدوسة وتدابير عنايته.

ويبقى هذا الأيمان عرضة للشك والتراجع، اذ ان جذوره ليست عميقة، كالقمح الذي وقع على الصخرة أو على حافة الطريق. فغالباً ما لا يصل هذا الايمان المبني على حماس عابر واندفاع آني، الى الهدف المنشود، ولا يصبح ايماناً راشداً، بالغاً وناضجاً. "الايمان-الثقة" بالمسيح لمجرد كونه صاحب العجائب والايات لا يحمل صاحبه الى علاقة حميمة وعميقة مع الله. هذا هو حال اليهود أصحاب النظرة الايمانية المغلوطة المبنية على المآرب والمصالح، ومن يقف في هذه المرحلة لن يتوصل الى فهم ابعاد أعمال المسيح الخلاصية. فالمسيح الذي يعرف ضعف الانسان وخفايا قلبه، شكك في نوايا الذين التفوا حوله، وساروا وراءه، ونادوا به ملكاً. فهو لا يحتاج الى شهادة أحد ولا يثق بمواقف أصحاب الحماس الزائد. انه يرى قلب الانسان، ولا يقع ضحية الغش والنفاق، وليس موقفه من الانسان ناتجاً عن انفعالات لمظاهر براقة. انه لا يثق بمن يقرعون صدورهم قائلين: "يا رب يا رب" وهم في الواقع لا يعملون مشيئة الرب.

الموقف المطلوب منا جميعاً هو ايمان يتخطى الظواهر، ويتخطى أطر الزمان والمكان؛ ايمان قادر أن يستوعب كلام المسيح على حقيقته، ايمان قادر ان يفهم كلام المسيح عن هيكل جسده، هدمه وبنائه في ثلاثة أيام؛ ايمان يقبل فكرة صلب المسيح وموته وقيامته. ايمان يقبل بكنيسة المسيح؛ باسرارها وتعاليمها؛ ايمان مستعد لتحدي روح العالم وتحميره وتغييره. ايمان قادر ان يردد في كل لحظة ما جاء على لسان القديس بطرس يوم طرح المسيح السؤال على تلاميذه: "من هو ابن الانسان في قول الناس؟ من انا في قولكم أنتم؟...".

هل نحن مستعدون أن نجاوب أيضا: : "أنت المسيح ابن الله الحي" ونحيا بمنطق هذا الايمان في الواقع المعاش كل يوم؟

الايمان قوة

"لا تَخافوهُم إذاً! فَما مِن مَستُورٍ إلاَّ سَيُكشَف، ولا مِن مَكتومٍ إلاَّ سَيُعلَم. والَّذي أَقولُه لَكم في الظُّلُمات، قولوه في وَضَحِ النَّهار. والَّذي تَسمَعونَه يُهمَسُ في آذانِكم، نادوا به على السُّطوح. لا تَخافوا الَّذينَ يَقتُلونَ الجَسد ولا يَستَطيعونَ قَتلَ النَّفْس، بل خافوا الَّذي يَقدِرُ على أَن يُهلِكَ النَّفْسَ والجَسدَ جَميعاً في جَهَنَّم. أَما يُباعُ عُصفورانِ بفَلْس؟ ومعَ ذلِك لا يَسقُطُ واحِدٌ مِنهُما إلى الأَرضِ بغَيرِ عِلمِ أَبيكم. أَمَّا أَنتُم، فشَعَرُ رُؤُوسِكم نَفسُه مَعدودٌ بأَجمَعِه. لا تَخافوا، أَنتُم أَثمَنُ مِنَ العَصافيرِ جَميعاً".

(متى ١٠: ٢٦-٣١)

يوصينا المسيح احياناً: "احذروا الناس". واحيانا أخرى يقول لنا: "لا تخافوا".

الحذر والشجاعة، موقفان لا يتناقضان: انهما ضروريان في الحياة. فالفطنة ضرورية أولاً كي نتمكن من معرفة الخصم وتقييم خطورته بشكل موضوعي. ثم يأتي الثبات والشجاعة في المجابهة.

إن دواء الخوف هو الايمان. فالشعور بالانتماء الى المسيح والاشتراك في مصيره يعطيان عزماً وشجاعة وبطولة. لقد بدأ المسيح رسالته بشكل وديع ومتواضع، ومات على الصليب مرذولاً ومنبوذاً، مما دفع بالبعض الى الظن بانهم قادرون على سحق البذرة التي زرعها المسيح في قلوب التلاميذ وفي العالم. ولكن الأحداث أظهرت أن ما كان صامتاً ومكتوماً، ظهر ممجدا ومنتصرا. لقد قام المسيح برسالته كعبد الله الوضيع، ولكنه هو الذي أصبح، فيما بعد، أمل الشعوب. تكلم في الهدوء والخفاء، فكان على الرسل أن يتكلموا في وضح النهار، وما همس به في آذانهم، لا بد أن ينادوا به على السطوح وأمام الجميع. أن يقبلهم الناس أو أن يرفضوهم، ليس مهماً بقدر ما هو مهم أن يشهدوا علناً وبدون خوف للمسيح ورسالته التي تسطع مضيئة كالشمس.

"لا تخافوا"! يردد المسيح على مسامعنا، ذلك لأن قدرة البشر محدودة. قد يكـــون بامكانها، ولاشك، أن تلحق بنا الاذى، ولكنها لا تصيب سوى الحياة الارضية (الجسد)، اما ما يشكل قيمتنا الحقيقية، أملنا في الحياة الأخرى (النفس)، فلا أحد في هذا العالم يمكنه القضاء عليها. الله وحده هو صاحب السلطان على الحياتين: واذا كان بامكانه أن يحكـــم علينا بالهلاك، فهو يدعونا أيضا الى الحياة الابدية. فالخوف الحقيقي واجب، اذن، تجاه الله وحده.

ولكن اذا ارعبتنا صورة الله الحاكم والديان المخيف، فهناك وجهه الآخـــر الـــذي يكمل ويلطف الاول: عنايته الابوية وحضوره الدائم الى جانب الانسان. أجل، لا يجـــوز التغاضي عن عظمة الله وسموه. ولكن بقدر ما تظهر عظمته وقدرته اللامتناهية، بقدر ذلك تبرز ابوّته بشكل أعمق.

وهناك سؤال اخر يُطرح: اذا كان الايمان دواء الخوف، فكيف نوفّق بين الايمان بالله والخوف منه؟ أليس هناك من تناقض؟

لا بد لنا من التمييز بين الخوف من الله، والخوف من البشر. الخوف من البشر يحط من شأن النفس، يقلقها ويعكر صفوها. كما ان الخطر وارد في أن يقضي مثل هذا الخوف على الايمان. اما الخوف من الله، فيحرر النفس، لأنه قائم على علاقة الخليقـــة بخالقهـــا، ارتباطها به واعترافها بعظمته وأبوّته. هذا الخوف يشفي النفس من التيه ويزيدها ثقة بـــالله وبذاتها. فالذي يخاف الله، يحب الله أيضا. والعكس أيضا صحيح. لأن محبة الله الحقيقيـــة تقتضي الخوف من ان نبتعد عنه تعالى، من أن نفقد صداقته، وابوّته. وهو نفســـه تعـــالى حريص على محبتنا. إن قيمة طير السماء وزنابق الحقل زهيدة جدا، ومع ذلك يهتم بها الله ويلبسها أحلى من سليمان.

ولكننا في عينيه أفضل وأعز من العصافير كلها. لإنه حاضر في كل حدث، صغيراً كان أم كبيراً، لذا فهو يهتم بنا ويرعانا بعنايته، حتى شعر رؤوسنا معدود لديه، ومحبته لنا توازي اتساع معرفته اللامتناهية لضعفنا وحاجاتنا إليه. فلا مجال اذن للقلق من سلوك البشر اذا ناصبونا العداء: انهم عاجزون عن عمل أي شيء بدون معرفة الله ابينا.

من جهة اخرى، هناك واقع اخر وهو، أن ايماننا بالمسيح قد يضعنا أحيانا في قفص الاتهام ويسبب لنا المتاعب، ولربما الاضطهاد، وبسبب اسم يسوع قد يقال عنـــا الســـوء. في مثل هذه الحال لنطرد الخوف ونتذكر قوله: "لا تخف ايها القطيع الصغير".

فاذا شهدنا للمسيح أمام الناس، فهو يشهد لنا بدوره أمـــام الآب. واذا اهتممنـــا في هذا العالم باسم المسيح ودافعنا عنه وشهدنا له، فهو الذي يشهد لنا ويدافع عنا ويكون لنا الوسيط أمام أبيه في العالم الاتي. في المحن والشدائد، ما لنا إلا أن نردد بايمان عميق وثقة لا متناهية: "اذا كان الله معنا، فمن يقدر علينا".

حزيران-تموز ١٩٨٠ — المطران بولس دحدح

السلطة خدمة

"وجاءوا إلى كَفَرناحوم. فلَمَّا دخَلَ البَيتَ سأَلَهم: فيمَ كُنتُم تَتَجادَلونَ في الطَّريق؟ فظَلُّوا صامِتين، لأَنَّهم كانوا في الطَّريقِ يَتَجادَلونَ فيمَن هُو الأَكبَر. فجَلَسَ ودَعا الاثنَيْ عَشَرَ وقالَ لَهم: مَن أَرادَ أَن يَكونَ أَوَّلَ القَوم، فَلْيَكُنْ آخِرَهم جَميعاً وخادِمَهُم.

(مرقس ٩: ٣٣-٣٥)

التناقض بين موقف المسيح وموقف التلاميذ واضح جداً.

فبينما كان يفكر، وهو في الطريق، بعذابه وموته الوشيك على الصليب، وقع جدال بين التلاميذ في من هو الاكبر فيهم، وبذلك كانوا بعيدين كل البعد عن افكار المسيح، متجاهلين متطلبات اتباعه والسير على خطاه.

التناقض نفسه سبق ان حصل يوم اعلن المسيح للمرة الاولى عن ضرورة موته على الصليب، فاحتج بطرس. كذلك وقف الرسل عندما طلبت ام اولاد زبدى، يعقوب يوحنا، ان يجلس ولداها، الواحد عن يمينه والاخر عن يساره. فقد استاء التلاميذ الباقون واعلنوا العداء للأخوين.

جميعهم غارقون في اهتمامات دنيوية الى حد الجدال والخلاف. فعرف المسيح افكارهم وفاجأهم بسؤاله، واضعاً النقاط على الحروف، ليصحح افكارهم، ويبدد احلامهم واوهامهم بمُلك ارضي تكون لهم فيه المراكز الاولى واماكن الصدارة. وكلامه هذا يوجهه الى الاثني عشر الذين اختارهم، مؤتمنين على رسالته وممثلين عن شعب الله، والى خلفائهم من بعدهم.

المسيح كعادته يرفض أنصاف الحلول ويبدو جذريا في كلامه: "من اراد ان يكون اول القوم، فليكن آخرهم". ويضيف ما جاء مراراً على لسانه، ويلقي الضوء على "سر"

تجسده، فيردف: "ليكن اول القوم خادمهم". لا عجب من هذا التصريح، أفليس هو صاحب القول: "ما جئت لأُخدَم بل لأَخدُم"؟

يعتبر كلام المسيح ضربة لهؤلاء الراكضين وراء الشرف والسؤدد والسلطة والكبرياء. وبذلك، يقلب رأساً على عقب سلّم القيم الساري بين البشر بطرق مختلفة. ليس اطار كلام المسيح سياسياً أو اجتماعياً، وانما انسانياً وروحياً. فهو يبشر بنظام جديد يكون هو فيه الرب والسيد، يملك بمحبته ورحمته اللامتناهية، ويمارس السلطان المعطى له من الاب، عبر خدمة الانسانية الخاطئة. بذلك يكون المسيح قد وضع قياسات جديدة للعلاقات بين الرسل والجماعة المسيحية تختلف تماماً عن قياسات النظم البشرية كما ينقلها التاريخ، حيث الافراد والجماعات في صراع مستمر من اجل السيطرة والكسب. لقد شدد المسيح على ممارسة السلطة كخدمة، لانه وجد نفسه بين جماعات من الكتبة والفريسيين ورؤساء كهنة "يحبون المشي بالجبب وتلقي التحيات في الساحات وتصدر المجالس في المجامع واختيار المقاعد الاولى في المآدب"، مهتمين بأمجادهم فقط، غافلين عن مصالح الشعب.

ويدّعي البعض ان تبوُّء المراكز الاولى، انما يفتح امامهم آفاقاً جديدة للخدمة، بينما يكونون في الواقع قد امّنوا مصالحهم ومكاسبهم. اما المسيح فقد تكلم وتصرف عكس ذلك. لقد علّم تلاميذه اختيار المواضع الاخيرة، حتى وإن وُكلت اليهم مهام عالية ومسؤوليات جسام، اعني عليهم ان يتخذوا انفسهم، دوماً وفعلاً، خداما للكلمة والناس: "ليكن الاكبر فيكم كأنه الاصغر، والرئيس كأنه الخادم". هذا ما قاله لهم ليلة العشاء الاخير، واعطى لهم المثال بنفسه حينما ركع امامهم وغسل ارجلهم: "انا بينكم كالذي يخدم". ذلك منتهى التواضع والخدمة! فلقد تكلمت النبوات في العهد القديم عن مسيح يكون "عبداً لله"، وها هو يسوع يقدم ذاته كعبد وخادم للبشر ويطلب الى تلاميذه ان يحذوا حذوه.

فخدمة الاخرين، باختيار الموضع الاخير، بالتواضع والعطاء والتضحية ونكران الذات، تعتبر علامة فارقة في الانجيل وفي الديانة المسيحية؛ وتجاهلها يعني رفضاً لسر المسيح. فهذا الاله المتأنس لم يلجأ الى طبيعته الالهية ليكسب ودّ البشر ويربحهم لرسالته، بل اخلى ذاته "متخذاً صورة عبد" وجاء على مثال البشر، الفقراء منهم والمنبوذين خاصة، عائشاً مثلهم ومشاطراً اياهم المصير. بذلك رفع شأنهم، واعاد اليهم انسانيتهم، وأشركهم في بنوّته للآب الواحد، وساواهم بنفسه اذ اعتبر من يكرمهم يكرمه: "كل ما صنعتم لواحد من اخوتي هؤلاء الصغار، فلي قد صنعتموه".

على خطى المسيح

"وقالَ لِلنَّاسِ أَجمَعين: مَن أَرادَ أَن يَتبَعَني، فَلْيَزْهَدْ في نَفسِهِ ويَحمِلْ صَليبَهُ كُلَّ يَومٍ ويَتبَعْني. لأَنَّ الَّذي يُريدُ أَن يُخَلِّصَ حياتَه يَفقِدُها. وأَمَّا الَّذي يَفقِدُ حَياتَه في سَبيلي فإِنَّه يُخَلِّصُها. فماذا يَنفَعُ الإِنسانَ لو رَبِحَ العالَمَ كُلَّه، وفَقَدَ نَفْسَه أَو خَسِرَها؟ لأَنَّ مَن يَستَحْيي بي وبِكَلامي يَستَحْيي به ابنُ الإِنسان، متى جاءَ في مَجدِه ومَجدِ الآبِ والمَلائِكَةِ الأَطهار".

(لوقا ٩: ٢٣-٢٦)

بدأ المسيح حياته العلنية معلناً بشارة الملكوت، داعيا الناس الى التوبة والايمان به كمرسَل من الله الاب لخلاص البشر. ودعم كلامه بآيات بينات وعجائب صنعها على مرأى من جميع الحاضرين: فقد اشبع الجياع، وشفى المرضى، وأقام الموتى، وطرد الشياطين... وتبعه كثيرون، والتفت حوله جموع غفيرة بدوافع وتطلعات مختلفة، وربما متباينة. حتى الرسل الاثنا عشر انفسهم لم تكن لديهم الرؤيا الواضحة منذ البدء، عن المسيح وشخصيته ورسالته ومصيره ومصير أتباعه. ولكن المسيح كشف لهم، وعلى مراحل، الجوانب الخفية من حياته ومصيره، وحدد هوية المسيحي الحقيقي ومتطلباتها: الكفر بالذات وحمل الصليب، اذ "ما من تلميذ أسمى من معلمه، وما كان العبد اعظم من سيده". أما عن ذاته فقد أنبأ: " يجب على ابن الانسان ان يعاني الآماً شديدة وأن يرذله الشيوخ والاحبار والكتبة، وأن يقتل ويقوم في اليوم الثالث" (لوقا ٩: ٢٢). وعندما سأله اليهود: "من أنت؟"، لم يجبهم بصورة مباشرة بل أتى على ذكر موته قائلاً: "متى رفعتم ابن الانسان، عرفتم أني انا هو". فاذا كانت عجائبه وكلامه غير كافيين لاقناع العنيدين من الناس بصحة رسالته، فالصليب قد اقنعهم واصبح خلاصاً للانسانية كلها.

هكذا كشف المسيح سر فصحه، أي انتقاله من العذاب والموت الى القيامة، أي المجد الابدي. وبذلك رسم الدرب لجميع اتباعه: ان يحملوا صليبهم ويتبعوه حتى الموت مثلـه، ويقوموا من ثم معه وفيه. وهذه هي الطريقة الوحيدة لعيش سر الفصح، شخصياً وحياتياً. فالصليب والمصائب التي تلازم حياة الانسان دوماً تذكّر المسيحي بخط سيره الخلاصي وبالحياة الحقيقية. "لان الذي يريد أن يخلّص حياته يفقدها، وأما الذي يفقد حياته في سبيلي، يقول يسوع، فإنه يخلصها". من يتمرد على الصليب، من يرفض الاماتة، من يخضع لشهواته ويريد اتباع حياة سهلة، يتزلق في الخطيئة والموت. أما من كان مستعداً لنكران ذاته والتضحية بحياته، واضعاً اياها في خدمة الله والاخوة، وإن خسرها في الزمان، فهو يخلصها للحياة الابدية: "ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وفقد نفسه أو خسرها".

اختيار الحياة يعني السير على خطى المسيح بنكران الذات وحمل الصليب. فالمسيحي الذي لا ينصاع للمسيح المصلوب ويؤمن به ويتبع خطاه، لا يخلص. أليس بالصليب خلّص المسيح الانسان، وبرسم هذا الصليب يعتمد المسيحي، ويُدهن بالميرون، ويُحَل من خطاياه؟ أليست علامة الصليب هي السمة الاولى التي ترسمها الكنيسة على المولود الجديد، واخر علامة ترسمها عليه يوم ينتقل من هذا العالم الى الآخرة؟ فليس الصليب مجرد علامة رمزية، وإنما هو حقيقة ايمانية مثقلة بالمعاني. فالحياة المسيحية تنبع من الصليب، ومن الصليب يولد المسيحي في الايمان، وبالتعلق بصليب سيده والايمان باستحقاقات عذاباته يخلص.

لكن الايمان بالمسيح المصلوب وحده لا يكفي، اذ ينبغي ان يرتبط هذا الايمان بالحياة. فحياة المسيحي ينبغي ان تحمل علامة الصليب، وهذه العلامة تخفي وراءها واقعاً ملموساً: "من اراد أن يخدمني فليتبعني، وحيث اكون انا يكون خادمي". وفي مكان اخر يقول: "من لا يحمل صليبه ويمشي ورائي، فلا يستحقني". أما يسوع فقد حمل صليبه، وعليه مات. فمن اراد ان يكون تلميذه، عليه ان يكون مستعداً لاختيار الطريق والمصير نفسيهما. الا ان هذه الطريق تنتهي بالخلاص ومجد القيامة. ذلك ان الخلاص لا ياتي من ميت، من جثة هامدة، وانما من القائم من موت الصليب.

فلا عزاء لنا في مصائبنا وعذاباتنا، في أسر شبابنا واستشهادهم، سوى باستذكار المسيح المصلوب، وعقد رجائنا بالمسيح الناهض من الموت حياً منتصراً.

كانون الاول ١٩٨٠ — المطران بولس دحدح

منطلق القوة ومنطلق الاقناع

"سَمِعتُم أَنَّه قيل: العَينُ بالعَين والسِّنُّ بالسِّنّ. أَمَّا أَنا فأَقولُ لكم: لا تُقاوِموا الشِّرِّير، بَل مَن لَطَمَكَ على خَدِّكَ الأَيْمَن فاعرِضْ لهُ الآخَر. ومَن أَرادَ أَن يُحاكِمَكَ لِيَأخُذَ قَميصَكَ، فاترُكْ لَه رِداءَكَ أَيضاً. ومَن سَخَّرَكَ أَن تَسيرَ معه ميلاً واحِداً. فسِرْ معَه ميلَيْن. مَن سأَلَكَ فأَعطِه، ومَن استَقرَضَكَ فلا تُعرِضْ عنه. سَمِعتُم أَنَّه قِيل: أَحْبِبْ قَريبَك وأَبْغِضْ عَدُوَّك. أَمَّا أَنا فأَقولُ لكم: أَحِبُّوا أَعداءَكم وصَلُّوا مِن أَجلِ مُضطَهِديكُم، لِتَصيروا بني أَبيكُمُ الَّذي في السَّمَوات، لأَنَّه يُطلِعُ شَمْسَه على الأَشرارِ والأَخيار، ويُنزِلُ المَطَرَ على الأَبرارِ والفُجَّار. فإِن أَحْبَبْتُم مَن يُحِبُّكُم، فأَيُّ أَجْرٍ لكم؟ أَوَلَيسَ الجُباةُ يفعَلونَ ذلك؟ وإِن سلَّمتُم على إِخوانكم وَحدَهم، فأَيُّ زِيادةٍ فعَلتُم؟ أَوَلَيسَ الوَثَنِيُّونَ يَفعَلونَ ذلك؟ فكونوا أَنتُم كامِلين، كما أَنَّ أَباكُمُ السَّماويَّ كامِل".

(متى ٥: ٣٨-٤٨)

عزيزي القارئ... نحن امام نص واضح جلي، ومع ذلك، ولاسباب مختلفة طالما صار سبيلاً للالتباس والبلبلة عبر العصور. فقد ساعد هذا النص على ظهور نمط من الانسان المسيحي يتصف بالسلبية والمسكنة، اذا لم يكن ذلك في كل زمان ومكان، فأقله في حقبات كثيرة من تاريخ المسيحية. كما كان هذا النص في مقدمة الاسباب التي ادت الى رواج فلسفات سياسية في الاوساط المسيحية، بحجة المحبة المسيحية ومطاليب السلام. ونحن لسنا هنا بصدد مناقشة ايجابيات وسلبيات هذه الفلسفات، ولكن علينا أن نقولها بصراحة أننا لا نجد علاقة كافية بين النص الانجيلي وبين هذه الفلسفات والنهج السلوكي الذي تدعو اليه.

فاذا اردنا حقاً أن نصل الى المعنى الجليل والسامي المكنون في هذا النص، علينا ألا ننظر اليه بمعزل عن الدواعي التي قيل من اجلها والظروف التي كانت ملازمة له، مع الاخذ بعين الاعتبار الروحية العامة للأناجيل التي تلقي الضوء على جميع نصوصه.

هناك ثلاثة اسئلة يمكننا أن نلقيها لعلها تنير طريقنا للوصول الى القصد. واول هذه الاسئلة هو: من هو الذي يلطمني؟ وثانيهما: لماذا يلطمني؟ أما السؤال الثالث فهو: لماذا يجب عليّ أن اقبل اللطمة واحوّل الخدّ الاخر لمن يلطمني؟ بعد هذه الاسئلة، لا شك أننا نميز مثلا بين لطمة المجنون ولطمة العاقل، بين لطمة المحب ولطمة الحاقد المضطهد. كما اننا نجد اختلافاً في الأسباب الداعية الى الاذية. فاذا لطمني شخص في خصام واشتباك مباشر، فالامر يختلف عما اذا لطمني بسبب خطأ ارتكبتُه. واذا لطمني شخص ليؤدّبني، فهذا يختلف، بالتأكيد عما إذا لكمني ليُرهبني فأكُفَّ عن المطالبة بحقوقي أو حقوق الاخرين. فبديهي أن يختلف سلوكي وموقفي ممن يلطمني من حالة الى أخرى. وقد يأتي الاختلاف في السلوك بسببي أنا الذي تلقيت اللطم. فاذا كنت مثلاً في حالة تسمح لي بالدفاع عن نفسي، فذاك أمر يختلف كثيرا عما اذا كنت في موقف ضعف تجاه خصمي.

يظهر من كل ذلك أن للظروف احكاماً، وأن التعامل مع اي نص بمعزل عن ظروفه، هي عبودية للحرف يمكن أن تسبب سوء فهم لذلك النص. أما اذا كان الفكر التقليدي قد تعامل فعلا مع النص الذي نحن بصدده، بشكل حرفي يعزل النص عن ظروفه الكثيرة، فان ذلك يعود الى التمسك بأيديولوجية دخيلة على الانجيل، مصدرها القرون الوسطى، كانت تريد للانسان المسيحي أن يلزم جانب الهدوء والاستكانة كي ينعم المجتمع بالاستقرار والثبات. وهكذا يُسخَّر النص لمصلحة الطبقات الحاكمة والحكم القائم.

أما نحن، فاذا ما اخذنا بعين الاعتبار الأسباب والعلل والظروف، فسيتضح لنا حتماً أن حالات معينة هي التي تنطبق فيها احكام النص الذي نحن بصدده، بكل قوتها؛ علماً بأن هذه الحالات بعيدة كل البعد عن المعاني السلبية التي يريدها لها التصور التقليدي. ان هذه الحالات تكاد تنحصر في موقفين أساسيين: اولهما عندما يكون التحمل والتسامح والتضحية السبيل الوحيد والاكيد لممارسة المحبة الشاملة، تشبهاً بالاب السماوي. أما الموقف الثاني، وهو الاكثر وضوحاً وجلاء في هذا النص، فهو موقف الثبات والصمود بوجه الاقوياء المضطهدين، وذلك عن طريق الصبر والتحمل، تمسكاً بالعقيدة والحق والعدل. واظنني لست بحاجة الى اظهار قوة وعظمة هذا الموقف، لاننا في الواقع نجده ليس في الاديان وحسب، بل في كثير من الحركات الاصلاحية والثورية في الميادين الحضارية والسياسية والاجتماعية. في هذه المواقف يكون المؤمن مستعداً، ليس فقط لإعطاء الخد الاخر لمضطهده بل لاعطاء حياته اذا اقتضى الامر، حباً بمن يؤمن به. لنأخذ مثلاً على ذلك شهداء المسيحية على مر الاجيال.

بعد هذا يمكننا أن نستنتج بكل اطمئنان بأن النص الذي نحن بصدده قد لا يُلـــزم احداً في حالات اخرى عديدة. مثلاً حين يملك الانسان القوة بكافة اشكالها لايقاف خصمه عند حده. أو حين تنعدم فرصة ممارسة المحبة. أو حين تكون العدالة أكثر اهمية والحاحاً من المحبة. أو عندما تكون العلاقات الشخصية غير قائمة اصلاً، كما يحدث في مجال العلاقات الدولية، وفي ميدان العلاقات بين الطبقات أو بين الاجناس المختلفة. في هذه الحالات جميعاً هناك مقاييس وموازين أخرى للسلوك، وهذه المقاييس والموازين لا تعفـــي مطلقـــاً مـــن مسؤولية المحبة والسلام المبنيين على العدل والحق.

وعليه فاذا كنا نسمع اليوم، كما في غابر الايام، أن أناســـاً يُضـــربون ويُهـــانون ويُقتلون، لأنهم يبشرون المساكين ويتعاطفون مع الجياع ويعملون على مجيء ملكوت الله في العالم، واذا كنا نسمع أن مفكرين ولاهوتيين يضايَقون ويُمنعون من تأدية رسالتهم الفكرية، لأنهم يريدون أن يَرجعوا الى الانجيل بجدية واخلاص، ويفكوا ارتباط الفكر المسيحي مـــع قوى العالم المهيمنة على حركة التأريخ، حينئذ لا يمكننا الا أن نفرح ونقول: ان ملكوت الله لقريب حقا.

الفقراء والأغنياء

"وإذا برَجُلٍ يَدنو فَيقولُ له: يا مُعلِّم، ماذا أَعمَلُ مِن صالحٍ لأَنالَ الحَياةَ الأَبَديَّة؟ فقالَ له: لماذا تَسأَلُني عَنِ الصَّالِح؟ إِنَّما الصَّالِحُ واحِد. فإِذا أَرَدتَ أَن تَدخُلَ الحَياة، فَاحفَظِ الوَصايا. قالَ له: أَيَّ وَصايا؟ فقالَ يسوع: لا تَقتُلْ، لا تَزنِ، لا تَسرِقْ، لا تَشهَدْ بالزُّور، أَكرِمْ أَباكَ وأُمَّك و أَحبِبْ قَريبَكَ حُبَّكَ لِنَفسِك. قالَ له الشَّابّ: هذا كُلُّه قد حَفِظْتُه، فماذا يَنقُصُني؟ قالَ له يسوع: إِذا أَرَدتَ أَن تَكونَ كامِلاً، فاذْهَبْ وبِعْ أَموالَكَ وأَعْطِها لِلفُقَراء، فَيكونَ لكَ كَنزٌ في السَّماء، وتَعالَ فاتبَعْني. فَلَمَّا سَمِعَ الشَّابُّ هذا الكلام، إنصَرَفَ حزيناً لأَنَّه كانَ ذا مالٍ كثير.

فقالَ يسوعُ لِتلاميذِه: الحقَّ أَقولُ لكم: يَعسُرُ على الغَنِيِّ أَن يَدخُلَ مَلكوتَ السَّمَوات. وأَقولُ لَكم: لأَن يَمُرَّ الجَملُ مِن ثَقْبِ الإِبرَةِ أَيسَرُ مِن أَن يَدخُلَ الغَنِيُّ مَلكوتَ الله. فلَمَّا سَمِعَ التَّلاميذُ هذا الكلام دَهِشوا دَهَشاً شديداً وقالوا: مَن تُراهُ يَقدِرُ أَن يَخلُص؟ فَحَدَّقَ إِلَيهِم يسوعُ وقالَ لهم: أَمَّا النَّاسُ فهذا شَيءٌ يُعجِزُهم، وأَمَّا اللهُ فإِنَّه على كُلِّ شيءٍ قَدير".

(متى ١٩: ١٦-٢٦)

هذه الكلمة ليست موعظة القيها في الغنى والفقر. انما مجرد حنين الى الانجيل في صفائه! ذلك، اولاً، لان هذا الباب ليس باب المواعظ، وثانياً لاني لا اعتبر نفسي واعظ الفقراء. لان وعظ الفقراء لا يأتي الا على لسان الاغنياء وابواقهم! فان هؤلاء يبرعون في التمييز بين غنى وغنى، وبين فقر وفقر، كما يبرعون في الدعوة الى الزهد والتجرد واحتقار اباطيل "العالم"، الى الحد الذي يتأكدون فيه بان اكداس المال ستبقى آمنه بيد اصحابها الشرعيين، دون ان يشتهيها احد! ألم تقل الوصية: "لا تشتهِ مقتنى غيرك"؟! أوَليست

"القناعة كنزاً لا يفنى"!، "والدنيا زائلة"! أوَليس ملكوت السماوات ثوب الفقراء؟! ثم أليس الغنى عطية الله، يحصل عليه الانسان ليمارس به عمل الخير؟

ولكننا نقول لهؤلاء الوعاظ البارعين ايضاً: أليس الغنى سبباً في نصب موائد التخمة في بيوت المترفين، بينما يموت مليون ومليون "لعازر" على عتباتهم جوعاً؟ أوَليس الغنى هو الذي يفسد الناس، ويشتري الضمائر والقلوب، ويزهق الارواح، وينشر العداء، ويسبب النزاعات؟

ان ما ينساه غالباً خطباؤنا البارعون، هو الذهنية التي يخلقها الغنى لدى اصحابه، عندما يخرجهم من عالم ليدخلهم الى عالم اخر له قوانينه وعقليته وسلوكه، عالم الغنى الذي لا يمكن تدجينه. وباختصار نقول ان عالم الغنى ومقوماته، اي عالم التملك والتسلط، عن طريق المال والاغراء، عالم الجشع والاغتناء غير المشروع، هذا العالم لا صلة له بعالم ملكوت الله الا بالصراع.

ان ما ينساه الوعاظ، لم يفت يسوع المسيح، كما يظهر من النص الانجيلي موضوع الحديث. ففي نظر يسوع، يقوم تناقض اساسي بين "ملكوت الله" وملكوت العالم، وتفصلهما هاوية يتعذر تخطيها، مثل تعذر دخول خرم الابرة على الجمل. انها الهاوية الملعونة التي تحفرها الطبقية لتفصل ما بين الاغنياء والمترفين والغافلين عن غيرهم، وبقية الناس الكادحين المغلوبين على امرهم.

صحيح ان الاغنياء ليسوا كلهم اشراراً، كما يقول الوعاظ، فمنهم من يصنع الخير والاحسان ولا يتعلق قلبه بالمال الزائل، على حد التعبير التقليدي، ولكن المسألة لا تتعلق بالشريعة والاخلاق الفردية. انها مسألة تعايش بين الغنى ومطالب الله كما يعكسها العهد الجديد، بين عقلية ونهج وفكر هذه الطبقة الميسورة المترفعة المالكة الزمام، وبين مطالب ملكوت العدل والاخاء والمحبة والتعاون والعطاء المتبادل والانفتاح من دون ترفع أو انكفاء، أي "ملكوت الله" كما يسميه الانجيل. لذلك لا يتكلم النص عن الغنى الشرير بقدر ما يتكلم عن اهلية الاغنياء للدخول في "ملكوت الله"، اي الدخول في الايمان الجديد. واذا شئنا ان نقول الاشياء بصورة اكثر بساطة، فالترجمة الحقيقية لهذه العبارات تكون ان الاغنياء غير قادرين ان يكونوا مسيحيين الا في حالتين: الاولى، وهي الصائبة، اذا تمكن "الروح" ان يدفع الغنى الى التنكر لمفاهيم طبقته الاستعلائية الاكتفائية الانانية، والتبرؤ منها بشكل شامل قولاً وفعلاً، ليعود الى صفوف سائر الناس، فكراً وعقلية وتضامناً. اما الحالة الثانية، وهي الحالة المسخ، فهي عندما "تُفَصَّل" المسيحية على هوى وقياس هؤلاء القوم، فتفقد طابعها الانساني الوجودي المميز ليصبح ملكوت الله "فندقاً" عاماً!

واذا كان صحيحاً ان الاغنياء يعسر عليهم دخول ملكوت الله، فهذا لا يعني ان جميع الفقراء هم من ابناء الملكوت حتماً لمجرد كونهم فقراء، وان كان الفقراء مرشحين بشكل خاص لهذا الملكوت. ان امكانية دخول ملكوت الله هي "موقف" من هذا الملكوت ومطاليبه، اكثر مما هي "حالة تملك" مادية قد تكون اسوأ من الغنى احيانا، وذلك بسبب الخراب الذي يحدثه الحرمان في نفس الفقير، اضافة الى المساوئ الاخرى الناتجة عن عقلية التملك.

اخيراً لا بد لنا من التمييز بين مفهوم الغنى ومفهوم الرفاهية. اذ كثيراً ما يختلط المفهومان في التصور العام، وغالبا ما يتسبب هذا الخلط، بالالتباس والتشويش في الروحانية المسيحية.

ان الغنى الذي تكلمنا عنه هو "انتماء" الى المال والى الطبقة التي يكوّنها ويعزلها عن سائر الناس، ويكون هذا المال هو القوة والقيمة الاساسية في حياة الانسان، مع كل ما يمكن ان يتبع ذلك من ظلم وتناحر واعتداء. اما الرفاهية، فهي الحصول على المال كثمرة لجهد الانسان وتعبه، وكوسيلة للعيش الرغيد والتمتع بخيرات العمل وتبادل الخدمة بين البشر. وبهذا تكون الرفاهية حقاً اساسياً من حقوق الانسان، ويكون حرمان الانسان من حقه هذا استلاباً لجهده وظلماً اجتماعياً لا ترضى به شرعة "ملكوت الله".

اله الفرح واله الشريعة

"وفي اليَومِ الثّالِث، كانَ في قانا الجَليلِ عُرسٌ وكانَت أُمُّ يَسوعَ هُناك. فدُعِيَ يسوعُ أيضاً وتلاميذُه إلى العُرس. ونَفِدَتِ الخَمْر، فقالَت ليَسوعَ أُمُّه: لَيسَ عِندَهم خَمْر. فقالَ لها يسوع: ما لي وما لَكِ، أيَّتُها المَرأَة؟ لَم تَأتِ ساعتي بَعْد. فقالَت أُمُّه لِلخَدَم: مَهما قالَ لَكم فافعَلوه. وكانَ هُناك سِتَّةُ أَجْرانٍ مِن حَجَرٍ لِما تَقْتَضيه الطَّهارةُ عِندَ اليَهود، يَسَعُ كُلُّ واحِدٍ مِنها مِقدارَ مِكيالَينِ أَو ثَلاثَة. فَقالَ يسوعُ لِلخَدَم: اِملأُوا الأَجرانَ ماءً. فمَلأُوها إلى أَعْلاها. فقالَ لَهم: اِغرِفوا الآنَ وناوِلوا وَكيلَ المائِدَة. فناوَلوه، فلَمَّا ذاقَ الماءَ الَّذي صارَ خَمْراً، وكانَ لا يَدري مِن أَينَ أَتَت، في حينِ أَنَّ الخَدَمَ الَّذينَ غَرَفوا الماءَ كانوا يَدرُون، دَعا العَريسَ وقالَ له: كُلُّ امرِىءٍ يُقَدِّمُ الخَمرَةَ الجَيِّدَةَ أَوَّلاً، فإِذا سَكِرَ النَّاس، قَدَّمَ ما كانَ دونَها في الجَودَة. أَمَّا أَنتَ فحَفِظتَ الخَمرَةَ الجَيِّدَةَ إِلى الآن. هذه أُولى آياتِ يسوع أَتى بها في قانا الجَليل، فأَظهَرَ مَجدَه فآمَنَ به تَلاميذُه".

(يوحنا ٢: ١-١١)

لا اخالني بعيداً عن المعنى الاساسي للنص اذا ما اكدت ان اله يسوع هو اله الفرح والسعادة، قبل ان يكون اله الشريعة. فالآية التي اتى بها يسوع في عرس قانا تؤكد ان ازمنة الشريعة قد انتهت، لتحل محلها ازمنة الحرية والحب. ازمنة الخلاص والفرح المرتكز على بنوة الانسان لله، هذه البنوة التي جددت مفهوم الانسان، فصارت له بشرى سارة تعد بكرامة تفوق حدود التصور، ليس ازاء البشر وحسب، بل امام الله نفسه. لقد صار الانسان بهذه البشرى سيد نفسه وسيد العالم والتاريخ، واصبحت حياته موجهة بالامل الذي زرعه الله فيها بيسوع المسيح.

لحظة تأمل تذكرني بنداء الرب لقائين بعد ان قتل اخاه هابيل:

قائين قائين ماذا فعلت باخيك هابيل؟ قلت في نفسي: الا يحق لنا نحن المؤمنين ان نصيح باعلى صوتنا: يا معلمي الناموس، ماذا فعلتم بانجيلنا؟ اين الفرح الغامر الذي يدعونا اليه كل حرف فيه.. هل فُقد حقا؟ كلا، بل قُتل واستُشهد. فقد اغتاله "العالم" -ذاك الذي لا يستسلم للانجيل بسهولة، بحسب مفهوم يوحنا الانجيلي، ورغم ذلك يحظى ببركة معلمي الناموس الذين نذروا انفسهم للسهر عليه وللدفاع عنه، بحجة ان ارباب العالم قد قبلوا العماذ وان كان عماذ الماء دون "الروح"!

لقد اراد لنا "العالم" ان نزهد في الدنيا، لانه اراد ان يحتكرها لاصحابه، وان نخلع اثواب العرس والاعياد لنلبس المسوح، فتقلّ بذلك مطالبينا! واراد ان نجوّع اجسادنا ونقهرها بالصوم الطويل، كي لا نطالب بالرفاهية والعيش الرغيد، وان يموت لدينا الشعور بالجور والظلم، فلا نطالب بحقوقنا العادلة. لقد اصر العالم على ان تبقى الجموع في هذه الحياة ضعيفة مستكينة مطأطأة الراس، على امل ان تتغير الاحوال في العالم الاخر. وللوصول الى هذا الهدف ادخلنا العالم ثانية الى دنيا الشريعة الخاوية من الروح، الشريعة التي تقيدنا بسلاسل العهد القديم وتحرمنا من حرية اولاد الله. فكيف نفرح، اذن، ونقيم الاعراس؟ ثم الم يُسمِّ علماء الناموس كل مظاهر الفرح في هذه الدنيا باباطيل العالم؟... لقد حاسبونا على قطعة حلوى اكلناها بنهم فقالوا: انها شراهة! وحاسبونا على كأس خمر وقالوا: انها حرام! وحاسبونا على نظرة حسد الى سيارة غيرنا وقصره وقالوا: لا تشته مقتنى غيرك! كما حاسبونا على بَحلقة في وجه صبوح وقالوا: هذه خطيئة ضد الوصية السادسة!

وماذا ابقوا لُنا يا ترى؟ رغيف خبز كفاف اليوم، وشيئا يسمونه "حالة النعمة" ثمرة لطاعتنا، ووعدا بملكوت آت لا يريدون ان يذيقونا منه الان شيئا، ولو بطرف لساننا! ومع هذا كله، نجد في ما بيننا اناسا لا يعتقدون ان شيئا من هذا يعنيهم، فياكلون ويشربون حتى يُتخمون، ويُقبلون على لذات الحياة يرشفون كاسها حتى الثمالة، امام سمع وبصر الناس اجمعين، وربما امام انظار لعازر المسكين الملقى على عتبة دورهم والذي يشتهي ان يملأ بطنه من فتات موائدهم. ورغم ذلك، غالبا ما نجد ارباب العالم يحتلون الصدارة في جماعتنا، ومن اجلهم تقيّد الكنيسة نفسها بالف قيد، كي لا تشككهم! عفواً.. كي لا تُغضبهم.

فاذا ما اردنا ان تعود الينا افراحنا واعراسنا واعيادنا، علينا بالرجوع الى صفاء الينبوع الذي نهل منه الرسل والمسيحيون الاوائل، ينبوع السعادة ذات الابعاد الانسانية المتعددة. ولندقّ الخيام ونشرع بالعيد! ولكن لنضع الحراس حول الخيام ولنوصهم بالسهر كي لا يتسلل "العالم الغريب" ثانية ويسرق اعراسنا واعيادنا او يغتالها، وان جاء بزي ملاك. فالافراح حقنا وملكنا جاء بها ذاك الذي انتصر على "سيّد" هذا العالم، ذلك الذي بموته وقيامته صار نصرا وخلاصا وفرحا لجميع الناس، حتى بات بامكاننا ان نقول: والكلمة صار "عيداً" وحل فينا.

آذار-نيسان ١٩٨٦ — الأب لوسيان جميل

القيامة وحركة التاريخ

"ولَمَّا انقَضَى السَّبتُ اشتَرَت مَريَمُ المَجدَليَّةُ ومَريَمُ أمُّ يَعقوبَ وسالومةُ طيباً ليَأتينَ فَيُطَيِّبنه. وعِندَ فَجرِ الأحدِ جِئنَ إلى القبرِ وقد طَلَعَتِ الشَّمس. وكانَ يَقولُ بَعضُهُنَّ لبَعضٍ: مَنْ يُدحرِجُ لنا الحَجَرَ عَنْ بابِ القَبرِ؟ فَنَظَرنَ فَرأَينَ الحجرَ قد دُحرِجَ، وكانَ كبيراً جداً. فدخَلْنَ القَبرَ فأبصَرنَ شاباً جالساً عَنِ اليَمينِ عليهِ حُلَّةٌ بيضاء فارتَعَبْنَ. فقالَ لهُنَّ: لا تَرتَعِبْنَ! أنتُنَّ تَطلُبنَ يَسوعَ النّاصريَّ المَصلوبَ. إنَّهُ قامَ وليسَ هٰهُنا، وهذا هو المكانُ الذي كانوا قد وضَعوهُ فيهِ. فاذهَبْنَ وقُلْنَ لِتلاميذِهِ ولبطرسَ: إنَّهُ يتقدَّمُكُم إلى الجليلِ، وهناكَ تَرَوْنَهُ كما قالَ لكُم".

فخَرَجنَ منَ القبرِ وهَرَبنَ، ولما أَخذَهُنَّ من الرِّعدَةِ والدَّهشِ، ولم يَقُلنَ لأحدٍ شيئاً لأنَّهُنَّ كُنَّ خائِفات".

(مرقس ١٦: ١-٨)

عندما نعرف مفهوم القبر عند اليهود، سنفهم بعمق مغزى مثل هذه العبارات: "انه قام وليس ههنا"، عند مرقس؛ و "لماذا تبحثن عن الحي بين الاموات"، عند لوقا. انها حقا عبارات ذات دلالات رمزية. فالقبر عالم الاموات، عالم الزوال والفناء. ولذلك فالقبر ليس المكان المناسب للالتقاء بيسوع الذي لا يمكن ان يختفي. فاللقاء يجب ان يتم في الجليل، مكان انطلاق البشرى بملكوت الله. وهذا معنى رمزي آخر للقيامة تقدمه لنا الاناجيل. فكأني بالنص يقول: ان يسوع عاد مرة اخرى الى الجليل لمواصلة البشارة، وان البشارة بملكوت الله هي يسوع، ويسوع هو البشارة بملكوت الله. واخيرا فقد تغلب جليل يسوع على اورشليم اليهود، وسيعيشُ جليل الامم، بينما تموت اورشليم اليهود ولن "يبق فيها حجر على حجر". بعد هذه الغلبة لن تمضي ايام يستولي جليل يسوع على اورشليم اليهود

لتصبح اورشليم من جديد المنطلق الرسمي لبشارة الرسل نحو العالم أجمع: "وتكونون لي شهوداً في اورشليم، وفي جميع اليهودية والسامرة، والى اقاصي الارض" (اعمال الرسل ١: ٨).

ولكن مهما كان شكل فهمنا للنص الذي يكلمنا عن القيامة، فان شيئا اساسيا يبرز فيها بوضوح وهو: انها ظاهرة فريدة من ظواهر التاريخ، حيث يلتقي الله بالانسان، فيلغي حدوده البشرية ويجعله يتجاوز ذاته ويتحدى القدر القاضي عليه بالعجز والقصور. فالقيامة انتصار تم بوسائل ضعيفة في اعين البشر؛ ولكن عندما يحضر الله، يتحول ضعف الانسان الى قوة حتى يمكنه ان ينقل الجبال. ويسوع قد نقل فعلا جبل العالم اليهودي المقاوم لكل تقدم، ورماه في البحر، وشيد مكانه صرح ملكوت الله. وهكذا خرق يسوع قوانين العالم الذي يقتل الضعيف ولا يسمح بالغلبة الا لمن يملك بشريا الوسائل التي تؤدي اليها. والحقيقة ان هذا التجاوز لحدود الطبيعة لم يكن فقط من نصيب يسوع "الروح" الذي ما كان بالامكان ان يموت، بل كان من نصيب يسوع "الجسد" ايضا؛ لان الجسد الذي شارك الروح في الجهاد، قد شاركه في المجد ايضا ونال قسطه من القيامة، رغم انه لا يشترط فيها ان تكون مجرد عودة الى الحياة الطبيعية.

في هذا المنطلق الذي يبتعد عن شبهة الغيبية، ولكن من دون ان يقلل من اهمية وقيمة الايمان، يمكننا ان نفهم القيامة، ليس كحدث له تاريخ، هو تاريخ الله بين البشر فحسب، بل كظاهرة تاريخية هي في قلب الحياة البشرية. ولكن ابادر واقول بان التاريخية لا تنفي عن القيامة ميزاتها الالهية، إذ لولا العنصر الالهي فيها لما فهمنا كيف تغلب يسوع بالموت على الموت الذي كان يريد انهاءه وشطبه من التاريخ.

من الناحية العلمية والحياتية، يمكننا ان نعتبر القيامة، بالمفهوم الانف الذكر، كمفتاح يفسر الانقلاب الذي حدث في تاريخنا منذ حوالي الفي عام. كما يفسر حركة التاريخ العامة وصيرورته. لقد حدثت محاولات عديدة فلسفية وعلمية ولاهوتية لتفسير الصيرورة والحركة في العالم، ولكن لو تعمقنا جيدا في معنى القيامة ولو تمسكنا بالجوهري منها، لاتضح لنا انها قادرة على تفسير حركة التاريخ بشكل لا مثيل له بين التفاسير. لان قيامة يسوع تعني بالتالي قيامتنا نحن، وامكانية تجاوزنا للمعوقات التي تقف في طريق تقدمنا باتجاه الحياة الافضل، باتجاه المطلق.

الشريعة والنبوة.. صراع دائم

"الوَيلُ لَكم أَيُّها الكَتَبةُ والفِرِّيسيُّونَ المُراؤون، فإنَّكم تَبنونَ قُبورَ الأنبياء وتُزَيِّنونَ ضَرائحَ الصِّدِّيقين وتقولون: لو عِشْنا في أَيَّامِ آبائِنا، لما شارَكناهُم في دَمِ الأَنبياء. فَأَنتُم تَشهَدونَ على أَنفُسِكم بِأَنَّكم أَبناءُ قَتَلَةِ الأَنبياء. فاملأُوا أَنتُم مِكيالَ آبائِكُم.

أَيُّها الحَيَّاتُ أَولادُ الأَفاعي، كَيفَ لَكم أَن تَهرُبوا مِن عِقابِ جَهَنَّم؟ مِنْ أَجْلِ ذلك هاءَنَذا أُرسِلُ إِلَيْكُم أَنبياءَ وحُكَماءَ وكَتَبَة، فَبَعضَهم تَقتُلونَ وتصلِبون، وبَعضَهم في مَجامِعِكم تَجلِدون ومن مَدينَةٍ إِلى مَدينَةٍ تُطارِدون، حتَّى يَقَعَ عَلَيكم كُلُّ دمٍ زَكيٍّ سُفِكَ في الأَرض، مِن دَمِ هابيلَ الصِّدِّيق إِلى دَمِ زَكَرِيَّا بْنِ بَرَكْيا الَّذي قَتَلتُموه بَينَ المَقدسِ والمَذبَح. الحَقَّ أَقولُ لَكم: إِنَّ هذا كُلَّه سيَقَعُ على هذا الجيل.

أُورَشَليم أُورَشَليم، يا قاتِلَةَ الأَنبياء وراجِمَةَ المُرسَلينَ إِلَيها، كَم مَرَّةٍ أَرَدتُ أَن أَجمَعَ أَبناءَكِ، كما تَجمَعُ الدَّجاجَةُ فِراخَها تحتَ جَناحَيها! فَلَم تُريدوا. هُوَذا بَيتُكم يُترَكُ لَكم قَفْراً".

(متى ٢٣: ٢٩-٣٨)

الكلمات التي امامنا تشخيص صائب وعميق لظاهرة مفادها ان كل حركة نبوية تنتهي دوماً الى مؤسسة لها عقائدها وطقوسها ونظامها واتباعها. وهذه المؤسسة التي كانت حاملة للروح، ما تلبث ان تتجرد منه وتتحول بدورها الى مضطهدة وقاتلة للأنبياء الذين يريدون ان يعيدوا اليها الروح من جديد. وهكذا تحول اولئك الذين كانوا فيما مضى اتباعا للروح والحق، إلى اتباع لمؤسسة وقَتَلَة الأنبياء باسم الله نفسه! وبما ان الله الذي يأتي الى العالم بشخص الانبياء، بحسب اعتبار روحي معين، جاز لنا ان نسمي قَتَلَة الأنبياء "بقتلة الله" وفق هذا الاعتبار نفسه.

فليس اليهود وحدهم اذن "قتلة الله" لكونهم قتلوا نبيهم يسوع، ذلك ان الله سبق وجاء الى العالم قبل ان ياتي اليه بيسوع المسيح، وهو ياتي اليه باستمرار بعد مجيء يسوع. وما زالت الظاهرة التي كشفها يسوع هي هي كما كانت، وما زال قائن يغفو في نفوس اهل المؤسسة، ادعياء الله. وما برحت "اورشليم" هي تلك "القاتلة للأنبياء والمرسلين". واذا كانت البشرية قد خطت خطوة مهمة في طريق التحرير من استعباد المؤسسات، فان خطوة الكنيسة في هذا المضمار قصيرة ومترددة. فهي لا زالت اسيرة القانون القديم المناهض للروح، ذاك القانون الذي يجعل من المؤسسة غاية لذاتها، مع كل ما في ذلك من انانية وحرص على الذات وفطنة مبالغ فيها وصراع من اجل البقاء، انه قانون "الدفاع الذاتي" الذي يعمل في المؤسسة بكل مظاهره.

وهذا القانون ذاته الذي يجعل من الكنيسة المؤسسة فكرا وتقليدا، سلطة واتباعاً، "قاتلة الانبياء"، ليس بمعنى القتل الجسدي، طبعا، ولكن بمعنى القتل الروحي والمعنوي. فقد حولت المؤسسة اتباعها الى قطيع "ملقّن" و "مشروط"، كما يقول علماء النفس. فبات لا يتصرف الا عن طريق ردود الفعل التي سبق وزرعتها فيه المؤسسة، بمثابرة وجهد.

وعن طريق ردود الفعل هذه، يتألب الجميع على "حَمَلَة الروح" ليقضوا عليهم باية وسيلة كانت: بالرفض والمقاطعة واللامبالاة بالقوانين والوسائل السلطوية الكثيرة، بالزجر والتنديد واثارة حساسية البسطاء. واخيرا وليس آخرا، هناك دوما وسيلة فعالة هي وسيلة الاحتواء وتحييد مطاليب الروح، بافراغها من محتواها والتظاهر بالقبول بها. وهذه الوسيلة لا تستعملها المؤسسة الا في حالة ضعفها امام التيار الجارف. وغني عن القول ان كلامي لا يقتصر على مئات اللاهوتيين والمفكرين الذين يُضطَهَدون، بشتى الوسائل، لخروجهم عن المألوف، سواء في تعبيرهم او في نظرتهم او في فلسفتهم، ويُقتلون، بالف طريقة، لمنعهم من المساهمة في الكشف عن "علامات الأزمنة" وادراكها، بل ليشمل ايضا مختلف الفئات التي تمردت على الجمود، بعد ان حركها الروح، وتبنت نهجا حياتيا لم تَعتَدْه المؤسسة التي رأت فيه خطرا عليها، فسعت الى القضاء عليه وتطويقه من كل جانب، بكل الوسائل ومن على كافة المنابر التي بحوزتها.

في الختام، هناك سؤال كبير ومُلِحّ نطرحه امام الكنيسة بكافة فئاتها. وجوهر السؤال هو: هل يصح لمؤسسة تجعل من الروح القدس احدى عقائدها الكبرى ان تخاف الروح بهذا الشكل وان يكون تحسسها تجاهه ضعيفاً الى هذا الحد، في حين أن رسالتها الأساسية هي الكشف عن "حركة الروح" واعلانها للعالم بثقة وشجاعة؟!

ومهما كان الجواب، فاننا نشكر الله لأنه يقيم فيما بيننا انبياء على مر العصور، ولانه خصّ عصرنا بكثيرين منهم، حتى نَجد انبياء بين صفوف رعاتنا الكبار. وهذا لعمري امر نادر في التاريخ! فاذا كانت ظاهرة "قتل الانبياء" هي وجه للكنيسة المؤسسة، فان ظاهرة "قيامة" الأنبياء وانتصارهم هي الوجه الآخر للكنيسة.... ومن هذا الوجه تستمد المؤسسة الكنسية حيويتها وديمومة شبابها، لان الأنبياء كالروح في الجسد. هو فيه وليس منه، والروح هو الذي يحيي "جسده". أما الجسد فلا ينفع إلا لحفظ الروح وتجليه.

حزيران-تموز ١٩٨٦ — الأب لوسيان جميل

الوحدة.. والتشتت

"وبَينَما هُم سائرون، دَخَلَ قَريَةً فَأَضافَتهُ امرَأَةٌ اسمُها مَرتا. وكانَ لَها أُختٌ تُدعى مَريم، جَلَسَت عِندَ قَدَمَي الرَّبِّ تَستَمِعُ إِلى كَلامِه. وكانَت مَرتا مَشغولَةً بِأُمورٍ كَثيرَةٍ مِنَ الخِدمَة، فَأَقبلَت وقالت: يا ربّ، أَما تُبالي أَنَّ أُختي تَرَكَتني أَخدُمُ وَحدي؟ فمُرها أَن تُساعِدَني فأَجابَها الرَبُّ: مَرتا، مَرتا، إِنَّكِ في هَمٍّ وارتِباكٍ بِأُمورٍ كَثيرَة، مع أَنَّ الحاجَةَ إِلى أَمرٍ واحِد. فَقَد اختارَت مَريمُ النَّصيبَ الأَفضَل، ولَن يُنزَعَ مِنها".

(لوقا ١٠: ٣٨-٤٢)

يعاني الانسان في كل العصور من التشتت والانقسام على الذات. ومردّ ذلك الى طبيعة جبلته وتكوينه. فالانسان لا تحركه القوة العقلية المفكرة دوماً، بل تحركه الدوافع، ومركزها قوة عقلية ايضاً تسمى احياناً بالبصيرة او الوجدان او القلب، تمييزاً لها عن العقل المفكر. ففي صميم هذه البصيرة تتم المعرفة الوجدانية او الحدسية كما يقال في ايامنا. وفي هذه المنطقة بالذات ينقسم الانسان على نفسه او يتوحد. فالانسان يتوجه ببصيرته الى موضوعين اساسيين، لكل منهما دوره الخاص في تحديد توجهه. فالموضوع الاول دافع خفي جوهري يقطن قلب الانسان ويوجهه صوب امل في حياة افضل، وانسان اكمل، بدون تحديد معالم هذه الحياة بوضوح. وهذا الدافع يخلق في الانسان تشوقاً وحنيناً اساسياً عاماً يمكن ان نسميه بـ "النزوع الاساسي". اما الموضوع الثاني فهو دافع صعد الى منطقة الوعي وتحدَّدَ نوعه ومضمونه. ولذلك فغالباً ما يكون هذا الدافع خبراً سارّاً او مبدأً يطلب من الانسان ان يتصرف بموجبه. فاذا ما حصل تطابق بين هذين الدافعين، توحد الانسان ورضي واغتبط. اما اذا وجد الانسان تنافراً واختلافاً بين هذين الدافعين، اي بين الواقع والممكن المرجو -وهذا ما يحدث غالباً- يحتار الانسان في امره ويقلق ويتردد، حتى يصل به الامر الى شعور بالضياع والاستلاب، وكأنه قد حرم من فردوسه ومقر احلامه وسعادته.

واننا لنلمس اهمية هذه الوحدة في حياة الانسان، في تصريح بولس الرسول حيث يقول: "والخير الذي اريده لا افعله، والشر الذي لا اريده اياه افعل.. ما اشقاني من انسان!". والحقيقة ان بولس باقواله هذه، انما يشخّص حالة عامة لا يستثني نفسه منها: حين يتعارض لدى الانسان الواقع مع الطموح، والحاضر مع المستقبل؛ او كما يقول بولس، هو نفسه: حين تتعارض شريعة العقل مع شريعة الجسد. وما يتوجب ذكره ان حالة الانقسام التي يشخصها بولس ليست سلبية من جميع نواحيها. فما هو ضعف وشقاء من جهة، هو مهماز يستفز الانسان ليتطلع الى اخراج احسن ما لديه من امكانات الى حيز الواقع، من جهة اخرى. وبذلك تصير حالة الانقسام هذه سبباً لحركة العالم وصيرورته.

والآن اذا واصلنا تحليلنا لواقع الانسان وتوجّهاته، سنرى ان "الكلمة" هي المسؤولة بالدرجة الاولى عن حالة الانسان النفسية والسلوكية. لان الكلمة هي خبز ومبدأ ووعي ودافع، وهي اصل الحركة فينا. فاذا كانت الكلمة غير نافعة للانسان ومتناقضة مع طموحاته ونزوعه الاساسي، اختل توازن الانسان الداخلي واضطرب، سواء جاءته الكلمة من ذاته او من خارجه. اما اذا كانت الكلمة متناغمة مع امل الانسان ومع ما يتطلع اليه في قرارة نفسه، صارت هذه الكلمة بشرى وخبراً ساراً تستقطب حياة الانسان كلها فتصبح "كنزه المخفي" و"جوهرته المفضلة"، بحسب أمثال الانجيل.

ولعلنا نفهم الآن ابعاد النص الانجيلي الذي نحن بصدده. فعندما يدعو يسوع مرتا الى تفهم موقف مريم، فهو بالتأكيد لا يدعوها الى الزهد بأمور الدنيا ومشاغلها، لكنه يظهر لها ان هناك اناساً أُعطي لهم ان يفهموا اسرار الله من فرط ما يتأملون بها بعين البصيرة والايمان. وهؤلاء تقودهم بصيرتهم الى ان يذهبوا مباشرة الى ما هو اساسي ومطلق في الحياة. وقد كانت مريم اخت مرتا قد رأت المطلق في شخص يسوع وفي اقواله وتعاليمه، فجعلت من نفسها تلميذة جلست عند قدميه تصغي الى كلمة الله في فمه، تلك الكلمة التي يمكنها وحدها ان تشبع حياة الانسان وتحقق وحدته وتخلصه من تشتّته وضياعه.

ولعل مريم كانت تردد في سرها، وهي جالسة عند قدمي يسوع، ما قاله الرسل يوماً لمعلمهم: "يا رب الى من نذهب وعندك كلمة الحياة". ولعل محبتها ليسوع قادتها لتعدّل قليلاً هذا الكلام فتقول: "يا رب الى من نذهب وانت كلمة الحياة".

عمانوئيل: الله معنا

"... يا يُوسُفَ ابنَ داود، لا تَخَفْ أن تَأتِيَ بامرأَتِكَ مَريمَ إلى بَيتِكَ. فإنَّ الَّذي كُوِّنَ فيها هوَ مِنَ الرُّوحِ القُدُس، وستَلِدُ ابناً فسَمِّهِ يسوع، لأنَّه هوَ الَّذي يُخَلِّصُ شَعبَه مِن خَطاياهم. وكانَ هذا كلُّه ليَتِمَّ ما قالَ الرَّبُّ على لِسانِ النَّبيِّ: ها إنَّ العَذراءَ تَحمِلُ فتَلِدُ ابناً يُسمُّونَه عِمَّانوئيل أَي اللهُ معَنا".
(متى ١: ٢٠-٢٣)

منذ الفي عام تقريبا، والناس يقولون اشياء كثيرة في مجيء الله الينا واقامته في ما بيننا بيسوع المسيح الذي دعاه الانجيل عمانوئيل (الله معنا). ومن المعروف ان سكنى الله بين البشر هذه ليست الاولى من نوعها في تاريخنا الانساني، لان الله قد سبق ان جاء الينا "باشكال مختلفة واشباه شتى"، على حد قول الرسالة الى العبرانيين. لقد سكن الله في قلب الطبيعة وفي ضمير الانسان وقلبه، وفي الرموز التي صنعها له الانسان لتعبر عن شيء من عظمته وقدرته وضرورته للبشر؛ واخيراً، وقبل ان ياتي الينا بيسوع، سكن وسط شعب اراد ان يقوده الى الخلاص. ويكلمنا العهد القديم عن هذه السكنى عندما يرى الله في الغمامة مواكباً مسيرة شعبه، ويراه في خيمة الوصايا وفي جميع الاحداث الحياتية لشعب العهد القديم، ليراه اخيرا مستقرا في الهيكل الكبير وكأنه باق فيه الى الابد.

واذا ما رجعنا الى تاريخ العلاقة بين الله والبشر، سيتبين لنا بوضوح بان الناس يفضلون ان يؤكدوا على وجه واحد من اوجه حقيقة إقامة الله في ما بينهم، وهو الوجه المُطَمْئِن الذي يجعل من الله قوة تقف الى جانب المؤمنين به والمنتمين اليه؛ فيصير الله حامياً وسندا ووسيلة لحل اشكالات الفكر والضمير وللاجابة على تساؤلات كثيرة. وهكذا يتحول الله، في اغلب الاوقات، الى حارس للايديولوجيات السائدة وللانظمة القائمة، سواء كانت فكرية او اجتماعية او روحية. وهذه الانظمة تفضل الله شيخا لقبيلة اكثر منه قائدا

لثورة، وهذا يعني بالنتيجة ان البشر يريدون لانفسهم ان ينتمي هو اليهم اكثر مما يحاولون ان ينتموا هم اليه ويعاصروا حركته في العالم.

الا انه من حسن حظنا ان نصوص الانجيل التي تتكلم عن مجيء الله بيننا، ومن ضمنها النص الذي بين ايدينا، تشير بقوة الى البعد الاخر من حقيقة اقامة الله بين البشر. فالله في هذا النص ليس عمانوئيل وحسب، ولكنه عمانوئيل المخلص. وهذا يعني ان الله، انما يسكن بيننا ويأتي الينا، بتجليه في وسطنا، لينقلنا من حالة الى اخرى ويُحيل انتباهنا الى مستقبل افضل، بعد ان يكسر قيود الحاضر ويذيب ترسبات الماضي. والله لا يأتي قط الينا ليثبتنا في واقعنا ويتركنا لقدرنا، بل لينتشلنا منه ويساعدنا على تجاوزه بايمان وأمل. وهذا هو الميلاد باعمق معانيه! وما يجب ان نقوله في هذه العجالة، هو ان الله لا يمكنه ان يأتي الينا الا هكذا: مخلّصاً ومحرِّراً. وهذه حقيقة تتعلق بطبيعته نفسها، كما اختبرها البشر جيلا بعد جيل. فطبيعة الله بحسب هذه الخبرة، ولانها طبيعة حرة غير متناهية، في ثرائها وغناها، هي طبيعة لا تطيق الجمود والركود، ولا تميل الى الاستمرارية، الا في بعض ملامحها الاساسية التي تتعارض مع التغير والتقلب، كالحب والامانة وارادة الخير. وفيما عدا ذلك، فان اي تصرف اخر نريد ان يتحلى به الله ونفرضه عليه كصفة ملازمة، انما يعني تحديدا لمطلقية الله وحريته وتشويها لمفهومه ذاته. فلو كان الله جامدا، كما يريد البشر ان يكون لخدمة مصلحتهم، لما كان الها ومخلصا! لذلك كان من العبث ان يحاول البشر تدجين الله وامتلاكه، بحجج لاهوتية ليس فيها من الحقيقة سوى ظاهرها. فمن يريد ان يؤمن بالله وينتمي اليه، عليه ان يحترم طبيعته ويؤمن به، كما هو وكما بان لنا في تجلياته، وليس كما تريد المؤسسات والاهواء البشرية ان يكون. وفي الواقع ان الله يعرف كيف يفلت ويهرب من بين ايدي محتكريه، بعد ان يكون قد جاء اليهم مخلصاً وليس مملوكاً.

وهنا نفهم مغزى جواب الله لموسى حين سأله عن اسمه فاجاب: "انا هو الذي هو" اي انك لا تقدر ان تعرف اسمي، علماً بأن معرفة الاسم كانت تُعتبر بمثابة تحديد وامتلاك للمسمى. فاذا كان الله حراً بهذا القدر فيما مضى، أفليس باستطاعته اليوم ايضا ان يحرر نفسه من القوالب التي تريد المؤسسات الروحية والاجتماعية ان تحصره فيها. نحن لا زلنا نؤمن "بأن الله قادر بأن يقيم من الحجارة أولاداً لابراهيم"! .

في كل مكان يوجد يونان

"وكَلَّمَه بَعضُ الكَتَبَةِ والفَرِّيسيِّينَ فقالوا: يا مُعلِّم، نُريدُ أَن نَرى مِنكَ آية. فأَجابهم: جيلٌ فاسِدٌ فاسِقٌ يُطالِبُ بآية، ولَن يُعْطى سِوى آيةِ النَّبيِّ يونان. فكما بَقِيَ يُونانُ في بَطنِ الحوتِ ثَلاثةَ أَيَّامٍ وثلاثَ لَيال، فكذلكَ يَبقى ابنُ الإِنسانِ في جَوفِ الأَرضِ ثَلاثةَ أَيَّامٍ وثلاثَ لَيال. رِجالُ نِينَوى يَقومونَ يَومَ الدَّينونةِ معَ هذا الجيلِ ويَحكُمونَ عليه، لأَنَّهم تابوا بإِنذارِ يُونان، وههُنا أَعظَمُ مِن يُونان. مَلِكةُ النَّيمَنِ تقومُ يَومَ الدَّينونةِ مع هذا الجيلِ وتَحكُمُ عليه، لأَنَّها جاءَت مِن أَقاصي الأَرضِ لِتَسمَعَ حِكمةَ سُلَيمان، وههُنا أَعظَمُ مِن سُلَيمان".

(متى ١٢: ٣٨-٤٢)

يختلف سفر يونان عن بقية اسفار العهد القديم. فهو لا يحتوي على اقوال نبوية ولا على رؤى مستقبلية، انما يسرد، باسلوب مشوق ومؤنس، حكاية هذا النبي المتمرد الذي يتصوره كل منا في بطن الحوت أو جالساً كئيباً تحت ظل غصن الخروعة[1].

وضع الكتاب في القرن الخامس قبل الميلاد. وهو لا ينوي عرض حوادث تأريخية تمت، إنما يود بأسلوب تعليمي غني بالرموز أن يقدم لنا درساً واقعياً وافياً لنفسية الانسان. فيونان يمثل كل انسان ونينوى هي كل أمة.

يختار الله يونان لينقل الى شعب نينوى الوثني رسالته: **كفوا عن الشر والظلم والعنف واحيوا في الحق والاخوة والسلام.** غير ان يونان الذي ينظر الى "الدين" نظرة ضيقة متزمتة، يعتقد أن أبناء قومه وحدهم هم شعب الله المختار، وأنهم وحدهم على هدى، وأن كل من سواهم هالكون، ولاسيما نينوى المدينة العظيمة التي كانت قد خربت مملكة

(١) يقرأ المسيحيون سفر يونان في ايام الباعوثة، ويقرأه اليهود في يوم التكفير -كيبّور- كما يقرأه المسلمون في سورة يونس.

اسرائيل.. فلا عجب أن يحاول يونان التنصل من الدعوة وتفضيل الموت غرقاً في اعماق البحر من طاعة أمر الله بحمل نداء الرحمة والخلاص الى شعب عدو.

مؤلف السفر ايضاً يهودي متدين، ولكنه منفتح الفكر والقلب، بعكس النبي. وفي نظر هذا الكاتب المؤمن، الناس جميعهم اخوة! لذلك يرمي، من خلال هذه القصة، ان يخرج اليهود المتعصبين من انغلاقهم لينفتحوا على العالم الخارجي ويقبلوا بأن الأله الوحيد الذي يعبدونه، خالق السماء والارض، هو اله الجميع، بغض النظر عن عرقهم وعقيدتهم ولغتهم وأنظمتهم... وأنه يسعى لخلاصهم. لذلك يجعل يونان ينفّذ قصد الله مهما كلف الامر، فيذهب الى نينوى البعيدة ويعظ فيها. وفي النتيجة يستجيب النينويون لدعوته في تغيير سلوكهم وينجون من الدمار.

لقد تكلم يسوع عن يونان عدة مرات (متى ١٢: ٣٨-٤٢؛ ١٦: ١-٤؛ مرقس ٨: ١١؛ لوقا ١١: ٢٩). وكان سفر يونان موضوع قراءة وتأمل لدى الجماعة المسيحية الاولى التي طبّقت بعض رموزه على حياة المعلم. وعندما اشار يسوع الى "آية يونان"، فانما ليتحدى بها، مرة اخرى، "شعب الله المختار" -لاسيما الفرق المتزمتة كالفريسيين والكتبة وغيرها- في غطرسته وعاداته وشرائعه المتحجرة التي حاصر نفسه فيها.. فلكم قال لهم يسوع أن الانسان أهم من السبت، وأن الطهارة ليست في غسل الأيدي قبل الطعام، وأن العبادة لا تقوم بكثرة الكلام... وانما يُعبَد الله بالروح والحق، وفي أي مكان...!

واذا كانت نينوى يونان الوثنية قد تابت بمجرد سماع كلمة النبي، فكم بالأحرى على اليهود المؤمنين بالله أن يستفيدوا من وعظة (يسوع) وعجائبه وسلوكه اليومي ليوسعوا آفاقهم جيداً بأن الله لا يمكن أن ينفصل عن الانسان، كيفما كان هذا الانسان وأينما كان. انه أب ولا يمكن أن ينفصل الأب عن الابن... ولكن محاولته باءت بالفشل وانتهت بالحكم عليه بالموت.

نحن ايضاً اليوم بحاجة الى "آية يونان"، الى قراءة جديدة لسفر يونان. أما يحصل لنا نحن ايضاً أن تكون أفكارنا وقلوبنا مغلقة على غرار يونان؟ أما ننظر أحياناً الى الآخرين وكأنهم محرومون من الحق؟؟ وفي تعصبنا، أما ننظر اليهم نظرة استعلاء واحتقار؟ أما نتخذ الدين، مرات كثيرة، ذريعة لنا ونسخره لأغراض ضيقة ومعينة؟

ان قراءتنا الواعية لسفر يونان تحمل لنا دعوة الى مراجهة الذات، الى الاهتداء الدائم الى الله من خلال انفتاحنا على تجلياته فينا وفي الاخرين، والى الدخول في منظوره الشامل. انها دعوة الى المحبة الشاملة التي تجعلنا نرى في كل انسان أخاً لنا. نحن واياه -مهما كان لونه وجنسه وبلده ومعتقده- أبناء الآب الواحد "الذي يشرق شمسه على الأشرار والأخيار ويترل مطره على الأبرار والطالحين" (متى ٥: ٤٥).

التوبة والملكوت

وبَعدَ اعتقالِ يوحنّا، جاءَ يسوعُ إلى الجَليل يُعلِنُ بشارَةَ الله، فيَقول: تَمَّ الزَّمانُ وَاقتَرَبَ مَلَكوتُ الله. فتوبوا وآمِنوا بالبشارة".
(مرقس ١: ١٤-١٥)

لو سألنا اليوم مسيحياً ممارساً عن معنى التوبة، لأجاب دون تردد: إنها الاقرار العلني بالخطأ –أمام الكاهن– مع الندامة الصادقة عليه، والعزم الثابت على عدم الرجوع اليه ثانية، والتكفير عنه بالصوم والصلاة.. ولو سألناه، ايضاً عن معنى الملكوت لقال فوراً: إنه السماء، محل الصالحين بعد الموت. وهكذا يكون قد حصل تباعد بين ما كان يقصده يسوع وبين ممارساتنا اليوم للتوبة وتحويلنا ملكوت الله الى حقيقة ما ورائية –شبه مبهمة– لا نزال ننتظرها.

في الواقع كان يسوع يُكلم يهوداً توارثوا، من موسى الى آخر الانبياء، أفكاراً محدَّدة عن الله والانسان والدين ومجيء المسيح وقيام مملكة يهودية مثالية... لذلك راح، في كل ما قال وفعل، يَرسم صورةً حيّة واقعية، لا نظرية، للحياة التي كان يعدّ الناس اليها ويطلق عليها اسم "ملكوت الله"، "ملكوت السماوات"، "ملكوت ابيكم"، "الحياة الابدية"، "الدهر الآتي" ويَربطها ربطاً وثيقاً بالتوبة. فإن شاءوا ان يكونوا من ابناء الملكوت، عليهم ان يتوبوا. والتوبة التي يُطالب بها يسوع معاصريه، ويطالبنا بها نحن من خلالهم، ليست مجرد انسحاق قلب على خطيئة معيّنة اقترفوها، انما هي التحولّ الشامل من الحياة السابقة، اي من الافكار القديمة والتقاليد البالية والشريعة الحرفية والرياء والدجل والطمع والفسق والحقد والاخذ بالثأر والتسلط والتظاهر والتزمت... الى حياة جديدة متطورة، أنشأها هو، فيها رؤية جديدة بشأن الله والانسان والحياة والآخرة والخير والشر. وباختصار، تتمحور هذه

الرؤية الجديدة حول نقطة مركزية واضحة المعالم وهي: أن الله هو ابو الجميع، يهوداً كانوا ام امميين، وان الانسان هو ابن الله واخو الانسان أيا كان، لذا عليه ان يعامله معاملته لنفسه. والتوبة -ترك القديم واعتناق الجديد- هي اول وأهم خطوة يخطوها الانسان في سعيه لاقتبال الملكوت وتغيير وجوده تغييراً جذرياً.

اما الملكوت، فكان الشعب، ايام يسوع، يتصوره مملكة يهودية ارضية مثالية، تسود على شعب الارض! لذلك يعطيه يسوع المكانة الاولى في بشارته، ويشرح لهم المعنى الحقيقي للملكوت. "فالملكوت" ليس مملكة عزة وسلطان ("الامبراطورية الفاضلة")، ولا مرتعا للهناء (الجنة) يسعى اليه الانسان في مكان فوقي يدعى السماء، انما ملكوت الله -والتعابير الاخرى تحمل ذات المعنى- هو زمن اعتلان الله في يسوع بالذات. فهو "المكان" الذي فيه يتحقق الملكوت: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت"، اي امتلاك الله التام للانسان.

وبيسوع يصبح ملكوت الله ممكناً في الانسان، ويدرك المؤمن ان ملكوت الله يمكن ان يتم فيه شخصياً، وذلك بمقدار ما يدع الله يملك عليه بيسوع؛ وبمقدار ما يتحمس للبشرى الحسنة يتخذ موقفا ايجابيا منها، بحيث تغدو مع الزمن الكنز المخفي في الحقل الذي من اجله يمضي الانسان فرحاً، ويبيع كل ما له ويشتريه، أو الجوهرة عالية الثمن التي يبيع التاجر كل ما عنده ويقتنيها. من هذه الزاوية يمكننا فهم قول يسوع: ملكوت الله بينكم (لوقا ١٧: ٢١)، و"ان في القائمين ههنا من لا يذوقون الموت حتى يروا ابن البشر آتيا في ملكوته" (متى ١٦: ٢٨)، و"هذه هي الحياة الابدية: ان يعرفوك انت الاله الحق وحدك والذي ارسلته يسوع المسيح" (يوحنا ١٧: ٣). وفي الواقع هذا ما يعطي المعنى الحقيقي للتوبة: رفع كل حاجز يسد علينا الطريق الى الله-الاب، والى الانسان-الاخ. هذا ما فعله تلاميذ يسوع والمؤمنون الاولون، وهذه البشرى "التوبة والايمان بالملكوت" بالذات ينقلها الينا الانجيل لكي نحياها نحن ايضا باصالتها وعمقها.

فمن العبث ان نتقيد بافكار وتعابير هي من صنعنا، وقوانين وتشريعات ثقيلة منهكة، وآمال وتعزيات غالبا ما تكون فارغة، بل علينا ان نزيل كل هذا الطبقات الكثيفة التي منعت علينا الرؤية، ونعود الى (البشرى السارة) الصافية النقية -"الخمرة الجديدة الموضوعة في زقاق جديدة" (متى ٩: ١٧) بكل ما يصحبها من غنى وروعة وفرح- ونعيشها اليوم في حرية كاملة ووعي شامل وشركة وثيقة مع مسيح ملكوت الله وكلمته الذي ينمو فينا مثل حبة الخردل ويُتم عمله بواسطتنا.

الحلال والحرام

"ودعا الجَمعَ ثانيةً وقالَ لَهم: أَصغوا إِليَّ كُلُّكُم وافهَموا: ما مِن شَيءٍ خارِجٍ عنِ الإِنسانِ إِذا دخَلَ الإِنسانَ يُنَجِّسُه. ولكِن ما يَخرُجُ مِنَ الإِنسانِ هو الَّذي يُنَجِّسُ الإِنسانَ".

(مرقس ٧: ١٤-١٥)

لو عُدنا الى التوراة، اعني الاسفار الخمسة الاولى من الكتاب المقدس/العهد القديم، وقرأنا ما جاء فيها من تحريمات وتشريعات غذائية وغيرها تتناول كل صغيرة وكبيرة في حياة المؤمن، لأُصبنا بالدوار. فكل هذه النواهي والمحظورات التي صنعها البشر وختموها باسم الله، غريبة عن الله الذي "خلق كل شيء حسنا". كما انها تحول قطعا دون نموّ الانسان، "صورة الله"، وتحوّله الى تابع، وتحدّ من حريته. لذلك نجد يسوع، في رؤية جديدة للناس والاشياء، يقاوم بشدة هذه الطريقة السطحية في تصنيف الحلال والحرام، المقدس والدنيوي، **ويعلن بوضوح ان ليس ثمة حلال وحرام، بحدّ ذاته، ولا مقدس ودنيوي، ويؤكد ان جميع الاطعمة نقية لا تنجّس الانسان**، انما "الافكار الرديئة المنبعثة من قلوب الناس" هي التي "تنجس الانسان"! وهذا المفهوم السليم يعكسه سفر أعمال الرسل في الرؤيا التي شاهدها بطرس في يافا حيث قيل له ثلاثا: **"ما طهره الله لا تعتبره نجساً"** (أعمال الرسل ١٠: ١٥).

من هذا المنطلق نفهم ان مصدر الحلال والحرام، والمقدس والدنيوي، ليس خارجاً عن الانسان بل يكمن في داخله: في عقله وحريته ورؤيته الايمانية. فهو كفرد وجماعة، مسؤول، عبر حوار مع الله، عن تمييز الخير والشر، الحق والباطل، الحلال والحرام، المقدس والدنيوي. وعلى وجه التدقيق، هذا السلوك الناضج وحده يمنح الاعمال التي يقوم بها

الانسان قيمة عظمى ورائعة، وبما يثبت انه واع وحر، ويَسعى جهده لتحقيق كماله الانساني كابن لله واخ للجميع.

هذا هو الروح، لا الحرف ولا قوة خارجية، الروح الذي يحرك حياة المؤمن ويجعله ينظر الى الامور، حتى التافهة منها، نظرة عميقة وايجابية، وعلى محكها يقيس سلوكه اليومي.

فمثلا: لا يحق له ان يتناول الخمر حتى السكر، لا لكون الخمر نجسة بحدّ ذاتها وممنوعة، بل لان الافراط منها يفقده الثمن ما يملك: وعيه! أو يفسد عليه علاقاته الحسنة مع الناس، أو يؤثر سلباً في التزاماته العائلية.. وهذه القاعدة تشمل جميع الاشياء..

واليوم، وبعد الفي عام من "البشرى السارة"، أما نزال نحمل ترسبات وثنية ويهودية منهكة، من حلال وحرام، ومقدس وغير مقدس؟ أما نحاكي غيرنا بفرائض وطقوس ونَسِمُها بطابع قدسية مزعومة؟ أما علينا تقع مسؤولية ازالة هذه العقلية التي لا تتماشى وأصالة ايماننا، في كثير من ممارساتنا، كما حصل ذلك بخصوص الصوم؟

مما لا شك فيه ان ديناً، ايا كان، يقتصر على اصدار التشريعات والنواهي والفتاوى، ولا يفتش عن الجوهر، عن الروح، عن الانسان في كل ابعاده ومشاكله، هذا الدين يضعف ويتضاءل. وعلى العكس، عندما يتحد الانسان في المحبة والحرية والنضوج، يعظم وينعتق ويغدو قريبا جدا من الله ومن الانسان، وتزول كل كلمات السيطرة والعنف والعبودية والحرب وغيرها من الكلمات التي تفسد مفهوم "الله" وتلطّخ صورة "الانسان". وهذا ما يوضحه الرسول بولس بقوله: "ان المسيح قد حررنا لنكون احرارا، فاثبتوا، اذاً، ولا تعودوا الى نير العبودية" (غلاطية ٥: ١).

المرأة.. صورة الله

"وسارَ بَعدَ ذَلك في كُلِّ مَدينَةٍ وقَريَة، يُنادي ويُبَشِّرُ بملكوتِ الله، ومعَه الاثنا عَشَر، ونِسوَةٌ أُبرِئنَ مِنْ أَرواحٍ خَبيثَةٍ وأَمراض، وهُنَّ مَريَمُ المَعروفَةُ بالمِجدَليَّة، وكانَ قد خَرَجَ مِنها سَبعَةُ شَياطين، وحِنَّةُ امرأَةُ كوزى خازِنِ هيرودُس، وسَوسَنَة، وغيرُهُنَّ كَثيراتٌ كُنَّ يُساعِدنَهُم بأَموالِهِنَّ".
(لوقا ٨: ١-٣)

ان هذا الحضور النسوي حول يسوع، منذ بداية كرازته وحتى موته، يُشَكِّل ناحية رائعة من حياته، غنية بالتعليم، يجدر بنا ان نقدرها حق قدرها.

كانت المرأة في المجتمع الذي عاش فيه يسوع انسانة من درجة ثانية، انسانة ضعيفة يقتنيها الرجال بمال زهيد، ويقتصر دورها على شؤون البيت والاطفال، وويلها لو خرجت من بيتها تفتش عما ينقصها من رغبات وحرية. هذا ما جعل الرجل اليهودي يصلي ثلاثا في النهار قائلا: "مبارك انت، ايها الرب الهنا، لانك لم تخلقني امرأة.."! ذلك لان الرجل وحده كان السيد المطلق الذي يملك حق الامر والنهي، والذي يخالف ويزني ويقتني اكثر من امرأة ويبقى في حصانة الدين والقانون!

مفهوم عنصري كهذا مسخٌ يرفضه بشدة سفر التكوين الذي يرى ان الرجل والمرأة اثنان يساويان آدم، اي انسانا مكتملا بالانسانية والخلق والعقل والحرية والشخصية وصورة الله: "خلق الله الانسان -آدم- على صورته، خلقه ذكراً وانثى" (تكوين ١: ٢٧).

فهي، اي المرأة، مساوية له ايضا في الصورة والطبيعة. انهما، اي المرأة والرجل، من جبلة واحدة، مهما اختلفت المظاهر. هذا ما تؤكده الرواية الثانية للخلق: "وبنى الرب الاله الضلع التي اخذها من آدم امراة.. هذه تسمى امرأة لانها من امرئ اخذت، ولذلك يترك الرجل اباه وامه ويلزم امرأته فيصيران جسدا واحدا" (تكوين ٢: ٢٣-٢٤).

لا شك ان هذه صورة شعبية تدل على وحدة المصدر ووحدة الزواج؛ والى هذا النص يعود يسوع في حديثه عن الطلاق. وباعتقادي، تشير كلتا الروايتان الى ان الفرق هو حيواني -فيزيولوجي- وليس انسانيا قطعا.

مع يسوع يزداد هذا التأكيد على عدم وجود انسان من درجة اولى، واخر من درجة ثانية: انسان هو صورة الله وشبهه، وآخر لا! ففي الملكوت الذي يبشر به، تسقط كل الفوارق الجنسية والعرقية وحتى الدينية، لان الجميع، على حدّ سواء، ابناء الله الواحد واخوة لبعضهم البعض.

والانجيل موجه الى الكل؛ وكذلك مسؤولية حمل الرسالة هي مسؤولية الجميع بدون استثناء. ألم يتوجه بالاحرى الى مريم المجدلية لنقل خبر قيامته الى تلاميذه في مجتمع يرفض شهادة النساء؟ فالمرأة المؤمنة رسولة وشريكة في عمل الخلاص بكامل الحقوق والواجبات...

من هذا المنطلق نشاهد في الكنيسة الاولى معاونات للرسل ومعلمات ونبيات: "وكان لفيليبس اربع بنات نبيات". والرسول بولس واضح للغاية عندما يكتب الى الغلاطيين المحافظين: "لم يبق من بعد يهودي او يوناني، عبد او حر، ذكر او انثى، لانكم جميعا واحد في المسيح يسوع" (غلاطية ٣: ٢٨). اما بالنسبة الى النصائح العملية التي نجدها عند بولس، فهي متعلقة بنظم اجتماعية متّصلة بزمانه. على كل حال علينا ان نميز عنده ما هو نسبي وقابل للتغيير، وما هو مطلق وثابت، ولا نخلط، كما هو حاصل في الكنيسة حتى اليوم، حين تدخل المسكينة من باب وتجلس في المؤخرة، وبعلها من باب اخر ويجلس في المقدمة، وكأنه حرام ان تجلس العائلة الواحدة على المصطبة الواحدة وتصلي الى الله الواحد، اب الجميع. وكذلك الحال مع فرض غطاء الرأس عليها او منعها من الصعود الى الهيكل والقيام بالترتيل وقراءة نصوص الكتاب المقدس الخ...

لا بد من العودة الى الاصالة الانجيلية وازالة هذه العقلية التي ورثناها من اليهودية والوثنية والتي تحط من كرامة الانسان، صورة الله. وهذا التغيير ينبغي ان يرتكز على مفهومنا الصحيح للمرأة: انسانة كاملة وليس "بعبعا"، وعلى نظرتنا السليمة لملكوت الله الذي اعلنه يسوع والسلوك بوحي هذا الشعور. من الطبيعي ان المرأة لن تقدر ان تثور على كل هذه التقاليد والفوارق وعلى كل ما يتخطى وجودها، الا اذا وعت شخصيتها واقتنعت من انها ليست اقل من الرجل واستثمرت، من ثم، مواهبها وقدراتها... وهذا لا يتم الا بتثقفها وتعلمها. كما ينبغي على الرجل ان يدرك تماما ان المرأة ليست "جسدا وشهوة" وحسب، بل هي مفتداة مثله بدم يسوع، وليست اقل منه انسانية وقدرة وطموحا وعطاء ومعرفة، وعليه ان يتعامل معها من هذا المنطلق، وبصورة ادق واعمق، على مثال يسوع.

يسوع ابن الانسان

"فسأَلَهم: ومَن أَنا، في قولِكم أَنتُم؟ فأَجابَ بُطرس: أَنتَ المسيح. فنَهاهُم أَن يُخبروا أَحَداً بِأَمرِه.

ويَدأَ يُعَلِّمُهم أَنَّ ابنَ الإِنسانِ يَجِبُ علَيه أَن يُعانيَ آلاماً شديدة، وأَن يرذُلَه الشُّيوخُ وعُظماءُ الكَهَنَةِ والكَتَبَة، وأَن يُقتَل، وأَن يقومَ بَعدَ ثَلاثةِ أَيَّام. وكانَ يقولُ هذا الكلامَ صَراحةً. فانفَرَدَ بِهِ بُطرُس وجَعَلَ يُعاتِبُه. فالتَفَتَ فَرأَى تَلاميذَه فزَجَرَ بُطرسَ قال: إِنسَحِبْ! وَرائي! يا شَيطان، لأَنَّ أَفكارَكَ لَيسَت أَفكارَ اللهِ، بل أَفكارُ البَشَر".

(مرقس ٨: ٢٩-٣٣)

يشرح يسوع لتلاميذه معنى لقب "المسيح" ويستعمل لهذه الغاية عبارةً قديمة مألوفة لدى الانبياء، بخاصة دانيال (٧: ١٣)، هي عبارة "ابن الانسان" -وقد اوردها الانجيل حوالي خمسين مرة. ان هذه الصفة التي استعملها يسوع في اطار حديثه عن الزمن الاواخري، تُشير بوضوح الى ان الميسح المنتظر، سليل داود، هو يسوع الناصري نفسه.. وليس المسيح، الزعيم السياسي الذي كانوا يترقبونه ليحررهم من الاستعمار ويتربع على عرش داود ويملك على بيت يعقوب الى الابد. ويؤكد انه هو ابن الانسان الذي بعلاقته الصميمة بالله، وبآلامه وموته وقيامته، يحقق نبوة دانيال وينشيء ملكوتاً جديداً، ملكوت الله، الذي يختلف تماماً عن الممالك الارضية. ولقبوله والانضمام اليه، لا بدّ من روح جديد يسميه "التوبة"، وولادة جديدة. لذا فقد كان من الطبيعي للشيوخ التقليديين وللسلطات الدينية اليهودية ان يناصبوه العداء ويحاولوا القضاء عليه، لأن جدة تعاليمه ونمط سلوكه اليومي يهدّدان نفوذهم وامتيازهم ويتنافيان مع نظرتهم عن الله والشريعة والانسان. كما ان فكرة مسيح مرذول ومصلوب لا تناسب قطعاً الصورة التي يحملها بطرس وسائر التلاميذ

عنه، لذلك يزجرهم لكون ما يحركهم جميعا محض عواطف بشرية، "**أفكار الناس**"، من قوة وسلطان ومراكز ونجاح وامتيازات؛ في حين ان تصميم الله، "**افكار الله**"، الذي حققه يسوع كاملا وبحرية، هو حب وعطاء وخدمة وبذل الذات (بذل ذاته لاجل كثيرين)، لذلك هو مسيح الله حقا. يقينه بان ما هو فيه، هو من مشيئة الآب، وان اساس حياته وعمله وسلطته هو حب الله البشر اخوانه، وهو من ثم دليلهم الى طريق الخلاص والحياة..

لا يزال كثير من مسيحيي اليوم يشبهون السلطات الدينية اليهودية او بطرس والتلاميذ في تصورهم المسيح. لقد حصروه صنماً في قلعة من الطقوس والتقاليد والشرائع، او جعلوه الهاً مترّهاً، متسامياً، بعيداً عن الانسان، يصعب الوصول اليه، لذلك يميلون الى اشباع تقواهم بعبادات غريبة وحتى الى خلق "كائنات شبيهة بالالهة" تقوم وسطاً بينهم وبين الله.

مسيح كهذا غير موجود أساساً في الانجيل، انما يوجد المسيح ابن الانسان، الذي هو ابن الله، والقريب من الانسان، وهو هو النموذج الكامل للانسان. فقد سعى بتعليمه وحياته كلها ان يحقق الخير بالرغم من إغراءات الشر (التجارب، متى ٤: ١-٦) وادّى سعيه من اجل خلاص اخوته الى تحمل الالام حتى الموت الظالم. هذا المسيح ليس فكرة بحتة ولا صنماً جامداً، بل شخصاً حياً جاء وعاش واقعنا تماماً: "الكلمة صار بشراً وحلّ بيننا"! اختبر مشاكلنا، فرحنا وحزننا، صحتنا وألمنا، جوعنا وعطشنا وموتنا، فشلنا ونجاحنا، خيانتنا وامانتنا...

هذا المسيح وحده يصلح ان يكون قدوة يحتذي به كل مؤمن، بدون فرق، ويصبح له تلميذا في اي زمان ومكان كان: "قد جعلت لكم من نفسي قدوة لتصنعوا انتم ايضا ما صنعت اليكم" و"حسب التلميذ ان يكون مثل معلمه". والاّ اي انسان يمكنه ان يقول: اعطوني ارادة ثابتة مقدسة تخنق فيّ الشر من تلقاء ذاتها... وبدون جهد، ساقبل الالم والموت في سبيل ان انال رضى الله واشترك في مجده!!

أجل، المسيح ابن الانسان، هو الذي علينا ان نكتشفه ونتعرف عليه باستمرار. عاش مثلنا بوعي وحرية ما عدا الخطيئة، لكي يجعلنا بدورنا ابناء الله مثله. لذلك يدعونا بالحاح، كما دعا بطرس وبقية التلاميذ، الى اعتناق تعاليمه "البشرى السارة" اعتناقا وجوديا-حياتيا، يثبت عليه اساس كياننا، ونحيا به اينما كنا، في البيت او الشارع، في المدرسة او الكنيسة، في العمل او في الجبهة... وهكذا فقط، نقدر ان نكون له شهوداً من خلال ما نعيشه ونختبره في واقعنا اليومي، ورسلاً متحمسين نحمله الى اخوتنا حبّاً وحقاً، نوراً وسلاماً، وحدة وفداء...

الأب لويس ساكو

حزيران-تموز ١٩٨٧

مريم أمنا

"فقالَ لها المَلاك: لا تخافي يا مَريَم، فقد نِلتِ حُظوَةً عِندَ الله. فَستحمِلينَ وتَلِدينَ ابناً فسَمِّيهِ يَسوع. سيَكونُ عَظيماً وَابنَ العَليِّ يُدعى، وَيُوليه الرَّبُّ الإلهُ عَرشَ أَبيه داود، ويَملِكُ على بَيتِ يَعقوبَ أَبَدَ الدَّهر، وَلَن يَكونَ لِمُلكِه نِهاية. فَقالَت مَريَمُ لِلمَلاك: كَيفَ يَكونُ هذا وَلا أَعرِفُ رَجُلاً؟ فأَجابَها المَلاك: إِنَّ الرُّوحَ القُدُسَ سَينزِلُ عَليكِ وقُدرَةَ العَليِّ تُظَلِّلُكِ، لِذلِكَ يَكونُ المَولودُ قُدُّوساً وَابنَ اللهِ يُدعى. وها إِنَّ نَسيبَتَكِ أَليصابات قد حَبِلَت هي أَيضاً بِابنٍ في شَيخوخَتِها، وهذا هو الشَّهرُ السَّادِسُ لِتِلكَ الَّتي كانَت تُدعى عاقِراً. فما مِن شَيءٍ يُعجِزُ الله. فَقالَت مَريَم: أَنا أَمَةُ الرَّبّ فَلْيَكُنْ لي بِحَسَبِ قَوْلِكَ".

(لوقا ١: ٣٠-٣٨)

بمناسبة السنة المريمية التي أعلنها البابا في ٧ حزيران الماضي والتي تنتهي في ١٥ آب من العام القادم، ونظرا لابعادها الكنسية والمسكونية والراعوية، ولمكانة مريم في التقوى الشعبية -فهي شفيعتهم المفضّلة، والصلوات التي يرفعونها اليها تكاد تفوق بعددها تلك التي يرفعونها الى الله الآب والى المسيح!- اودّ ان أتامل في دور مريم في سر المسيح وفي حياة الكنيسة.

لأمّ يسوع -وهذه تسمية الانجيل لها- دور بارز في تحقيق تصميم الله في خلاص البشر. هذا ما يريد إظهارَه الانجيلي لوقا على وجه الدّقة. فمريم، هذه الفتاة العادية، يختارها الله، كما اختار ابراهيم وموسى وبولس على طريق دمشق الخ...، يختارها اما للمسيح. انها تسمع باهتمام صوته، وتحاول فهم قصده، وتطيعه بوعي كبير وحرية كاملة واخلاص تام. كيف؟ -بقبولها هذا "الجديد" في حياتها!

وببساطة الطفل واستسلامه الواثق، ارتبطت مريم بابنها وبالآب. وهذه الصلة الخاصة الجديدة نمت وازدهرت، يوما بعد يوم، في كيانها ووجودها، بتحاورها الدائم مع

يسوع، مسيح الروح "ووريث الموعد، ابن داود، ابن ابراهيم، ابن الله..." الذي جمع البشرية المولودة جديداً، "بقوة الروح القدس"، في أسرة واحدة وأخوّة وشركة في غاية الفرح والسعادة: "فقد مكنهم أن يصيروا ابناء الله، الذين لم يولدوا من ذي دم ولا من رغبة لحم ولا من مشيئة رجل بل من الله". (يوحنا ١: ١٣).

هذه الفتاة -السيدة- العادية جعلها ايمانها الناضج ومحبتها العارمة وطاعتها التامة تكون حقاً، "ممتلئة نعمة" وبتولاً غير مدنسة بقناعات اخرى، وذلك بمقاومتها الخطيئة بقوة، وبانضمامها قلباً وقالباً الى ما أوحي به اليها، فهي صورة حيّة لله لم تُشَوَّه و لم تُمسخْ. ومرافقتها ابنها، حتى الصليب، فتحت لها ملكوت السماوات: "الحق اقول لكم إن لم تعودوا كالاطفال لن تدخلوا ملكوت السماوات. (متى ١٨: ٤).

مريم امّ يسوع، "رأس البشرية الجديدة"، هي امنا ايضاً. رَحِمُها، يقول مار افرام، غدا الهيكل الحقيقي لولادة البشرية الجديدة -الكنيسة-، ويعني الجماعة المؤمنة الملتئمة للصلاة وسماع كلام الرب. انها قرابة جديدة تتخطى القرابة الدموية: "ان امّي واخوتي هم الذين يسمعون كلام الله ويعملون به" (لوقا ٨: ٢١). وهذه العلاقة الخاصة المبنية على روح الله، هي التي تجعلنا ندعو الله "اباً" (غلاطية ٤: ٧).

ولدور مريم واقعية روحية ذات بعد شمولي، تخاطب الانسان في مختلف اعماره واحواله. وهذه الواقعية المعتدلة هي: اختيار، نعمة، ايمان، طاعة... أوجزها في النقاط التالية:

١. ان نمتلك، مثلها، عينين مستعدتين للرؤية السليمة، واذنين مُهيَّأتين للسماع، سماع صوت الله وتنفيذ مقاصده في واقع انسان اليوم الذي هو بحاجة الى الحبّ والروح...
٢. ان يكون ايماننا، مثل ايمان مريم، ناضجاً، متجدداً، متزايداً، لا تعبدياً فقط، بحيث يكون بمقدوره ان يغيرّ ما يجب تغييره في نظرتنا ومواقفنا...
٣. ان نحافظ، مثل مريم، على نقاء الطفل فينا ونضوج الشخص البالغ، وذلك من خلال عملية ولادة ونموا يومية تبدأ في الاعماق، بغية الرجوع الى اصالة "بكارة" ايماننا ونقاوته وبساطته، اصالة منزهة عن كل التفاسير والشعائر والممارسات الغريبة، ومرتكزة على حبّ "الوحيد".
٤. وكما لم تحتفظ مريم بدعوة الرب لها لذاتها، بل سارعت الى ايصالها الى الاخرين (زيارتها لاليصابات)، كذلك ينبغي علينا نحن ايضا ان نكون "شهوداً" للبشرى السارة ورسلاً لها، كلٌ من موقعه، بشرى، هي قبل كل شيء، "حياة" نعيشها...

هكذا تبقى مريم امُنا حاضرةً ابداً في حياتنا، وهكذا يكون لاحتفالنا بالسنة المريمية معنى وقيمة.

الأب لويس ساكو

آب-ايلول ١٩٨٧

الشك

"ومَن كانَ حَجَرَ عَثرَةٍ لِهؤلاءِ الصِّغارِ المؤمِنين، فأَولى به أَن تُعَلَّقَ الرَّحَى في عُنُقِه ويُلقى في البَحْر. فإِذا كانَت يدُكَ حَجَرَ عَثرَةٍ لَكَ فاقطَعْها، فَلأَن تَدخُلَ الحَياةَ وأَنت أَقطَعُ اليد خَيرٌ لَكَ مِن أَن يَكونَ لَكَ يَدانِ وتَذهَبَ إِلى جَهَنَّم، إِلى نارٍ لا تُطفَأ. وإِذا كانَت رِجْلُكَ حَجَرَ عَثرَةٍ لَكَ فاقطَعْها، فَلأَن تَدخُلَ الحَياةَ وأَنتَ أَقطَعُ الرِّجل خَيرٌ لَكَ مِن أَن يكونَ لَكَ رِجلانِ وتُلْقى في جَهَنَّم. وإِذا كانَت عَينُكَ حَجَرَ عَثرَةٍ لَكَ فاقلَعْها فَلأَن تَدخُلَ مَلَكوتَ اللهِ وأَنتَ أَعوَر خَيرٌ لَكَ مَن أَن يكونَ لَكَ عَينانِ وتُلْقى في جَهَنَّم".

(مرقس ٩: ٤٢-٤٧)

مفهوم الشك في الكتاب المقدس يختلف عن مفهومنا نحن، فبالنسبة الينا، الشك نوعان: شك فلسفي يرمي الى الوصول الى معرفة أعمق وأفضل للأشياء، وهو ضرورة. وشك أخلاقي، هو السلوك المغاير للشرائع الدينية والاعراف الاجتماعية، ونطلق عليه عادة (السلوك الرديء)، في حين السلوك المستقيم هو أكبر من هذا: هو العمل بما يقتضيه "الخير".

اما الكتاب المقدس، فيرى في الشك الفخ او العقبة (حجر عثرة) في طريق نمو الانسان وصلاحه؛ فهو يعطّل ايمانه بالله ويفسد علاقاته باخوته، ويعبرّ عنه العهد القديم بعبارة "نكث العهد" اي جحود الايمان واتباع عبادة الاوثان... والشك، في الانجيل، هو "الخطيئة" التي تبلغ ذروتها في الرفض المطلق لشخص يسوع -البشرى السارة (يوحنا ٨: ٣٥). انها الخطيئة تنتصب بوجه ملكوت الله وضده: "من ينكرني قدام الناس، فاني انكره قدام ابي..." (متى ١٠: ٣٣)، وضد الروح القدس: "... من جدّف على الروح القدس، فلن يغفر له الى الابد، لانه مجرم بخطيئة ابدية" (مرقس ٣: ٢٩).

والشك هو ضد الايمان، هذا الايمان الذي ليس برهانا خارجيا، بل لقاء داخلياً في صميم الحياة لقبول سرّ الله المعلن في يسوع، والذي يغدو اسلوبا مناسبا للعيش في المحبة والاخوّة والشراكة، في غاية الفرح والبهجة، بحيث يصل الجميع الى حالة اكتمال في "ملء الله" (افسس ٣: ١٩).

فالشك الذي يشير اليه يسوع، إذن، هو موقف شخصي واضح، واع وحر، نابع من داخل الانسان، من فكره وقلبه.. وهو امر خطير الى درجة ان مسببه يستوجب ان "يلقى في البحر ليموت غرقا"، لكونه اغلق الباب على نفسه وعلى الاخرين..

واليد والرجل هنا تشيران الى ما يستعين به الانسان لامتلاك غيره واستلابه، بينما تدل العين على الرغبة الانانية الشريرة. لذلك لَمِن صالح الانسان ان يزيل عنه كل ما يجعله يستغل الاخرين، ويقطع دابر كل رغبة لا تصحبها المحبة، فيغدو كل شيء فيه مقدساً صافيا، باكرا، كالارض الخصبة التي ينمو فيها الزرع. وهذا ليس قطعا احتقارا للجسد وقمعا للغرائز او تروضا لمجرد الترويض... اذ بامكان المرء ان يبتر كثيرا من أعضائه ولكن دون ان يقضي على بؤرة الفساد في قلبه! لكن المسيح يريد هنا ان يضع الانسان برمته على اساس اقوى واقدس، ليكون أداة فاعلة ومثمرة في خدمة "البشرى" النقية الصافية، وليس سبب عثرة وسقوط، كما هي الحال في هذا النص. عليه الاّ يسمح لاي شيء كان ان يقف مانعا امام نموّه ونموّ اخوته او يحملهم على الشك او يصيبهم باذى ادبي او مادي، سواء شريعة كانت ام تقوى شخصية، موهبة كانت ام شهوة، ثروة ام منصباً... تماما كما فعل يسوع الذي اعطانا مثالاً حيًّا لهذا السلوك المؤمن الموقن.

ليلة الميلاد

"وفي تلكَ الأيّام، صدرَ أمرٌ عنِ القَيصَرِ أوغُسطُس بإحصاء جَميع أهلِ المَعمور. وجَرى هذا الإحصاءُ الأوّلُ إذ كانَ قيرينيوس حاكمَ سورية. فذهبَ جَميعُ النّاسِ ليَكتَتِبَ كلُّ واحدٍ في مَدينتِه. وصَعِدَ يوسُفُ أيضاً مِن الجَليل مِن مَدينَةِ النّاصِرة إلى اليَهوديَّةِ إلى مَدينَةِ داودَ الّتي يُقالُ لَها بَيتَ لَحم، فقَد كانَ مِن بَيتِ داودَ وعَشيرتِه، ليَكتَتِبَ هو ومَريمُ خَطيبَتُه وكانت حامِلاً. وبَينَما هما فيها حانَ وَقتُ وِلادَتِها، فولَدَتِ ابنَها البِكر، فقَمَّطَتهُ وأضجَعَتهُ في مِذوَدٍ لأنَّهُ لم يَكُنْ لَهُما مَوضِعٌ في المَضافة".

(لوقا ٢: ١-٧)

مثل كل عام، يجلب لنا الميلاد نعومة الطفولة الصافية ويحمل لنا نحن الكبار، وقد عقّدتنا السنون والتجارب، دعوةً الى البراءة والبساطة والنقاء.. ويجعلنا نشعر انه يوجد، وراء يسوع المغارة، عالم آخر نجد فيه الحرية والاخوّة والعدالة والسلام والفرح والسعادة... هذه القيم التي طالما بحث عنها الانسان ولا يزال يبحث عنها بطرق شتى، ولكنه لن يحصل عليها الا اذا دخل صراحة الى هذا "العالم".

في الميلاد، يأخذنا الله من طرفنا الضعيف، من الحساسية الموجودة لدى كل الناس، حتى عند أولئك الذين يبدون اقلّ حساسية. من منّا يقدر ان ان يقف غير مبال امام طفل المغارة؟ من منّا لا تهمّه هذه الحقيقة التي حولها يدور الحدث "الله يصير انسانا" و"يسكن بيننا"؟! وهذا ليس كل شيء، اي ليس حدثا طرأ في تاريخ الانسان قبل حوالي الفي عام وانتهى! فميلاد يسوع مستمر لم ينقطع: "يسوع المسيح هو نفسه بالامس واليوم وللابد" (عبرانيين ١٣: ٨) هذا ما تؤكده الرسالة الى العبرانيين وتدعونا الى الدخول في هذا المنظور..

المسيح بالامس

بالأمس، اي الزمن الماضي، كان في بيت لحم: "الله يصير انسانا ويسكن بيننا"، ليس على طريقة الأساطير البابلية والمصرية، ولا على نمط التقمص كما في الديانات الهندية، انما الله يصير واحداً منّا، باسلوبنا وفي تاريخنا وبكل ما يحمله من ايجابيات وسلبيات، من شريف ومُنْحطّ... يَصير واحداً منا كي يكشف لنا **من هو الله وما هو: هو آب، وهو محبة**. فاله يسوع ليس، اذن، مصيراً تعيساً اعمى، قضاء وقدراً، إلهاً قهّارا نَهابُ ضرباته... انما هو اب حنون رحمان رحيم، "يطلع شمسه على الصالحين والاشرار"، يغفر دوماً ويطلب منا ان نغفر، الاّ نحقد، الاّ ناخذ بالثأر، الاّ نلعن... وهذا الاله تبلغ به المَحبة والغفران الى قبول موت ابنه لاجلنا! اله لا يمكن انْ ينفصل عن ابنائه في أيّ حال من الاحوال.. ومغارة بيت لحم تغدو المرحلة الاولى التي تقود الى الصليب، وتجتازه الى القيامة، وتصبح العلامة العظمى للمحبة.

المسيح غداً

انه غد ابدي لا نستطيع تثبيت تاريخه، غد تكون فيه عودته الظافرة: يعود في مجده ليدين الاحياء والاموات، وليس لملكه انقضاء. أليس هذا ما نعلنه مئات المرات في قانون ايماننا؟ غد تكون فيه سماء جديدة وارض جديدة كما تنبأ أشعيا، واكّدَ سفر الرؤيا. غد، تكون فيه كنيسة المسيح (جماعة المؤمنين) طاهرة، لا عيب فيها ولا غضن، مثل عروس جميلة ليس فيها سوى الحب، والحب وحده..

المسيح اليوم

اليوم هو بين الامس والغد، وهو الزمن الحاضر. واليوم هو بمثابة ميلاد ثالث (بين الماضي والمستقبل). فيه، المسيح حاضر بيننا، وعلينا ان نكتشفه ونتعرف عليه ونتّحد به ونعيش واّياه. ويقول لنا الانجيل (طالع متى الفصل ٢٥) انه حاضر في الفقير الذي يطويه الجوع، وفي الغريب الذي يطرق بابنا، وفي المشرد والمهاجر الذي لاسباب قاهرة ترك ارضه وبيته.. وفي المريض الذي يحتاج الى ان نتحسّس ألمه ونفهمه.. وفي الانسان البائس الذي يحتاج الى عمل يحقق فيه ذاته.. وفي الزوج المهجور الذي لا يزال يحلم بالسعادة...

كما انه في كل شخص يسعى ليساعد ويعزّي ويداوي ويشجع ويُنهض كل فاشل ويعيد اليه الثقة التي فقدها، ويرجع النعمة الى من خسرها.. انه في كل شخص يحمل، مثل المسيح، صليب الاخرين ويحمله معهم الى النهاية. آنذاك تتم هذه الولادة الثالثة في الزمن الحاضر بانتظار المستقبل السعيد، وعلى كل واحد منّا ان يجعلها تحدث.. انها الهدية العظيمة التي يقدمها لنا المسيح اليوم، ويدعونا الى ان نقبلها وننضم اليها بفكرنا وقلبنا... وحينئذٍ تكون الحياة عيداً دائماً.

من يحقق السلام؟

"طوبى لِفُقراء الرُّوح فإنَّ لَهم مَلكوتَ السَّمَوات. طوبى لِلوُدَعاء فإنَّهم يرِثونَ الأَرض. طوبى لِلْمَحزُونين، فإنَّهم يُعَزَّون. طوبى لِلْجياعِ والعِطاشِ إلى البرّ فإنَّهم يُشبَعون. طوبى لِلرُّحَماء، فإنَّهم يُرْحَمون. طوبى لأَطهارِ القُلوب فإنَّهم يُشاهِدونَ الله. طوبى لِلسَّاعينَ إلى السَّلام فإنَّهم أَبناءَ اللهِ يُدعَون. طوبى لِلمُضطَهَدينَ على البرّ فإنَّ لَهم مَلكوتَ السَّمَوات. طوبى لكم، إذا شَتَموكم واضْطَهدوكم وافْتَرَوْا عَليكم كُلَّ كَذبٍ مِن أَجلي، إفرَحوا وابْتَهِجوا: إنَّ أَجرَكم في السَّمَوات عظيم، فهكذا اضْطَهدوا الأَنبياءَ مِن قَبْلِكم".
(متى ٥: ٣-١٢)

قيل وكُتب الكثير عن (التطويبات)، وهي خير ما نبدأ به تأملات هذه السنة. فالمفسرون يعتبرون هذه (الاقوال) دستور المسيحية؛ ويتعذر استيعاب سائر جوانبها وابعادها، لانها من المسيحية في الاصل والقلب والقمة.

أول ما نقرأ فيها تناقضاً ومبالغات، ولعلّ ثمة من يرى فيها ضرباً من التخدير التصوّفي! والا فما معنى ان يعيّرنا الناس ويضطهدونا ويقولوا فينا كل كلمة سوء كذباً، وعلينا ان نفرح ونُسرّ، ولماذا؟ لان اجرنا سيكون عظيماً في السماء! أليس هذا عينه ما كانوا يسلّون به الفقراء والعبيد المهضومي الحقوق، بينما يعيش الاغنياء والمستبدّون والمستغلّون في بحبوحة وترف، على اكتاف البؤساء، ممتصّين دماء الضعفاء؟

بقدر ما يبدو المسيح المعلّم قوياً وهو يندد بسلوكية الجشعين والمرائين والمسيطرين على مقاليد الامور باستبداد، عبر صفحات الانجيل، في مواقف عديدة، بقدر ذلك يبدو هنا مسالماً حتى الضعف ويدعو الى الرضوخ والاستسلام، والصبر ولأناة، وانتظار مكافاة السماء في الحياة الاخرى. فهل هذا مقصده؟ وهل هذا معدنه؟

يقول العلامة جرمياس في (اقوال يسوع): ليس لاقوال (عظة الجبل) الحاسمة ما يوازيها، واننا لَنبحث عبثاً عن مثيلات لتطويب الفقراء، ومنع الطلاق، والضرب على الخدّ، والصيغة الوجيزة الواضحة: "أحبوا أعداءكم"، وفرح التوبة؛ بل ان العظة كلها ترد كتناقض مقصود ومختلف عن تقوى الرابينيين (معلمي الناموس) والفريسيين (المحافظين حتى التزمت). لذا فان ما نظنه لاول وهلة ضعفا انساق المسيح اليه، هو بالعكس قوة عظمته، لانه انتهاك لحرمة الشريعة، وقطيعة مع التقوى التي كانت سائدة ايام يسوع، وتأسيس لنظرية "الوصية المستحيلة" التي تدفعنا الى تجاوز العادي والطبيعي الى المثالي والاكمل. فالمسيح لا يريد ان يكون اتباعه اقلّ من ابطال، جادّين في السعي نحو الكمال.

اجل، بوسع الظمآن ان يرتوي اذا ما عثر على نبع ماء زلال، وبوسع الجائع ان يشبع بكسرة خبز؛ اما قلب الانسان، وفكره، وابعاد وطموحات ذاته، فليس للخبز والماء، ولا للدنيا بكل ما فيها، ان تسدّ عوزه الكبير الدائم: الى حق وخير، وفرح وسلام. لذلك لا يمكننا فهم التطوييات دون عودة الى الوراء، الى تاريخ البشرية. مَن منّا لا يُدرك بأن تاريخ البشرية مليء بالمتناقضات: العظائم والدنايا، الافراح والاتراح، روائع الانجازات وأتعس انواع الدمار والمآسي والانحطاط... وكثيرة هي النتائج السلبية والايجابية. وفي دوامة كهذه، يظل المرء بحاجة الى اقوال نبوية، وبشرى خلاص: الطوبى للجياع، والعطاش، والودعاء، والمسالمين... وهنيئاً للانسان "الانساني".

مَن منا لم يتذوق طعم هذا الصوت في هذه سنوات الحرب، حيث العطاش الى الثقة والامانة والعمران والسلام، اكبر من اي وقت آخر؟ ومَن لا يتمنى لو جاع، وعطش، وتألم، شرط ان تقف الحرب؟ مَن منا لا يتمنى لو يغدو فدية وضحية في سبيل السلام؟

الاعماق وحدها تعطي الانقى والاشهى، وكلٌّ رخيص مبتذل.

انها امنية العام الجديد، وهنيئاً لمن يدركها ويحياها.

الاحتياطي والاضافي

"عِندَئِذٍ يكون مَثَلُ مَلكوتِ السَّمَواتِ كَمَثَلِ عَشْرِ عَذارى أَخَذنَ مَصابيحَهُنَّ وخَرَجنَ لِلِقاءِ العَريس، خَمسٌ مِنهُنَّ جاهِلات، وخَمسٌ عاقِلات. فأَخذَتِ الجاهِلاتُ مَصابيحَهُنَّ ولَم يَأخُذنَ مَعَهُنَّ زَيتاً. وأَمَّا العاقِلات، فَأَخَذنَ مَعَ مَصابيحِهِنَّ زَيتاً في آنية. وأَبطَأَ العَريس، فنَعَسنَ جَميعاً ونِمْنَ. وعِندَ نِصْفِ اللَّيل، عَلا الصِّياح: هُوذا العَريس! فَاخرُجْنَ لِلِقائِه! فقامَ أُولئكَ العَذارى جميعاً وهَيَّأنَ مَصابيحَهُنَّ. قالتِ الجاهِلاتُ لِلعاقِلات: أَعطينَنا مِن زَيتِكُنَّ، فإِنَّ مَصابيحَنا تَنطَفِئ. فأَجابَتِ العاقِلات: لَعَلَّه غَيرُ كافٍ لَنا ولَكُنَّ، فَالأَولى أَن تَذهَبنَ إِلى الباعَةِ وتَشْتَرينَ لَكُنَّ. وبينَما هُنَّ ذاهِباتٌ لِيَشتَرينَ، وَصَلَ العَريس، فدخَلَت مَعَه المُستَعِدَّاتُ إِلى رَدهَةِ العُرْسِ وأُغلِقَ الباب. وجاءَت آخِرَ الأَمرِ سائِرُ العَذارى فقُلنَ: يا ربّ، يا ربّ، إِفتَحْ لَنا. فأَجاب: الحَقَّ أَقولُ لَكُنَّ: إِنِّي لا أَعرِفُكُنَّ! فَاسهَروا إِذاً، لأَنَّكم لا تَعلَمونَ اليومَ ولا السَّاعة".

(متى ٢٥: ١-١٣)

ما يثير الدهش في هذا المثل، اضافة الى أمور كثيرة، مطالبة السيد اولئك العذارى الجاهلات بزيت اضافي، كان عليهن ان يحملنه في آنية، مع مصابيحهن، وهذا ما يدفعنا الى التساؤل: أليس هذا اجحافاً؟ ألا يكفي ان نحمل مصابيحنا مشتعلة؟ هل من حق احد ان يطالبنا باكثر من الضروري اللازم؟

ان هذا الاضافي ليس زيادة اختيارية، بل واجب، لانه عنصر مُتمِّم لرسالتنا في الحياة، ايا كانت. إذ لا يكفي ان تعمل ما تقوى على عمله، بل المطلوب منك ان تودي

الرسالة! ونحن، لو فهمنا القصد، وطّبقنا المبدأ، لكان علينا القيام بتغييرات كثيرة في المجتمع والكنيسة والعالم.

هذا الاب، يعمل ما بوسعه، لكنه لا يؤدي رسالة الأبوةّ كما ينبغي، فماذا عليه ان يفعل؟ عليه ان يضاعف الجهود، والا فمطلوب من الآخرين ان يساعدوه... اما ترك العائلة تحت رحمة أب ضعيف، بحيث تغدو عرضة للجهل او الفقر او الاستبداد، فامر غير صحيح. وهذا الموظف الذي لا يلبّي كل ما تطلبه منه مهام الوظيفة، لا يصح ان يُترك وشأنه بحجة ان قابلياته محدودة؛ وكذلك الكاهن او المطران او أي مسؤول آخر، لان مسؤوليات الخدمة تتجاوز الطاقات المحدودة للافراد، ولا يمكنها ان تُلبّى باقل من المقولة المعروفة: الشخص المناسب في المكان المناسب.

ومن اتعس ما يتردد على الألسنة هو هذا: ماذا تريد من هذا وذاك؟ انهم يؤدون واجبهم على قدر ما يستطيعون. ويجري في هذا خلط بين عدم امكانية مطالبة الاشخاص بالقيام باكثر مما يستطيعون، وبين ترك تأدية الواجبات والخدمات ناقصة وبشكل هزيل، لان قابليات من يقومون بها محدودة... فهل تترك الامور للصدف؟ ام نكتفي بتسليم امرنا بيد الله؟

لكننا مؤمنون، نعرف بان الله يساعد ويقوّي، وانه، اذ يرضى عن اختيار الاشخاص لمناصب ومسؤوليات مختلفة، يمدّ العون ويأخذ بيد المسؤولين، متى كان اختيارهم صحيحا، وهذا ما يسميه اللاهوتيون نعمة الحالة! واذا لم تكن النتيجة جيدة، فمعنى ذلك ان الشخص الذي اخذ المسؤولية على عاتقه، قد خَلَدَ الى التهاون والتقاعس، فيجب تنبيهه؛ واذا ثبت انه غير صالح، فعليه ان يُخلي الموضع لغيره.

انما نظرة تتوخى الكمال، ونحن مُبتَلون بالضعف والنقصان؛ انما سعيُنا يجب ان يكون نحو الكمال، عملا بقول المسيح: "كونوا كاملين كما ان اباكم السماوي هو كامل". كما علينا ان نضع نصب اعيننا تحذير المسيح: كونوا ساهرين، لانه في ساعة لا تعلمونها يأتي ربكم.. والسهر ليس مطلوبا في اليوم الآخر وحسب، بل في كل لحظة من لحظات حياتنا، مع اتخاذ الاحتياطات اللازمة، كالعذارى الحكيمات تماما. ومن لا زيت له يكفيه الاضاءة اللازمة، يكون خاسرا لا محالة. اما حامل الزيت الاضافي فهو الرابح والناجح؛ لذا يوّجَه الطلبة الى أخذ حصص اضافية استكمالا للمعلومات والدراسة، وحياتنا أهمّ اختبار واصعب امتحان، وهدفنا التفوّق بدرجة امتياز.

شباط-آذار ١٩٨٨ — الأب يوسف حبي

قلب اب.. قلب ام

"ما رَأيُكم؟ إذا كانَ لِرَجُلٍ مِائةُ خَروف فضَلَّ واحِدٌ مِنها، أَفلا يَدَعُ التِّسعَةَ والتِّسعينَ في الجِبال، ويَمضي في طَلَبِ الضَّالّ؟ وإذا تَمَّ له أَن يَجِدَه فالحَقَّ أَقولُ لكم إِنَّه يَفرَحُ به أَكثَرَ مِنه بِالتِّسعةِ والتِّسعينَ الَّتي لم تَضِلّ. وهكذا لا يَشاءُ أَبوكُمُ الَّذي في السَّمَوات أَن يَهلِكَ واحِدٌ من هَؤلاءِ الصِّغار".
(متى ١٨: ١٢-١٤)

ليس مثلاً عادياً هذا الذي نتامل فيه اليوم. انه قول، وقول حكيم. فالامثال انواع، أبلغها أمثال الحكمة، وهذا منها: لرجل مائة خروف، وواحد فقط قد ضلّ، أفليس ضربا من الجنون ان يترك التسعة والتسعين في الجبال، او في البرية، كما يقول لوقا (١٥: ٤)، ويمضي في طلب الضالّ، العقوق؟

وتزداد درجة الجنون الى حدّ انه يفرح به اكثر من التسعة والتسعين التي لم تضلّ. فهل تفقهون قوة الفحوى؟

شرح واحد بوسعه ان يرشدنا الى الصواب. هل أدركتموه سابقا؟ إن كان نعم، فهنيئا لكم، وهلّموا لنعمّق التأمل. وان كان لا، فلا بد من التشبّع كثيرا من روح الانجيل.

هذا الرجل هو أب. وقلب الاب أو الام غير قلب المالك، والتاجر، والاجير. الاب يحب اولاده جميعا، واحدا واحدا، وكلهم على السواء. كل منهم عزيز جدا عليه، يفديه بروحه، ولا يسعه ان يفرّط بأيّ منهم، ولا بالتسعة والتسعين.

وتقولون: هذا من حقّه، انه اب. ولكن، لماذا يفرح بالضالّ أكثر مما بالذين لم يرتكبوا الخطأ، والاثم، والتقصير، ولا اقتسموا المال ومضوا مبذّرين اياه في المنكر، كما فعل الابن الضالّ (لوقا ١٥: ١١- ٣٢)؟

ليس تشجيعاً على ارتكاب الخطايا والمعاصي، وليس امتهانا للعائشين عيشة صالحة جاء هذا المثل واشباهه، انما لأن الانسان يشعر بمزيد من الغبطة حين يجد ما فَقَدَ، لا يشعر

بمثلها طوال محافظته على ذلك الشيء. ثم لان هذا (الضالّ) عرف اخيرا ان يهتدي، وبعد ان خرج على الآخرين، وترك الحظيرة الآمنة، والبيت الابوي، ارتضى ان يعود منصاعا، فجُمع مع الاخوة. وقد قال يسوع: "ليس الاصحاء بحاجة الى طبيب، بل المرضى" (متى ٩: ١٢). وأتعس الاحوال أن يستمرّ المخطىء والمسيء والمؤذي في الخطأ والاساءة والأذى، فتسري عدوى الشر على الكثيرين.

وانت، ياصحيح الجسم وسليم الروح، يكفيك انك معاق، لا تشكو الجوع والعطش والالم والتعاسة، فهل ترى كثيراً ان تُرجع الصحة والعافية الى اخيك المريض، المعذب، التاعس؟ "يا بني، انت معي دائما ابدا، وكل ما لي فهو لك"... فلا تحسدنّ اخاك على ما لا يحسد عليه، بل افرح، لانه "كان ميتا فعاش، وضالا فوجد".

وهذا كلام، بل موقف، بل قلب لا يعرفه الا الاب العظيم، والام الحقيقية، فيبلغ بهما الحب الكبير الى حدّ الجنون. والحب الذي يعرف الحدود والحواجز والاعتبارات ليس حبا حقيقيا عميقا. وليس كثيرا على الله ان يحمل مثل هذا القلب -وهذا الاله، هو اله الحب، ويريدنا على مثاله- فقد خلقنا على صورته ومثاله، ويريد أن ننمّي فينا ذلك حتى الكمال.

وأملي انكم لاحظتم انه الرجل، الراعي، من يمضي في طلب الخروف الضال، ولا يدعه وشأنه، فيهلك، ولن يكفّ عن السعي والبحث حتى يجده. ويكمل لوقا بقوله: فاذا وجده، حمله على كتفيه فَرِحاً، ورجع به الى البيت، ودعا الأصدقاء والجيران، بل يقيم وليمة، ويصرف اكثر مما لقي، مادياً، لان فرحة اللقيا لا تعادلها دراهم الدنيا كلها، تماما كالمرأة التي اضاعت درهما ثم وجدته. وما اجمل ان يلقي المرء ما قد اضاع! ومَن مّنا لم يفقد شيئا، بل اشياء، بل شخصا عزيزا؟ ومَن منا لا يسعد بلقياهم؟ ومَن ذا الذي يعرف ان يفتح القلب والذات لاستقبال مَن قد "ضلّوا" عنا، وابتعدوا، وآذونا؟ وهل نعرف ان نقوم نحن بالخطوة الاولى، والثانية، والثالثة؟ انه الحب الجنوني وحده يعرف ذلك، ويفعل مثل هذه الافعال.

ماذا نستفيد؟

١. ان لا نحاول التيه والضلال، فالنعيم هو مع الاخوة في الحظيرة الواحدة والبيت الابوي، حيث كل شيء هو مشترك.
٢. ان صادف وضللنا، فلا ننسَ ان لنا أبا حنونا يبحث عنا، ولا نقسِّ قلبنا ونرفض الانصياع والعودة. كما علينا ان نساعد الآخرين على الاهتداء.
٣. ان لا نحسد الاخوة على فرحة الاهتداء واللقاء، وان نحمل قلب أب وأم وأخ ومحبّ، يتفهم الاخرين، ويسعى نحوهم بحنو، ويحتضنهم بحب خالص؛ فالاكتفاء بالانتظار دليل ضيق نفس وصغر قلب وضعف حب.
٤. من لا يشعر بنفسه انه بحاجة الى الرحمة، لن يكون في سلام، ولن يلقى الحب العظيم.

نيسان ١٩٨٨ — الأب يوسف حبي

من لا يترك.. لا يلقَ

"فأجاب: أَما قَرأتُم أَنَّ الخالِقَ مُنذُ البَدءِ جَعَلَهما ذَكَراً وَأُنثى وقال: لِذَلِكَ يَترُكُ الرَّجُلُ أَباهُ وأُمَّه ويَلزَمُ امرَأَتَه ويصيرُ الاثنانِ جسَداً واحداً. فلا يكونانِ اثنَينِ بعدَ ذلكَ، بل جَسَدٌ واحد. فما جمَعَه الله فلا يُفرِّقنَّه الإنسان. (متى ١٩: ٤-٦)

قال لي متوجساً: لقد حيّرني هذا النص... لماذا عليّ ان أترك؟ وانا اعرف جيدا تعلقه الشديد بأهله، بل هو ابنهم "المدلّل".

وطالما سمعت تعليقات لاذعة من قبل آباء وأمهات... لذا نرى البعض يتصرفون على العكس منه تماما، فلا يتركون لأولادهم ممارسة أثمن هدية أنعم الله بها على الجميع: الحرّية. ويظلون هكذا عبيدا: الاهل لعقليات وعوائد قد لا يريدونها هم انفسهم، لكنهم مبتلون بها عن كره وتعوّد؛ والاولاد بسبب سلوك أهل يتصورون انهم يتصرفون جيدا، وهم غير محقين، او بسبب تقليد أعمى لم يستوعبوا حقيقته. ويكون الجميع، الاهل والاولاد، المتزوجون وغير المتزوجين، غير راضين عن بعضهم. وبالنتيجة؟ ان كان النص ليس في صالح أحد، فلمن هو؟

انه في صالح الجميع، لانه الى جانب الحق، وهو، اذن، لسعادة البشر!

لن نفهم عمق هذا النص الا اذا اعتبرنا الزواج "انسلاخا" عن جلدنا العادي، وقبلنا بضرورة لبس ثوب جديد، بل انسان جديد، عملا بقول بولس الرسول: "أقول لكم واستحلفكم بالرب... ان تخلعوا الانسان القديم الذي تفسده الشهوات الخادعة، وان تتجددوا روحا وذهنا، فتلبسوا الانسان الجديد الذي خلق على صورة الله في البّر وقداسة الحق" (افسس ٤: ٢٢-٢٤). وقال المسيح المعلم قبله: "ما من أحد يمكنه أن يرى ملكوت الله إلا اذا وُلد من فوق.. ثانية..." (يوحنا ٣: ٣-٤).

ليس هذا الامر في الزواج وحده، انما في الحياة كلها. وهو يظهر في الزواج بشكل واضح، لانه "حالة" خاصة اساسية، فيها يتغير الانسان، ويتحول، وقد ينقلب. فقد كانت الزوجة ابنة أبيها وأمها وعائلتها، وتغدو اليوم زوجة رجل غالبا ما يكون "غريبا"، وابنة

عائلة "اخرى". ويترع المتزوجون الجدد في أيامنا الى "الاستقلال" عن عائلتهم، من باب التقليد في اكثر الاحايين، كما يترعون -وهذا من حقهم بل من واجبهم- الى "تكوين" عائلة جديدة، مع كل ما في الامر من مستلزمات ونتائج. فماذا قصد المسيح من كلامه الوارد في النص أعلاه؟

انا افهمه من هذا المنطلق، وأقرأ كلماته بهذا النور، واتأمل النص بالتفكير التالي: ان الانسان مدفوع غريزيا الى ان يحب ذاته، وان يريد كل شيء لنفسه، وان يتملك حتى الآخرين. ويقول يسوع: الزواج عكس ذلك تماما. فالزواج ليس أنانية، ولا تملكا، ولا مكسبا ماديا. انه حب. والحب عطاء وبذل ذات، لا اخذ وتملك وانتفاع. من هنا نفهم قوة النص. فهل أعزّ من الاب والام؟ كلا. ومع ذلك، أي مع محبتك لأهلك، واعتزازك بهم، والحرص على واجباتك تجاههم، عليك ان "تتركهم"، كما عليك ان تترك ذاتك، لكي تلقى الآخر، هذا الجديد الغريب، شريك الحياة، أي الزوجة. فانت إن لم تترك لن تلقى، بمعنى ان الحب يتطلب منك انفتاحا لا يتم إلاّ بالخروج من شرنقتك الضيقة، مهما كان حيّز وجودك سليما وجميلا، الى أجواء وآفاق رحبة تقرّبك اكثر الى الله، خالق الكون وأب الجميع، فيكون لك أقرباء مقرّبين، وأهلاً أحباء، من "الاخرين"، لا من الاهل الطبيعيين والعشيرة فقط، أي بالروح والحب، لا باللحم والدم وحسب. لذا تمنع الكنيسة بشكل عام الزواج من الاقربين، ويقتضي الزواج من القريبين تفسيحا له مبرراته. ويشرح أحد قانونيي كنيسة المشرق الامر بقوله: اننا بذلك نرفض العائلة الضيقة، وندعو الى تكوين عائلة منفتحة كبيرة، يسودها الحب والعمق والروح.

وثمة اشارة أخرى في النص نلقاها في عبارة (فلا يكونان اثنين، بل جسداً واحداً)، تدفعنا الى التساؤل: كيف يصبحان جسدا واحدا، ان شاء الزوج الابقاء على كل ما هو، وما له، دون اي استعداد منه للتخلّي، وصولا الى نوع من التلاشي والذوبان حبا (لا بمعنى فقدان الشخصية والحقوق، بل بمعنى العطاء والبذل)، للسماح للآخر (الزوجة) بالاندماج والانسجام والاكتمال في الحالة الجديدة، وتكوين وحدة شاملة خالدة؟ وهل يمكن ان تقبل الآخر اذا لم تفتح له قلبك؟ وهل فتح القلب هو مجرد فتح باب أو شباك، أم ان الانفتاح استعداد، وتحرك، وتغيُّر، كثيرا ما يتطلب تحولاً واهتداء؟

هذه هي الشريعة الجديدة، ووصية المسيح الوحيدة: أحبوا.. فمَن يحب، يتجرد عن الانانية. وهذا مطلوب من الزوج، والزوجة، وأهل الطرفين، على السواء.

وهذا هو الزواج الصحيح: حب يجمع شخصين واعيين بحيث يشعران انهما واحد، ويعيشان حياة شراكة تامة. ولانه حب حقيقي، فهو انفتاح على الآخرين ايضا، وفي مقدمتهم الاهل والاقارب والاصدقاء والمعارف، وعلى عائلات كثيرة اخرى. انه حب جديد يُشيعه الزواج، وجو حب منفتح معطاء يتسامى حتى شمولية الوجود وكنه الكيان، فيه تصان حقوق الجميع وتتوثق الألفة.

ما قلناه عن الزوج ينطبق على الزوجة ايضا! وهنيئا للمتزوجين الذين يعرفون ان يحيوا هكذا، فان زواجهم لن يتعرض حينذاك لمعظم المشاكل التي تعكّر الاجواء، بل يكونون خير عون لبعضهم وللكثيرين.

أيار ١٩٨٨ — الأب يوسف حبي

ناقوس الخطر

"وقالَ أيضاً لِلجُموع: إذا رَأَيتُم غَمامَةً تَرتَفِعُ في المَغرِب، قُلتُم مِن وَقتِكم: سَيَنزِلُ المَطَر، فيكونُ كذلك. وإذا هَبَّتِ الجَنوب قُلتُم: سيَكونُ الجَوُّ حاراً، فيَكونُ ذلك. أيُّها المُراؤون، تُحسِنونَ تَفَهُّمَ مَنظَرِ الأَرضِ والسَّماء، فكَيفَ لا تُحسِنونَ تَفَهُّمَ الوَقتِ الحاضِر؟ ولِمَ لا تَحكُمونَ بالعَدْلِ مِن عِندِكم؟".

(لوقا ١٢: ٥٤-٥٧)

كنا في محفل نتحدث، وللحديث شجون! فانبرى احدنا: مَن يقرع ناقوس الخطر؟ قلت: ان كان ولا بد، فاني مستعد. اذ كل شيء أحتمل، اما المراءاة، المراوغة، الزيف، التنصل من المسؤولية والخدمة، فلا. ولكن، عونك يا رب، فصعب علينا ان نحكم بالحق. ساعدنا لنفهم هذا الزمان، ونتفهم واقعنا، نحن الذين نعرف ما في المغرب والجنوب... ونغض الطرف عما هو حوالينا.

تسير في الشارع، واذا بصفّارة اسعاف أو نجدة، وتنتبه، فثمة خطر، وتتخذ موقف الحذر. وللكنائس نواقيس، تقرع في الاعياد والآحاد والايام، وتدق في المآتم وجمعة الالام. اقترح ان تضاف اليها دقات خطر، ونحن اليوم امام خطر كبير: وضع الكنيسة والمؤمنين وجيل الحرب.

أذكر وانا طالب في روما كيف قرع باباً شيخ-شاب، هو يوحنا الثالث والعشرون، ناقوس الخطر، فايقظ الكنيسة من سباتها، وحرك العالم باسره، فاستبشر الجميع خيرا. وكانت دراسات، ولجان، وتحركات، واصلاحات، وتجديدات، وعصرنة. والسبب؟

لقد عبّر عن ذلك الدستور الراعوي حول "الكنيسة في عالم اليوم" بقوله: "لقد اعترى اليوم الجنس البشري الذهول امام اكتشافاته الخاصة، وسلطانه الذاتي، ومع ذلك فانه غالباً ما يتساءل قلقا عن تطور العالم الحاضر، عن مكان الانسان ودوره في هذا الكون، عن معنى جهوده الفردية والجماعية، وفي النهاية يتساءل ايضا عن المصير الاخير الذي ينتظر هذه الاشياء وهذه الانسانية". ذاك الذهول، وهذا القلق أعطيا المجمعَ المسكوني الفاتيكاني الثاني وثمارَه الطيبة للعالم. ونحن، ما هو قلقنا وذهولنا؟

منذ سنوات ومجتمعنا في تحول وانتقال، من الريف الى المدينة، ومن الزراعة الى العمل الرسمي، ومن الانغلاق في حيّز بيئة ضيقة الى الانفتاح على عالم فسيح. ولم يتمّ أي اعداد لهذا التحول. وكان من الطبيعي ان يؤثر الامر على الشباب والصغار بشكل مركّز. وسواء المجتمع ككل، أم الكنيسة بنوع خاص، لم يعرفا ان يتهيئا للواقع الجديد، ولم يستخدما الوسائل المتاحة والناجعة، فكان انفصام في شخصية انساننا ومؤمننا، بين واقعه القديم العادي والواقع الجديد الملحّ عليه بشتى المغريات؛ وجاءت الحرب فأضافت تساؤلات وطروحات جديدة.

اكتفي بذكر بعض الامثلة. هل تذكرون ضعف النشر عندنا في الستينات وحتى الثمانين تقريبا؟ وكم عدد مراكز التعليم الديني في الكنائس، ما نوعها، ما حجمها، ما وسائلها؟ وهل من كنيسة حقّة تلك التي لا هيئة أسقفية لها، ولا لجان مشتركة، ولا لقاءات عمل مستمرة، ولا هوية، ولا برامج عمل، ولا تسخيرا حقيقيا للقوى فاعلة الخير، ولا مشاركة حقيقية لجميع أعضاء الجسد الواحد؟ هل لاحظتم يوما اهتماما جماعيا بالمعاهد الكهنوتية والرهبنات ومحاولة توحيد الخطة والجهود؟ وهل من فكرٍ بالبنات وهن ما زلن على الهامش من مجتمعنا؛ وحين تشرد احداهن مفضّلة زيدا على أثمن وديعة، أمن حق أحد ان يرميها بحجر، أم مَن يستحق الحجارة هم أشخاص آخرون؟... والا فماذا أعطيناها وأعطينا المحتاجين؟

وفي هذه سني الحرب، التي نأمل ان تنتهي عاجلا، هل فكّرت الكنيسة وخططت وعملت شيئا لتدارك ما يفسد نفسية الطفل من رعب، وقسوة، وخلل في تشخيص القيم والمثل والاخلاق السليمة؟ وهل فكرنا بعدد النساء المترملات، والبنات الباقيات بدون زواج، والعائلات التي تتفكك لاسباب مادية؟.. وبوسعنا الاكثار من الامثلة.

لم أسمع يوما بان المسؤولين في الكنيسة قد التقوا لبحث موضوع مثل هذا. وهل هم يلتقون لبحث مواضيع جادة؟... ويزداد يومياً عدد المسجّلين مسيحيين في الاوراق الرسمية لا غير. وغدا، ان خفّت الديانة لدى الصاعد، فلا نلومنّ من يتحرك الآن ويعمل، ولا حتى من يتكلم وينتقد، بل اللوم كل اللوم للنائمين والمكتفين بصلوات وطقوس روتينية هي

لا ريب مقبولة لدى من قد تعوّد عليها أيام زمان، لكنها باتت لا تغذّي مَن هم بحاجة الى غذاء دسم، لانهم أصبحوا اليوم في خضّم حياة صعبة اختلفت فيها كل الموازين..

لذا فنحن بحاجة، قبل فوات الاوان، الى متخصصين يتدارسون الوضع جيدا، ويضعون الخطط المحكمة، ويُختار لهم أشخاص يعاونونهم في ايصال ما هو ضروري، مستعينين بشتى الوسائل العصرية، وصولا الى الهدف المنشود: زرع ايمان واع، راسخ، ناضج في القلوب، لا تزعزعه التقلبات والاهواء، لان بنيانه على الصخرة. اما جماهيرية الايمان (أي ان يكون الجميع متدينين من باب التقليد والتعامل الاجتماعي او التعصب الطائفي) فسوف تنتهي قريبا، شئنا أم ابينا؛ ونحن مطالَبون بترسيخ ايمان يصنع من كل فرد مشعل نور، يضيء الكثيرين عن قناعة، وغيرة رسولية، وبذل ذات. وايمان كهذا يحتاج الى علم ومنهجية وجهود ووسائل، وعمل جماعي وشهادة حياة. لهذه الاسباب وغيرها مما يعرفه اخواني واخواتي الكثيرون، قلت: أدق ناقوس الخطر وأنادي، علّ من يجيب ويستجيب، قبل فوات الاوان، دون ان ننخدع لامتلاء الكنائس في المناسبات. وكثيرا ما كان يطيب للمسيح ان ينهي كلامه بعبارة أنهي بها أنا ايضا كلامي: من له أذنان ليسمع، فليسمع..

البيت السعيد

"أَنا الكَرمَةُ الحَقّ وأَبي هوَ الكَرّام. كُلُّ غُصنٍ فِيَّ لا يُثمِر يَفصِلُه. وكُلُّ غُصنٍ يثمِر يُقَضِّبُه لِيَكثُرَ ثَمَرُه. أَنتُمُ الآنَ أَطهار بِفَضْلِ الكَلامِ الَّذي قُلتُه لَكم. اُثبُتوا فِيَّ وأَنا أَثبُتُ فيكم. وكما أَنَّ الغُصنَ، إِن لم يَثبُتْ فِي الكَرمَة لا يَستَطيعُ أَن يُثمِرَ مِن نَفْسِه، فكذلكَ لا تَستَطيعونَ أَنتُم أَن تُثمِروا إِن لم تَثبُتوا فِيَّ. أَنا الكَرْمَةُ وأَنتُمُ الأَغصان. فمَن ثَبَتَ فِيَّ وثَبَتُّ فيه فَذاكَ الَّذي يُثمِرُ ثَمَراً كَثيراً لأَنَّكُم، بِمَعزِلٍ عَنِّي، لا تَستَطيعونَ أَن تَعمَلوا شيئاً".
(يوحنا ١٥: ١-٥)

وبوسعنا ان نستمر في هذا النص! فهو شيّق، وجميل ان نحلله مقطعا مقطعا، ونخلص الى معان رائعة طالما تأملناها مليّاً وأحببناها، ففيها من الشعر والتصوف، كما فيها من النور والشفافية الشيء الكثير. لكني سأركز اليوم على بُعد واحد أعتبره بمثابة الاساس والقاعدة في انجيل يسوع المسيح؛ ذلك هو "السكنى معاً"! فالثبات، الاستقرار، وما يدل على هذا، لا يتحقق الا بالسكن، والاستيطان، شرط ان يكون سكنى مع الاخر، حواراً بين الله والانسان، ونتيجة الحوار لقاء دائماً، بل "السكنى معاً".

يعيدنا هذا الى أسفار العهد القديم حيث كان الله يعيش مع آدم في الجنة، ولو من وقت لآخر، فيتراءى له، كما كان يكلم الاباء والانبياء. فيظهر لابراهيم وموسى، ويتجلى في الغمام، والسحاب، والعليقة، والجبل. انما تظل "السكنى معا" غير ملموسة وغير معاشة بما فيه الكفاية.

وتتضح الصورة في العهد الجديد، اذ تتجسد الحقيقة حياة، فالكلمة صار جسداً وحلّ فينا، وتحقق بذلك "نعيم الله مع بني البشر"، فقد أحبّنا، وغمرنا ببحر حبه العظيم، فصرنا هياكل الروح القدس، وغدا المسيح معنا الى الابد. والفرق واضح بين سكنى الله في السماء، وفي الارض احيانا، وبين السكنى معا. ولا يكفي ان يكون الله في كل مكان لكي نكون معا، لان (السكنى معا) تتطلب حضورا، تفاهما، عهدا. ولأننا ازاء اشخاص أحرار واعين، فهي تتطلب تشبها، وقبولاً، واندماجاً، ليس بفضل الانسان المخلوق الضعيف، بل بجود الهي. فهو الذي خلقنا على صورته ومثاله، يريدنا واحدا فيه، بفضل صيرورتنا واحدا في المسيح، بحيث انه كما ان الاب والابن واحد، كذلك نحن الكثيرين واحد فيه؛ وهو الروح عينه يجمعنا، يوحدنا، يذكي حياتنا ويجددنا على الدوام. هكذا، لا يظل بيتنا صغيراً، بل يتسع للكثيرين، فقد امتلأ بالكل.

لا ادري أين قرأت هذه الحكاية: عاد رجل الى داره مساء وقرع الباب، فجاءه صوت من الداخل: من انت؟ اجاب: انا، فافتحي الباب يا زوجتي العزيزة. أجابته: ليس في الدار سوى غرفة صغيرة جداً، لا تتسع لاثنين، ارجوك ان تعذرني. وألح الزوج كثيرا، انما باءت جميع محاولاته بالفشل، فغادر الدار مغموماً. ومضى سنة بكاملها يفكر ماذا يفعل لكي يقنع زوجته. اخيرا جاءها بعد عام وقرع الباب. فجاءه الصوت من الداخل: من بالباب؟ اجاب: هو (انت) ياحبيبتي، فافتحي الباب. فانفتح الباب على مصراعيه، ودخل بعد ان فهم ان البيت مهما كان صغيراً يتسع للحب ولا يتسع لاثنين يعتبر كل منهما ذاته منفصلاً عن الآخر، حتى ولو كان قصراً.

لقد جربها الابن الضال (لوقا ١٥: ١١-٣٢)، وظن ان البيت الابوي لم يعد يتسع له، ففضل المكان الغريب؛ وأهكته الغربة، حتى ندم اخيرا، وعاد، مهتديا، متغيّرا. وكلما أسافر الى الخارج، ورغم الانشغالات والمحاضرات التي تجعلني لا أشعر بالوقت، أحس باني خارجا عن الاجواء الاعتيادية التي، رغم وطأتها احياناً، تظل هي الطبيعية، وما أقسى الغربة وأمرّها... فقد تحلو لك أمور، وتشدّك أخرى، ويدغدغك الخارج، انما انت سعيد في بيتك.

ما سرّ ذلك؟ "ان أحبّني أحد.. اليه نأتي.. نجعل عنده مقامنا" (يوحنا ١٤: ٢٣). هذا يعني أمرين: الاول، ان تكون في بيتك؛ والثاني، ان لا تكون فيه وحدك. عن الاول عبّر الفكر التاريخي بمفاهيم الاصالة والتحذّر؛ و عبّر عنه الفكر اللاهوتي بالتجسد والتأنس. وعن الثاني، عبّرت الامثال الشعبية الجميلة: الجنة بدون بشر لا تطاق! فالامران، اذاً، مطلوبان لتحقيق البيت الكبير السعيد: ان تكون متأصلاً في أرضك ووطنك وشعبك ولغتك وانتماءاتك... تجسد ايمانك في واقعك الحياتي اليومي، وتنفتح على كل ما يوسّع ابعاد بيتك، وأفق حياتك، وبحر حبك، فتغدو ذاتك سكنى لله، والله لا حدّ له ولا حصر، وليس

غيباً ولا خيالاً أو حلماً، بل حقيقة حضور، حب سعادة تغمرك كليا. وهنيئا لمن ينعم بالملكوت، (الطوبى..)، برؤية حاضرة، بالعمانوئيل -اي بالله معنا- فنكون في فرح دائم، ورغم ثقل الاوضاع وصعاب الظروف وصلبان الحياة. فهي المشاركة بين الله والانسان، في اخوة شاملة، تجعل الصغير القليل عطاء، سرا للكل والكلية، اذ يتجلى اللامنظور في المنظور، وينكشف السر في أفعال واقوال، ويمنح السر الحياة، فيتم خلق ابداعي متجدد أبدا، كما حين تقدم وردة جميلة، هي صداقة، تدل على رمز، ويعني الرمز علاقة منتقاة للتعبير عن الحب. ويظل الرمز أبعد من المظاهر والاشكال المادية، لانه فعل يدفعنا نحو تفهم الآخر، والاستجابة الى نداءاته، ورغبات قلبه، بايمان وتأمل وحياة، حتى يغدو فعلا خلاقا، حياة مشاركة وعطاء، ويصبح بيتنا الصغير كبيرا، وعالمنا المحدود لامتناهيا، وعملنا اليومي البسيط ابداعات وروائع، وتتحول أجواء ذاتنا وواقعنا سماء.

آب-ايلول ١٩٨٨ — الأب يوسف حبي

شيوخ وشباب

"فأجابَهُ يسوع: الحَقَّ الحَقَّ أقولُ لَكَ: ما مِن أَحَدٍ يُمكِنُه أَن يَرى مَلَكوتَ اللهِ إلاَّ إذا وُلِدَ مِن عَلُ. قالَ لهُ نيقوديمُس: كَيفَ يُمكِنُ الإنسانَ أَن يُولَدَ وهوَ شَيخٌ كَبير؟ أَيَستَطيعُ أَن يَعودَ إلى بَطنِ أُمِّهِ ويُولَد؟ أَجابَ يسوع: الحَقَّ الحَقَّ أَقولُ لَكَ: ما مِن أَحَدٍ يُمكِنُه أَن يَدخُلَ مَلَكوتَ اللهِ إلاَّ إذا وُلِدَ مِنَ الماءِ والرُّوحِ. فَمَولودُ الجَسَدِ يَكونُ جَسَداً ومَولودُ الرُّوحِ يَكونُ روحاً. لا تَعْجَبْ مِن قَولي لَكَ: يَجِبُ علَيكُم أَن تُولَدوا مِن عَلُ".

(يوحنا ٣: ٣-٧)

لا اقرأ هذا النص الا وترتسم امامي لوحة رائعة رسمتها عبقرية وادي الرافدين منذ الاف السنين، تلك هي ملحمة كلكامش: اذ يموت انكيدو، يسعى كلكامش صديقه الحميم لايجاد ما يبعثه حيا، ولا يكفّ حتى يلقى النبات العجيب، مجدد الحياة والشباب. واذ يهمّ ان يعود الى المدينة والشعب، تحتال الحية، مرة اخرى، فتأكل النبات، ويُحرم الناس من نعمة التجدد والشباب، فيلجأوون الى حلّ اخر. ترى هل يلقونه؟ ويظل التساؤل الابدي يلاحقهم: كيف يمكن لرجل شيخ ان يولد ثانية..؟

نجيب مع المسيح بوضوح: من الممكن، بل يجب.. ولكن، كيف؟

ليست الشيخوخة في الاعمار والسنين، والا لكان كل متقدم في العمر شيخا هرما ينبغي تنحيته عن جميع مرافق الحياة والمسؤوليات؛ بينما نحن نعرف اشخاصا كثيرين أداروا عائلات ومجتمعات، مؤسسات وكنائس ودولا، وهم في سنّ متقدمة جدا. ولعل أشهر مثال عصري نجده في شخص البابا يوحنا الثالث والعشرين. فلقد أُنتُخب رئيساً أعلى للكنيسة الكاثوليكية الجامعة بعمر ٧٧ سنة، وعرف، خلال خمس سنوات لا غير، ان يجدد وجه الارض والكنيسة، فهل كان يومها شخص اكثر شبابا منه؟

قبله بكثير، كان ابراهيم، ابن تسع وتسعين سنة حين تجلى له الرب، وقطع معه عهد الحياة، فآمن، وحُسب له ذلك برّا (تكوين ١٢: ١٨؛ رومية ٤). لقد كان "شيخا"، اعني حكيما.. وعكس ذلك، هنالك شباب بعمر الورود، قد ذبل زهر حياتهم، والشيخوخة الهرمة في فكرهم وعقليتهم وتصرفاتهم! تصطدم بهم فتستغرب وتقول: ما نفع الشباب...؟

الشباب في الفكر والقلب وحرية الحياة، لا بالعمر والعضلات والكلام والفراغ.

انت شيخ! إذا لم تعد تستطيب الورد والمغامرة.

انت شاب! ان كنت مستعدا دوما لتقبّل المفاجآت، كالطبيعة اذ تستقبل الفصول، رغم تقلباتها ومتغيراتها، وتتجدد وأياها عروسا دائمة النضرة والشباب والجمال.

انت شيخ! حين يستحوذ عليك شيطان اليقين المعاند، فتظن مقتنعاً بانك بُتَّ تعرف كل شيء، وتدرك كل شيء، وفي مقدورك تشخيص الامور كلها، والحكم على كل حالة بالصواب أو بالخطأ، فلم تعد بحاجة الى مشورة احد، وتنفر من أية معارضة، فرأيك هو الوحيد الصائب، دائما!

وانت شاب! حين تلازمك قناعة بانك لم تبلغ ولن تبلغ الحقيقة بالشكل الكامل، لان الحق يغمرك، ولانك بحاجة الى انوار شمس تكشف لك أبعادا، أفقا وروائع لا حصر لها؛ ونصيبك، كانسان، بقدر ما تفتح ذاتك لهذا النور المتدفق دون انقطاع، وتشعر بمزيد الى الارتواء من معين الماء الحي، وتتمنى المزيد.

انت شيخ! حين تترعج من بكاء طفل، وقبلات شباب، وهبوب رياح، وهطول امطار، والانتقال الى بيت جديد، وربما الى عمل مختلف، ومسؤولية جديدة.

وانت شاب! اذ تغني دونما حرج، ولا تستهجن الفن الجديد، وتترك للآخرين حرية التصرف بروح المسؤولية الواعية، دون ان تعتبر نفسك الحَكَم والديّان.

يأتي نيقوديمس ليلاً! فهو يخشى ان تتضرر مصالحه، وتتزعزع مكانته، يخشى الضياء (يوحنا ٣: ١٩-٢٠). ولا يذكر الانجيل كيف غادر شيخنا في تلك الليلة بعد قضائه سهرة انجيلية مع يسوع؛ إلا ان ذكره من قبل الانجيلي عينه ساعة الدفن، ومشاركته يوسف الرامي في دفن جسد يسوع، يجعلنا نقول بلا تردد: انه آمن بيسوع. وهل من باب الصدف ان يشارك في دفن (الجسد)؟ أي في المرحلة الوسط بين حياة الرسل والتلاميذ، في وضعهم المتذبذب وهزيمتهم حيال معثرة الصليب، ووضعهم الجديد اثر الايمان بالقيامة وانطلاقهم رسلاً وشهوداً؟ لا أظن. فقد كان بحاجة الى خلع انسانه العتيق، ليلبس الانسان الجديد المخلوق على صورة الله. كان المسيح، منذ تلك الليلة الليلاء، قد زرع في ذاته بذرة ما لبثت ان لاقت أرضا طيبة وأجواء صحيحة، فنمت، رغم التخوف والتلهي والتحجر والاشواك؛

واذ طالت مدة الانتظار، لم ييأس الشيخ نيقوديمس، ولم يقل: لم يعد ينفعني بعد شيء.. أو: لقد فات الاوان! انه استفاد من الانتظار، وكانت شحنة اللقاء بيسوع قد زودته طاقة كبيرة، فخرج من لدن يسوع شابا، مع شيء من الحذر، هو الشيخ، فكان بحاجة الى "دفعة"، الى علامة، الى آية... وحدثت القيامة، فأثمرت حياته، واعطى الواحد ثلاثين وستين ومائة (كما في مثل الزارع).

كم منا لو قيل له الان: انت مدعو الى ان تغير عملك، بيتك، أذواقك، أفكارك، قناعاتك، حياتك... يكون مستعدا لقبول الجديد، المفاجيء، المجهول؟ شيخوختك وشبابك متوقفان على جوابك، فادخل الى اعماقك، وأجب بصدق.

أمنيتي، يا رب، في هذه اللحظات، ودوماً:

ان اكون في مهب الريح، ريح روحك. ان لا أخشى الماء، والنور، والنار. ان احمل في ذاتي ورقة بيضاء تكتب عليها ما تشاء. وان يكون قلبي مُشرَّعا لكل انسان، بحيث يمكنه ان يصبح صديقا لي ولأصدقائي. وان يكون فكري شاشة تلتقط كل الذبذبات وتؤشرها لتتفاعل في ذاتي. وان تكون حياتي طبيعة انسانية لا تجمد ولا تتقلب وفق أهواء ومصالح، بل وفق مشيئتك. وان يكون واقعي الوجودي قيامة متجددة، ميلادا دائما، بشرى خالدة.

أمنية أخيرة، يا رب: ان لا تدب في ذاتي رياح الشيخوخة. أن اكون شابا على الدوام.

من أجل.. نماء متكامل

"ثُمَّ نَزلَ مَعَهما، وعادَ إلى النَّاصِرَة، وكانَ طائِعاً لَهُما، وكانَت أُمُّه تَحفَظُ تِلكَ الأُمورَ كُلَّها في قَلبِها. وكانَ يسوعُ يَتسامى في الحِكمَةِ والقامَةِ والحُظْوَةِ عِندَ اللهِ والنَّاس".

(لوقا ٢: ٥١-٥٢)

ان النمو، شأن الموت، قانون من قوانين الحياة الاساسية وهو، كأي قانون آخر في هذا العالم، يخضع لعامل الزمن. لذا فهو يأتي بصورة تدريجية وبطيئة الى ان يبلغ ذروته. والى جانب عامل الزمن لا بدّ من توفر شروط معينة تساعد على النمو، كالمناخ والشمس والتربة، اذ من دونها لا يتوقف الكائن الحي عن النمو حسب، وانما يموت موتاً بطيئاً. ويخضع لقانون النمو هذا كل كائن حي، سواء كان نباتاً ام حيوانا ام انسانا.

ولما كان المسيح انساناً حقاً، خضع هو الاخر لهذا النمو، فنما جسدياً ككل الاطفال. بيد ان الصعوبة التي واجهها المسيحيون قديماً هي في القبول بنمو المسيح في الحكمة، اي في العقل والثقافة، اذ كيف يكون المسيح صورة الله وابن الله ولا يكون الاكتمال حالاً؟ ترى كيف يمكن لذاك الذي يمنح الاخرين كل النعمة ان ينمو هو نفسه في الحكمة؟ هذه الاسئلة تطرح معضلة لاهوتية حقيقية لم نشأ الاجابة عليها، وانما توخينا الاشارة اليها بما اننا في موقف لا يتيح لنا ذلك. فباب "من وحي الانجيل" تأمل في سر وأبعاد الانجيل، لا درس لاهوتي. ولكن لا بد لنا من القول بان المسيح لم يَنْمُ في جسده وحسب، بل في عقله وثقافته ايضا. فمع تقدمه في السن ازداد شعوره وتعمق وعيه الذاتي وادراكه، بل معاناته ايضا، وازدادت ثقافته اتساعاً. وقد ساهم اهله في تنشئته هذه، وهكذا، لم تحبل به مريم ولم تلده حسب، بل اعطته الحنان مع الحليب، ومع الحليب علمته

اللغة، وربّته على الايمان بالله واحد وعلى محبته، وساعدته على ان يتحذر في شعب الله. وهكذا صار يسوع عضواً في شعب معين. ولقد ساهم يوسف ايضا مباشرة في تعليم الطفل كلمات الله (تثنية الاشتراع ٦:٢١)، وروى له العجائب التي صنعها الله لشعبه، ولقّنه الصلاة التي كانت تتلى كل صباح وقبل الطعام.. ككل مؤمن تقي... ومن اجل الاستزادة من الثقافة الكتابية، لربما تردد الى مجمع الناصرة حيث تعلم القراءة في كتب الشريعة والانبياء والمزامير (انظر لوقا ٢٤: ٤٤).

ولكن يسوع لم يكتف بمعلومات الطفولة، بل واصل تثقيفه الذاتي من خلال قراءة العهد القديم وتفسير معانيه ونبؤاته. وهكذا نما حب الله فيه، ومما يدل على قولنا هذا قراءته وتفسيره لنص سفر اشعيا النبي يوم دخل المجمع يوم السبت ليصلي كعادته (لوقا ٤: ١٦).

ان ما يصح بالنسبة الى يسوع في باب النمو والتقدم، يصح كذلك بالنسبة الى الافراد والجماعات والدول اليوم.

فمن حق الانسان، كل انسان، بل من واجبه ان يسعى، ليس فقط الى انماء ذاته، بل الى انماء الاخرين ايضاً، بما فيه وفيهم من طاقات وقدرات وامكانيات ومواهب. وهذا المشروع مسؤولية كبيرة، به يحقق الانسان ذاته ويساعد غيره على تحقيق ذواتهم، فيصير هو وهم "عظماء" امام الله.

ولكن هذا النمو لا ينبغي ان يقتصر على بُعد او جانب دون آخر، وانما يجب ان يشمل كل الابعاد وكل الجوانب التي تكوّن شخصية الانسان: الدينية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية. بيد ان مصيبة الانسان المعاصر هي انه ينّمي بُعداً او جانباً واحداً، تاركاً الابعاد والجوانب الاخرى، معتقداً بأن إنماء بُعد او جانب معين، إن هو إلا إنماء الانسان كله، كأن يكون متفوقاً علمياً ولا يكترث لفقره الروحي او هزاله الديني. وهذا هو عين الخطأ! او انه قد ينمي احياناً جانباً على حساب جوانب اخرى، كالاهتمام بالجانب الاقتصادي مثلاً على حساب الجانب الانساني والروحي، ولربما على حساب كرامته نفسها.

فالمطلوب، اذن، هو إنماء الانسان، كل انسان وكل الانسان، في كل ابعاده وجوانبه، وصولاً الى الانسان المتكامل. فطالما لم تَنمُ كل الجوانب والابعاد في الانسان، كان الانسان ناقصاً ومُنتَقَصاً.

ومن اجل تحقيق هذا الانماء، لا بد للمرء من القيام بجهود متواصلة وبذل مساع مستمرة واتخاذ وسائل وسبل عديدة ومختلفة، كالقراءة والعمل والاحتكاك واللقاء بالاخرين، ولاسيما الجيدين منهم فكرياً وانسانياً ومسيحياً.

ولئن كانت مهمة الانماء هذه شأن الافراد، فهي من شأن الدول والجماعات ايضا. فعلى الدول، كما على الجماعات -ولاسيما الدول النامية- ان تنمي كل جوانب وجودها الوطني الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، والزراعية، والصناعية. وتحقيقاً لهذا الغـــرض، عليها ان تعمل على اقامة بنى اقتصادية وزراعية وصناعية وعلمية قوية ومتينة، وصـــولاً الى الاكتفاء الذاتي.

ومما لا شك فيه ان للمسيحيين دوراً هاماً واساسياً ينبغي ان يضطلعوا به في هـــذا الانماء، من خلال مشاركتهم الفعلية والفعالة فيه، وبعملهم الدؤوب المثابر والمخلص، وبما يزخرون به من طاقات وامكانات وما يمتلكون من وسائل وخبرات وتقنيات، يضعونها في خدمة هذا الانماء، بعيداً عن الانانية والطمع والجشع والاستغلال والنفعية الضيقة.

وهكذا سنشهد عالمنا ينمو بانسجام وتناغم ويزداد تكاملاً.

لنوسع افاقنا

"ثُمَّ خَرَجَ يسوعُ مِن هُناكَ وذهَبَ إلى نَواحي صُورَ وصَيدا. وإذا امرأَةٌ كَنعانيَّةٌ خارِجَةٌ مِن تِلكَ البِلادِ تَصيح: رُحْماكَ يا ربّ! يا ابنَ داود، إنَّ ابنَتي يَتَخَبَّطُها الشَّيطانُ تَخَبُّطاً شديداً. فلَم يُجِبْها بِكَلِمَة. فَدنا تَلاميذُه يَتَوسَّلونَ إليهِ فقالوا: إصرِفْها، فإنَّها تَتبَعُنا بصياحِها. فأَجاب: لَم أُرسَلْ إلاَّ إلى الخِرافِ الضَّالَّةِ مِن بَيتِ إسرائيل. ولَكِنَّها جاءَت فسَجدَت لَه وقالت: أَغِثْني يا رَبّ! فأَجابَها: لا يَحسُنُ أَن يُؤخَذَ خُبزُ البَنينَ فيُلْقى إلى صِغارِ الكِلاب. فقالت: نَعم، يا رَبّ! فصِغارُ الكِلابِ نَفسُها تأكُلُ مِنَ الفُتاتِ الَّذي يَتساقَطُ عَن مَوائِدِ أَصحابِها. فأَجابَها يسوع: ما أَعظَمَ إيمانَكِ أَيَّتُها المَرأَة، فَلْيَكُنْ لَكِ ما تُريدين. فشُفِيَتِ ابنَتُها في تِلكَ السَّاعة".

(متى ١٥: ٢١-٢٨)

يحكي هذا النص خبر زيارة قام بها يسوع الى ارض الكنعانيين جنوب لبنان -وكان الكنعانيون وثنيين؛ اذن، انجاسا في نظر اليهود، لا تجوز مخالطتهم فيتعرضون للنجاسة نفسها.

ولكن يسوع يرفض هذه العقلية، بتحطيمه تلك التقاليد والقيود والحواجز التي يضعها البشر في ما بينهم، كما حطم تقاليد اخرى تخص السبت والغسل قبل تناول الطعام وغيرها.

ومما يسترعي الاهتمام في هذه الزيارة هو، ولا شك، دخول المسيح في حوار مع امراة كنعانية وفي الشارع العام، كما كان قد فعل مع امرأة اخرى، هي السامرية على بئر يعقوب. ذلك ان اليهودي لم يكن يخاطب المرأة علنا في الشارع، حتى إن كانت زوجته،

او في الفندق حتى إن كانت اخته او ابنته، تفاديا لاقوال الناس. وعلى اثر هذا الحوار يشفي يسوع ابنة هذه المرأة الكنعانية الوثنية الغريبة، جوابا على ايمانها: "يا امرأة عظيم ايمانك".

ان هذا الحدث، إن دل على شيء، فانما يدل على مدى سعة افق المسيح في القلب والفكر والعمل. فقلبه كان يتسع لجميع الناس، للرجال والنساء، للشباب والاطفال، سواء كانوا يهوداً ام سامريين ام كنعانيين. ولم يكتف يسوع بهذا، بل علم تلاميذه هذه الشمولية في المحبة، باقواله وامثاله العديدة كمثل السامري الصالح. وما هذا المثل الا توضيح لقوله حول محبة الاعداء، وهو لوحده يكفي للدلالة على مدى شمولية المسيح، حتى لو لم يكن قد قال شيئا اخر. كما كان فكره منفتحا شاملا لا مجال فيه للانغلاق والتعصب والتزمت والتطرف. فالجميع في نظر المسيح ابناء اب واحد، وبالتالي اخوة. فلا فرق بين هذا وذاك: لا فرق بين يهودي وسامري، بين رجل وامرأة... الجميع متساوون في الكرامة. واخيرا كان يسوع يمتلك سعة افق في العمل، اذ اجترح معجزاته وغفر الخطايا للرجال والنساء، للغرباء ولأهل البيت على السواء، من دون تمييز او تفرقة. وبذلك حررهم واعاد اليهم صحة الجسد والروح.

فلا ينبغي، والحالة هذه، الا ان تكون للمسيحي عين سعة افق المسيح، في القلب والفكر والعمل. وهكذا تنفي محبته للناس مشاعر الحقد والبغضاء والكراهية والحسد والغيرة، كما انها لا تقتصر على اهله او جيرانه او اصدقائه او اهل عشيرته او بلدته او وطنه، وانما تشمل الجميع بل حتى المضطهدين والاعداء. اذ على المسيحي، وهو ابن الله، ان يحب على غرار حب الله الذي يُطلع شمسه على الاشرار والاخيار، ويترل غيثه على الابرار والفجار (متى ٥: ٤٥). من هنا يمكننا فهم قول المسيح حول محبة الاعداء، هذا القول الذي نعتبره صعبا!

ان هذه المحبة يجب ان تكون حاضرة في كل افكارنا واقوالنا وافعالنا ونشاطاتنا ومشاريعنا، والا لكانت عديمة المعنى والفائدة. كما ينبغي ان تكون محبتنا فعلية وفعالة، وذلك لان المحبة التي تبقى رهينة القلب لا تكفي، وان كانت حقيقية وصادقة؛ كما انه لا فائدة من محبة اللسان، وانما المحبة بالفعل والعمل المؤثر، تلك المحبة التي تُترجَم الى افعال واعمال وممارسات من اجل خير الانسان وسعادته. وهذا ما نجده متجسدا فعلا في حياة الكنيسة حيث سعت وما تزال تسعى الى عيش هذه المحبة عبر العديد من منظماتها ومؤسساتها الانسانية، سواء كان على الصعيد الرسمي ام صعيد الافراد، ولنا امثلة معاصرة عن ذلك كالام تريزا.

وكما ينبغي ان يكون المسيحي واسعا في فكره، فكذلك في عقله؛ فينظر الى الاخرين نظرته الى اخوة، نظرة متسمة بالاحترام والثقة والتقدير، بعيدا عن روح التعالي

والاحتقار او الاستصغار والازدراء والاستغلال. ان هذه النظرة هي من صلب فكر المسيح بحيث لا يمكن الحياد عنها او تبديلها. ومما يشجعنا في هذا الطريق هو، ولا شك، المجمع المسكوني، بما حمله من نظرة تقديرية الى كل الاديان والمذاهب، وكذلك الزيارات البابوية واللقاءات العديدة مع اصحاب الاديان والمذاهب الاخرى... هذه الزيارات واللقاءات التي تشير الى مدى سعة افق فكر تلاميذ يسوع. واخيرا يكون عمل المسيحي موجها الى جميع الناس، ولاسيما الفقراء والمحتاجين، من اجل النهوض والارتقاء بهم، ومن اجل تطويرهم نحو الافضل، بغضّ النظر عن آرائهم او مواقفهم او دينهم او قوميتهم اوطائفتهم اوجنسهم او لونهم.

اما اذا لم يمتلك المسيحي مثل هذه السعة في الافق، فهذا يعني نقصا خطيرا في مقوماته كمسيحي، اذ لا ينبغي له، بل لا يحق له ان يكون حاقداً، حسوداً، غيوراً، او متعالياً.

وتحقيقاً لذلك، عليه ان يلتقي بالمسيح ويحتكّ به مباشرة، من خلال الانجيل، لكيما يعرفه معرفة جيدة ويفهمه فهما حقيقياً وعميقاً. فمتى ما عرف المسيحي المسيح حقا، عرف ذاته، اذ لا يمكنه ان يكون مسيحياً حقيقياً ما لم يتعرف على المسيح، بل نذهب إلى ابعد فنقول: ما لم يتعرف على المسيح الحقيقي. كما عليه ان يواصل تثقيفه الديني عبر قراءة الكتب الجيدة والمحاضرات الجادة والدورات اللاهوتية التي تقام هنا وهناك، وان يلتقي بالجماعة المسيحية ولاسيما باولئك الذين يمتلكون افاقا رحبة وواسعة، وبوسعهم ان يساعدوه على مثل هذا التوسع في الافاق. واخيراً عليه ان يوسع افاقه في ممارسة واعماله ونشاطاته بحيث يُشرك فيها غيره، فلا تقتصر على اشخاص معينين او تنحصر فيهم، سواء من حيث تحمل المسؤولية معه ام من حيث قبول مساعدة الاخرين او تقديمها لهم.

هذا التفوق المزعوم

"وضرَبَ أيضاً هذا المَثَلَ لِقَومٍ كانوا مُتَيَقِّنينَ أنَّهم أبرار، ويَحتَقِرونَ سائرَ النَّاس: صَعِدَ رَجُلانِ إلى الهَيكَلِ لِيُصَلِّيا، أحَدُهما فَرِّيسيٌّ والآخَرُ عشّار. فانتَصَبَ الفَرِّيسيُّ قائماً يُصَلِّي فيَقولُ في نَفْسِه: اللّهُمَّ، شُكراً لَكَ لأنِّي لَستُ كَسائِرِ النَّاسِ السَّرّاقينَ الظّالِمينَ الفاسِقين، ولا مِثْلَ هذا العشّار. إنِّي أصومُ مَرَّتَيْنِ في الأُسبوع، وأُؤَدِّي عُشْرَ كُلِّ ما أقتَني. أمَّا العشّار فوَقَفَ بَعيداً لا يُريدُ ولا أن يَرفَعَ عَينَيهِ نحوَ السَّماء، بل كانَ يَقرَعُ صَدرَه ويقول: اللّهُمَّ ارْحَمْني أنا الخاطئ! أقولُ لَكم إنَّ هذا نَزَلَ إلى بَيتِه مَبروراً وأمَّا ذاكَ فلا. فكُلُّ مَن رَفَعَ نَفْسَه وُضِع، ومَن وَضَعَ نَفْسَهُ رُفِع".

(لوقا ١٨: ٩-١٤)

اننا نلاحظ، ولا شك، في هذا النص من الانجيل ان صلاة الفريسي لا تتضمن اي طلب او التماس، وكأنما الرجل ليس بحاجة الى اي شيء من الله، حتى ولا الى محبته ورحمته وغفرانه! فصلاته، إن هي الا محض امتنان لله و ارتياح من كونه قد خلقه تعالى مختلفاً عن الآخرين وافضل منهم! أوَليس لديه اسباب اخرى كثيرة لاداء الشكر لله، غير ارتكابه الخطايا والمعاصي، وصومه مرتين في الاسبوع؟ أفلا يُعَدُّ هذا الحرمان من الاكل والشرب طيلة النهار -ولاسيما ايام الصيف الحارة- اكبر تضحية يقوم بها، مضافة الى تضحيته بأمواله وخيراته؟ بيد ان خاتمة القصة تدلنا على عكس ما ذهب اليه. فهو لا افضل ولا احسن من ذلك العشار البائس الذي يرتمي، خَجِلاً، عند اقدام رحمة الله، وهو يفكر كيف يمكنه ان يعيد الاموال المختلسة الى اصحابها. ولكنه عاد الى بيته مبرراً، لانه تكلم بصدق وثقة، واما ذاك فلا..

فأين، اذن، تفوق الفريسي على العشار؟ انه تفوق مزعوم!

هذه الفكرة، فكرة التفوق، قد حملها وما يزال يحملها افراد داخل جماعة او شعب معين لاعتبارات مختلفة، دينية او اجتماعية او اقتصادية او شخصية، كالتقوى او الحسب

او النسَب او الجاه أو المؤهلات الشخصية. كما ان جماعات وشعوباً قد حملتها وما زالت تحملها الى يومنا هذا: فالشعب الروماني، على سبيل المثال، كان بحسب نفسه متفوقاً على سائر الشعوب؛ لذا فقد كان يعامل الشعب اليهودي وسائر الشعوب المستعمَرة بالازدراء والامتهان وعدم الاكتراث. وبالمقابل، كان الشعب اليهودي يعتبر ذاته متفوقاً على الشعوب الاخرى: أوَليس هو وحده عرف الاله الواحد خالق السماء والارض من دون سائر الشعوب في العالم؟ أوَليس هو شعب الله المختار الذي له الوعود والعهود؟

وهذا هو الشأن ايضاً اليوم: فثمة جماعات وشعوب تعتبر ذاتها افضل من غيرها وتتفوق عليها، الى حد ازدراء او احتقار الجماعات والشعوب الاخرى، كما كان الامر مع النازية الهتلرية. وهكذا ايضاً يحسب الابيض ذاته افضل من الاسود، وابن المدينة بالنسبة الى ابن القرية، وهذه الجماعة من تلك..

انا أعتقد بأن ليس ثمة شعب او جماعة او فرد احسن وافضل من شعب او جماعة او فرد آخر، من حيث التعبير عن ارادة الله، وكأن هناك اختياراً قدرياً مَقضيًّا عنْد الله لهذا الشعب دون ذاك! اذ كيف يفرق الله بين الناس والشعوب والجماعات، وهو خالقهم وابوهم جميعاً، فيعطي لهذا الكثير والآخر لا شيء؟! فالصحيح هو ان الله يمنح عطاياه لكل الشعوب والجماعات والافراد، من دون تمييز او تفرقة، تاركاً لهم الحرية في استغلال او عدم استغلال هذه الطاقات والمواهب.

ولكن نشوء التفاوت يتأتى اولاً من درجة وعي هذا الشعب او هذه الجماعة او هذا الفرد بكرامته وحريته واستقلاله ومواهبه وطاقاته وقدراته وامكانياته، ومدى استغلالها استغلالاً جيداً، بعد ان يكون قد اكتشفها او ساعدهُ غيره على اكتشافها. وكذلك يتأتى من مدى ادائه العمل بدقة وضبط واخلاص وامانة وجدّ ومثابرة. فثمة شعوب نكتشف لديها حب العمل ومراعاة المصلحة العامة، بينما نلاحظ عناصر التكاسل والاتكالية والمصلحة الذاتية الضيقة لدى غيرها، فلا تستغل عامل الزمن بصورة صحيحة. وهذا امر يدخل في باب التركيبة التاريخية والاجتماعية والثقافية لشعب او بلد او فرد ما. فالقضية قضية عقلية وتربية، وليس قضية اختيار رباني مقضي او تفوق عرقي او ديني عنصري. فالتفاوت هو حاصل البيئة التي يعيش فيها الانسان او الجماعة او الشعب، هذه البيئة التي تلعب دوراً كبيراً في بناء حضارة معينة لها سماتها الخاصة وديناميكيتها الداخلية.

خارجاً عن هذا التصور "البيئي"، لا وجود للتفوق، ولا مبرر للعنصرية بكل اشكالها واوجهها. انها حالة ندّعيها نحن البشر لاسباب ودوافع تتعلق بنا، كالتسلط والاستغلال وتبريرهما. فلا بد، اذن، من محاربتها والقضاء عليها، بدءاً منا وفينا، ومن ثم في الاخرين، وذلك انطلاقاً من فهم الانسان فهماً حقيقياً صحيحاً، الانسان الذي اذا ما استغل مواهبه وقدراته وطاقاته استغلالاً حسناً ومتكافئاً وطموحاً كان عظيماً ومتفوقاً وخلاقاً ومبدعاً. وما من فرد او جماعة او شعب يخلو من المواهب والطاقات والامكانيات. فالادعاء بالتفوق ادعاء فارغ، ولا تفوق وراثياً او مُنزلاً مقضياً الا كان مزعوماً.

نيسان ١٩٨٩ — الأب يوحنا عيسى

هل الفقر من الله ام...

"كانَ رَجُلٌ غَنِيٌّ يَلبَسُ الأُرجُوانَ والكَتَّانَ النَّاعِمَ، ويَتَنَعَّمُ كُلَّ يَومٍ تَنَعُّماً فاخِراً. وكانَ رَجُلٌ فَقيرٌ اسمُه لَعازَر مُلْقىً عِندَ بابِه قد غطَّتِ القُروحُ جِسْمَه. وكانَ يَشتَهي أَن يَشبَعَ مِن فُتاتِ مائِدَةِ الغَنيّ. غَيرَ أَنَّ الكِلابَ كانت تأتي فتَلحَسُ قُروحَه".

(لوقا ١٦: ١٩-٢١)

في كل زمان ومكان ثمة اناس فقراء، واخرون اغنياء؛ واما ما يميز عصرنا عن سائر العصور، فهو وجود دول فقيرة واخرى غنية. غير ان هذه الفئة الاخيرة من الناس، بل من الدول نفسها، غالبا ما لا تغتني الا على حساب الفقراء وعلى اكتافهم.

وهنا لا بد لنا من الاشارة الى ان مفاهيم الغنى والفقر تقتصر لدى الكثيرين على الجانب المادي وحسب، بينما لا يشكل الجانب المادي سوى وجه واحد من حياة الانسان، اذ ثمة جوانب اخرى قد يكون الفقراء فيها اوفر غنى من الاغنياء بكثير!

وما ان نتساءل عن اصل الفقر والغنى حتى يأتينا الجواب جاهزاً وفورياً: انه الله الذي يجعل اناساً فقراء وغيرهم اغنياء! وهكذا يكون الفقر كالغنى قدراً مقضياً من الله.. فليبق الفقراء فقراء، والاغنياء اغنياء! لا احتجاج ولا اعتراض!

من الواضح ان، وراء هذا الجواب الذي يكرس حالة الغنى، مفهوما يتعلق بهذه النظرة الدينية التي تربط كل شيء بالله وبارادته مباشرة، خيراً ام شراً. وهكذا، كل هذه الحوادث والمصائب والكوارث والزلازل والامراض والبلايا التي تنهال على البشر تكون من ارادة الله! اذا كانت هذه النظرة هي السائدة في كل التاريخ البشري الى يومنا هذا، فهي مرفوضة من منطلق النظرة العلمية التي تأخذ بالقوانين الطبيعية التي وضعها الله في الكون، وبالاسباب التي بموجبها تحدث الاشياء، ولذلك فهي تحتفظ بنوع من الاستقلالية.

كما ان هذه النظرة "الدينية" المشوهة مرفوضة بسبب المفهوم الذي كشفه لنا يسوع المسيح عن الله. فالهنا ليس إلهاً حارساً او حامياً للمدينة، كالالهة القومية او المحلية القديمة، وانما هو اب لجميع الناس، يريدهم كلهم سعداء ومتمتعين بالخيرات التي انعم بها عليهم. يقول المسيح: "فاذا كنتم انتم الاشرار تحسنون العطاء لأبنائكم، فما احرى اباكم الذي في السماوات بان يحسن العطاء للذين يسألونه" (متى ٧: ١١).

فالفقر، اذن، ليس تطبيقاً لقرار أُتخذ فوق، في السماء، وانما ينبع من ههنا، من هذه الارض، وذلك لاسباب عديدة ومختلفة تتعلق اساساً بالانسان وبالطبيعة وبتعامل البشر مع بعضهم البعض.

فقد ينتج الفقر عن كسل الانسان او عدم استثمار موارده بشكل صحيح، او بسبب ظلم واستلاب الانسان لاخيه الانسان. وقد يأتي من محدودية الموارد الطبيعية او الاراضي المستثمرة او من جراء الآفات التي تفتك بالزروع. وغالباً ما تعمل الدول الغنية على استبقاء حالة الفقر لدى الدول الفقيرة، وزيادة الهوة التي تفصل بينها، بشتى الاساليب الاقتصادية والسياسية وبفوائد القروض غير المتكافئة. ولما كان الفقر مصدر تعاسة وقلق بالنسبة الى الفرد او الجماعة، اذ انه يعني الحرمان من ابسط ضروريات الحياة، فلا بد من التخلص منه. والتخلص منه يعني التخلص من التعاسة والقلق والحرمان واعطاء الانسان او الشعب كرامته وسيادته وحريته واستقلاليته، وبكلمة واحدة اعطاءه انسانيته: وذلك بالقيام بجهود فردية وجماعية، محلية ودولية، ووضع سياسات وبرامج واضحة ولازمة، انطلاقاً من مبدأ التضامن الانساني والدولي. ليس فقط بتقديم تبرعات وصدقات، معونات او ديون -اذ قد تعني هذه مزيداً من الاهانة والاستلاب والحرمان، ولاسيما اذا لم تُقدَّم بنية سليمة وصافية- وانما خاصة بتوعية الانسان بذاته، واعني بذلك الوعي بكرامته وحريته وقدراته وامكاناته ومواهبه، وبالتالي اعطاؤه الثقة بنفسه. والاهم من كل هذا بتربيته على احترام اخيه الانسان، فلا يظلمه او يستغله او يستعبده او يستلب حقه في الحياة والكرامة والسعادة والاستقلال وحقه في استثمار موارد عيشه. وهذه التربية هي من شأن الدولة، كما هي من شأن الاسرة والمجتمع على حد سواء. وكذلك بتوفير التقنية الحديثة له واستخدامها من الناحية الزراعية والصناعية. واخيراً بإقامة بنية زراعية وصناعية قوية وحديثة، للنهوض بحياة هذه الاوساط او هذا البلد او هذا الشعب.

الاغنياء والفقراء

"فقالَ في نفسِه: ماذا أَعمَل؟ فلَيسَ لي ما أَخزُنُ فيه غِلالي. ثُمَّ قال: أَعمَلُ هذا: أَهدِمُ أَهرائي وأَبْني أَكبرَ مِنها، فأَخزُنُ فيها جَميعَ قَمْحي وأَرْزاقي. وأَقولُ لِنَفْسي: يا نَفْس، لَكِ أَرزاقٌ وافِرَة تَكفيكِ مَؤُونَةَ سِنينَ كَثيرة، فَاستَريحي وكُلي واشرَبي وتَنَعَّمي. فقالَ لَه اللهُ: يا غَبيّ، في هذهِ اللَّيلَةِ تُستَرَدُّ نَفْسُك مِنكَ، فلِمَن يكونُ ما أَعدَدتَه؟ فهكذا يَكونُ مصيرُ مَن يَكنِزُ لِنَفْسِهِ ولا يَغتَني عِندَ اللهِ".

(لوقا ١٢: ١٧-٢١)

يقدم لنا هذا النص الانجيلي صورة متضاربة عن هذا الرجل: انه غني وفقير معـاً، او لنقل انه "غني فقير".

اجل، انه رجل غني، ويسوع نفسه يسميه كذلك، وما زاده غنى هو كثرة غلاتـه هذا العام، الامر الذي سبب له مشكلة مستعصية، اذ لم يكن لديه موضع يخزن فيه غلاله. ولكنه يجد حلاً وهو ان يهدم اهراءه ويبني اوسع منها. ولكن الرجل غني احمق، بحسـب مفهوم الكتاب المقدس، اي انه ناكر لله عملياً، ذلك لان الله غائب تماماً عن افق تفكـيره وحياته. ولذا فهو يعيش وكأن الله لا وجود له.

وفي الوقت الذي يبدو هذا الرجل غنياً، فهو فقير ايضا. انه فقير بالله، اي بالاعمال الصالحة تجاه الفقراء والمساكين كما جاء في الآية ٣٣: "بيعوا املاككم وتصدقوا بثمنـها واجعلوا لكم اكياساً لا تبلى وكنزاً في السماء لا ينفد".

وكما في زمان يسوع، كذلك في كل زمان وفي زماننا هذا بالذات، ثمة "أغنيـاء فقراء"، وقد يكون هؤلاء من الاناس المقدّرين في المجتمع وحتى في الكنيسة، ولا سبب آخر للاحترام الذي يتلقونه سوى لانهم اغنياء. ولكن، لكي نكون منصفين ولئلا نسوّد اللوحة،

نقول بان تلك ليست قاعدة، اذ هناك اغنياء على اكثر من صعيد المال: في الايمان كما في السخاء والعطاء والمحبة والثقافة. اجل انهم اغنياء بالمال، ولكنهم فقراء بالاعمال والقلب والايمان والفكر. مثل هؤلاء الاغنياء قد يكونون اناساً انانيين لا يحبون إلا ذواتهم، ولا يفكرون إلا بأنفسهم ومصالحهم وبكسب مزيد من المال لتعزيز مواقعهم ومواقفهم ومراكزهم وتأثيرهم في المجتمع. ولذا لا يهمهم امر الاخرين، واقل اهتمامهم الفقراء والمساكين. فلا غرابة في ألا يقاسموهم ما عليهم من حق. ألا يصح القول ايضا بالنسبة الى الدول الغنية التي لا تقاسم الدول الفقيرة خبراتها، بل تعمل على نهب ثرواتها ايضا؟

اما مردّ هذا الفقر في الاعمال فيعود، ولا شك، الى فقر آخر الا وهو فقر القلب. فهؤلاء الاغنياء لا يمتلكون قلبا بشرياً. وبالتالي لا يحملون المحبة في قلوبهم، هذه المحبة التي إنْ هي إلا الانفتاح على الاخرين ومقاسمتهم حياتهم. وقد لا يمتلك هؤلاء مثل هذا القلب حتى تجاه أسرهم نفسها، فتراهم يعيشون في قصور فخمة، بينما يبقى تعاملهم مع بعضهم البعض مبنيا على أسس ومقاييس مادية باردة لا قلب فيها ولا روح.

ويرافق الفقر في الاعمال والقلب فقر في الايمان، عندما يستحوذ المال على اهتمامات القلب، فيبقى مثل هؤلاء لا ابالين في تجذير الايمان وتأصيله وتعميقه، حيث ان امر الايمان لديهم شأن ثانوي، وكذلك امر الله، اعتقاداً منهم بان الغني سيد جميع حاجاتهم ويلبي كل رغباتهم، لذا فهم يعيشون وكأن الله لا شأن له بهم. انهم ناكرون لله عمليا، وهذا ما نسميه بالالحاد العملي. وهذا النوع من الالحاد موجود في كل زمان ومكان. أوَلا يهتف المزمر قائلا: "قال الجاهل في قلبه ليس إله" (مزمور ٥٢). اخيراً، يعاني هؤلاء من فقر فكري ليس لعدم سعيهم الى إثراء انفسهم عبر القراءة وقنوات الثقافة والمعرفة الاخرى.

وعلى العكس من هؤلاء "الاغنياء الفقراء"، ثمة "فقراء اغنياء"، هم الفقراء في المال والاغنياء في الايمان والقلب والفكر.

هؤلاء اغنياء في الايمان حين يسعون الى تنمية هذه البذرة الصغيرة وتغذيتها لتحيا وتكبر وتنضج. وهم اغنياء في القلب اي في المحبة والطيبة والاستقامة والبساطة والحنان والرحمة والشفقة، هذه المشاعر الانسانية التي تجيش بها قلوبهم والتي يعبرون عنها بعفوية وبساطة. وهم اغنياء في الفكر، حين يسعون الى اثراء ذواتهم بحقائق ومفاهيم وافكار توسع آفاق مداركهم باستمرار. غير اننا اذ نستشهد بهؤلاء الفقراء، لا نبغي تكريس حالتهم هذه، وانما نشخّص حالة فقط. واما عدم قبولنا لوضعهم اي رفضنا الفقر المادي كحالة اجتماعية اقتصادية، فينبع من كون الله سبحانه لا يريد الناس فقراء، لا في المال ولا في الايمان ولا في القلب او الفكر، وانما اغنياء في كل الجوانب وفي كل نواحي الحياة. شرط ان يعرف المرء ان يحافظ على قلبه سليماً صافياً حراً.

فالحالة الفضلى التي يريدها الله هي ان نكون اغنياء بالايمان والقلب والفكر والانسانية، قبل كل شيء وفوق كل شيء، وأن لا يمنع الغنى المادي من ذلك، لنتمكن من إغناء الاخرين ايضا. وبقدر ما نغني انفسنا، بقدر ذلك يمكننا اغناء الاخرين. أوَيمكن اعطاء ما لا نملك؟ ومن اجل الوصول الى ذلك، لا بد لنا من استخدام كل السبل والوسائل المتاحة والممكنة، من اعمال وممارسات. وفي سبيل الوصول الى الغنى الروحي والايماني، علينا بقراءة الكتب ولاسيما الكتب الدينية وفي مقدمتها الكتاب المقدس والانجيل خاصة، وممارسة حياة الصلاة والشهادة.

فهل انت غني بالمال؟ اشكر الله ولا تنساه في ذلك، وأعطِ للفقراء والمحتاجين او لمشاريع حيوية كالتعليم المسيحي او طبع كتب مسيحية. هل انت غني بالايمان؟ شارك غيرك قناعتك واحمل بشرى ايمانك حيث كنت. هل انت غني في قلبك؟ هب لاخوتك من محبتك وحنانك وطيبتك وتضامنك. هل انت غني في الفكر؟ أعط للآخرين من عصارة ما حباك الله به.

القلب البشري والقلب الحجري

"أَوَما قَرَأتُم في الشَّريعَةِ أَنَّ الكَهَنَةَ في السَّبتِ يَستَبيحونَ حُرمَةَ السَّبْتِ في الهَيكَلِ ولا ذَنْبَ عَلَيهِم؟ فَأَقولُ لَكُم إِنَّ هَهُنا أَعظَمَ مِنَ الهَيكَل. ولَو فَهِمتُم مَعنى هذهِ الآية: إِنَّما أُريدُ الرَّحمَةَ لا الذَّبيحة، لَما حَكَمتُم على مَن لا ذَنْبَ عَلَيهِم. فَابنُ الإِنسانِ سَيِّدُ السَّبْت".

(متى ١٢: ٥-٨)

لا بد لنا، بادىء ذي بدء، ان نضع هذا النص في الاطار الذي ورد فيه. فلقد قاله يسوع عندما تشكى الفريسيون من ان تلاميذه يقلعون السنبل ويأكلونه يوم السبت، الامر الذي لا يحل فعله فيه. فبهذا القول يؤكد المسيح على اولوية الرحمة اي على اولوية قلب الانسان، مستشهداً بقول هوشع النبي: "فاني اردت رحمة لا ذبيحة ومعرفة الله اكثر من المحرقات" (٦: ٦). فما يريده الله هو قلب الانسان اي باطنه، وليس خارجه، اي الامور الشكلية والصورية مثل الذبائح والقرابين والتقادم التي قد لا تكون لها علاقة بقلب الانسان بتاتاً.

وحين نتكلم عن قلب، فاننا لا نعني هذا الجهاز المادي الذي عليه تتوقف حياة الجسد، وانما نتكلم بالطريقة التقليدية حيث يعتبر الناس قلب الانسان مركز افكاره وعواطفه. هذا هو شأن المسيح اذ يقول: "فمن القلب تنبعث مقاصد السوء والقتل والزنى والفحش والسرقة وشهادة الزور والنميمة. تلك هي الاشياء التي تنجّس الانسان" (متى ١٥: ١٩).

فبهذا المعنى، اذن، نتكلم نحن ايضا عن القلب، باعتباره رمزاً لذات الانسان ومركزاً للمشاعر والعواطف من حب وحنان ورحمة وعطف.

وان اول من يحمل هذه المشاعر والعواطف في ذاته وتجاه الانسان بأسمى ما يمكن، هو الله الذي يحمل في ذاته سمات الاب والام معاً. فهو الذي احبنا اولاً اذ خلقنا بالحب وللحب، وأرسل لنا ابنه تعبيراً عن حبه هذا: "ان الله بلغ من حبه للعالم انه جاد بابنه الواحد" (يوحنا ١٦:١٢). ولقد جسّد هذا الابن في شخصه كل هذه المشاعر والعواطف، قولاً وفعلاً، بالمحبة والحنان والرحمة التي ابداها تجاه كل الناس، ولاسيما الفقراء والضعفاء والمساكين والمحتاجين والخطاة والصغار؛ داعياً الجميع، ولاسيما اتباعه، الى الاقتداء بهذا الاب في محبته وحنانه ورحمته بقوله: "احبوا" (يوحنا ١٥: ١٢)، و "كونوا رحماء كما ان اباكم رحيم" (لوقا ٦: ٣٦).

ولئلا تبقى هذه مجرد عواطف ومشاعر سطحية لا تنال اللب، فمن الضروري ترجمتها الى تعابير وافعال واعمال وممارسات يومية من اجل خير الانسان، متجسدة في اوجه وصيغ عديدة، وإلا لأمست كذباً ليس إلا. بهذا الاتجاه يعمل الفرد على انماء علاقته مع الاخرين وتطويرها وتعميقها وتقويتها، فيشعر الانسان بشعور اخيه الانسان، بهمومه ومشاكله، العاطفية منها او الاقتصادية او الاجتماعية، ساعياً معه الى وضع حلول لها من أجل تجاوزها. وكذلك يتضامن معه في قضاياه الاساسية كالحرية والعدل والمساواة ويعمل من اجل رقيه وتقدمه وتطوره نحو الافضل. وبما ان الانسان بحاجة الى المحبة والحنان والتفهم والانتباه والاصغاء، اكثر من حاجته الى الامور المادية، فعلى الانسان ان يكون اخاً ورفيقاً وصديقاً لاخيه الانسان.. بكلمة واحدة على الانسان ان يعرف كيف يحافظ على قلبه، اي على مشاعره وعواطفه وانفعالاته تجاه غيره.

فما يحدث احيانا ان هذا القلب البشري ينقلب الى قلب حجري بل اقسى منه! قد يتأثر الحجر بما يحيط به من تأثيرات خارجية كالماء والهواء والمطر، في حين ان الانسان قد لا يتأثر بشيء ويبقى على صلابته. وهكذا يغدو قلب الانسان قاسياً لا مبالياً تجاه الاخرين وتجاه الاوضاع التي يعيشون فيها، من ظلم وكبت وحرمان واستلاب وفقر واستعباد واستبداد، فلا يعود يحب او يحنو او يرحم. لا بل قد يضاعف الانسان من قساوة قلبه تجاه الاخرين، فلا يتوقف عن الشعور بآلامهم وهمومهم حسب، وانما يذهب به الامر الى حد ايذائهم وايلامهم وتعذيبهم. وهذا امر خطير جدا، اذ يعني فقدان جزء جوهري من انسانيته، وحرمانه مما كان بالامكان ان يقربه من التشبه بالله المحب، الحنون، الرحيم. ولكن عوض ان نحكم على هذا الانسان، لنحاول ان نفهمه بمعرفة الاسباب التي تسوقه الى هذه القساوة في القلب. لا شك ان هذه الاسباب عديدة ومختلفة باختلاف الاشخاص: فهناك المعاملة القاسية التي يتلقاها البعض في تربيتهم الأسرية، او تتأتى من البيئة التي يعيش فيها البعض الاخر، او الظروف التي يمر بها غيرهم، او المواقف العدائية التي يتخذها الاخرون تجاههم. وهل يمكننا أن ننسى مسؤولية البنى الاجتماعية السائدة، هذه البنى التي تلعب دوراً

كبيراً في توجيه حياة الناس سلباً او ايجاباً. فقد يدفع بعضها الى تقسية قلوب الناس، كما تحول بني اخرى، كالعشائرية والطائفية، دون انفتاح الانسان الى العصرنة والموضوعية والحوار... بل تكون غالباً ما سبباً للبغضاء والانقسام والتجاهل والتباعد، لاسيما اذا ما استُغلت او وُظّفت بهذا الاتجاه عن وعي. ولا يَخفى بُعد ذلك كله عن الروح المسيحية الحقة.

ولكن بقدر ما يتعلق الامر بالانسان، اي بارادته وحريته -اعني ليس بالاخرين وحدهم او بالظروف المحيطة- فبوسع المرء، اذا ما شاء ذلك، ان يجدد قلبه ويسيطر، بل يوجّه انفعالاته، فيستعيد قلبه الاولي ويترع عنه القلب الحجري.

ومما لا شك فيه ان بامكان الاخرين ان يساعدوا العضو المريض في هذا التحديد. ولله ايضاً دور كبير في عملية تجديد الانسان من الداخل، اذا ما أبدى الانسان الاستعداد الجيد وطلب منه ذلك، بثقة المزمر الذي هتف قديماً قائلاً: "قلباً طاهراً اخلق فيّ يا الله" (مزمور ٥١: ١٢).

الى هذا التحديد يتطلع الله عندما يقول على لسان النبي: "وأعطيكم قلباً جديداً وأجعل في احشائكم روحاً جديداً وأنزع من لحمكم قلب الحجر وأعطيكم قلباً من لحم" (حزقيال ٣٦: ٢٦).

افنحن ايضا عميان

"فقالَ يسوع: إنّي جئتُ هذا العالَمَ لإصدارِ حُكمٍ: أن يُبصِر الّذينَ لا يُبصِرون ويَعمى الّذينَ يُبصِرون. فسَمِعَه بَعضُ الفرّيسيّينَ الّذينَ كانوا معَه فقالوا له: أَفنحنُ أيضاً عُمْيان؟ قالَ لَهم يسوع: لو كُنتُم عُمْياناً لَما كانَ علَيكُم خَطيئة. ولكنَّكُم تَقولونَ الآن: إنّنا نُبصِر فخَطيئتُكُم ثابِتة".
(يوحنا ٩: ٣٩-٤١)

لقد كان العمى، شأن البرص او غيره من الامراض، منتشرا في زمان يسوع. وازاء حالة كهذه او اي حدث او ظاهرة، يحاول الناس تفسيرها او تبريرها بمعرفة مسبباتها. وقد يكون هذا التفسير صحيحاً او محتملاً او خاطئاً.

وكان التفسير السائد في زمان يسوع هو التفسير الديني. فلقد كان الناس، في محاولة لتفسير الظواهر السلبية، وبالتالي لمعرفة اصلها وسببها، يعزونها الى خطيئة الناس. فلأنّ فلاناً اخطأ او اخطأ ابواه، اصابه هذا المرض او ذاك. ولذا نرى تلاميذ يسوع يسألون يسوع عما اذا كان الاعمى منذ مولده اخطأ هو ام ابواه؟ (يوحنا ٩: ١-٢)، فيرفض يسوع ربط هذا المرض بالخطيئة. وشأنه شأن حالات اخرى، لا يعطينا التفسير الصحيح، كما يفعل الطب اليوم حين يدلنا على الاسباب الحقيقية للمرض وكيفية القضاء عليه. فعندما يشفي يسوع الناس من هذا المرض او ذاك، فهو يشفيهم في الواقع من الخطيئة التي هي في اصل المرض، كما رأينا. وهكذا يكون الشفاء في الجسد والروح، اي شفاء تاماً وكاملاً. وهذا الشفاء يفترض ولاشك استعداداً وقبولاً لدى الاعمى، الامر الذي نراه لدى عميان كثيرين حين يطلبون الشفاء من يسوع (متى ٢٠: ٢٩-٣٤).

وحين ينجح يسوع في فتح عيون الناس الجسدية واعادة البصر اليهم، فذلك ان ارادهم وارادة المسيح تلتقيان بشأن هذا الشفاء. ولكن يسوع، بكل قوته، لم يستطع فتح

عيون عميان آخرين، لانهم رفضوا هذا "اللقاء"، واقصد بهم الفريسيين ورؤساء اليهود الذين بقوا في عمى قلوبهم. وهذا المرض اكبر بكثير من العمى المادي.

فالفريسيون والرؤساء، رغم علمهم بأن يسوع كان مرسلاً من قبل الله بشهادة الآيات التي كان يصنعها (يوحنا ٢: ٢)، لم يعترفوا به لاسباب تتعلق بهم، كالغيرة والحسد، نظراً الى النجاح الذي كان يلقاه يسوع، وكذلك خوفهم من فقدان مراكزهم ومناصبهم. لذا شنوا عليه حرباً لا هوادة فيها، محاولين مرات عديدة القضاء عليه بشتى الوسائل والسبل. هنا اذن تكمن خطيئة الفريسيين والرؤساء بمعناها القوي: انها خطيئة الرفض، رفض النور، رفض الاعتراف بيسوع مسيحاً وبرسالته الخلاصية، تلك الخطيئة التي يتحدث عنها الانجيل ويدعوها العمى؛ ولان هذه الخطيئة مقصودة ومتعمدة فهي عظيمة وكبيرة.

ان داء الفريسيين والرؤساء قد يكون داءنا جميعاً وداء كل واحد منا اليوم، سواء تجاه المسيح ام تجاه الاخرين ام تجاه الاشياء. فلئن كنا قد آمنا بالمسيح واعترفنا به، الا اننا لا زلنا نرفض بشراه ونرفض العمل بها في احيان كثيرة. والحال اننا لا نصير مسيحيين الا بقدر ما تتغلغل هذه البشرى فينا؛ وما التعليم الا جزء مهم واساسي من هذه البشرى،فهي، اذن، اوسع واشمل منه. فالمسيحي ليس من اعتمذ حسب، وانما من آمن بالبشرى وبالتالي من قبل تعليم المسيح وتغلغل فيه. كما اننا كثيراً ما نرفض الاصغاء الى دعوته الى التوبة وكأننا لسنا خطأة، اذن لسنا بحاجة اليها، اي الى اجراء تغيير في حياتنا.

وما يصح بالنسبة الى بشرى المسيح، يصح كذلك بالنسبة الى الاشخاص. فقد نرى في هذا الشخص او ذاك قيماً وصفات وامكانيات ومواهب وطاقات نعترف بها في قرارة انفسنا، ولكن لا نقرّ بها في الواقع، فنسكت عنها، او اننا قد لا ننيط اهمية بشخص هو جدير وكفوء لها.

ومثلما لا نعترف بالآخرين، باعطائهم قيمتهم واهميتهم الحقيقية، هكذا ما زال اهل الاديان يرفضون الواحد الآخر، في حين ان ثمة وشائج قربى بينهم ولاسيما بين اهل التوحيد. انهم يرفضون الاعتراف ببعضهم وكأن الطرف الآخر ليس موجوداً وليس لديه ما يحمله من افكار ومفاهيم وحقائق وقيم وصفات، من عدل ومحبة وحرية وخير وصدق وجمال وغير ذلك، فلا عجب ان يكون الجهل والتباعد جداراً فاصلاً بينهم.

من جهة اخرى قد نكون على دراية بحقيقة الامور، ولكننا قد نخفيها او نجد انفسنا منحازين الى هذا الجانب او ذاك، حتى وإن كان مخطئا.

وهنا لا بد لنا من التأكيد بأن نيات الناس ومبرراتهم او غاياتهم الخاصة ودوافعهم الشخصية، كالقرابة او المصلحة او المركز او الحسد او الغيرة، تلعب دورا كبيرا في حياة الناس، شأن الانفعالات والعواطف والمشاعر، سواء كان ذلك سلباً ام ايجاباً. من هنا نفهم

لماذا لا يمكن للانسان ان يكون دوماً موضوعياً مهما كان واعياً ومثقفاً، ولماذا لا يُقيِّم الناس والاشياء على اسس سليمة وصحيحة، فنراه مثلاً، يستصغر امراً كبيرا وبالعكس، وكذلك قد يحط من قيمة هذا الشخص او هذا الشيء تبعا لانفعالاته الذاتية وغاياته ودوافعه؛ ولان هذه النيات والدوافع والانفعالات غير ثابتة ومتغيرة، فالحكم ايضاً يتغير.

لذا يسوغ لنا ان نقوم بتحليل لاقوال الناس وتصرفاتهم ومواقفهم، فنسأل دوماً عما تخفيه هذه الاقوال والتصرفات والمواقف من نيات وغايات واسباب ودوافع. وهذه المعرفة بنفسية الانسان ضرورية، اذا ما اردنا ان نكون واقعيين، فلا نعيش في اوهام او نقع في تصورات خاطئة.

أفلسنا، اذن، كلنا بحاجة الى الشفاء والتحلي بالشجاعة الكافية للاعتراف بالآخرين وبالاشياء؛ وهذا يتطلب منا، ولاشك، تحرير ذواتنا من بعض هذه النيات والدوافع والاسباب الشخصية التي تحول دون رؤية الناس والاشياء رؤية واضحة صافية وموضوعية.

عبادة التباهي وعبادة القلب

"وضرَبَ أيضاً هذا المَثَلَ لِقَومٍ كانوا مُتيَقّنينَ أنّهم أبرار، ويَحتَقِرونَ سائرَ النّاس: صَعِدَ رَجُلانِ إلى الهيكَلِ لِيُصَلّيا، أحَدُهما فرّيسيٌّ والآخَرُ عشّار. فانتَصَبَ الفرّيسيُّ قائِماً يُصلّي فيَقولُ في نفسه: اللّهُمَّ، شُكراً لكَ لأنّي لَستُ كسائِرِ النّاسِ السَّرّاقينَ الظّالِمينَ الفاسقين، ولا مِثْلَ هذا العشّار. إنّي أصومُ مَرّتَيْنِ في الأسبوع، وأؤدّي عُشْرَ كلِّ ما أقتَني. أمَّا العشّار فوَقَفَ بَعيداً لا يُريدُ ولا أن يَرفَعَ عَينَيهِ نحوَ السَّماء، بل كانَ يَقرَعُ صَدرَه ويقول: اللّهُمَّ ارْحَمْني أنا الخاطئ! أقولُ لكم إنَّ هذا نَزَلَ إلى بَيتِه مَبروراً وأمَّا ذاكَ فلا. فكُلُّ مَن رَفَعَ نفسَه وُضِع، ومَن وَضَعَ نفسَهُ رُفِع".

(لوقا ١٨: ٩-١٤)

تُعرَف الشعوب، قديماً وحاضراً، بامثالها وحكاياتها وتراثها الشعبي، لان هذه الامثال والحكايات تستلهم الحياة الواقعية وتستهدف التعليم والفهم والحكمة وعِبَر الحياة باسلوب المقارنة البسيطة.

واستُخدمت الامثال ايضاً في الاناجيل كدعوة الى التأمل الاعمق في سلوكنا. فهي ليست مجرد قصص لإلهاء الاطفال في البيوت او في دروس التعليم المسيحي وقت الترفيه. فغاية الامثال في الانجيل هي تبيان فعل الله الخلاصي الاخير في يسوع المسيح الذي جسّد ملكوت الله بين البشر. ومن خلال هذه الامثال نحكم على انفسنا دون ان نشعر، ونتعلم من ثم كيف نعيش هذا الملكوت وكيف نبني علاقتنا مع الله والبشر اخوتنا في شتى ميادين الحياة.

وهكذا يكشف لنا مثل الفريسي والعشار قصد المسيح في رفع القناع عن الاوجه، وكشف الامور على حقيقتها، وتبيان موقفين مختلفين في الصلاة: موقف "المتديّن" المتمسك بحرفية الناموس بغية التبرير امام الله، وموقف الانسان الخاطئ المتكل على رحمة الله لنيل الغفران والخلاص منه، وليس بفضل "اعماله" هو؛ لان ما يسترعي لطف الله واهتمامه لدى المؤمن هو الخضوع الكامل لنعمته وبركته والتواضع الذي يجعل الانسان يتخذ موقفه تجاه الله-الأب.

فقصد المسيح العميق في صياغة هذا المثل هو ان يعلمنا كيف نبني العلاقة الصحيحة مع الله، وقد فضحَ العلاقة غير الصحيحة، الملتوية المكابرة، متخذاً لذلك اطار الصلاة حيث يقوم الانسان وحده "عارياً" امام الله.

في هذا المثل تتبين دواخل الفريسي والعشار الخفية في صلاتيهما: الفريسي -وهو من طبقة القادة والمعَلمين وحماة الشريعة المتزمتين الامناء- يتعالى على الآخرين، ويظن ان ما يقوم به من فرائض قانونية ومن تطبيق الشريعة والوصايا يستحق له التبرير والخلاص. انه يعتمد على قدراته وانجازاته عوض ان يفتح قلبه لله ولأخوته ويسلم امره لنعمته تعالى. فتراه يشيد باعماله ويعددها مكابراً امام الله، ولا يذكر شيئاً من افضال الله عليه؛ وبفعله هذا يسد الباب امام فعل الله ويجعل نفسه موضع اعجاب الله، وكأنه هو المهم، وكأن اعماله هي التي تخلصه وليس الله. انه يتكلم بلغة التجار الحقوقية، لغة المساومة: "لك مني تكميل الناموس، ولي عليك التبرير الذي استحقه"! انه يثبت وجوده دون الله، ويكتفي بنفسه.. وبما ان التبرير الحقيقي نعمة من الله، لان نظرة الله وحدها تفحص القلوب وتغسلها، يترل الفريسي غير مبرر من عند الله: الخلاص نعمة مجانية، والانسان بحاجة الى غفران الله وتبريره من دون استحقاق.

وكما في زمان يسوع، كذلك في زماننا ايضا. هناك مؤمنون يعتقدون شراء القدسيات باموالهم، ويظنون خطأ انهم بمجرد ان يتبرعوا ويهبوا المال لاقامة القداديس والصلوات وبناء الكنائس والمغارات، يستحقون الخلاص والتبرير لهم ولموتاهم، وينسون ربط ذلك بالاهتداء الشخصي وتغيير الحياة والتوبة. ويعتقد اخرون انهم، اذا صلوا كثيرا وصاموا مراراً وكملوا وصايا الله والكنيسة بحرفيتها، سينالون الخلاص دون ان يترعوا الكسل والحقد والنميمة والجشع والظلم والكبرياء من قلوبهم. وهنا اذكر قصة الغفرانات الكاملة، وزيارة القربان سبع مرات، وتناول القربان اول جمعة من الشهر وغيرها من العبادات الدورية كحفلات التناول الاول وما يرافقها من بذخ وتشويه ومباهاة. لقد فرغت هذه العبادات من معناها في اكثر الاحيان، واصبح الاهتمام بالعدد المطلوب، وليس النوعية والاهتداء الحقيقي الى الله، وكأن العدد هو الغافر وان العملية حسابية لا تحتاج الى تدخل الله: "اذا عملت كذا.. حصلت على كذا".

لقد نسي هؤلاء ان الله لا ينظر الى كثرة الاعمال وضخامتها، بل الى قلب الانسان ونيته اللذين عنهما تصدر هذه الاعمال. انه يقبل ويثمن الحب الذي به يقوم الانسان باي عمل، كبيراً ام ضئيلاً. الله لا حاجة له بالمال، بل يطلب القلوب المحبة المتكلة المنتظرة المتواضعة المنكسرة: "القلب المنكسر المنسحق لا ترذله يا الله". العشار ليس قديساً، بل هو خاطئ جاء يصلي ويتوب. ولكن كيف؟ انه عاجز ان يترك مهنته ومصدر رزقه: الجباية. هل يردّ لمن ظلمه كما فعل زكا، هذا العشار الاخر الذي قَبِلَ يسوع نادماً؟ ربما لا يستطيع، ولكنه مع ذلك يريد التوبة. فما العمل؟ انه يفرغ صدره آسفاً نادماً، ولا يطلب الا رحمة الله وغفرانه: "اللهم ارحمني انا الخاطئ". ذليل، ضعيف، متواضع، يستنجد بالله ولا يعتمد على اعماله، بل ينتظر الله مترقباً الخلاص من عنده. عنه يقول يسوع: ونزل الى بيته مبرَّراً.

موقف العشار هذا موقف المؤمن الذي يعيش حياته في حالة اهتداء تواكب اعماله. فتكون العبادة له منطلقاً لتغيير السيرة ونوعية العلاقة التي تربطه باخوته، وتعميق البنوّه لله التي يعيشها في اعماق ذاته.. وليس واجهة يتباهى بها امام الناس، او حالة اجتماعية تنقله من البيت الى الكنيسة دون ان تمس اعماقه ومواقفه الخارجية وعلاقته.

قريبي من يختارني

"وإذا أَحَدُ عُلماءِ الشَّريعَةِ قَد قامَ فقالَ لِيُحرِجَه: يا مُعَلِّم، ماذا أَعمَلُ لأَرِثَ الحياةَ الأَبَديَّة؟ فقالَ له: ماذا كُتِبَ في الشَّريعَة؟ كَيفَ تَقرأ؟ فأَجاب: أَحبِبِ الرَّبَّ إِلهَكَ بِكُلِّ قَلبِكَ، وكُلِّ نَفسِكَ، وكُلِّ قُوَّتِكَ، وكُلِّ ذِهنِكَ وأَحبِبْ قَريبَكَ حُبَّكَ لِنَفسِكَ. فقالَ لَه: بالصَّوابِ أَجَبْتَ. إِعمَلْ هذا تَحْيَ. فأَرادَ أَن يُزَكِّيَ نَفسَه فقالَ لِيَسوع: ومَن قَريبي؟ فأَجابَ يَسوع: كانَ رَجُلٌ نازِلاً مِن أُورَشَليم إِلى أَريحا، فوقَعَ بِأَيدي اللُّصوص. فعَرَّوهُ وانهالوا عَلَيهِ بِالضَّرْب. ثُمَّ مَضَوا وقَد تَرَكوهُ بَينَ حَيٍّ ومَيْت. فاتَّفَقَ أَنَّ كاهِناً كانَ نازِلاً في ذلكَ الطَّريق، فرآهُ فمالَ عَنه ومَضى. وكَذلِكَ وصلَ لاوِيٌّ إِلى المَكان، فَرآهُ فمالَ عَنهُ ومَضى. ووَصَلَ إِلَيه سامِرِيٌّ مُسافِر ورآهُ فأَشفَقَ عَلَيه، فدَنا منه وضَمَّدَ جِراحَه، وصَبَّ عَلَيها زَيتاً وخَمراً، ثُمَّ حَمَلَه على دابَّتِه وذَهَبَ به إِلى فُندُقٍ واعتَنى بِأَمرِه. وفي الغَدِ أَخرَجَ دينارَيْن، ودَفَعهما إِلى صاحِبِ الفُندُقِ وقال: إِعتَنِ بِأَمرِه، ومَهْما أَنفَقتَ زِيادةً على ذلك، أُؤَدِّيهِ أَنا إِلَيكَ عِندَ عَودَتي. فمَن كانَ في رأيكَ، مِن هؤلاءِ الثَّلاثة، قَريبَ الَّذي وَقَعَ بِأَيدي اللُّصوص؟ فقال: الَّذي عامَلَهُ بِالرَّحمَة. فقالَ لَه يَسوع: إِذْهَبْ فاعمَلْ أَنتَ أَيضاً مِثْلَ ذلك".

(لوقا ١٠: ٢٥-٣٧)

-"ماذا اصنع لأرث الحياة الابدية؟"

الخلاص نعمة مجانية يهبها الله من حبه الكبير؛ والحياة الابدية ليست نتيجة حتمية لاعمالنا، ولا حقاً مكتسباً: انها عمل الله. والحياة الابدية هي الحياة مع الله الذي نحن منه واليه نعود. وهذه الحياة تبدأ منذ الان: "فيه حياتنا وحركتنا وكياننا" (اعمال الرسل

٧: ١٨)، اي منذ هذه الحياة الزمنية. مع اخوتنا البشر ووسط همومنا، ننسج خلاصنا وحياتنا الابدية.

ولقد اظهر لنا يسوع كيف السبيل للخلاص. انه يعيدنا الى الكتب المقدسة، ففيها النور وكلمة الحق، فيها الجواب كلما تساءلنا عما يقتضيه الايمان والروح والحياة. فيها نجد قانون الحياة: "حب الله الكلي وحب القريب كالذات"، وصيتان لا تنفصلان. فقولنا "نحب الله ولا نحب القريب" وهم وكذب محض. "كل ما صنعتم لواحد من هؤلاء الصغار فلي صنعتموه" (متى ٢٥: ٤٠). اذن، جوهر الكتاب المقدس والانجيل والكنيسة كامن في محبة الله والقريب.

في هذا السياق تعمّد المسيح اختيار مثل السامري كي يفهم الجميع ان حب القريب مطلق لا يحده شيء ولا يُبعَد عنه احد. لقد قام السامري بواجب المحبة تجاه عدوه الذي وقع في محنة.

والقريب ليس من نختاره نحن، بل الذي يختارنا هو، اي الذي يصادفنا ويستنجد بنا من خلال مصيبة او محنة او ضيق وقع فيه. والمحبة تدعونا الى نجدته بتجاوز العداء القومي او الاختلاف الطائفي او الدين او الطبقة.

القريب هو كل انسان، ولاسيما الساقط على قارعة الطريق، اي المهمَل والمظلوم والمحتاج الى مساعدة، ولو اقتضى الامر المخاطرة من اجل انقاذه. الله نفسه يفضل الرحمة على التعبد الجامد وتكميل الفرائض في المعابد. واعمال الرحمة تتطلب مني تبديل مجرى حياتي وكسر طوق الشعائر الدينية احيانا، ولربما تجاوز الشريعة والوصايا (مثل يسوع الذي يشفي المرضى في السبت) التي يحدّ تطبيقها الحرفي من حريتي الداخلية والتي تجعل مني انساناً عديم الرحمة، قاسي القلب. هذا ما جرى للكاهن واللاوي. انهما يسرعان لئلا يتأخرا عن موعد الصلاة والبخور، ولئلا يتنجسا بملمس هذا الغريب. ان محبة الله المزعومة والتعبّد له من دون الانتباه الى الانسان، ولاسيما الانسان المحتاج، هذه المحبة باطلة، وهذا التعبد عقيم. قال احد اللاهوتيين: "الدين قد يقتل الرحمة" ويقول الله: "اريد الرحمة لا الذبيحة" (متى ٩: ١٣).

سألت احدى راهبات المحبة مؤسسهن مار منصور مرة: "هل اترك صلاتي القانونية لأخدم مريضا في خطر؟" وقال: "اتركيها.. فانك تتركين الله لتجدي الله، تتركين الله الذي في الصلاة لتجدي الله الذي في القريب".

لم يكن السامري قديساً، بل انسانا عادياً قيل عنه وعن قومه الكثير من السيئات، ولكن المهم ان الدين لم يقتل فيه الرحمة، بل انه نسي كل تعصب وحقد وانتقام عندما رأى انسانا يتعذب، وتجاوز كل الحواجز الدينية والعرقية العدائية ليسعف الجريح.

واليوم، كم من منكسري القلوب حولنا بحاجة الى محبتنا وعطفنا وارشادنا، بحاجة الى كلمة طيبة ويد حنونة، نمر بهم ولا نراهم، سادّين آذاننا عن صراخهم وجروحهم، ولا ندع قلوبنا تتحرك نحوهم بالرحمة والتضامن. انا في طريقي الى عملي او الى صلاتي، فاذا بحادثة اصطدام تدعوني الى اسعاف الجرحى.. وقد يعرضني هذا الاسعاف لسؤال وجواب وتحقيق وتأخير.. ولربما الى مسؤولية مزعجة.. ومع ذلك... لقد مرّ الغني مرارا بلعازر المسكين عند باب قصره ولم يره! جاري الذي يفصلني عنه جدار بسيط، لا أصبح له قريبا إلا اذا بادرته بسلام او بزيارة في مرضه او بمساعدة عند احتياجه. كم تكثر الاعذار عندما يَطلب مني جاري خدمة ما، وكثيرا ما ارفض باسم هذا او ذاك من المبادئ او المفاهيم! اما اذا دعيت الى حفل ساهر او الى ما يخدم مصلحتي الشخصية، كم تقصر المسافات وتهون الصعاب وتزول الاعذار وتبطل القوانين.

امثال المحبة كثيرة.. الحياة مليئة بمبادراتها، وان كان الطريق صعباً ويتطلب مني نكران الذات: "ما أضيق الباب وأحرج الطريق المؤدي الى الحياة، والذين يهتدون اليه قليلون" (متى ٧: ١٤)..

كان رجل غني...

"كانَ رَجُلٌ غَنِيٌّ يَلبَسُ الأُرجُوانَ والكَتَّانَ النَّاعِم، ويَتَنَعَّمُ كُلَّ يَومٍ تَنَعُّماً فاخِراً. وكانَ رَجُلٌ فَقيرٌ اسمُه لَعازَر مُلْقىً عِندَ بابِه قد غُطِّيَ القُروحُ جِسْمَه. وكانَ يَشتَهِي أَن يَشبَعَ مِن فُتاتِ مائِدَةِ الغَنِيّ. غَيرَ أَنَّ الكِلابَ كانت تأتي فتَلحَسُ قُروحَه. وماتَ الفَقيرُ فحَمَلَتهُ المَلائِكَةُ إلى حِضْنِ إبراهيم. ثُمَّ ماتَ الغَنِيُّ ودُفِن. فرَفَعَ عَينَيهِ وهوَ في مَثْوى الأَمْواتِ يُقاسي العَذاب، فرأَى إبْراهيمَ عَن بُعدٍ ولَعازَرَ في أَحضانِه. فنادى: يا أَبتِ إبراهيمُ ارحَمْني فأَرسِلْ لَعازَر لِيَبُلَّ طَرَفَ إِصبَعِه في الماءِ ويُبَرِّدَ لِساني، فإِنِّي مُعَذَّبٌ في هذا اللَّهيب. فقالَ إبراهيم: يا بُنَيَّ، تَذَكَّرْ أَنَّكَ نِلتَ خَيراتِكَ في حَياتِكَ ونالَ لَعازَرُ البَلايا. أَمَّا اليَومَ فهو ههُنا يُعزَّى وأَنت تُعَذَّب. ومع هذا كُلِّه، فبَيننا وبَينَكم أُقيمَت هُوَّةٌ عَميقة، لِكَيلا يَستَطيعَ الَّذينَ يُريدونَ الاجتِيازَ مِن هُنا إِلَيكُم أَن يَفعَلوا ولِكَيلا يُعبَرَ مِن هُناك إِلَينا. فقال: أَسأَلُكَ إِذاً يا أَبتِ أَن تُرسِلَه إِلى بَيتِ أَبي، فإِنَّ لي خَمسَةَ إِخوَة. فَلْيُنذِرْهُم لِئَلاَّ يَصيروا هُم أَيضاً إلى مَكانِ العَذابِ هذا. فقالَ إبراهيم: عِندَهُم موسى والأَنبياء، فَلْيَستَمِعوا إِلَيهِم. فقال: لا يا أَبتِ إبراهيم، ولكِن إذا مَضى إِلَيهِم واحِدٌ مِنَ الأَمواتِ يَتوبون. فقالَ له: إِن لم يَستَمِعوا إِلى موسى والأَنبياء، لا يَقتَنِعوا ولو قامَ واحِدٌ مِنَ الأَموات".

(لوقا ١٦: ١٩-٣١)

ما اراده يسوع في مثل الرجل الغني ولعازر الفقير هو فضح رياء الفريسيين الذين كانوا يُخفون حبهم للمال بمظاهر التقوى؛ وبتفسيرهم الحرفي للناموس يبطلون حب القريب والرحمة (لوقا ١٦: ١٤-١٥). و لم يكن يقصد المسيح بهذا المثل إلقاء الاغنياء في الجحيم والفقراء في النعيم لمجرد انهم كذلك، وكأنه ينتقم للفقير من الغني بعد طول عناء الحياة، ويعوّض له عن وضعه الاجتماعي المزري بوعود الجنة. كما ان المثل ليس وصفاً للحياة بعد الموت، كما يفهمه الساذج، انما التركيز على الخطر الذي يهدد امثال هذا الغني، اذا أعمى الغنى بصائرهم فلم يروا من الدنيا سوى انفسهم.

المال في حد ذاته ليس حراماً، بل ان الغنى كان علامة رضى وبركة من الله في العهد القديم، مثل ابراهيم وايوب. والمسيح نفسه كان له اصدقاء اغنياء. فليست خطيئة الشخص في غناه، بل في علاقته مع ما يمتلك، في كونه يجهل او يتجاهل ان غاية الانسان في الحياة ليست في التنعم الاناني في خيرات الدنيا، بحيث تبطل كل الشرائع والوصايا امام الجشع في تكديس المال والربح، وتفقد كل القيم الحقيقية معناها امام اللذة والبذخ والتظاهر. الخطيئة تكمن في رفض المقاسمة مع المحتاج، أو في الانطواء او اللامبالاة. الشر يكمن في القبول بالفروقات الصارخة في مستوى المعيشة والمظالم السائدة بين ابناء المجتمع الواحد، وكانها امور طبيعية، او كأن للبعض حقاً لا يُناقش في ان يتنعموا ويستغلوا غيرهم ويعيشوا على اكتافهم ويوسّعوا ممتلكاتهم بكل وسيلة -فالحياة فرص!-، وليس لغيرهم سوى حق السكوت والقناعة بما قُسم لهم!

انا لا اتكلم هنا عما يحدث في العالم بين الدول الغنية والدول الفقيرة: كيف تدفع التخمة او منطق الجشع الى إلقاء الفائض في البحر، بينما ملايين من الناس يموتون جوعاً في أقطار اخرى من الجفاف والحروب والاستغلال. ولكنني اتكلم عن مجتمعنا.. عندما تنشف روح الانسانية، عندما تمحى المحبة لتدع الساحة للانانية والانكفاء على الذات، فلا يبقى للاخرين اي وجود، او لا نعود نحسّ بهم الا كحشرات ضارة او حجر عثرة، كما كان المسكين لعازر منطرحاً عند باب الغني يعترض طريقه ويزعجه في ذهابه وإيابه، ولربما لا يراه إلا لقي فتات الخبز الذي كانوا في بيته يمسحون به اصابعهم ثم يرمونه ارضاً!

اليس ان ما ينقص الغني -في مثل الانجيل- هو تلك النظرة الانسانية؟ لقد كان حكم المسيح قاسياً عندما نوّه الى ان الكلاب نفسها أحست بالمسكين وجاءت تلحس قروحه لتبردها، بينما الانسان القاسي لا يشعر بجاره.

لقد ذكر المسيح اسم لعازر قصداً، ومعناه "الله يساعد"، ليقول للغني: "ايها الغني، ان وجود الفقير امام بابك فرصة وعلامة لتخرج من انانيتك. انت المحتاج اليه لكي تقاسمه خبزك"! هكذا ملكوت الله يبدأ فينا في هذه الحياة، ومصيرنا مرتبط باخوتنا، لاسيما المحتاجين منهم: "جعت فأطعمتموني، عطشت فسقيتموني.. كلما صنعتم شيئاً من هذا لواحد من اخوتي.. فلي صنعتموه" (متى ٢٥: ٣٥-٤٠).

الغني، المتنعم وحده باطايب الدنيا، بانانية، ينعزل عن الناس، ويحكم على نفسه بالعزلة الابدية، ويكتشف -كغني المثل- ان التوبة لا تفيد بعد الموت. الاناني، اذا قسا على اخيه الانسان في اليوم الاول، وتمادى في اليوم الثاني، ففي اليوم الثالث يأتي الحسم، ويتدخل الله ولا يترك احباءه. انه يُشبع الجياع ويُطلق الاغنياء فارغين (لوقا ١: ٥٢-٥٣).

لقد اكتشف الغني ان الفقير هو صوت الله (عندي خمسة اخوة)، ولكن بعد فوات الاوان. لذا رُفض طلبُه (لهم موسى والانبياء). الايمان لا يحصل بآيات خارقة. انه من السماع المستمر لكلام الله والعمل به: "اليوم اذا سمعتم صوت الرب فلا تقسّوا قلوبكم" (مزمور ٩٥: ٨).

يا رب علمنا أن نصلي

"وضرَبَ لَهم مثَلاً في وُجوبِ المُداوَمةِ على الصَّلاةِ مِن غَيرِ مَلَل، قال: كانَ في إِحدى المُدُنِ قاضٍ لا يَخافُ اللهَ ولا يَهابُ النَّاس. وكانَ في تلك المَدينَةِ أَرمَلَةٌ تَأتيهِ فتَقول: أَنصِفْني من خَصْمي، فأَبى عليها ذلكَ مُدَّةً طَويلة، ثُمَّ قالَ في نَفْسِه: أَنا لا أَخافُ اللهَ ولا أَهابُ النَّاس، ولكِنَّ هذه الأَرمَلَةَ تُزعِجُني، فسأُنصِفُها لِئَلاَّ تَظَلَّ تَأتي وتَصدَعَ رَأسي. ثُمَّ قالَ الرَّبّ: إِسمَعوا ما قالَ القاضي الظَّالِم. أَفما يُنصِفُ اللهُ مُختاريهِ الَّذينَ يُنادونه نهاراً ولَيلاً وهو يَتَمهَّلُ في أَمرِهم؟ أَقولُ لَكم: إِنَّه يُسرِعُ إِلى إِنصافِهم. ولكِن، متى جاءَ ابنُ الإِنسان، أَفَتَراه يَجِدُ الإِيمانَ على الأَرض؟".

(لوقا ١٨: ١-٨)

يورد الانجيلي هذا المثل تحت شعار "الصلاة المستمرة دون ملل". من المحتمل ان تكون الاضطهادات الاولى قد زعزعت ايمان المؤمنين وثقتهم، لاسيما في ما يخص صلاتهم. فيسوع يقول: اذا كان قاضي الظلم يستجيب للارملة طلبها.. فكم بالاحرى يستجيب الله الذي يحب مختاريه صلواتهم. ان كلمة "سريعاً" تشجع المؤمنين على الاستمرار والثبات رغم الصعوبات، وهكذا جعل الثقة صفة الصلاة الدائمة.

فاذا كانت هذه التجربة قد وقع فيها مؤمنو الاجيال الاولى، بسبب الاضطهادات والصعوبات، فلا زالت مشكلة فقدان الصبر وتعثّر الثبات في الايمان وعدم الثقة بالله في الصلاة هي مشكلة اليوم. ثمة اناس صلوا كثيراً وتضرعوا بحرارة وصاموا وصبروا وقرعوا الباب بالحاح، وليس من اجل الارضيات والدنيويات وحدها، بل من اجل ضروريات الحياة الروحية ايضا (مثل زيادة في الايمان، توبة خاطئ، شفاء مرض مستعص، الخروج من محنة،

النجاح في مشروع خيري الخ...)، ولكن من دون ان ينالوا ما أرادواه فهل، يا ترى، لا منفعة البتة من صلاتهم، فتهبط عزيمة المؤمن ويقطع كل صلاته بالهه ويفقد الثقة به؟ يقول يسوع: "صلوا ولا تملّوا"، اي لا ينقطعنّ المؤمن عن الصلاة ابدا ولا تثبط عزيمته ولا ييأس امام صمت الله الظاهري. والجرأة المطلوبة في الصلاة، كالارملة ازاء القاضي، تعني الاستمرار فيها حتى في أحلك الاوقات، وطرق باب الله والتضرع اليه حتى اذا ظل الباب مغلقاً.. عندئذ سيكون الله حسّاساً لندائه الملح اللجوج، وسيكون الحاح الانسان دليل ثقة كاملة به.

يسوع يعلمنا كيف نصلي وباي روح: اولاً الله أب، لذا وجب ان تكون علاقتنا به علاقة بنوية صادقة، فنطلب ان يتقدس اسمه ويصبح ملكا علينا ونحيا حسب ارادته. هذه الصلاة لا تتسم بالانانية، وهي بعيدة كل البعد عن الصلاة المصلحية التي ترفع الى إله يُنظر اليه كآلة مفيدة لغرض الاستهلاك الروحي وكمن يقوم بسد حاجاتنا عند الطلب، اليه نستغيث به حين نضطر بسبب عجزنا! اما يسوع فيدعونا الى السجود المجاني الاصيل والى الصلاة التي تعكس الحب، لا المصلحة الذاتية: "اطلبوا اولاً ملكوت الله".. وثم نطلب الخير الضروري للحياة.

وهنا يطرح السؤال نفسه: لماذا لا تستجاب كل الطلبات، لاسيما الضرورية منها؟

يقول المزمر: ان عند الله، الف سنة مثل يوم واحد. ان الله خارج الزمن، لا ماضي له ولا مستقبل، بل كل شيء حاضر امامه. وان الله "يطلع شمسه على الاخيار والاشرار"، يدع الزوان مع الحنطة الى يوم الحصاد؛ احكامه ليست كأحكام البشر، وحساباته لا تتفق مع حساباتهم. اما الانسان، فالزمن يحده، واثار ثقل الماضي لا تمحي من حياته، ومخاوف المستقبل تقلقه؛ لذا فالخير الذي يطلبه الانسان في الصلاة ليس دائماً الخير الاكبر الذي يريده الله له، وما يتصوره مفيداً وضرورياً الان، قد يكون غير ذلك في اعين الله. هكذا، اذن، على المؤمن ان يصلي بثقة واستسلام لا حد لهما وبايمان وحب، وينظر الى العالم والحياة بعيني الله الذي لا يريد الا الخير للانسان، لانه كله خير وحب: "اذا كنتم انتم الاشرار تعرفون ان تعطوا العطايا الصالحة لأبنائكم، فما أولى اباكم السماوي بان يعطي ما هو صالح للذين يسألونه" (متى ٧: ١١).

اما ما يؤسَف له، فهو سطحية مفهوم الصلاة لدى معظم الناس، او ارتباطها فقط بعنصر الطلب، او بالاحتفالات الطقسية وحدها: حين ينطرب السامع بالحان القداس والفروض، دون ان يفهمها أو ان يشترك فيها ويتفاعل معها.. واذا سألته هل يعرف ان يصلي، قال لك انه يعرف (ابانا الذي) و (السلام عليك)، وهذا ايضا تعلمه غيباً دون فهم المعنى.

اما اسباب هذا الفقر في الصلاة فكثيرة، اولها عائد الى المربين الذين لم يعلموهم ما هي حقيقة الصلاة، وكيف يصلون، وهل هناك ضرورة لذلك.. بل دأبوا الى فرض صلوات جاهزة (كلائش) لا تتبدل، هي باعتقادهم صالحة لكل الناس ولكل الازمنة. ومعظم هذه "الصلوات الجاهزة" وضعت اصلاً في ظرف معين وبحسب لاهوت خاص ولأناس معينين، وباتت اليوم لا تلائم حاجات الحياة المعاصرة.

مطلوب اليوم من الكنيسة والمربين وذوي الاختصاص تجديد الطقوس والصلوات وبث الوعي لإعادة اكتشاف الصلاة الشخصية والجماعية النابعة من كلام الله. أليست الصلاة عنصراً مهما من عناصر الحياة الروحية، اي الحياة في الروح القدس فينا؟ اليست الصلاة قبل كل شيء لقاء مع الله؟ اليست حديثاً ودياً معه؟

اخيراً أورد مثلاً للمفهوم الخاطئ والسائد عند الناس في الصلاة وفي علاقاتهم بالله: قبل ان تضع الحرب اوزارها، كان الناس يهرعون الى الكنائس والمعابد افواجاً، وكنت تراهم يصلون ليل نهار، يتضرعون ويبتهلون بالدموع الساخنة، وكانت التبرعات والنذور تنهال على الكنائس والاديرة؛ ثم انتهت الحرب، بل اقول بعد ان سمع الله واعاد السلام الى ربوعنا.. همدت كل تلك الحرارة.. فكيف نَصِف مثل هذا "الخلل"..؟!

افرحوا مع الفرحين

"وقال: كانَ لِرَجُلٍ ابنان. فقالَ أَصغَرُهما لأَبيه: يا أَبَتِ أَعطِني النَّصيبَ الَّذي يَعودُ عليَّ مِنَ المال. فقَسَمَ مالَه بَينَهما. وبَعدَ بِضعَةِ أَيَّامٍ جَمَعَ الابنُ الأَصغَرُ كُلَّ شَيءٍ لَه، وسافَرَ إِلى بَلَدٍ بَعيد، فَبَدَّدَ مالَه هُناكَ في عيشَةٍ إِسراف. فَلَمَّا أَنفَقَ كُلَّ شَيء، أَصابَت ذلكَ البَلَدَ مَجاعَةٌ شَديدة، فأَخَذَ يَشْكو العَوَز. ثُمَّ ذَهَبَ فالتَحَقَ بِرَجُلٍ مِن أَهلِ ذلكَ البَلَد، فأَرسَلَه إِلى حُقولِه يَرْعى الخَنازير. وكانَ يَشتَهي أَن يَملأَ بَطنَه مِنَ الخَرنوبِ الَّذي كانتِ الخَنازيرُ تَأكُلُه، فلا يُعطيهِ أَحَد. فرَجَعَ إِلى نَفسِه وقال: كم أَجيرٍ لأَبي يَفضُلُ عنه الخُبْزُ وأَنا أَهلِكُ هُنا جُوعاً! أَقومُ وأَمضي إِلى أَبي فأَقولُ لَه: يا أَبَتِ إِنِّي خَطِئتُ إِلى السَّماءِ وإِلَيكَ. ولَستُ أَهْلاً بَعدَ ذلك لأَن أُدْعى لَكَ ابناً، فاجعَلني كأَحَدِ أُجَرائِكَ. فقامَ ومَضى إِلى أَبيه. وكانَ لم يَزَلْ بَعيداً إِذ رآه أَبوه، فتَحَرَّكَت أَحْشاؤُه وأَسرَعَ فأَلقى بِنَفسِه على عُنُقِه وقَبَّلَه طَويلاً. فقالَ لَه الابْن: يا أَبَتِ، إِنِّي خَطِئتُ إِلى السَّماءِ وإِلَيكَ، ولَستُ أَهْلاً بَعدَ ذلكَ لأَن أُدْعى لَكَ ابناً. فقالَ الأَبُ لِخَدَمِه: أَسرِعوا فأْتوا بِأَفخَرِ حُلَّةٍ وأَلبِسوه، واجعَلوا في إِصبَعِه خاتَماً وفي قَدَمَيه حِذاءً، وأْتوا بالعِجْلِ المُسَمَّنِ واذبَحوه فنأكُلَ ونَتَنَعَّم، لأَنَّ ابني هذا كانَ مَيتاً فعاش، وكانَ ضالاً فوُجِد. فأَخذوا يَتَنَعَّمون. وكانَ ابنُه الأَكبَرُ في الحَقْل، فلمَّا رَجَعَ واقتَرَبَ مِنَ الدَّار، سَمِعَ غِناءً ورَقْصاً. فدَعا أَحَدَ الخَدَمِ واستَخبَرَ ما عَسَى أَن يَكونَ ذلك. فقالَ له: قَدِمَ أَخوكَ فذَبَحَ أَبوكَ العِجْلَ المُسَمَّنَ لأَنَّه لَقِيَه سالِماً. فغَضِبَ وأَبى أَن يَدخُل. فخَرَجَ إِلَيه أَبوهُ يَسأَلُه أَن يَدخُل، فأَجابَ أَباه: ها إِنِّي أَخدُمُكَ مُنذُ سِنينَ طِوال، وما عَصَيتُ لَكَ أَمراً قَطّ، فما أَعطَيتَني جَدْياً واحِداً لأَتَنَعَّمَ به مع أَصدِقائي. ولَمَّا قَدِمَ ابنُكَ هذا الَّذي أَكَلَ مالَكَ مع البَغايا ذَبَحتَ له العِجْلَ المُسَمَّن! فقالَ له: يا بُنَيَّ، أَنتَ مَعي دائماً أَبداً، وجَميعُ ما هو لي فهُو لَكَ. ولكِن قد وَجَبَ أَن نَتَنَعَّمَ ونَفرَح، لأَنَّ أَخاكَ هذا كانَ مَيتاً فعاش، وكانَ ضالاً فوُجِد".

(لوقا ١٥: ١١-٣٢)

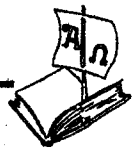

أنه احق بالمكافأة: "ما عصيتك امراً... ولم تعطني جديا...". الاب يجمع ولا يفرق، لا ينسى عرى المحبة ولا صلة القربى: "ابني هذا اخوك... ان اخاك هذا...". اما الابن الاكبر فينكر صلته باخيه ويتبرأ حتى من القرابة الدموية بينهما اذ يقول: "ابنك هذا...". الاب يفرح لعودة ابنه ويدعو الى الاحتفال بهذه الفرحة، اما الابن الاكبر فيرفض الاشتراك ولا يدع الاخرين يفرحون. انه يواجه من لهم الحق في الفرح، بالكآبة والبرود والقساوة؛ وعوض ان يتضامن مع اخيه العائد، يريد ابعاده مرة اخرى عن شركة ابيه ليبقى هو الوارث الاوحد.

لقد كان بامكانه ان يتنعم كل يوم ويفرح مع اصحابه دون اعتراض من والده، ولكنه لم يفعل لانه كان منغلقا على ذاته. لقد انقبض قلبه وتحجر وفقد معنى الحنان والمشاركة، وها هو يتكلم لغة الخدمة والعبودية والطاعة والعدل: وتلك هي لغة الفريسيين، لغة الشريعة. اما ابوه، فلغته لغة المحبة والرحمة، لغة الله التي لا تدين بل تعطي الحياة بعد الموت. الابن الاكبر لم يترك بيت ابيه، ظانا انه بار، ولكنه لم يشعر يوما انه من اهل البيت، لابل ها هو يتهم اباه بانه غير عادل وغير منصف، ويعتبر عطفه تجاه اخيه انتقاصا من حقه هو.

ان مواقف الانسان، اليوم، تجاه اخيه ما زالت قائمة، وان اختلف الزمان؛ وتظهر هذه المواقف المتشددة في شتى مفردات الحياة الاجتماعية او الدينية، والامثال كثيرة: "المسيحي الصدّيق" المنغلق في برّه وممارساته التقوية التقليدية، حين يرى جاره او زميله صاحب الماضي الرديء يعود الى حياة الايمان ويمارس تقواه بتوبة نصوح، نراه، عوض ان يفرح ويشجع ويصلي كي تدوم هذه التوبة، يحزن ويتألم ولا يجامل ولو بسلام او كلمة طيبة. انه كالابن الاكبر، لا يرضى، حسدا بعودته، بل يحاول التشهير به والاساءة الى سمعته وفضح ماضيه. هناك من لا يفرح لفرح الاخرين ولا يرضى ان يكون غيره افضل منه او اكثر ثقافة او تدينا، فيمتلىء قلبه حسرة لكل خير او نجاح او تكريم يحصل لغيره.

ويحدث هذا بين الكنائس والقوميات والشعوب، بين الاهل والاصدقاء، بين الرهبنات والاكليروس وكل فئات المجتمع.

كم من مشاريع ونشاطات خيرية وتربوية، ثقافية ودينية، هدمت او كادت تهدم بسبب حسد الاخرين: فلا هم يعملون ولا يدعون الاخرين يعملون! كم من لقاءات بين الكهنة ومعلمي التعليم المسيحي والشباب والكنائس باءت بالفشل لانها حوربت حسداً، واحياناً باسم المسيح وخير الطائفة ادعاءً.

ذلك كله ناتج عن عدم الاعتراف بقدرات وحق الاخرين، وعن التقوقع في مفاهيم عصبية عنصرية قَبَلية وطائفية. أليس الحسد والحقد وضعف الايمان والانانية قد قتلت فيهم الحب والفرح والسلام، ومحت من قلوبهم معنى الاخوّة والغفران والتشجيع وتجاوز الذات؟

الأب جبرائيل شمامي — حزيران-تموز ١٩٩٠

في هذا المثل اراد يسوع ان يصور لنا في العمق، لا موقف الابن المشين، بل محبة الأب (ومحبة الله -الاب) ومواقف الانسان تجاه هذه المحبة، المتمثلة في دور الابن الاكبر تجاه اخيه. ولفهم دور الابن الاكبر وجب العودة الى ما قصده لوقا في امثاله الثلاثة السابقة ألا وهو المفقود الذي وُجد والمشاركة في الفرح الناتج عن هذه المناسبة.

كثيرون اخذوا هذه الامثال على انها للتوبة، غير ان لوقا نراه يلح على الفرح الذي يغمر القلب عند اكتشاف الشيء المفقود، ورغبة مشاركة الاخرين في هذا الفرح. أليس احدى ركائز تبشير يسوع هي البشرى التي يزفها للخطأة والعشارين اذ جاء لخلاصهم. أليس هو المثل الحي لله الذي يرحم المفقود ويفرح بعودته: "هكذا يكون الفرح في السماء بخاطئ واحد يتوب" (لوقا ١٥: ٧-١٠). لقد أظهر يسوع دوماً انحيازه الى الخاطىء والمنبوذ والمحتقر ليرفعه الى فوق وليرد اليه كرامته: "انه يأكل مع العشارين والخطأة"! ومقاسمة الطعام هي مشاركة في الفرح والسلام. يسوع يفرح بعودة زكا اذ يقول: "اليوم حصل الخلاص لهذا البيت، فهو ايضا ابن ابراهيم، لان ابن الانسان جاء ليبحث عن الهالك فيخلصه" (لوقا ١٩: ١٠). انه لم يأت للأصحاء بل لشفاء المرضى، يترك التسعة والتسعين ويهرع لنجدة ضال واحد.

ومن خلال موقف الابن الاكبر اراد يسوع فضح موقف الفريسيين والكتبة ورؤساء الكهنة اذ كانوا يتذمرون حسداً، غير راضين عن يسوع لانه يحب العشارين والخطأة ويزورهم ويواكلهم: بمعنى آخر انه يساويهم مع الاخرين بل يفضلهم على الكثيرين. اما هم فكانوا يحسبون انفسهم الابناء المطيعين لأوامر الله، المحافظين على الناموس وتكميل الشريعة حرفياً، الذين لم يجحدوا دين ابائهم، بل ظلوا امينين لاله اسرائيل و لم يعصوا له امراً. فكيف يقول يسوع هذا: "ان الكرم سيعطى لفعلة آخرين"، "وان الله سيقبل من المشارق والمغارب في ملكوته، اما ابناء الملكوت فيطردون خارجاً"، و"ان العشارين والزواني يسبقونهم الى ملكوت الله"!!!

الابن الاكبر يمثل هؤلاء المنغلقين في برهم، ويرفضون قبول الخاطئ التائب. فالمنغلق، اناني لا يرى الا ذاته، ومن ثمة يتصور انه هو المستحق كل خير، دون هؤلاء الناس "الخطفة الظلمة الفجار". هكذا يرفض الاخ الاكبر عودة اخيه الصغير التائب، بل يرفض الاعتراف به اخاً، ولا يدخل الى الفرح الذي اقيم له.

الاب يتغاضى عما فعله ابنه الاصغر ويرفض سماع اعترافه بإثمه، اما ابنه الاكبر، فعوض ان يتغاضى عما اقترفه اخوه، يقوم بتضخيم ما فعله والتشهير به. فبينما تقول القصة: "ان الابن الاصغر بدد ماله عائشا في الاسراف" يضيف هو ويقول: "انه اكل مالك مع البغايا".

الاب يفكر في شركة الحياة والعطاء الدائم والمقاسمة المفرحة: "يا بني انت معي دائما وجميع ما هو لي فهو لك". اما افكار الابن الاكبر، فجامدة حول تكميل الواجب، ويعتبر

القدرة الخفية

"وأَوردَ لَهم مَثَلاً آخرَ قال: مَثَلُ مَلَكوتِ السَّمواتِ كَمَثَلِ خميرةٍ أَخذَتها امرأةٌ، فجعَلتها في ثَلاثةِ مَكاييلَ مِنَ الدَّقيق حتَّى اختمرَت كُلُّها".
(متى ١٣: ٣٣)

لقد شبه المسيح الملكوت بالخميرة، لمعرفته بمزايا ومفعول هذه المادة وتفاعلها السريع مع العجنة، هو الذي عاش في محيط قروي وشاهد نساء قريته يصنعن العجين للخبز، ولاحظ امه مراراً كيف تذيب كرة الخميرة الصغيرة في الماء لتضعها في العجين لتخمر العجين كله. انه يعرف ان بالخميرة يصبح الخبز أطيب مذاقاً، وان الخبز يبقى لمدة اطول ولا يفسد، وان الخميرة تزيد الخبز طراوة وكمية، كما يعرف ان العجين المخمَّر يصبح بدوره خميرة صالحة لتخمير عجين آخر.

ان ما قصده المسيح من هذا المثل هو فاعلية البشرى والملكوت الذي نادى به، اذ ان قوته السرية كامنة في ذاته وهو ينمو ويكبر وسط هذا العالم الكبير... كالخميرة في العجين. المبشر ينقل بشارة الملكوت، كالمسيح الذي سعى حياته كلها بالصبر والثقة والقول والعمل.. اما ما سوى ذلك، فعلى الله وعلى الارض الجيدة، كحبة الحنطة المطمورة في الارض: "ليس الغارس بشيء ولا الساقي، بل ذاك الذي ينمي وهو الله" يقول مار بولس (١ قورنتس ٣: ٥-٩).

اليس الرب هنا لينقذ اهل السفينة التي تلاطمها الامواج -كنيسته- في هذا العالم المضطرب؟ أليس هو الذي طمأن من آمن به: "ما بالكم خائفين يا قليلي الايمان"؟ (متى ٨: ٢٥). انه يأمر وتهدأ الاضطرابات. يُحسَب نائما وغائبا، وهو الذي يقول: "ها انذا معكم طوال الايام الى نهاية العالم" (متى ٢٨: ٢٠). الملكوت ينمو ويرتفع بفعل الايمان والمحبة، كالخميرة القليلة التي تخمر العجنة كلها. الايمان بالصمت والعمل الخفي يزهر ويفرض ذاته؛ والمؤمن الواثق، كالمسيح، هو أيضا يجترح المعجزات: "لو كان لكم ايمان لا يدخله ريب لكنتم اذا قلتم لهذا الجبل قم فاهبط في البحر، يتم لكم ذلك" (متى ٢١: ٢١).

ان النفس الزاخرة بالحياة والايمان تنتقل عدواها كشذى الازهار... عندما يصبح المؤمن "علامة مضيئة" لاهتداء اخوته بتقواه ومثاله الصالح. أليست تلك معجزة تفوق نقل الجبال!

يحكى ان الاب لافال أُرسل الى جزيرة موريس، شرقي مدغشقر، ليبشر بالانجيل. وكان نصف السكان معمَّذين، الا ان حياتهم كانت لا تزال موبوءة بالوثنية. وبعد خدمة دامت ٢٣ سنة، اهتدوا جميعا وتابوا بفضل نعمة الله المتجلية في حياته المثالية التي قضاها بالتقوى والغيرة والعمل المتواصل، وبايمانه وتواضعه وتقشفه ومحبته. هكذا من التزم بالانجيل في حياته ومثاله: فالانجيل له القدرة الخفية كي يتفاعل في الآخرين، وينمو ملكوت الله في العالم مثل الخميرة. فكم من وعظ لم يَفدْ، وارشاد لم يؤثر ونصيحة لم تَفِ بالغرض، وتعليم لم ينلْ قبولا.. بينما أثمرت شهادة حياةَ واحدة واصبحت سبب اهتداء لكثيرين.

في هذا العالم -اليوم بالذات- حيث انقلبت المفاهيم والموازين، وفقدت القيم في كثير من مجالات الحياة، مطلوب من كل فرد مسيحي ان يلتزم ويفكر ويعمل ويدبر شؤونه بايمان واستقامة وصفاء الروح على مثال المسيح: في مجال البيع والشراء، وفي كل ميادين العمل، لزم ان يبقى نوراً يشع وخميرة تؤثر، ولو ببطء، على من حوله، وذلك بالرغم من المعاكسات والاضطهادات التي قد يلاقيها. اجل، قد يُحسَب، في هذه الايام، مغفلا وشاذا التاجر الذي لا يكذب ولا يغش ولا يخدع! ففي سبيل الربح الاكبر يستبيح استعمال كل الطرق الملتوية (وكأن الغاية تبرر الوسيلة)! اما اذا كان ضميره حيا ومبادىء المسيح نصب عينيه، عُدَّ معقدا وليس تاجراً!

هناك حقيقة اخرى لا تخفى على احد وهي ان حضور المسيحيين الملتزمين في مجتمع موبوء، هو عامل فعال في التوعية وتنقية الاجواء وبث الصحة الايمانية بالمثل والصبر. اذا كانت الخميرة جيدة وصالحة، فلا بد ان تتفاعل مع العجين لتخمره كله.

قالت اليزابيت لسيرْ لأحدهم: "اذا ارتفعت نفس واحدة يرتفع معها العالم باسره". فالمؤمن الحقيقي يقوم بدَور الخميرة في العجين، والنور في الظلام، والملح في الطعام. وهكذا بحبه وايمانه ومثاله ومبادئه المسيحية، لا بد له ان يضيء امام اقدام الاخرين ليسيروا في طريق الخلاص. يحكى ان ثلاثة الاف جندي انكليزي سقطوا اسرى بأيدي اليابانيين اثناء الحرب العالمية الثانية؛ ولسوء معاملتهم وشدة الامهم النفسية، فقدوا كل القيم الروحية والانسانية وانهمكوا في العنف والسرقة والشذوذ الجنسي.. غير انهم تخلصوا من هذا الوضع بفضل ايمان شابين مسيحيين ملتزمين، وبفضل المحبة التي ابدياها، حاثين الجميع ليكونوا عائلة واحدة، وكان شعارهما هذه المقولة المأثورة: "بحثت عن نفسي فلم اجدها، بحثت عن الله فغاب عني، بحثت عن اخي فوجدت الثلاثة معاً.."! أليست هذه هي القدرة الخفية التي تصنع المعجزات.

امثال هذين الشابين موجودون رغم قلتهم: العامل في معمله، والكاهن في رعيته، والراهبة في ديرها او مركز عملها، والطالب في مدرسته، وكل فرد في نطاق عمله: بهم يزدهر الملكوت وينمو بالصمت والاشعاع: "حبة الحنطة ان لم تقع في الارض وتمت لا تأتي بثمر، وان ماتت اتت بثمر كثير".

آب-ايلول ١٩٩٠ — الأب جبرائيل شمامي

طوبى لمن كان غنيا بالله!

"ثُمَّ ضَرَبَ لَهم مَثَلاً قال: رَجُلٌ غَنِيٌّ أَخصَبَت أَرضُه، فقالَ في نَفسِه: ماذا أَعمَل؟ فلَيسَ لي ما أَخزُنُ فيه غِلالي. ثُمَّ قال: أَعمَلُ هذا: أَهدِمُ أَهرائي وأَبْني أَكبرَ مِنها، فأَخزُنُ فيها جَميعَ قَمْحي وأَرْزاقي. وأَقولُ لِنَفْسي: يا نَفْسِ، لَكِ أَرزاقٌ وافِرَة تَكفيكِ مَؤُونَةَ سِنينَ كَثيرة، فَاستَريحي وكُلي واشرَبي وتَنَعَّمي. فقالَ لَه الله: يا غَبِيّ، في هذهِ اللَّيلَةِ تُستَرَدُّ نَفْسُكَ مِنكَ، فلِمَن يكونُ ما أَعدَدتَه؟ فهكذا يَكونُ مصيرُ مَن يَكنِزُ لِنَفْسِهِ ولا يَغتَني عِندَ الله".
(لوقا ١٢: ١٦-٢١)

كثيراً ما يُقرأ هذا النص من الانجيل انطلاقاً من الفكرة الفلسفية الثنائية حول التضاد بين المادي والروحي. وهذا مفهوم خاطىء، اذ انه يقود الى الوقوع في الفخ، فخ احتقار هذه الدنيا ونبذ الامور المخلوقة والهرب منها وعدم العمل في هذه الحياة، في انتظار الكنز المقبل في السماء بعد الموت.

ان المفتاح الجيد لفهم هذا المثل نجده في الآيتين ٣٢ و٣١ من الفصل ذاته في لوقا: "لقد شاء ابوكم ان ينعم عليكم بالملكوت" و"اطلبوا بالحري ملكوته، وهذه كلها تزاد لكم". و"الملكوت" هنا ليس الجنة الموعودة بعد الموت، بقد ما هو فعل الله فينا (مُلك الله): اي ان يصبح الله مَلكا لنا، ونصبح رعيته التي تأتمر بأمره وتتبع شريعته، شريعة الحب والعدل والسعادة. وان نطلب ملكوته تعالى أولاً، معناه ان تكون له الاولوية المطلقة في حياتنا، والباقي كله ثانوي وزائل لا يُعتمد عليه ولا يعطي السعادة: "ابانا الذي في السماوات.. ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك...". وهذا قد أتمه الله في ابنه يسوع في هذه الايام الاواخرية، وبهذا يحقق كل مواعيد العهد القديم: "انا الهكم وانتم شعبي... أسكن

بينكم" (تثنية ٢٨: ٩؛ ٢٩: ١٣). به يتحقق البر والعدالة والغفران، وهو الذي يعطي الحياة، وبه تتم المصالحة والسلام...

وبعد أن يفهم الانسان الذي آمن ان الله الذي جاء ليبسط ملكه، هو ابوه، وسلك بحسب ارادته ("لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الارض")، لا يعود هذا الانسان ينظر الى حياته والى العالم كالسابق. فلقد حدث انقلاب جوهري في حياته، حيث ان ارتكازه واتكاله لن يكونا من بعد على نفسه وامواله، بل على الله وحده: "انت صخرتي وقوتي" يقول المزمر. انه يترك جيداً ان كل ما في العالم، وما تملك يداه، انما هي علامات عناية الله الابوية به شخصيا وبالاخرين. فكل المخلوقات تحدثه عن الخالق وطيبته، وهو ينظر اليها كهبات من ابيه، يقبلها من يديه شاكرا بفرح؛ والخيرات التي في حوزته يعتبرها ارثا يقتسمه مع اخوته الفقراء اعزاء الله. وهكذا يصبح المال والمقتنى، بالنسبة للمؤمن، وسيلة ثانوية: ان ما يهمه بالدرجة الاولى هو ان يأتي ملك ابيه السماوي، فهو يميز بين الهبة والواهب، ولا يستبدل الخالق بالخليقة ابدا.

هكذا يبدو القلق والغم بسبب شؤون المعيشة شيئا مضحكا بالنسبة للمؤمن، بل يُعتبر جاهلا من حاول تأمين حياته ونفسه بالمال الكثير، او حتى بالمكانة الاجتماعية او التحصيلية من دون الله ومن دون ان يكون قد أغنى رصيده بقيم الروح والايمان: "ماذا ينفع الانسان لو ربح العالم كله وفقد نفسه او خسرها" يقول يسوع المسيح. ويشوع بن سيراخ يقول: "رُبَّ غني استغنى باهتمامه وإمساكه يقول: قد بلغت الراحة وانا الان آكل من خيراتي، وهو لا يعلم كم يمضي من الزمان حتى يترك ذلك لغيره ويموت" (ابن سيراخ ١١: ١٨-٢٠).

ان لوقا في مثله عن "الغني الجاهل"، او عندما ينسب الى يسوع قوله: "بيعوا اموالكم وتصدقوا بها" (لوقا ١٢ :٣٣) لا يعني ان الانسان المؤمن يستطيع ان يعيش من دون تدبير او عمل، بل ان العمل ضروري والتدبير حسن واللجوء الى العقل واجب؛ وواجب ايضا ان يعرف المرء في هذه الدنيا ترتيب الاولويات في حياته، فالغنى الحقيقي هو في الداخل، في قلب الانسان وروحه -لا في يده، ولا في جيبه: "حيث يكون كنزكم هناك ايضا يكون قلبكم" (لوقا ١٢: ٣٤).

فليس الخلاص للانسان بالمال الذي يجمعه بجهوده، ولا بقوة الحصان الذي يركبه، كما يقول الكتاب المقدس، بل بقوة الله وبنعمته المجانية. هذا هو الغنى الحقيقي والكنز الثمين الذي من اجله يباع كل شيء ويشترى. هناك قيم اخرى اسمى من المال في الحياة: "لا تكنزوا لأنفسكم كنوزا في الارض حيث يرعى السوس والعث، وينقب اللصوص فيسرقون، بل اكنزوا لأنفسكم كنوزا في السماء" (متى ٦: ١٩-٢٠). في عصرنا اليوم

اصبح الاقتصاد والتجارة هو الاله المهيمن على قلوب الناس. كل اهتماماتهم ودراساتهم، هدفها الربح والسيطرة؛ بعضهم استأصلوا الله من حياتهم ولا يحسبون له اي حساب، ولم يَدَعوا في حياتهم اي افق آخر سوى توسيع ثروتهم ونفوذهم. وعندما يُستأصل الله من حياة أُمرئ ما، فان الانسان ايضا يُستأصل منها، فيبقى الانسان انانيا عقيما. هؤلاء هم الذين "يجمعون لأنفسهم ولا يُغنَون بالله".

لنسمع كيف ينذر مار يعقوب الاغنياء العقماء المتكلين على اموالهم دون الله: "يا ايها الذين يقولون: سنذهب اليوم او غدا الى هذه المدينة فنقيم فيها سنة نتاجر ونربح. انتم لا تعلمون ما يكون من امركم غدا. فما هي حياتكم؟ انتم بخار، يظهر حينا ثم يتوارى، هلا قلتم: ان شاء الله، نعيش ونفعل هذا أو ذاك! ولكنكم تباهون بصلفكم، ومثل هذه المباهاة منكرة. فمن عرف كيف يصنع الخير ولم يصنعه اقترف خطيئة..." (يعقوب ٤: ١٣-١٧ و٥: ١-٦).

يسوع ابن الله

"بَدءُ بِشارَةِ يسوعَ المسيحِ ابنِ اللهِ: كُتِبَ في سِفرِ النَّبِيِّ أَشَعيا: هاءَنذا أُرسِلُ رَسولي قُدّامَكَ لِيُعِدَّ طَريقَكَ. صَوتُ مُنادٍ في البَرِّيَّة: أَعِدُّوا طَريقَ الرَّبّ وَاجعَلوا سُبُلَه قَويمة.

وفي تِلكَ الأَيّام جاءَ يسوعُ مِنَ ناصِرَةِ الجَليل، واعتَمَدَ عن يَدِ يوحَنّا في الأُردُنّ. وبَينَما هو خارِجٌ مِنَ الماء رأَى السَّمَواتِ تَتشَقّ، والرُّوحَ يَنزِلُ عليه كَأَنَّهُ حَمامة. وانطَلَقَ صَوتٌ مِنَ السَّمَواتِ يقول: أَنتَ ابني الحَبيب، عَنكَ رَضيت".
(مرقس ١: ١-٣، ٩-١١)

سألني صديق من بغداد في احد الايام: ابونا، هل حقاً ورد في الانجيل بصريح العبارة ان يسوع هو ابن الله؟

فاعطيته جوابي: بالتأكيد والتمام. فان القديس مرقس يفتتح انجيله باعلان هذه الحقيقة عندما يقول: "بدء بشارة يسوع، المسيح، ابن الله" (مرقس ١: ١).

وليست هذه العبارة مجرد اعلان. انها التعبير عن المبدأ الاساس الذي يرتكز عليه انجيل مرقس. فانجيل مرقس، بمجمله، ما هو سوى توسع واسترسال في شرح هذه الفكرة.

السماء تعلن هذه الحقيقة ليسوع، حين انفتحت السماوات ونزل الروح عليه، وجاء صوت سماوي قائلاً: "انت ابني الحبيب، بك سررت" (مرقس ١: ١١).

ففي هذا الوقت المبارك بالذات، وعى الانسان يسوع بانه المسيح، ابن الله، وبان عليه ان يعلن ان ملكوت الله قريب... فدعا الناس الى اتباعه، والايمان به، والدخول في ملكوت الله معه سوية.

غير ان ردة فعل الناس تجاه هذه الدعوة كانت بطيئة، وامام اقوال المسيح ومعجزاته، تساءلوا: "ما هذا التعليم الجديد؟" (مرقس ١: ٢٧)، "من ترى هذا حتى الريح والبحر يطيعانه؟ (مرقس ٤: ٤١)، واخذوا يكتشفون تدريجيا ان يسوع ليس انسانا عادياً كسائر الناس، وذلك بالرغم من ان عقولهم لم تتفتح لمعرفته بسهولة (انظر مرقس ٦: ٥٢، ٧: ١٨ وغير ذلك من النصوص).

واخيرا، عندما يأخذ الرسل يفهمون، يصبح انجيل مرقس لغزاً حقيقياً. ففيما نتوقع ظهور علائم الفرح من اكتشاف التلاميذ لشخصية المسيح، ودعوتهم الى ان يعلنوا للعالم بان يسوع هو المسيح، العكس هو الذي يحدث. فبعد اعتراف بطرس، نرى يسوع ينتهر الرسل عن التكلم بذلك لأي احد (مرقس ٨: ٣٠)، ويفعل الشيء ذاته بعد التجلي (مرقس ٩:٩).

ترى، لماذا يمنعهم عن التكلم؟

لأن يسوع، بصفته ابن الله، هو الكشف الكامل عن الله. والحال ان الوحي، بعد الاستماع الى اقوال يسوع ومشاهدة معجزاته، ليس كاملا بعد، واننا لم نر بعد كل شيء! وعلينا انتظار آلام يسوع لنرى من هو الله وما هي مخططاته تجاهنا.

ففي بداية الامه، نرى يسوع امام المجمع اليهودي، ورئيس الكهنة يلقي عليه السؤال الاساسي: "هل انت المسيح، ابن الله المبارك؟" (مرقس ١٤: ٦٠). فيجيب يسوع: "انا هو"، ويضيف: "وسوف ترون ابن الانسان جالسا عن يمين القدير، وآتيا في غمام السماء". ومثل هذه العبارة تعني بانه سيأتي لممارسة الحكم العام. فيسوع، اذن، ينسب الى ذاته صفات إلهية.

وبعد هذا الكشف "عبر الكلمات"، يأتي كشف اخير "عبر الافعال"، حيث يخضع يسوع للصلب، مما يعني ان امكانية رفض الله واردة حتى الاخير، الى درجة صلبه.

ولكن رجلا فهم معاني تلك الاحداث عند اقدام الصليب بالذات، وهذا الرجل هو قائد المئة الذي هتف: "لقد كان هذا الرجل ابن الله حقاً" (مرقس ١٥: ٣٩). وهكذا كانت اخر صورة ارضية نكتشفها عن الوحي الالهي، هي صورة يسوع، ابن الله، الذي يموت على الصليب من اجل خلاصنا.. ثم صورة يسوع الناهض من القبر، صورة ابن الله الذي هو اقوى من الموت.

اجل، ان الانجيل يؤكد بصريح العبارة ان يسوع هو ابن الله. ومن هذا الانسان -الاله ننتظر خلاصنا، نحن ابناء القرن العشرين.

التتلمذ ليسوع

"وكانَ يسوعُ سائراً على شاطِئِ بَحرِ الجَليل، فرأَى سِمعانَ وأَخاهُ أَندَراوس يُلقِيانِ الشَّبَكَةَ في البَحر، لأَنَّهما كانا صَيَّادَيْن. فقالَ لَهما: إتبَعاني أَجعَلْكما صَيادَي بَشَر. فتَرَكا الشِّباكَ لِوَقتِهما وتَبِعاه. وتَقَدَّمَ قَليلاً فَرأَى يَعقوبَ بْنَ زَبَدى وأَخاهُ يوحَنَّا، وهُما أَيضاً في السَّفينَةِ يُصلِحانِ الشِّباك. فدَعاهُما لِوَقتِه فتَرَكا أَباهُما زَبَدى في السَّفينَةِ مَعَ الأُجَراءِ وتَبِعاه".
(مرقس ١: ١٦-٢٠)

لا يوجد إلا اله واحد.

وهذا الاله هو خالق السماء والارض، وكل ما يرى وما لا يُرى.

ورائعة الخلقة هو الانسان. بل اراد الله ان يخلقه على شبهه: "وخلق الله الانسان على صورته، على صورة الله خلقه، رجلاً وامرأة خلقهما" (تكوين ١: ٢٧).

فمنذ البدء، اذن، كانت الادوار واضحة: لا يوجد إلا إله واحد، وهو الخالق؛ وهناك الانسان؛ وهو خليقته. فمن اين اتت، اذن، فكرة "ابن الله"؟ وماذا تعني هذه الفكرة؟

ان انجيل مرقس، ما إن يعلن بان يسوع هو "ابن الله"، حتى يدفعنا الى التفكير بهذا الحنين العميق القديم للانسانية، ألا وهو رغبة الانسان في التصالح مع الله. وهذا يعني ان شيئاً ما لا يسير على ما يرام بيننا وبين الله. اننا لا نشعر، في اعماقنا باننا ذلك الشخص السامي الملتحف بالمجد الذي خُلق على صورة الله، وانما نشعر اننا، بالاحرى، انانيون ومعرضون لفعل الشر. بكلمة واحدة اننا خطأة، وصورة الله فينا صارت مشوهة وضائعة.

ولقد ظنّ الناس، ردحاً من الزمن، انهم قد وجدوا هذه المصالحة لدى النبي الخشن الذي يدعى يوحنا المعمذان. ولكن يوحنا كان مجرد صوت، صوت يابس كرمال الصحراء؛ كان انساناً يتغذى من الجراد ومن عسل البر؛ كان يداً تُعمِّذ للتوبة، ليس إلا.

وهذا الصوت لم يكن ليتحدث باسمه الخاص، بل كان يشير الى شخص آخر؛ واليد التي كانت تعمذ، كانت تشير الى يسوع. فلقد كان يوحنا يقول: "لقد هيأت الطريق،

فاذهبوا الى يسوع". وعندما عمدّت يداه يسوع، صوت آخر جاء من السماء وقال عن يسوع: "انت ابني الحبيب، بك سررت" (مرقس ١: ١١).

وها نحن من جديد امام هذه العبارة التي لا يمكن الحياد عنها: "يسوع هو ابن الله"، يسوع يصالحكم مع الله؛ انه سيعمذكم بالروح القدس.

بيد اننا نثير هنا مواضيع كثيرة في آن واحد! وعبارة "ابن الله"، قبل ان نشرحها بوضوح، هوذا القديس مرقس يتجاوزها ويتكلم عن "الروح القدس". فمن اين يأتي هذا الروح القدس؟ وما معناه؟

عوض ان نستعجل الاجابة، او نطالب بجواب شاف وكامل وعلى الفور، لنتوجه الى يسوع، عاملين بنصيحة مار يوحنا المعمذان. لنجلس لمدة دقيقة واحدة في كنيستنا الخورنية، حيث اقتبلنا العماذ، ولننصت الى اقوال يسوع في الانجيل...

فلقد توجه يسوع، ابن الله، بعد عماذه بقليل، الى الناس قائلا: كفّوا قليلاً عن الامور التي تربككم وانصتوا. اطرحوا عنكم ادوات العمل، واستمعوا اليّ، ان لي كلمة اقولها لكم: ها اني اعلن لكم بشرى الله: الله يريد ان يصالحكم معه!

ولقد لبى بطرس واندراوس ويعقوب ويوحنا نداء يسوع بحذافيره، فتركوا شباكهم وسفينتهم وتبعوا يسوع (مرقس ١٦:١-٢٠). وما عتموا ان اكتشفوا انهم امام انسان له شيء جديد حقاً يقوله لهم: "تعليم جديد". وتحققوا ايضا، لدى وجودهم وجها لوجه مع يسوع، ان الارواح النجسة كانت تفقد سلطتها امامه. وكان هذا الاحتكاك الجديد حافزا للتلاميذ الاولين الى الاستمرار في اتباع يسوع، لكي يروا ويسمعوا اكثر.

كثيرون منا، لا زلنا نتسمى باسماء بطرس، واندراوس، ويعقوب، ويوحنا، وسمعان، ومتى، وتوما، وفيليب... وهذه الاسماء هي اسماء التلاميذ السابقين انفسهم، ذلك لاننا نحن ايضا، مثلهم نفاخر باننا نتبع يسوع. غير ان العالم الذي نعيش فيه يختلف عن عالمهم، بما يحمله من اضطرابات وتغييرات. العمل لم يعد ينتهي مع غروب الشمس؛ والسفر لم يعد يتم على ظهور الحمير؛ والشباب لم يعودوا يستقون تثقيفهم عند اقدام احد حكماء القرية... ويأتي السؤال ليطرح نفسه: ترى هل ان لايماننا المعنى ذاته كما كان يومذاك؟ هل ان ليسوع شيئاً يقوله لنا اليوم ايضا؟

ان يسوع لا يزال يعلّم كما في السابق "كمن له سلطان" (مرقس ١: ٢١)؛ وهذا هو الكشف الاول الذي يفتح الطريق امامنا لفهم طبيعة تعليمه، تعليم صادر "بسلطان ابن الله".

وفي الفصل ذاته من انجيل مرقس الذي استهللنا به، يشفي يسوع رجلاً استحوذ عليه روح نجس (مرقس ١: ٢٣). وعندما يتكلم يسوع ويعمل، يتم فعل مصالحة الانسان مع الله!

اذهبوا، يوم الاحد، واستمعوا الى كلام يسوع في الكنيسة. اطلبوا اليه ان يشفينا من الروح النحس الذي يستحوذ علينا. أليس ان يسوع يعلن رسالة الله "بسلطان"!

كيف نتكلم عن الله

"ومَرَّ يسوعُ في السَّبتِ مِن بينِ الزُّروع، فأَخَذَ تَلاميذُه يَقلَعونَ السُّنبُلَ وهم سائرون. فقالَ له الفِرِّيسيُّونَ: أَنظُرُ! لِماذا يَفعَلونَ في السَّبتِ ما لا يَحِلّ؟ فقالَ لهم: أَمَا قَرأتُم قَطُّ ما فَعَلَ داوُد، حينَ احتاجَ فجاعَ هو والَّذينَ معَه؟ كَيفَ دخَلَ بَيتَ اللهِ على عَهدِ عَظيمِ الكَهَنَةِ أَبْياتار، فأَكَلَ الخُبزَ المُقدَّس، وأَعطى مِنه لِلَّذينَ معَه، وأَكلُه لا يَحِلُّ إلاَّ لِلكَهَنَة. وقالَ لهم: إن السَّبتَ جُعِلَ لِلإِنسان، وما جُعِلَ الإِنسانُ لِلسَّبت. فَابنُ الإِنسانِ سَيِّدُ السَّبتِ أَيضاً".
(مرقس ٢: ٢٣-٢٨)

حدث لي في الاونة الاخيرة أن قلت لمحدثيّ: ارجوكم، لا تتكلموا عن الله كيفما كان. فالناس، في هذه الايام، يتكلمون عن الله اكثر من اللازم! وكانوا ينظرون اليّ وكأني أجدّف. ومع ذلك فانا موقن بأن ليس الله هو الذي يريد الحروب، ولا من يقودها. ليس الله الذي يسبب الكوارث في الطبيعة عقاباً لخطايانا! إذن، لماذا نحشر الله في كل هذه الظواهر؟

-اجل، ولكن هل انت متأكد من أن الله لا دخل له فيها؟

-لتنفحص الحجج التي ننطلق منها للتحدث عن الله.

هناك حجتان اساسيتان: الكتاب المقدس ورجال الدين. فنحن، بالايمان، نقبل بالكتاب المقدس موضعاً يتكلم الله فيه، اما رجال الدين، فلا بد انهم يعرفون اكثر منا عن الله. فلقد كرسوا حياتهم له؟

بيد ان هاتين الحجتين قد تقودانا الى الشطط، ما لم تستنيرا بهدي روح الله. فغالباً ما ينساق المرء بروح بشرية ضيقة، فيصوغ لذاته فكرة معينة عن الله، ومن ثم يسخّر الله

وكتابه الكريم بحسب تصوراته الشخصية. وهنا الطامة الكبرى... حيث نجد أنفسنا أمام إله يسوق الحروب ويفجر المفاعلات النووية!

وياتي الانجيل ليضع الامور في نصابها، فيشرح لنا يسوع بأي روح ينبغي ان نتقدم من الله.

الانجيلي مرقس يضعنا، منذ البداية، في قلب المسالة. فهو يضع على المسرح رجال دين وبيدهم الكتب المقدسة، وقد صاغوا لأنفسهم فكرة معينة عن الله وعن يوم الراحة، اي السبت.

ولكن يسوع –وهو ابن الله– لا يتطابق في تصرفاته مع نموذجهم الفكري: انه يشفي مقعداً، ويلحق بشفائه غفران خطاياه. وفي احد السبوت لا يلوم تلاميذه عندما يقتلعون السنبل. فيثور الفريسيون ضد يسوع بقولهم ان الله وحده يستطيع غفران الخطايا، فيجيبهم يسوع: "لكي تعلموا ان ابن البشر له، على الارض، سلطان مغفرة الخطايا، قال للمخلع: لك اقول: قم واحمل فراشك وامض الى بيتك" (مرقس ٢: ١٠-١١). واغتاظ الفريسيون من التلاميذ لانهم لا يحفظون الوصايا المتعلقة بيوم السبت. فيجيب يسوع: "ان ابن البشر هو رب السبت ايضا" (مرقس ٢: ٢٨).

ان رجال الدين هؤلاء كانوا على خطأ، لانهم لم ينفتحوا لايحاءات روح الله. لقد كانوا على علم بان الله وحده يستطيع اجتراح الاشفية العجائبية، وان الله وحده يستطيع مغفرة الخطايا، ولكنهم كانوا عاجزين عن الربط بين هذين المبدئين عندما يرون يسوع يجترح المعجزة ويغفر الخطايا في آن واحد. لماذا؟ –لانهم ارادوا من يسوع ان يتطابق مع افكارهم التي صاغوها بأنفسهم، ولم يمرّ بخلدهم انّ عليهم هم ان يتوالفوا مع شخص يسوع، لا العكس. والأنكى انهم تشاوروا كي يهلكوا يسوع (مرقس ٣: ٢٩). الفريسيون يتكلمون عن الله، ولكن من دون ان يصغوا الى الروح القدس. ولو بقوا منفتحين لروح الله، لما فكروا في قتل ابن الله.

والكتاب الموحى به، ماذا منه؟

انه عون للانسان كي ترقى نفسه الى الله. ولكنه ليس قاعدة مطلقة ومعصومة في حد ذاتها، او ثابتة في حرفيتها ابداً. علينا ان نقرأ الكتاب المقدس تحت وحي الروح القدس، ولقد اوضح يسوع ذلك بعبارة بسيطة اذ قال: "السبت جُعل لاجل الانسان، لا الانسان لاجل السبت" (مرقس ٢: ٢٧). لقد جُعل السبت لكي يُكرسه الانسان لله بعد أن يتحرر من أشغاله اليومية. فالسبت، اذن، جُعل لخدمة الانسان، واذا ما تحوّل السبت الى مجرد مجموعة من الشرائع المعقدة، الواجب تطبيقها، فسيختنق الانسان فيه. بهذه الذهنية ينبغي ان

نقرأ الكتاب المقدس، وإلا لَقَتَلَ حرفُ الكتاب روحَ الله الذي هو في اساسه. ذلك ان الحرف يقتل، اما الروح فيحيي، على حد قول مار بولس (٢ قورنتس ٣: ٦).

فاذا ما تكلمنا عن الله، اذن، علينا ان نكون يقظين لسماع روح الله. ألا فلنحسن الاصغاء الى صوت يسوع.

بامكاننا تحديد موقفنا ازاء صوت روح الله بصورة ادق، من خلال حوادث حياة يسوع: فلقد نوت اسرة يسوع، ذات يوم، ارغامه على الصمت، كما جاء في مرقس (٣: ٢١): "ولما سمع ذووه وافوا ليأخذوه، لانه كان يقال: انه متهوس". ترى، باي روح تحرك ذوو يسوع اذ ذاك؟ لقد ارادت اسرته ان يخضع للتوجيهات التي تمليها العشيرة عليه، تماماً كما اراد الفريسيون منه ان يتطابق مع ارائهم: على ابن الله ان يسكت اكراماً لمصلحة اقربائه! ولكن يسوع يجيب السائلين بان اقرباءه هم هؤلاء الذين يطابقون ارادتهم مع ارادة الله، وليس اولئك الذين يطالبون الله ان يلتوي لرغباتهم. علينا ان نتمّ مشيئة الله، لا أن يُتّم الله مشيئتنا.

اذا كنتم مستعدين لاتمام مشيئة الله... أجل، في هذا الاطار وحده كلمونا عن الله؛ وكلماتكم ستكون، حينذاك، بمثابة نعمة من لدن الله. ولكن اذا أردتم ان يُتم الله مشيئتكم انتم... فأرجوكم أكرمونا بسكوتكم!

ألا فلنصغ الى صوت يسوع اولا: "ان من يعمل مشيئة الله هو اخي واختي وامي" (مرقس ٣: ٣٥).

أسرار ملكوت الله

"فلكي تعلموا أنَّ ابنَ الإنسانِ له سُلطانٌ يَغفِرُ به الخَطايا في الأرض (...)

"وقالَ لهم: إن السَّبتَ جُعِلَ لِلإنسان، وما جُعِلَ الإنسانُ لِلسَّبت. فَابنُ الإنسانِ سَيِّدُ السَّبتِ أيضاً".

(مرقس ٢: ١٠، ٢٧)

"فلَمَّا اعتَزَلَ الجَمْع، سأَلَه الَّذينَ حَولَه معَ الاثنَي عَشَرَ عنِ الأَمثال. فقالَ لَهم: أَنتُم أُعطيتُم سِرَّ مَلكوتِ الله. وأَمَّا سائرُ النَّاس فكُلُّ شَيءٍ يُلقى إِلَيهِم بالأَمثال".

(مرقس ٤: ١٠-١١)

يدعو القديس مرقس يسوع "ابن الله" بصريح العبارة في (١:١). بينما يسوع ذاته لا يسمّي نفسه كذلك ابداً. وانما يطلق على نفسه لقب "ابن الانسان" (مرقس ٢: ١٠، ٢٧). لماذا؟

ان عبارتي "ابن الله" و "ابن الانسان"، بالنسبة الى يسوع، تعنيان الشيء ذاته. وإننا لنتحقق من ذلك في حادثة استجواب يسوع في نهاية حياته، عندما يسأله رئيس الكهنة: "هل انت ابن الله؟ (ابن المبارك)، فيجيبه يسوع بالايجاب "انا هو". ويستند يسوع في ذلك على دانيال النبي (٧: ٢٣)، حين يتكلم عن "ابن الانسان" ويخلع عليه صفات الهية.

ان يسوع بتفضيله الحديث عن "ابن الانسان"، يدعونا الى مرافقته في مسيرته كلها: فمن يرى يسوع، انما يرى لاول وهلة، "انسانا" (ابن الانسان)؛ اما اذا تعمق في الامر، فسيكتشف ان هذا الانسان هو الله (ابن الله). لا شك ان ثمة سراً لا يكشفه الله الا لمن يبحث عن الله حقاً.

عندما نبحث عن الله، نرى انفسنا دوما امام حاجز لا يقهر. فبصفتنا خلائق، ليس لنا سوى خبرات هذا العالم، اما ما يتعدى حدود هذا الحاجز، اي عالم الله، فيبقى بالنسبة لنا حاجزاً لا يمكن تخطيه، وعالماً يتعذر ادراكه.

ان الله نفسه، عندما يريد ان يكشف لنا عن شيء، يستخدم الوسائل التي يمكننا ادراكها، كالكتاب مثلا: الكتاب المقدس. في هذا الكتاب، يستخدم الله لغتنا وصورنا البيانية كمحاولة للتعبير عن الامور التي يتعذر التعبير عنها بكلمات بشرية. غير ان هذه الكلمات البشرية الواردة في الكتاب المقدس تتضمن "ايحاءات" و"علامات" تدعونا الى الايمان بحقيقة العالم الالهي. اجل، ان "شيئاً سرياً" يتعذر التعبير عنه يختفي في تضاعيف الكتاب المقدس. اما المنفتحون لتقبل هذه الايحاءات الكتابية، فيدركون ان وراء هذه الايحاءات حقيقة ما. اية حقيقة؟ وكيف نتوصل الى معرفة هذا السر؟

لنأخذ مثل الزارع (مرقس ٤: ١-٨).

في هذا المثل -وهو اول مثل يرد في مرقس- يتحقق ما ألمحنا اليه الان. كيف؟ -لقد شعر التلاميذ بان يسوع يريد ان يقول اكثر من مجرد الحديث عن الفلاح يلقي البذور في الارض. فما هي غاية يسوع الحقيقية، اذن؟ ان التلاميذ استهواهم الامر، لذا اهتموا في التوجه الى يسوع ليسألوه عما يريد قوله حقا: "وسأله أتباعه والاثنا عشر عن مغزى الامثال" (مرقس ٤: ١٠).

وكذلك الامر في ما يخص المعجزات. فالمعجزات هي بالتأكيد علامة لحضور الله الذي، بيد يسوع، يشفي. غير ان الجمع الذي يأتي بمرضاه وممسوسيه لا يبحث، بادىء ذي بدء، إلا عن شفاء اسقامه (مرقس ١: ٣٢- ٣٤). اما من اين ليسوع قوة الشفاء هذه، فذلك سؤال لا يعيرونه الا اهمية ثانوية. وحتى يسوع نفسه لا يحب ان يتحدثوا عنه (مرقس ١: ٤٤). انه ذاته يغلّف البعد الحقيقي للمعجزة عندما يقول عن ابنة يائير بانها لم تمت، وانما هي نائمة فقط (مرقس ٥: ٣٩).

وهكذا فان شيئاً سرياً يختفي وراء المعجزات، وهذا "الشيء السري"، نعود فنقول، مرة اخرى، بان الذين يبحثون عن فهمه، هم وحدهم يكتشفونه.

هناك عدد كبير من الناس لن يفهموه ابدا. "ان لهم عيونا ولا يبصرون، وآذاناً ولا يسمعون" (مرقس ٤: ١٢). هؤلاء لا تسترعي اهتمامهم سوى الافراح الصغيرة المتعلقة بهذا العالم، ولا تعنيهم سوى الالام التي تصيبهم من هذا العالم، ذلك لانهم لا يبحثون عن الله. انهم لا يدركون ابدا ان الفرح الحقيقي هو فرح العيش مع الله منذ هذا العالم. فالله بالنسبة لهم سر، وسيبقى كذلك.

ولكن يسوع قال لتلاميذه: "اما انتم فقد أُنعم عليكم بسر ملكوت الله. واما اولئك فكل شيء يلقى اليهم بالامثال" (مرقس ٤: ١١). ولكن لا نستعجلنّ القول باننا نعرف الانجيل كفاية، وبانه لم يعد ليسوع شيء يكشفه لنا. اننا لن نكتشف "اسرار الله" إلا عن طريق ايمان حي أبداً، ومنفتح دائما لقبول كشف الله.

الدنح...

"ولَمَّا اعتَمَدَ الشَّعبُ كُلُّه واعتَمَدَ يَسوعُ أَيضاً وكانَ يُصَلِّي، إنفَتَحَتِ السَّماء، ونَزَلَ الرُّوحُ القُدُسُ علَيه في صورةِ جِسْمٍ كَأَنَّهُ حَمامَة، وأَتى صَوتٌ مِنَ السَّماءِ يَقول: أَنتَ ابنِيَ الحَبيب، عَنكَ رَضيت".

(لوقا ٣: ٢١-٢٢)

ان انجيل عيد الدنح (اي عيد الكشف المُضيء) يعطي ضوءا جديدا لسر ميلاد يسوع. فانه يكشف لنا، مَنْ كان ذلك الطفل المشرد، ومن هو في عمق كيانه: يسوع الناصري الذي سيظهرُ للشعب نبيا مقتدرا (لوقا ٢٤: ١٩). فالأبصار العادية لن ترى فيه الا انسانا خارقا، ولكن العيون التي تتوجه نحو الآب السماوي (لنتذكر أن السماء انفتحت عندما كان يسوع يصلي) ستعرف أنه "الابن"، أي اشراق نور الآب والشعاع الآتي من جوهر ألوهيته.

هذا هو كشف هوية المسيح. انه أيضا كشفٌ لما هو كيانُنا العميق، أي كياننا كأبناء الله مع المسيح. فنحن، على مثال يسوع، أصبحنا بالعماذ وبنزول الروح القدس علينا اخوة المسيح وأبناء الآب.

"الآب" و"الابن" و"الروح القدس"، الاله الواحد. ان هذه العبارات الكتابية التي جمعها، فيما بعد، اللاهوت المسيحي في عبارة "الثالوث الأقدس"، تُرى أليست تجربة لإيماننا؟ أليست عنصراً يعقّد علاقاتنا مع الله، بالاضافة الى علاقاتنا مع مؤمنين يعبدون الاله الواحد، معنا، في أديان أخرى؟ هذا ما سمعتُه من فم الكثير من الشباب المسيحيين الملتزمين في ايمانهم، وكأنهم يشعرون بنوع من الاسف لوجود مثل هذه العقيدة... ولكن، من دون أن نذهب الى هذا الحد، سمعتُ بعض الواعظين أيضاً يشرحون أن "سر الثالوث الأقدس"، شأنه شأن الاسرار الالهية الاخرى، لا ينبغي أن يكون بمثابة تجربة لايماننا؛ لأننا، حسب قولهم، اذا لم نستطع أن نفهم شيئا من أي سر الهي على الاطلاق، فمع ذلك نستطيع ان نبرهن أن الأسرار لا تناقض مقتضيات العقل السليم...

ولكن أترى، أتى المسيح ليحرب ايماننا بكلامه، وهو يطلب منا أن نؤمن بأشياء تبدو لنا غير معقولة؟ أم أتى ليعلمنا أشياء نعترف أنها معقولة، غير اننا لا نستطيع أن نفهم منها شيئا؟

ان هذا لا يطابق المفهوم المسيحي "للسر". فالسر ليس حقيقة الهية لا نستطيع أن نفهمها على الاطلاق، ولكنه حقيقة تظهر لنا، كلما فهمنا شيئا عنها، اكبر وأعمق، بصورة غير متناهية، تتجاوز كل ما نعرفه عنها.

وهكذا سر الثالوث الأقدس. انه لا ينبغي أن يكون بالنسبة لنا تجربة، بل هو كشفٌ الهي حياتي، يجعلنا نعيش بصورة عميقة مع الاب ومع الابن ومع الروح القدس.

وفي الحقيقة يقدم لنا العهد الجديد هذا السر بهذه الطريقة الحياتية، أي بعلاقته مع حياة المؤمن، أكثر منه كحقيقة بعيدة نستطيع أن نتأمل فيها تحت وجهها الأزلي. فدراسة ما هي العلاقات الأزلية القائمة بين الآب والابن والروح القدس، اي ما هي الحياة الباطنية للاله الواحد، بغضّ النظر عن علاقاته بالبشر، فان هذا هو، فعلاً، شيء يفوقنا. ولكن، على عكس ذلك، انّ ما يجب أن يكون قريبا منا، هو خبرتنا لأبوة الله واخوّتنا مع المسيح، كلمة الله، وخبرتنا بحضور الروح القدس في حياتنا اليومية وفي قلوبنا.

لنتصور ينبوعا على سفح أحد جبالنا في الشمال. فهناك الينبوع نفسه المخفي في داخل الجبل، غير المنظور والعميق. وهناك الماء الحي الذي نراه بفرح يجري نحونا، وهو صاف مثل ماء الأعماق. وأخيرا هناك هذا الماء الذي نشربه والذي يتغلغل في جسدنا ليسكّن عطشنا ولينعشنا. ان الينبوع غير المنظور هو الآب، أي المصدر الخفي المتسع لكل خير، الاله العظيم الذي نعبده بمجده الكبير ولحبه اللامتناهي. والماء الآتي إلينا هو الله الذي يجعل نفسه منظورا ويقترب الينا بوجه انساني لنعرفه، وهذا الوجه هو وجه يسوع: انه كلمة الله الناطقة بكلمات انسانية، انهُ عمل الله الظاهر في أعمال انسانية. وأخيرا الماء الذي نشربه هو الروح القدس، الروح القدس الذي هو الله المتحد بصميم حياتنا ، الله الذي نستطيع أن نتذوق حضوره في أعماق كياننا.

من المهم أن نحيا مع الله في هذه الأبعاد الثلاثة: أي أن نعيش مع الآب ونحن نحفظ الاحساسَ بعظمة الله غير المتناهية، حياً في قلوبنا، وألا نفقد تذوّق العبادة. وعلينا أن نعيش مع الابن ونحن نستمع الى كلام الله في كلمات يسوع، ونكتشف أعمال الله نفسه في أعمال المسيح. وعلينا أن نعيش مع الروح القدس ونحن نحمل الله في قلوبنا، ونتذكر هذا الكنز المُشِعّ المخفي في داخلنا.

لقد قمتم مع المسيح

"فَأَمَّا وقد قُمتُم مع المسيح، فاسعَوا إلى الأُمورِ الَّتي في العُلى حَيثُ المسيحُ قد جَلَسَ عن يَمينِ الله. إرغَبوا في الأُمورِ الَّتي في العُلى، لا في الأُمورِ الَّتي في الأَرض، لأَنَّكم قد مُتُّم وحَياتُكم مُحتَجِبةٌ معَ المسيحِ في الله. فإِذا ظَهَرَ المسيحُ الَّذي هو حَياتُكم، تَظهَرونَ أَنتُم أَيضًا عِندَئِذٍ معَه في المَجْد".
(قولسي ٣: ١-٤)

ربما يستغرب البعض أننا اتخذنا كنقطة انطلاق لزاوية "من وحي الانجيل" نصا من رسالة القديس بولس الى أهل قولسي، وليس نصا من الأناجيل الأربعة! وقد لا يستغرب غيرهم، لأن هناك كثيرين من العلمانيين يُسمّون العهد الجديد كله "الانجيل" -وهم على حق لأن "الانجيل" هو أوسع من "الأناجيل" الاربعة. فالانجيل هو "بشارة نعمة الله" (أعمال الرسل ٢٠: ٢٤) أو "بشارة المسيح" (رومية ١٥: ١٩)... تلك البشارة التي أعلنها المسيحيون الأولون في جيل الرسل.

وهذه البشارة كان محورها الايمان بقيامة المسيح، كما يتبين في كرازة الرسل الأولى (أعمال الرسل ٢: ١٧-٣٦...)، وفي أقدم رسائل القديس بولس، وبالأخص الأولى الى اهل قورنتس حيث نقرأ مثلا: "ان كان المسيح لم يُقَمْ، فتبشيرنا باطل وايمانكم أيضا باطل" (١٥: ١٤). و "اذا كان رجاؤنا في المسيح مقصورا على هذه الحياة، فنحن أحق جميع الناس بأن يُرثى لهم!" (١٥: ١٩)؛ وتشرح تتمة النص سبب ذلك، ألا وهو أننا سنكون قد رجونا عبثا بقيامتنا الشخصية! وكنا على وَهَم اذا ظَنَنّا أن المسيح قد انتصر على الموت الذي يتحكم بكل انسان!! ففي وقت الرسل، وإن كان الايمان بقيامة الاموات قد انتشر،

غير أن هذا الايمان لم يكن بعد ثابتا تماما. فقيامة المسيح كانت، بالنسبة للمؤمنين، تأييدا ساطعا لرجائهم. ومن هنا الأهمية الكبرى لواقع قيامة المسيح في حياتهم وتمحْوُر اهتمامهم نحو الحياة المقبلة، أي "الحياة الأبدية" مع المسيح الممجد.

ان عيد قيامة المسيح لا يزال، بالدرجة الأولى، بالنسبة الى الكثير منا أيضا، احتفالاً برجائنا في الحياة الابدية التي ستتلو قيامتنا الخاصة! وهكذا عشته أنا مدة طويلة لكوني راهبا قد "ترك العالم" ليوجّه حياته كلها نحو الحياة الابدية المقبلة، وخاصة عن طريق الصلاة الصامتة حيث نستطيع أن نختبر من الآن شيئا من هذه الحياة الأبدية... ولكن هذا الاختبار نفسه يجتذب المرء الى ما هو أبعد من هذا العالم، حسب قول القديس بولس: "لي رغبة شديدة في الرحيل لأكون مع المسيح" (فيلبي ١: ٢٣). ولكن ماذا بالنسبة الى شباب علمانيين لا تزال أمامهم خمسون سنة من الحياة، وخاصة من الحياة الملتزمة في هذا العالم؟ كيف يستطيعون ان يعيشوا من الآن، وبصورة واقعية، كلام القديس بولس: "لقد قمتم مع المسيح"؟

لقد جمعت بعض الشهادات في هذا الصدد من قبل شباب علمانيين ملتزمين في حياة هذا العالم، غير انهم، والحق يقال، من ممارسي الصلاة الصامتة. انني مضطر بالطبع أن ألخص الاقوال العديدة التي سمعتها:

لقد اختبر البعض منهم أنهم قبلوا من الله بدء حياة جديدة يستطيعون فيها أحيانا ان يحبوا الآخرين حبا مسيحيا صادقا.. ويعلقون هذا الاختبار بالرجاء في القيامة لكونهم يختبرون هذه الحياة الجديدة كشيء لا يزال غير كامل. غير أن عدم الكمال هذا يبشّر باكتماله المُقْبل، كما أن البذرة تبشّر بوجود الشجرة. فقال أحدهم: "ان هذه الحياة الجديدة لها من الآن شيء من طعم الكمال". وقال آخر: ان الروابط الروحية التي تربطه بالآخرين، يخلقها التجدد الداخلي الآتي من الافخارستيا، باعتبارها الاحتفال بموت وقيامة المسيح في آن واحد...

ان نفس الشعور بوجود حياة جديدة في داخلنا، وان كانت غير كاملة، ذُكر بخصوص الحب تجاه المسيح نفسه. فقال أحدهم: "فيما مضى كنتُ أجمع بين ايماني بالقيامة وبين ايماني بالدينونة.. غير اني" عندما بدات اختبر حب يسوع تجاهي وبدأت أحبه، فكان ذلك بمثابة قيامة داخلية من الآن ولكنها لن تكتمل الا بعد الموت الذي سيكون مثل باب ينفتح". وأدلى شخص آخر قد تقدم بنفس المسار الروحي، وهو يتكلم الآن عن نوع من "الرغبة في مواجهة المسيح وجهاً لوجه"، وكثيرا ما تساءل: "متى سيكون ذلك؟". وبنفس المعنى قال آخر: ان فكرة القيامة تثير فيه أولا "ذكر الفرح الدائم النابع من اللقاء بنور الله".. وبالنسبة الى الوقت الحاضر، فالايمان بالقيامة "يساعده على اعتبار مشقات هذه الحياة ناراً

تُطهّره استعداداً لهذا اللقاء الأبدي"، وذلك "بنوع من التجاوز الروحي" يطابق معنى عبارة "القيامة" نفسها.

لقد لخصتُ هذه الشهادات بأمانة، وقد نقلتُ حرفيا بعض العبارات التي استُعْمِلت فعلا! انها تأتي، كما قلت، من قبل مسيحيين علمانيين ذوي حياة روحية عميقة.

ومن الملاحظ أن نقطة انطلاق هذه الشهادات هي اختبار حياة جديدة من الآن، بامتداد الكتابات اليوحنانية التي تركز على أننا "قد انتقلنا من الموت الى الحياة" (١ يوحنا ٣: ١٤). ولكن هذه الحياة الجديدة هي أيضا متجهة نحو اكتمالها الأبدي. ولقد تعجبت بالدقة اللاهوتية التي تظهر في هذه الشهادات، ورأيت فيها مثلا بديعا للعلاقات الحياتية الموجودة بين التعليم اللاهوتي والاختبار الداخلي.

انه لشيء طبيعي، لا بل من الأفضل أيضا، أن يعيش العلمانيون حاضَر القيامة أكثر من أن يعيشوا في انتظار اكتمالها. فكل الحياة المسيحية العلمانية مُتَمحْورة حول الايمان بحضور ملكوت الله في العالم من الآن، بينما الحياة الرهبانية متجهة بصورة أساسية نحو الملكوت الآتي بكل عظمته السامية. ولكن ليس هناك فصل قاطع بين البعدين، ومن الضروري أن يسعى الجميع الى عيش هذين البُعْدَين المتكاملين، وإن بدرجات مختلفة، حسب دعوة كل واحد. من هذه الناحية أيضا لا أخفي بان الشهادات المذكورة متّسمة، في نظري، بالتوازن والواقعية!

الروح القدس

"فقالَ لَهم ثانِيَةً: السَّلامُ علَيكم! كما أَرسَلَني الآب أُرسِلُكم أَنا أَيضاً. قالَ هذا ونَفَخَ فيهم وقالَ لَهم: خُذوا الرُّوحَ القُدُس".
(يوحنا ٢٠: ٢١-٢٢)

ان فرصة عيد العنصرة، أي حلول الروح القدس على الرسل، يدفعني الى التكلم عن الروح القدس ودوره في حياتنا. فقد ينطبق على الكثير منا ما يذكره سفر أعمال الرسل (١٩: ٢) عن بعض المؤمنين الأولين في كنيسة أفسس. فعندما سألهم القديس بولس: "هل نلتم الروح القدس حين آمنتم؟ قالوا له: لا، بل لم نسمع أن هناك روح قدس!" ويشرح المعلقون هذا الجواب قائلين: "لقد كانوا يعرفون بالطبع بوجود روح الله، ولكنهم لم يسمعوا بأن الروح القدس قد حل على المؤمنين". فأغلب المسيحيين، اليوم ايضا، يعرفون بالايمان أن الروح القدس موجود، ولكنهم لا يرون لهذا الوجود معنى واضحاً، بيد أن الروحانيات الشرقية تتسم، على طول تاريخ الروحانيات المسيحية، بالاهمية الحياتية التي تعطيها للروح القدس.

وقد يكون سبب حيرتنا في شأن الروح القدس مزدوجا. فهناك، قبل كل شيء، صعوبة تصوُّر الروح؛ فكما قال يسوع نفسه، مشيرا الى الروح القدس: "الريح تهب حيث تشاء فتسمع صوتها، لكنك لا تدري من أين تأتي، والى اين تذهب"(يوحنا ٣: ٨)، أعني انك لا تستطيع أن تمسكها. ان كلمة الله الذي اصبح كلمة انسانية، بأقواله وأعماله المنظورة، نشاهده بوضوح أمامنا في الانجيل. والآب، وإن كان غير منظور، نستطيع ان نتصوره كالاله الغير المتناهي، ينبوع كل ما هو موجود. ولكن، الروح القدس؟ انه ليس أمامنا وليس أبعد منا على غرار لامحدودية السماء، ولكنه فينا، ممتزج في ذواتنا، كما لو ان قوة دمنا تجري معه في داخلنا. فقد قال الروحانيون الشرقيون: "انه روح روحنا"...

والسبب الآخر قد يعود الى بعض التأثير من قبل الروحانيات اللاتينية التي كثيرا ما تعتبر الروح القدس مجرد قوة خفية تدفعنا الى حياة القداسة. نوعا ما مثل الوقود الذي يوضع في محرك السيارة! فعندما تتقدم السيارة بعد تعبئتها (تفويلها) لا نفكر بعد بالوقود...

وعلى العكس من ذلك، فالتقليد المسيحي الشرقي، مثل الكتاب المقدس، يتكلم دوماً عن الروح القدس بشكل يُعبّر عن خبرة حياتية. فانه الريح القوية التي هبّت في العنصرة، أو النسيم الذي نفخه المسيح على الرسل (يوحنا ٢٠: ٢٢).. انه النار التي اتقدت في قَلْبَيْ تلميذي عماوس (لوقا ٢٤: ٣٢).. انه الماء الحي لأولئك الذين يرهقهم العطش (يوحنا ٧: ٣٧-٣٨)، فيمكننا القول، مع الفيلسوف باسكال، أن الروح القدس هو "الله المحسوس للقلب".

اننا بحب واحد للاله الواحد،

نعبدُ الآب،

ونقتدي بالمسيح،

ونختبر بالروح القدس الحياةَ الكلية.

فاذن، كيف سنستعد لاختبار الحياة الآتية من الروح القدس؟

أولا: علينا أن نفتح قلبنا لفعل الروح القدس العميق. إنه ريح: فعلينا أن نعرض له شراعنا عن طريق مراجعة الحياة. علينا أن نقول له: "انني أسلم ذاتي اليك، فقُدني"؛ وحينئذ سيجعلنا نختبر ذلك الاندفاع الداخلي الذي لا يُحَبَط، المذكور في رسالة القديس بولس الى أهل فيلبي: "انما يهمني أمر واحد وهو أن أنسى ما ورائي وأمتطي الى الامام فأسعى الى الغاية" (٣: ١٣-١٤). وفي رسالته الثانية الى أهل قورنتس: "يُضيَّق علينا من كلّ جهة ولا نُحَطَّم، نقع في المآزق ولا نَعْجز عن الخروج منها، نُطارَد ولا نُدرَك، نُصرَع ولا نَهلك" (٤: ٨). وهكذا، دوما وفي وسط جميع ظروف حياتنا، سيجذبنا روح الله الى عمق البَحر حيث الحرية الداخلية والايمان والرجاء الذي لا يُقْهَر.

يذكر الكتاب المقدس أنّ الله كشف نفسه للنبي ايليا بشكل نسيم (١ ملوك ١٩: ١٢). وفي الحقيقة يشير النص العبراني الأصلي الى هذا النسيم بهذه العبارات: "صوت الصمت"! فاذا لم نُدخِل إلى حياتنا أوقاتاً من الصمت ايضاً، لن نختبر كيف يحيينا الروح القدس من الداخل. انه الريح التي تدفع، ولكنه أيضاً الهواء المنعش الذي نستنشقه والذي نتحرك به. فعلينا أن نتعلم كيف نستنشق الروح القدس في صمت الصلاة. والتقليد الروحاني الشرقي يريد ان يجمع بين الصلاة الصامتة وبين تنفس بطيء وعميق. فحينئذ تفتح الصلاةُ فينا، اكثر فأكثر، دربا يتغلغل به فينا الروح القدس الذي نعيش فيه كما في محيط حي (راجع رومية ١٤: ١٧؛ افسس ٢: ٢٢). وسيؤجّجُ نسيمُه النار التي وضعها في أعماق قلوبنا وقت عماذنا (لوقا ٣: ١٦): "انت نار لقلبي أنت أيضا نسيم!"

الميلاد

"وإليكم هذه العلامة: ستجدون طفلاً مُقمَّطاً مُضجَعاً في مِذوَد".
(لوقا ٢: ١٢)

اننا نعرف ما تعني "اية" في الكتاب المقدس وبالاخص في العهد الجديد. فالها حقيقة منظورة تعبر عن حقيقة غير منظورة، عن حقيقة من حياة الله أو من حياة الانسان مع الله.

ان الآيات الكتابية تُفهَم عادة حسب عدة محاور، مثل أشعة النجمة التي تنبثق من مصدر واحد في اتجاهات مختلفة. ومن معاني "آية" الطفل الفقير، أن المخلص أتى ولا يزال يأتي بالحب للفقراء؛ ولكنها قد تكشف لنا أيضا شيئا من شخصية الله نفسه العميقة. فالمخلص الذي يُبَشَّرُ به هنا، سيصرح الانجيل، فيما بعد، بأنه كلمة الله المتجسد، أي الله نفسه الذي يكلم البشر ويكشف لهم عن ذاته بملامح انسان تتحد صميميا بكيانه الالهي. ولذلك سيقول المسيح: "من رآني رأى الآب (الغير المنظور)." (يوحنا ١٤: ٩).

فهذا الطفل الصغير الذي يمدّ ذراعيه نحو مريم ويوسف، هو أيضا بمثابة تجلي الله الغير المنظور، وينطبق عليه قول المسيح: "من رآني رأى الآب". وقد يكون خضوع الطفل لحنان والديه رمزا لحقيقة خالدة، ألا وهي حاجة الله الى حنان البشر!

هل يوجد يا ترى في هذا القول كفر؟ ولكن ألا يستعمل الكتاب المقدس عبارات انسانية ليكلمنا عن حب الله وأبوّته وعنايته الساهرة، وعن قلقه عندما يبتعد الانسان عنه، وانتظاره لرجوعه؟ فلا بد أن يكون في هذه العبارات معنى عميق.

لقد تعودنا (وذلك بتأثير الثقافة الفلسفية اليونانية) ان نعتبر الله ثابتا في كماله وغير قابل التأثر، على عكس البشر المتغيرين المتأثرين. صحيح أن الله هو الكائن الكامل، الذي بصفته الكائن المطلق، لا يحتاج الى غيره. ولكن الاله المتسامي -وهذا سرّ ايماننا- أصبح أيضاً الاله الحاضر في صميم حياة العالم وفي صميم حياة كل انسان. فالله الأعظم بدرجة غير متناهية، هو أيضا الله الأقرب بدرجة غير متناهية، الى درجة أنه يسكن فينا!

وكيف يسكن الله فينا؟ أمثلِ مصدر قوة غير مكترث بنا، كالجوهرة في علبتها؟ كلا، فانه يعيش فينا متحدا بصميم حياتنا. انه يهتز بمشاعرنا، ويحزن معنا ويفرح معنا؛ يندهش معنا ويحب معنا، كما عاش متحدا بجميع مشاعر يسوع الناصري الانسانية. وهكذا فان الله ليس فقط الكائن المطلق الغير المتغير في ذاته، بل أيضا الاله المحب الذي تنازل الى مستوى البشر، وعاش مشاعرهم ولا يزال يعيشها. فنرى القديس بولس يذكر حزن الله عندما لا يقبل البشر حبه، فيقول لنا: "لا تُحْزِنوا روحَ الله!" (افسس ٤: ٣٠)!

وقديسون روحانيون آخرون جربوا على مر الأجيال، مشاعر الله "الانسانية" هذه... فمنهم، مثلا، يوحنا الدالياتي، هذا الشخص الروحاني العراقي العظيم، الذي يكلمنا عن فرح الله عند توبة الخاطئ فيقول: "ان الله يشتاق الى رجوع الخاطئ بشوق أشد من فرح الأم التي ترى ابنَها الوحيد الحبيب، بعد أن دفنته، يقوم من بين الأموات في اليوم نفسه! "وكذلك يوحنا الصليبي (المعلم الروحاني لكنيسة الغرب) الذي سمع من الله هذا الكلام: "اني لك ولأجلك، وأنا مسرور بأن اكون ما أنا عليه حتى أكون لك وحتى اهب ذاتي لك."

ان طفل بيت لحم هو أقوى وأحلى تعبير عن مشاعر الله "الانسانية"، بما انه يقدم لنا إلها بحاجة الى حنان البشر، وبحاجة الى تجاوبنا مع حبه! ان الله محتاج حقا الى خدمتنا الصادقة، انه محتاج حقا الى صلاتنا أيضا...

لقد تعودنا أن نتصور علاقتنا مع الله في الصلاة على مثال انسان يريد أن "يتشمس" ليدفّئ جسده. انه يستفيد من الشمس، غير أن الشمس لا يهمها أن يستفيد أو لا يستفيد من أشعتها! ولكن الامر ليس كذلك في علاقتنا مع الله في الصلاة: فانه يفرح عندما نفتح له قلوبنا، وهو ينتظر هذه الأوقات من الالفة. انه من المهم، حقاً، أن نعرف أن الله يفرح بوجودنا معه في الصلاة العميقة. ولهذا الاعتقاد نتيجة عملية، ألا وهي مثابرتنا في ممارسة الصلاة حتى اذا كانت صعبة أو دون حرارة في بعض الأوقات. فاننا لسنا موجودين في الصلاة لأنفسنا فقط بل لأجل الله ايضا، وربما لأجله أكثر مما لأجلنا. فكما يقول المسيح في كتاب الرؤيا: "أنا واقف على الباب أقرعه، فإن سمع أحد صوتي وفتح الباب، دخلت اليه..." (رؤيا يوحنا ٣: ٢٠).

في بيت لحم لم تنفتح الأبواب أمامه، الا ان بعض الفقراء فتحوا له قلوبهم. فلنكن نحن من بين هؤلاء!

عماذ يسوع

"فأَجابَه يسوع: دَعْني الآنَ وما أُريد، فهكذا يَحسُنُ بِنا أَن نُتِمَّ كُلَّ بِرّ. فَتَرَكَه وما أَراد. واعتَمَدَ يسوع وخَرجَ لِوَقتِه مِنَ الماء، فإذا السَّمَواتُ قد انفتَحَت فرأَى رُوحَ اللهِ يَهبِطُ كأَنَّه حَمامةٌ ويَنزِلُ علَيه. وإذا صَوتٌ مِنَ السَّمَواتِ يقول: هذا هُوَ ابنِيَ الحَبيبُ الَّذي عَنه رَضيت".

(متى ٣: ١٥-١٧)

لماذا قبل يسوع عماذ التوبة وهو القداسة بالذات؟ هذا السؤال اقلق ولا شك الجماعة المسيحية الاولى، ويشهد على ذلك انجيل متى الذي وضعَنا ازاء حوار بين يسوع والمعمذان: "هكذا يحسن بنا ان نتمّ كل بر".

ان كلمة يسوع هذه -وهي الاولى في انجيل متى- تكشف عن اكتمال زمن العهد الجديد. والبر في انجيل متى، كما يعني، في اسفار العهد القديم، من جانب الله، تدخله الخلاصي "المبرّر"؛ اما من جانب الانسان، فهو خضوعه لارادة الله ولمخططه الخلاصي في حياته. ويتضح ان على المعمذان ويسوع ان يتما "بر الله"، كلّ بحسب دوره: فالمعمذان من خلال عماذ يسوع، يسهم في اعتلانه مسيحا؛ ويسوع يقبل هذا العماذ مستبقاً عماذ الصليب (مرقس ١٠: ٣٨؛ لوقا ١٢: ٥٠). وتجدر الاشارة هنا الى ان رواية موت يسوع في انجيل متى (فصل ٢٧) تعكس رواية العماذ في الكثير من الجوانب، ولاسيما ذاك التوافق بين شهادة الآب: "هذا هو ابني الحبيب" وشهادة قائد المئة "كان هذا ابن الله"!

اما الروح في الكتاب المقدس، فهو حضور الله الذي يجتاح قلب الانسان وكيانه ليقوى على خدمة شعب الله. هكذا يرى يسوع "روح الله" يهبط عليه فيمكّنه من اعلان بشرى الانجيل، بكلامه وحياته كلها، بما فيها موته وقيامته.

"وإذا السموات قد انفتحت"! إنه تحقيق انتظار النبي اشعيا: "ليتك تشق السموات وتنزل" (٦٣: ١٩)، فالروح القدس ينزل على يسوع طالما انه "المشيح"، "عبد الرب" (اشعيا ١١: ٢؛ ٤٢: ١)؛ اما الحمامة، فيجب ان نرى فيها، مع التقليد اليهودي، شعب الله (هوشع ١١:١١؛ مزمور ٦٨: ١٤...). فنزول الروح بشكل حمامة يعني تجمّع شعب الله "المسيحاني" حول يسوع...

"هذا هو ابني الحبيب الذي عنه رضيت". ها نحن ازاء نص اشعيا: "هوذا عبدي الذي اعضده، مختاري الذي رضيتْ عنه نفسي" (٤٢: ١). ونلاحظ كيف يستبدل متى "العبد" بـ "الابن" و "المختار" بـ "الحبيب". وسَيُسْمَع هذا الصوت من جديد في التجلي في اطار الآلام، حين يحمل الابن، "العبد"، الحق إلى الامم، عبر تقدمة ذاته حتى الموت، فيستحق ان يكون موضوع حب الآب ومسرّته.

هذا النص يطرح علينا تساؤلات: ما هو مفهومنا عن "بر" الله؟ وهل نجعل منه سبيلنا إلى الخلاص؟ إلى اي مدى نعي هبة الروح فينا؟ واية مهمات رسولية تحمّلنا اياها عطية الروح؟...

الله يعتلن بحبه

"فإنَّ اللهَ أحبَّ العالَمَ حتَّى إنَّه جادَ بابنِه الوَحيد لِكَي لا يَهلِكَ كُلُّ مَن يُؤمِنُ به بل تكونَ له الحياةُ الأبديَّة فإنَّ اللهَ لَم يُرسِلِ ابنَه إلى العالَم لِيَدينَ العالَم بل لِيُخَلِّصَ به العالَم. مَن آمَنَ به لا يُدان ومَن لم يُؤمِنْ به فقَد دِينَ مُنذُ الآن لأَنَّه لم يُؤمِنْ باسمِ ابنِ اللهِ الوَحيد".

(يوحنا ٣: ١٦-١٨)

-**اطار الحديث**: في حواره مع نيقوديمس، يؤكد يسوع على ضرورة الولادة الجديدة بماء العماذ والروح (٣: ١-٨)، ويبرر اقواله بانه من الله آت (٩-١٣)، ويعلن بانه ينبغي ان يُرفع ليمنح الحياة الابدية للمؤمنين (١٤-١٥). ثم يكمل الانجيلي الحوار باعتبارات حول موقف الله من مصير البشر، انطلاقا من موقفهم حيال ابن الله.

-**الله أعطى ابنه** (٣: ١٦): الحب يعطي. الله الذي هو محبة (١ يوحنا ٤: ١٦) كشف عن انه حب، بابنه الذي اعطاه. وهذا العطاء هو البرهان الاكبر على ذلك، لان الابن المعطى هو ابنه الوحيد، هذا الذي دُعي الابن الحبيب في العماذ من يوحنا المعمذان (متى ومرقس)، وفي التجلي (متى ومرقس)، وفي مثل الكرامين القتلة (متى ١٢: ٦ ومرقس). والله لا يكتفي باعطائه في التجسد (يوحنا ١: ١٤) الذي هو الحجر الاساس للايمان الخلاصي، وانما يعطيه ايضا في الصليب، ويسلمه الى ايدي الخطأة من اجلنا نحن الخطأة.

إذا تُرك الانسان لذاته، فهو يتعرض للهلاك، وهلاكه هو بسبب الخطيئة، وان لم يرد ذلك صريحا في النص. فيأتي ابن الله الى العالم ليرفع هذه الخطيئة، بوصفه حمل الله

(يوحنا ١: ٢٩)، او باعطائه الروح القدس (يوحنا ٢٠: ٢٢-٢٣). وتكون ثمرة عمله الايجابية منح الحياة الابدية، وهذه هي الحياة الحقيقية الوحيدة.

-**ارسل الله ابنه لخلاص العالم (٣: ١٧)**: حتى لو كانت النتيجة سلبية، فالعتب ليس على الله؛ لان الله، عندما أرسل ابنه، فانما أرسله بدافع حب عميم ليُحقق خلاص العالم -والعالم يعني البشرية الخاطئة (١ طيموثاوس ١: ١٥). ان الابن ليس حاكما يدين ويرذل المجرم؛ بل بالعكس: من تعلق بشخص الابن بايمانه، واعترف به مُرسَلاً من قبل الاب، لا يناله القضاء والادانة (انظر يوحنا ٥: ٢٤). اما من يرفض الايمان بالابن والاعتراف به، فقد نال دينونته، اي انه ببقائه تحت نير الخطيئة التي تُميت (تكوين ٢: ١٧، حكمة ٢: ٢٤)، وقد حكم على نفسه بالموت الابدي. فالحصيلة هي: ان الخاطىء يبقى ميتاً، والمؤمن يجد الحياة ويبقى حياً، لانه تخلص من الخطيئة.

-**الخلاصة**: اننا عاجزون عن رؤية الله وجهاً لوجه في هذه الدنيا (يوحنا ١: ١٨)، ورسالة الابن هي ان تدخلنا في معرفة السر الالهي. لا جرم، فان غنى الله ينجلي بشخص الابن، منذ الان؛ غنى الحب الذي يأبى ان يبقى خفياً في حضن الله، بل يود ان ينكشف ويُعرَف (يوحنا ١: ١٨)، ويُقاسَم (يوحنا ١٧: ٢٦). ان معرفة الثالوث لا نطالها الا برسالة الابن، كما عرضت لنا، وبرسالة الروح القدس.

-وهذا النص يلقي علينا الاسئلة التالية:

★ هل بحثنا واستفسرنا كي نفهم عمق الحب الذي خصنا به الله؟

★ هل شهدنا في حياتنا على ان الله حب، وهل قاومنا الصورة المشوّهة لله، فينا او في الاخرين، عندما نتخيله، حاشاه، "غولاً" ماردا مرعباً؟

مثل الزؤان

"وضرَبَ لَهم مَثَلاً آخَرَ قال: مَثَلُ مَلَكوتِ السَّمَواتِ كَمَثَلِ رَجُلٍ زَرَعَ زَرْعاً طَيِّباً في حَقلِه. وبَينما النَّاسُ نائمون، جاءَ عَدوُّهُ فزَرَعَ بَعدَه بينَ القَمحِ زُؤاناً وانْصَرَف. فلَمَّا نَمى النَّبْتُ وأَخرَجَ سُنبُلَه، ظَهَرَ معَه الزُّؤان. فجاءَ رَبُّ البيتِ خَدَمُه وقالوا له: يا ربّ، أَلَم تَزرَعْ زَرْعاً طَيِّباً في حَقلِكَ ؟ فمِن أَينَ جاءَهُ الزُّؤان؟ فقالَ لَهم: أَحَدُ الأَعداءِ فَعَلَ ذلك. فقالَ له الخَدَم: أَفَتُريدُ أَن نَذهَبَ فنَجمَعَه؟ فقال: لا، مَخافةَ أَن تَقلَعوا القَمْحَ وأَنتُم تَجمَعونَ الزُّؤان، فَدَعوهما يَنبُتانِ معاً إِلى يَومِ الحَصاد، حتَّى إِذا أَتى وَقْتُ الحَصاد، أَقولُ لِلحَصَّادين: إِجمَعوا الزُّؤانَ أَوَّلاً واربطوه حُزَماً لِيُحرَق.وأَمَّا القَمْحُ فَاجمَعوه وآتوا به إِلى أَهرائي.

ثُمَّ تَركَ الجُموعَ ورَجَعَ إِلى البَيت. فدَنا مِنه تَلاميذُه وقالوا له: فَسِّرْ لَنا مَثَلَ زُؤانِ الحَقْل. فأَجابَهم: الَّذي يَزرَعُ الزَّرْعَ الطَّيِّبَ هو ابنُ الإِنسان، والحَقْلُ هو العالَم والزَّرْعُ الطَّيِّبُ بَنُو المَلَكوت، والزُّؤانُ بَنُو الشِّرِّير، والعَدُوُّ الَّذي زَرَعَه هو إِبليس، والحَصادُ هوَ نِهايَةُ العالَم، والحَصَّادونَ هُمُ المَلائِكة. فكما أَنَّ الزُّؤانَ يُجمَعُ ويُحرَقُ في النَّار، فكذلك يكونُ عِندَ نِهايَةِ العالَم: يُرسِلُ ابنُ الإِنسانِ مَلائكتَه، فَيَجْمَعونَ مُسَبِّبي العَثَراتِ والأَئِمَّةَ كافَّةً، فيُخرِجونَهم مِن مَلَكوتِه، ويَقذِفونَ بهم في أَتُّونِ النَّار، فهُناكَ البُكاءُ وصَريفُ الأَسنان. والصِّدِّيقونَ يُشِعُّونَ حينَئِذٍ كالشَّمْسِ في مَلَكوتِ أَبيهِم. فمَن كانَ له أُذُنان فَلْيَسْمَعْ!".

(متى ١٣: ٢٤-٣٠، ٣٦-٤٣)

يأتي هذا المثل كتتمة لمثل الزارع وكامتداد للمعالجة ذاتها، عبر سؤال يطرح ذاته في الحالتين وهو: الاخفاقات التي تعتري طريق الكلمة وطريق الملكوت، الا يمكن تحاشيها

بتدخل مباشر وعنيف من قبل الله؟ واذا كان يسوع هو المسيح حقاً، فَلِمَ لا يجعل من ذاته اداة هذا التدخل، منذ الان؟

ان هذه الاسئلة ما هي الا صدى لصبر الجماعة المسيحية الاولى الذي عيل صبرها، في انتظارها للتدخل المسيحاني: هذا الانتظار القلق الذي كان يعتري فئات معاصرة اخرى كالفريسيين، وجماعة قمران، وشعب الفقراء (انظر لوقا ٢٤: ٢١) الذي كانوا يتوقعون مجيء المسيح كاداة لاحقاق عدل الله الجذري والانتقامي.

فياتي مثل الزؤان جوابا لهذا الانتظار المحموم ليقول للمسيحيين:

-لتطمئن نفوسكم، فان الحكم سيأتي في أوانه.

-دعوا الامور في نصابها، فان الحكم ليس بيد البشر، بل بيد الله ومسيحه.

-هدئوا من غيرتكم المتهوِّرة، فلا ينبغي استعجال الامور؛ لان الله، اذا أرجأ التدخل، فله اسبابه.

لنقرأ سفر الحكمة (١١: ٢١ -١٢: ٢ و١٢: ١٩-٢٢). ان هذه النصوص التي تتحدث عن صبر الله تلقي ضوءاً مفيدا لفهم روحانية مثل الزؤان. فالمثل يعبّر عن التوازن الموجود في مخطط الله بين سر العدل وسر الرحمة: وهذا التوازن هو سر صبر الله بالذات، الصبر الذي يُمهل ليدع الزرع ينمو، ويدع للخطأة الفرصة للتوبة، حتى الاخير. وان تفسير المثل في النص المتّاوي ما هو الا تأوين (تطبيق على الحالة الحاضرة الان) بالنسبة الى الكنيسة كما يعكسها متى: فالزؤان الذي كان في الاصل الشر عموماً، يصبح تحت قلمه "بني الشرير"، والزرع الجيد الذي كان اصلاً الملكوت، يصبح الان "بَني الملكوت". لا جرم، فان المعنى الاول للمثل لم يفقد شيئاً من معناه، وانما طُبِّقت معانيه البسيطة والعامة على قضايا اكثر خصوصية واخلاقية: وفي هذا التفسير برز التناقض، بصورة اوضح، بين ثنائي الاشرار والاخيار. اما الحصاد الاخير، فقد احيط تفسيره بصور الادب الرؤيوي (انظر دانيال ٣: ٦ و١٢: ١-٣). غير ان هذه الصور البيانية، لا ينبغي اخذها حرفياً: فهي انما وُضعت لتنقل الطابع الكوني والشمولي والمأساوي للنهاية التي سيتخذها التاريخ البشري.

واذا ما أُوِّنَ متى المثل (اي طبّقه على زمانه) بوضع التفسير على لسان يسوع -وهو لربما لم يعطه بحذافيره هكذا- فليس في ذلك خيانة للنص الاصلي، لان التفسير المنقول انما هو شرح وتطبيق للمثل الذي ضربه المعلم، باحترام لروح المثل، وبذلك يدعونا لنحذو حذوه نحن ايضا اليوم.

الاسئلة التالية قد تساعدنا على ذلك:

١. ما هي الفكرة المركزية، في نظرك، لهذا المثل؟
٢. الايام صعبة: كيف تفسر هذا المثل اليوم، على ضوء الواقع؟
٣. بعد تطبيقك المثل على الزمن الحاضر، ما هي الالتزامات التي يثيرها المثل لديك؟

وليمة العرس

"كَلَّمَهُم يسوعُ بالأَمثالِ مَرَّةً أُخرى قال: مَثَلُ مَلكوتِ السَّمَواتِ كَمَثَلِ مَلِكٍ أَقامَ وَليمةً في عُرسِ ابنِه. فأَرسَلَ خَدَمَه لِيدعوا المَدعُوِّينَ إِلى العُرْس فأَبَوا أَن يَأتوا. فأَرسَلَ خَدَماً آخَرين وأَوعَزَ إِلَيهم أَن قولوا لِلمَدعُوِّين: ها قد أَعدَدتُ وَليمَتي فذُبِحَت ثِيراني والسِّمانُ مِن ماشِيَتي، وأُعِدَّ كُلُّ شَيء فتَعالَوا إِلى العُرْس. ولكِنَّهم لم يُبالوا، فَمِنهُم مَن ذَهبَ إِلى حَقلِه، ومِنهُم مَن ذَهبَ إِلى تِجارَتِه. وأَمسَكَ الآخَرونَ خَدَمَه فشَتَموهم وقَتَلوهم. فَغَضِبَ المَلِكُ وأَرسلَ جُنودَه، فأَهلَكَ هؤُلاءِ القَتَلَة، وأَحرَقَ مَدينَتَهم. ثُمَّ قالَ لِخَدَمِه: الوَليمَةُ مُعَدَّةٌ ولكِنَّ المَدعوِّينَ غيرُ مُستَحِقِّين، فاذهَبوا إِلى مَفارِقِ الطُّرق وَادعُوا إِلى العُرسِ كُلَّ مَن تَجِدونَه. فخرَجَ أُولَئِكَ الخَدَمُ إِلى الطُّرُق، فجمَعوا كُلَّ مَن وجَدوا مِن أَشْرارٍ وأَخيار، فامتَلأَت رَدهَةُ العُرْسِ بالجالِسينَ لِلطَّعام. ودَخَلَ المَلِكُ لِيَنظُرَ الجالِسينَ لِلطَّعام، فرَأَى هُناكَ رَجُلاً لم يَكُنْ لابِساً لِباسَ العُرْس، فقالَ له: يا صديقي، كَيفَ دخَلتَ إِلى هُنا، ولَيسَ عليكَ لِباسُ العُرسِ؟ فلم يُجِبْ بِشَيء. فقالَ المَلِكُ لِلخَدَم: شُدُّوا يَدَيه ورِجلَيه، وأَلقوهُ في الظُّلمَةِ البَرَّانِيَّة. فهُناكَ البُكاءُ وصَريفُ الأَسنان. لأَنَّ جَماعَةَ النَّاسِ مَدعُوُّون، ولكِنَّ القَليلينَ هُمُ المُختارون".

(متى ٢٢: ١-١٤)

مرة اخرى، يقدّم يسوع لخصومه مثلاً حول الرفض. ومتى، في اطلاعه الكامل على البيئة الفلسطينية، يركز على الاشارات اللاهوتية في المثل. هكذا تشكل الايـات ١١-١٣ مثلاً اضافياً حول ثياب العرس. ويختم متى نصه بملاحظة عامة على لسان يسوع: "كثيرون مدعوون، ولكن قليلين مختارون" (آ ١٤).

-الاية ٢: سبق العهد القديم ان استخدم تشبيه العرس للتعبير عن علاقات الله مع جماعة العهد. فالملك، هنا، يرمز الى الله، وابن الملك الى المسيح. والعيد الذي أعده الله، منذ زمن بعيد، هو المصالحة مع البشرية جمعاء، بيسوع وفي يسوع المسيح.

-الايات ٣-٦: يرسل الملك فريقين من الخدام. فالاول يمثل انبياء العهد القديم الذين طالما واجههم معاصروهم بالرفض؛ وفي الثاني نرى الرسل والمبشرين المسيحيين المرسلين الى اسرائيل والذين رفض اليهود رسالتهم بترفع حيناً (آ ٥) وحيناً بعنف (آ ٦).

-الايات ٨-١٠: لن يدع الملك الوليمة التي اعدها عرضة للضياع. فلا الاهانة، ولا العنف يوقفان مخطط الله. فاذا سدّ الاولون اذانهم، فالرسل سيتوجهون الى طرقات العالم الوثني ومفارق المدن الكبرى، فيأتي من كل فج عميق ويشارك في وليمة الزمن الخلاصي (انظر رومية ٩: ١١).

-الايات ١١-١٣: اما هذا المثل الجديد حول ثوب العرس، فقد كان مثلاً مستقلاً. اذ لا يُعقل ان يكون الفقراء الذين التُقطوا من الطرقات لابسين ثياب العيد. فلقد اراد متى تحاشي الالتباس في الكنيسة المبشِّرة: إذا فتح العماذ قاعة العرس للجميع، اي "للاخيار والاشرار" (١١)، فلا احد يُعفى من بذل الجهد لتجديد حياته: اجل ان الدخول مجاني، ولكن على المرء ان يغيّر ثيابه (معنوياً) قبل اجتياز الباب.

-الاية ١٤: العرض شمولي: الله يريد خلاص جميع البشر، ولكن الاجابة الى هذه النعمة واجبة. فالمختارون الاخيرون سيكونون، في نهاية الامر، اولئك الذين اختاروا الله.

مؤشرات تطبيقية:

١. نداء الله الاب هو دعوة الى الفرح، والى فرح نتقاسمه، فلا احد مدعو بمفرده. ولاشك ان على كل مدعو ان يلبي الدعوة باسمه الشخصي، ولكن عليه ايضا ان يقبل الجلوس جنبا الى جنب في العشاء.

٢. هذا يذهب الى حقله، وذاك الى تجارته، والاخر الى مهنته، ورابع الى دراسته. كل هؤلاء، اذا رفضوا، فقدوا فرصة لا تُعوَّض.

٣. علينا اليوم ايضا ان نتجاوز ذهنية المحظوظين، فننفتح لرسالة المسيح الشاملة، لان سمة الروح القدس تجعل كل منا مناديا بفرح الله، للقريبين وللبعيدين، على حد سواء.

زمن الصوم

"وإذا صُمتُم فلا تُعبِّسوا كالمُرائين، فإنَّهم يُكلِّحونَ وُجوهَهُم، لِيَظْهَرَ لِلنَّاسِ أَنَّهم صائمون. الحَقَّ أَقولُ لكم إِنَّهم أَخذوا أَجرهم. أَمَّا أَنتَ، فإِذا صُمتَ، فادهُنْ رأسَكَ واغسِلْ وَجهَكَ، لِكَيْلا يَظْهَرَ لِلنَّاسِ أَنَّكَ صائم، بل لأَبيكَ الَّذي في الخُفْيَة، وأَبوكَ الَّذي يَرى في الخُفْيَةِ يُجازيك".

(متى ٦: ١٦-١٨)

كانت الليتورجيا اليهودية تقيم "صوماً كبيراً" في يوم الكّفارة، وكانت ثمة اصوام جماعية اخرى في الذكرى السنوية للنكبات القومية. فضلا عن ذلك، كان اليهود الاتقياء يصومون بدافع من تقواهم الخاصة، مثل تلاميذ يوحنا المعمذان والفريسيين..

ما يندّد به يسوع هي المظاهر الخارجية التي ينتهجها المراؤون، فيشدد على الروح التي بها يصوم المؤمن، ومنها التركيز على الباطن. وهذا يكمّل تعليمه الدائم عن "ان ملكوت الله هو في داخلكم". هذا لا يعني انه يزدري الصوم في حد ذاته، او انه يريد ان يلغيه، بل انه ينبه الى خطر الشكليات، ويدعو الى تجاوز مظاهره الخارجية. هذا هو الصوم المتواضع الذي يفتح القلب للبر الباطني، الذي هو عمل الاب، الاب الذي يرى ويعمل في الصمت. في الصوم يحذّر يسوع من خطر الكبرياء والتظاهر بذلك امام الناس. لكي يرضي الصوم الله، يجب ان يكون مقترنا بحب القريب، ولا ينفصل عن الصدقة والصلاة. فاذا كانت الصلاة تعبيراً لله عن تواضع الانسان ورجائه ومحبته، فالصدقة هي تعبير عن اخوة الانسان مع اخيه ومشاركة معه في حمل جزء من احتياجه.

لقد حافظت الكنيسة في العهد الرسولي، في ما يخص الصوم، على العادات اليهودية، طبقا للروح التي املاها يسوع. وتذكر اعمال الرسل بعض احتفالات العبادة التي تتطلب الصوم والصلاة (١٣: ٢-٤). ولا يكتفي بولس باحتمال الجوع والعطش، بل يضيف الى ذلك اصواما عديدة (٢ قورنتس ٦: ٥)، وظلت الكنيسة امينة على هذا التقليد لتضع المؤمنين في حالة انفتاح كامل لفعل الرب فيها.

فالصوم هو زمن التوبة والعودة الى الذات لتطهيرها. انه زمن اهتداء الى الله. ففي حياتنا، في الواقع، حنين لا واعٍ الى السمو والقداسة، وتنهد الابن الشاطر: هلاّ اعود الى بيت ابي وانتزع نفسي من الخنازير واستعيد كرامتي وصلتي مع ابي؟!

يبدأ الصوم الحقيقي عندما يصفح الانسان عن زلات اخيه تجاهه؛ عندما يتجاوز عما اعتبره حتى الان قد جرح كرامته وهضم حقوقه؛ عندما يشعر انه بحاجة الى العطاء، فيقتطع من انانيته وكبريائه ليعطي.. عندما نجوع بسبب الصيام، يعني اننا نشعر بجوع الى الله. وعندما تكون شهوة الحقد والتعالي قد هدأت، يقدر الانسان الصائم ان يسامح. وعندما يهدم الصائم حاجز الجفاء والاحتقار للاخرين، يقدر ايضا ان يتعاون معهم، ويقدر خصوصا ان يحب. من الصائمين من لا يجود بالتحية على اخيه، او يضطرم كراهية له. في البيت الواحد خصام وخلاف، فهل الصوم بالمقاطعة او بالخصام؟ -الجواب على هذا السؤال تجده في سفر اشعيا (٥٨: ٣-٧). افتح السفر واقرأ.

قام المسيح.. حقا قام

"فارتَعَبْنَ ونكَّسنَ وجوهَهُنَّ نحوَ الأرضِ، فقالَ لهُنَّ الرَّجُلانِ: لِماذا تَطلُبْنَ الحَيَّ بينَ الأمواتِ؟ ما هوَ هُنا، بل قامَ. أُذكُرنَ كلامَهُ لَكنَّ وهوَ في الجَليلِ".

(لوقا ٢٤: ٥-٦)

"فَاعلَموا جَميعًا وَلْيَعلَمْ شَعْبُ إسرائيلَ كُلُّه أنَّه باسمِ يسوعَ المَسيحِ النَّاصِريِّ الَّذي صَلَبتُموه أنتُم فأقامَه اللّهُ مِن بَينِ الأموات، بهذا الاسمِ يَقِفُ أَمامَكم ذاك الرَّجُلُ مُعافًى".

(أعمال الرسل ٤: ١٠)

"وأنَّه قُبِرَ وقامَ في اليَومِ الثَّالِثِ كما وَرَدَ في الكُتُب".

(١ قورنتس ١٥: ٤)

نحن امام غياب، ولا بد من ظهورات المسيح لنثبت المدلول الحقيقي لواقع القيامة.

لقد آمن الشهود الاولون بالقيامة، ليس لانهم رأوا القبر فارغاً ورأوا يسوع باعينهم، بل لانهم فهموا سر القيامة في الكتب المقدسة. لم يكن غرض الرسل التحدث عن مشاعر ذاتية خاصة، بل يتكلمون عن حضور المسيح حضوراً واقعيا شموليا. يسوع فرض حقيقة قيامته على اشخاص اختارهم، ما كانوا مؤمنين بها، ثم آمنوا بعد ان رأوه في واقعهم (متى ٢٨: ١٧ ومرقس ١٦: ١٤). لنذكر كيف تراءى لتوما (يوحنا ٢: ٢٤-٢٩).

لو لم يكن سوى القبر الفارغ، لما كان ايمان فصحي. هناك ايمان فصحي بسبب الظهورات. في لقاءات يسوع بتلاميذه تبرز ثلاث نقاط: الشك، التعرّف، ثم الرسالة الشاملة، هكذا بنيت الكنيسة على حدث القيامة: المسيح صرع توما بالبرهان فابعد الشك عن قلبه. وصرع بولس بالسقوط عن الفرس وبالعمى ثم بالرؤية، والسامرية بالكشف عن اسرارها..

لم ينقرض نسل توما! فهناك من لهم مثل مطاليبه وشروطه ليؤمنوا، فلا يصدقون إلا حواسهم، ولا يثقون الا بعقولهم. توما هو نحن في اغلب الاحيان. نريد ايماناً مبنياً على المحسوس، على المعلول. كم نحن بحاجة الى ان يسمو ايماننا فوق الشواهد المحسوسة والخوارق والمعجزات. طوبى للذين يكتشفون الايمان بعيون القلب ويتصلون اتصالاً مباشرا بخبرة المسيحيين على مر العصور، وبتعليم الكنيسة التي يرعاها وينيرها الروح القدس. في ساعات الشك والتجربة، يجدر بنا ان نفتح قلوبنا على قيامة المسيح في واقعها الايماني في حياتنا: وجود المسيح ووجوده حيا فينا، في كنيسته.

القيامة هي الركيزة الاساسية للبشارة المسيحية: "لو كان المسيح لم يقم، فكرازتنا اذن باطلة، وايمانكم ايضا باطل" (١ قورنتس ١٥: ١٤). كان يجب ان يقوم ليقيم معه ضحايا الظلم والكذب والضغينة.. كان يجب ان يقوم لتقوم معه تعاليمه فيُبَشَّر بها. أَلَم تكن البشرية كلها تتوق الى هذا الخلود الذي يعطي معنى للحياة والجهاد والموت؟ اذا ما عرف الناس ان الموت غُلب، لا تعود المخاطرة لدى المسيحي مخاطرة، ولا التضحية بالذات انتحاراً، ولا الشيخوخة كارثة، ولن تبقى الحياة سجناً. كان حجر القبر كبيراً جداً، ولكنه لم يكن اكبر من قوة الله التي أقامت يسوع ممجَّداً. القبور كلها سوف تنفتح، والحجارة سوف تدحرج ويقوم الذين في القبور الى الحياة. اننا لا نزال نخطأ ونتألم، ولكن طاقة الحياة الظافرة قد زُرعت في اعماقنا. طاقة قيامة الرب التي سوف تحولنا "في اليوم الثالث" على صورة المسيح الناهض، ممجداً، من بين الاموات.

الأم في مجد الله

"فأَجابَها المَلاك: إنَّ الرُّوحَ القُدُسَ سَينزِلُ عَليكِ وقُدرَةَ العَلِيِّ تُظَلِّلُكِ، لِذلِكَ يَكونُ المَولودُ قُدُّوساً وَابنَ اللهِ يُدعى.

فقالَت مَريَم: تُعَظِّمُ الرَّبَّ نَفْسي وتَبتَهِجُ روحي باللهِ مُخَلِّصي لأَنَّه نَظَرَ إِلى أَمَتِه الوَضيعة. سَوفَ تُهَنِّئُني بَعدَ اليَومِ جَميعُ الأَجيال".

(لوقا ١: ٣٥، ٤٦-٤٨)

دعا الله العذراء مريم وانتقاها لتُسهم معه اسهاماً فعلياً في عمل التجسد والفداء -وقد حاول الفن ان يمثل مشهد البشارة بلوحات رائعة! وادركت مريم سمو الرسالة المطلوبة منها، فأجابت واثقة: "نعم.. ليكن بحسب قولك". قالتها كما تقولها العروس يوم عرسها، كلمة عطاء واخذ، بها تغدو حقاً عروس الروح القدس. حلّ في حشاها: "ان الروح القدس ينزل عليك وقدرة العلي تظللك". وللحال اخذ "الكلمة" ينسج قلبا من قلبها ودماً من دمها؛ واصبحت، بفضل قبولها، شخصا تاريخيا في ملحمة الفداء، واحتلت مكاناً رفيعاً، الى جانب ابنها، في عقيدة الايمان.

نحن ايضاً، في لحظة فريدة من لحظات الحياة، يُطرح علينا سؤال المصير، وقد نكون في شبه غيبوبة عن هذا النداء، الى ان يملأ الله بغتة قلبنا، فيخيّرنا بين القداسة والتفاهة، بين ان نكون لذاتنا او ان نكون لغيرنا.

لقد اراد المجمع المسكوني الفاتيكاني الثاني ان يبسط عقيدة الكنيسة عن مريم، أم الله وام البشر، مستندا بذلك الى الكتب المقدسة والتقليد. فالكنيسة تدعو المؤمنين الى تكريم مريم في طقوسها وبالطرق التي اعتادتها الاجيال المسيحية.. تكريم يجمع بين العقل والقلب.

الكنيسة تبتهج بان ترى مريم مكرمة عند الشرقيين والغربيين، وتشعر برونق الطقوس والكنائس والصور التي تمجد اسم الام العذراء. ان صورة العذراء مريم ماثلة في قلب المسيحي مثولاً أليفاً. وانه ليتعذر ان نقدّر كم من الاشياء تكون غير ما هي عليه، لو الغي رسم العذراء من تقاليدنا واعيادنا ومواسمنا واسماء فتياتنا ونسائنا.

رائعة هي الام مريم! يقترب منها القلب بحدسه اكثر مما بتحليله. انها مثال للزواج المسيحي، في وقت اصبح الكلام عن الزواج صعباً بسبب ما نرى من تفكك وتصدع في العائلات. الحب بين يوسف ومريم بلغ اقصى حدود التضحية.. وحيث الحب الصحيح، لا انقسام ولا اختلاف: "لا تخف ان تأخذ مريم...".

رائعة هي مريم! انها فتاة لا كالفتيات، نبيلة دون كبرياء، طاهرة دون جهل. انها تكشف لعذارى اليوم عن سر الكمال وسط صخب العالم. ولكونها امّا وبتولاً معا، فهي تعطي لدعوة كل امرأة بعداً.

وما عيد "الانتقال" الذي نحتفل به في منتصف شهر آب سوى وجه من أوجه هذا المجد الالهي الذي يظلل الام العذراء. عيد "السيدة".. السيدة الكاملة، الملتحفة بمجد الله!

الأب لويس قصاب

ولد لكم اليوم مخلص

"فقالَ لَهمُ المَلاك: لا تَخافوا، ها إِنّي أُبَشِّرُكُم بِفَرحٍ عَظيمٍ يَكونُ فَرحَ الشَّعبِ كُلِّه: وُلِدَ لَكُمُ اليَومَ مُخَلِّصٌ في مَدينَةِ داود، وهو المَسيحُ الرَّبّ".
(لوقا ٢: ١٠-١١)

"والكلمة صار جسداً وحلّ فينا"! عظيمة هذه الكلمة التي بها استهلّ الرسول يوحنا انجيله. كلمة الله بتجسّدها تزيل الحواجز وتلغي المسافات. فكل الخير والمحبة والجودة والجمال الذي كان البشر يحلمون بها يتجسد جميعه في لحم ودم، في انسان هو "ابن الله".. ان رسالة التجسد أظهرت ان الخلاص نعمة مجانية من الله بيسوع المسيح: "واما النعمة والحق، فبيسوع المسيح حصلا" (يوحنا ١: ١٦).

فالتاريخ الذي يلي المسيح هو تاريخ الانسان المحرّر من العقد ومن الخوف ومن الظلم. انسان بعد الميلاد هو انسان عادت اليه كرامته، فلا عبد ولا حرّ، لا ذكر ولا انثى، بل خليقة جديدة. بميلاد المسيح، عُرفت قيمة المرأة بصفتها مخلوقة على صورة الله ومثاله، تماماً مثل الرجل؛ كل القيم اخذت ابعاداً جديدة بعد ميلاد المسيح؛ وتعود علاقة الانسان بالخالق الى اصالتها الاولى، فنرى فيه "أبانا" ونقترب منه ونتوب اليه، ونحبه دون خوف.. ونرجع الى القريب فنطرح عنا البغض والجفاء والحسد.. ونرى فيه اخاً.

لقد اثار ميلاد يسوع القلق والاضطراب ("فاضطرب هيرودس وكل اورشليم معه" -متى ٢: ٣).. هو مثير للقلق، يخيف، يُرعب.. لذا يلجأ خصومه الى محاربته ونكرانه ("ان هذا وُضع لسقوط وقيام كثيرين" -لوقا ٢: ٣٤). المسيح يولّد الاضطراب في داخل الانسان، لأنه يضطره الى تغيير ما في ذاته وتعديل مساره باستمرار.

المسيح نشر الاخاء والتسامح والرفق والتواضع، والناس لا يفكرون الا بأن يسحق قويُّهم ضعيفَهم وكبيرُهم صغيرَهم! فهم يكرهون باسم المحبة، ويجوّعون باسم النضال الطبقي، ويسحقون الفرد بداعي الحكم المطلق. تعهّرت الكلمات!! مئة هيرودس يقتلون

الاطفال: هل من معنى آخر لموت طفل، جوعاً او مرضاً بسبب الحصار! الـذبح وحـده لا ينقطع في العالم، الذبح وحده يُصعد الدولار..!

ترى متى يولد المسيح في ارضنا مرة اخرى؟ في جسم العالم شياطين يجب طردهـا، لكن الارواح الشريرة لا تُطرد من الصحراء، بل من الكيانات البشرية الـتي اسـتحوذت عليها.

النور نفسه الذي أشرق للرعاة يشرق لنا ايضا. على غرار المجوس يظهر لكل منا نجم يسوع... وقد لا نراها او لا نريد أن نراها. لان رؤية نجم يسوع تفرض علينا اتباعـه في سفر طويل وكثير المشقات.

ميلاد يسوع لا يحصل في قلوبنا الا بنور الايمان المنبعـث في اعمـاق الـذات.. إلا بتفكير شخصي، هادئ، وبعد تأمل خاشع وصلاة... مساكين هم البشر الذين يظنون ان الميلاد يتم بعمل خارجي: بالزينة وبالشجرة او بالمغارة او بالسهرة الصاخبة.. الانسانية منهوكة روحياً ومحتاجة الى الله مخلصها. ماذا تنفع الاجساد، اذا بقيت مرمية علـى ارض ليس فيها ذوق المسيح؟!

فهرس بعناوين المقالات
١٩٧٨-١٩٩٤

١٩٧٨

١. الانسان، أهو قطعة غيار؟/كانون الثاني	أ. خليل قوجحصارلي	١٣
٢. الغني ولعازر/شباط	أ. خليل قوجحصارلي	١٥
٣. ملك... ولكن لأية مملكة؟/آذار	أ. خليل قوجحصارلي	١٧
٤. المسيح معنا على الطريق/نيسان	أ. خليل قوجحصارلي	٢٠
٥. التجدد في الروح القدس/ايار	أ. خليل قوجحصارلي	٢٣
٦. نداء الى الجائعين/حزيران	أ. خليل قوجحصارلي	٢٥
٧. العمل والدعوة/تشرين الأول	أ. خليل قوجحصارلي	٢٧
٨. الرحمة يا رب!/تشرين الثاني	أ. خليل قوجحصارلي	٢٩
٩. الاستقامة الانجيلية بين القول والفعل/كانون الأول	أ. خليل قوجحصارلي	٣١

١٩٧٩

١٠. ... من نحن؟/كانون الثاني	أ. (المطران) لويس ساكو	٣٣
١١. اطلبوا اولاً ملكوت الله.../شباط	أ. يوحنان جولاغ	٣٥
١٢. "لا تعلم شمالك ما تصنع يمينك"/اذار	أ. (المطران) فرج رحو	٣٧
١٣. ثورة ام "افيون"؟/نيسان	أ. لويس ساكو	٣٩
١٤. ... فتصيروا كالاولاد/ايار	الأخت صفاء عزيز	٤١
١٥. الحصاد كثير، اما الفعلة فقليلون.../حزيران	أ. بهنام كجو	٤٣
١٦. واذا لم تغفروا.../تشرين الاول	أ. نعمان أوريدة	٤٥
١٧. لا تدينوا... فَلا تدانون/تشرين الثاني	أ. كوركيس كدادي	٤٨
١٨. كونُوا كامِلين!/كانون الاول	أ. يوحنا عيسى	٥٠

١٩٨٠

١٩. .. فاليّ قد صنعتموه/كانون الثاني	جلال فائق	٥٣
٢٠. روح الرب عليّ/شباط	أ. لوسيان جميل	٥٥
٢١. لقاء مع المسيح/آذار	سالم اسعد الخياط	٥٧
٢٢. لا تخف! انك صياد للناس/نيسان	أ. يوسف توما مرقس	٥٩
٢٣. القديم والجديد/ايار	أ. مانوئيل يوسف	٦٢
٢٤. خرج الزارع ليزرع.../حزيران	أ. حنا ججيكا	٦٤
٢٥. امراة خاطئة في المدينة/ايلول	أ. نعمان أوريدة	٦٧
٢٦. ليس الانسان للسبت/تشرين الاول	أ. (المطران) فرج رحو	٧٠
٢٧. المسيح ابن الله الحي/تشرين الثاني	أ. (المطران) يوسف توماس	٧٢

١٩٨١

٢٨. صوت صارخ في البرية/كانون الثاني-شباط	أ. يوسف توما مرقس	٧٤
٢٩. الصليب/آذار	أ. يوسف توما مرقس	٧٧
٣٠. القيامة طريق لتحقيق الذات/نيسان	أ. يوسف توما مرقس	٨٠
٣١. الايمان من رؤية القلب/ايار	أ. يوسف توما مرقس	٨٣
٣٢. يفرح الزارع والحاصد معاً/حزيران-تموز	أ. يوسف توما مرقس	٨٦
٣٣. المعرفة التي ترفع/آب-ايلول	أ. يوسف توما مرقس	٨٨
٣٤. افكار الله/تشرين الاول	أ. يوسف توما مرقس	٩٠
٣٥. "مرتا.. مرتا"/تشرين الثاني	أ. يوسف توما مرقس	٩٢
٣٦. احبب وافعل ما تشاء!/كانون الاول	أ. يوسف توما مرقس	٩٥

١٩٨٢

٣٧. والكلمة صار جسداً/كانون الثاني	أ. يوسف توما مرقس	٩٧
٣٨. البرية/شباط	أ. يوسف توما مرقس	٩٩
٣٩. بينكم من لستم تعرفونه/آذار	أ. يوسف توما مرقس	١٠١
٤٠. الديانة الحقيقية/نيسان	أ. يوسف توما مرقس	١٠٤
٤١. اعطوا ما لقيصر لقيصر/ايار	أ. يوسف توما مرقس	١٠٦
٤٢. التجدّد في الروح القدس/حزيران-تموز	أ. يوسف توما مرقس	١٠٨
٤٣. الارواح الشريرة/آب-ايلول	أ. يوسف توما مرقس	١١٠
٤٤. طبيعة العلاقات الزوجية/كانون الاول	أ. يوسف توما مرقس	١١٣

١٩٨٣

٤٥. الناس.. ذوو الارادة الصالحة/كانون الثاني-شباط	أ. أفرام سقط	١١٦
٤٦. المظاهر تخدع/آذار	أ. أفرام سقط	١١٨
٤٧. تجارب يسوع/نيسان	أ. يوحنان جولاغ	١٢٠
٤٨. شَخصُ المسيح، اعظم الآيات/ايار	أ. بول ريان	١٢٢
٤٩. التلاميذ الحقيقيون/حزيران-تموز	أ. يوحنان جولاغ	١٢٤
٥٠. بالايمان تقاس النعم/آب-ايلول	أ. بول ريان	١٢٦
٥١. الصلاة وابعادها/كانون الاول	أ. أفرام سقط	١٢٨

١٩٨٤

٥٢. بين الاستقرار والشكليات: المغامرة/كانون الثاني	أ. أفرام سقط	١٣١
٥٣. الثقة بالنفس والتعبير بلغة القلب/شباط	أ. أفرام سقط	١٣٤
٥٤. طريق السعادة/آذار	أ. أفرام سقط	١٣٧
٥٥. إبحث عن الانسان/نيسان-ايار	أ. أفرام سقط	١٣٩
٥٦. ملكوت السماوات.. لمن؟/حزيران-تموز	أ. أفرام سقط	١٤١

٥٧. هل نحن ضعفاء حقاً؟/آب-ايلول	أ. أفرام سقط	١٤٤
٥٨. بين القول والفعل مسافة/كانون الاول	أ. أفرام سقط	١٤٧

١٩٨٥

٥٩. الخلاص، بادرة من الله ...!/كانون الثاني	المطران بولس دحدح	١٤٩
٦٠. السلام استودعكم/شباط-آذار	المطران بولس دحدح	١٥١
٦١. الرحمة أفضل من الذبيحة/نيسان	المطران بولس دحدح	١٥٣
٦٢. إيماننا بالمسيح/ايار	المطران بولس دحدح	١٥٥
٦٣. الايمان قوة/حزيران-تموز	المطران بولس دحدح	١٥٧
٦٤. السلطة خدمة/آب-ايلول	المطران بولس دحدح	١٥٩
٦٥. على خطى المسيح/كانون الاول	المطران بولس دحدح	١٦١

١٩٨٦

٦٦. منطق القوة ومنطق الاقناع/كانون الثاني	أ. لوسيان جميل	١٦٣
٦٧. الفقراء والأغنياء/شباط	أ. لوسيان جميل	١٦٦
٦٨. اله الفرح واله الشريعة/آذار-نيسان	أ. لوسيان جميل	١٦٩
٦٩. القيامة وحركة التاريخ/ايار	أ. لوسيان جميل	١٧١
٧٠. الشريعة والنبوّة... صراع دائم/حزيران-تموز	أ. لوسيان جميل	١٧٣
٧١. الوحدة.. والتشتت/آب-ايلول	أ. لوسيان جميل	١٧٥
٧٢. عمانوئيل: الله معنا/كانون الاول	أ. لوسيان جميل	١٧٧

١٩٨٧

٧٣. في كل مكان يوجد يونان/كانون الثاني	أ. (المطران) لويس ساكو	١٧٩
٧٤. التوبة والملكوت/شباط	أ. (المطران) لويس ساكو	١٨١
٧٥. الحلال والحرام/آذار-نيسان	أ. (المطران) لويس ساكو	١٨٣
٧٦. المرأة.. صورة الله/ايار	أ. (المطران) لويس ساكو	١٨٥
٧٧. يسوع ابن الانسان/حزيران-تموز	أ. (المطران) لويس ساكو	١٨٧
٧٨. مَريم أمنا/آب-ايلول	أ. (المطران) لويس ساكو	١٨٩
٧٩. الشك/تشرين الثاني	أ. (المطران) لويس ساكو	١٩١
٨٠. ليلة الميلاد/كانون الأول	أ. (المطران) لويس ساكو	١٩٣

١٩٨٨

٨١. من يحقق السلام؟/كانون الثاني	أ. يوسف حبي	١٩٥
٨٢. الاحتياطي والاضاءة/شباط-آذار	أ. يوسف حبي	١٩٧
٨٣. قلب اب.. قلب ام/نيسان	أ. يوسف حبي	١٩٩
٨٤. من لا يترك.. لا يلقَ/ايار	أ. يوسف حبي	٢٠١

٨٥. ناقوس الخطر/حزيران-تموز — أ. يوسف حبي — ٢٠٣
٨٦. البيت السعيد/آب-ايلول — أ. يوسف حبي — ٢٠٦
٨٧. شيوخ وشباب/كانون الاول — أ. يوسف حبي — ٢٠٩

١٩٨٩

٨٨. من أجل نماء متكامل/كانون الثاني — أ. يوحنا عيسى — ٢١٢
٨٩. لنوسّع افاقنا/شباط-آذار — أ. يوحنا عيسى — ٢١٥
٩٠. هذا التفوق المزعوم/نيسان — أ. يوحنا عيسى — ٢١٨
٩١. هل الفقر من الله ام.../ايار — أ. يوحنا عيسى — ٢٢٠
٩٢. الاغنياء والفقراء/حزيران-تموز — أ. يوحنا عيسى — ٢٢٢
٩٣. القلب البشري والقلب الحجري/آب-ايلول — أ. يوحنا عيسى — ٢٢٥
٩٤. أفنحن ايضاً عميان/كانون الاول — أ. يوحنا عيسى — ٢٢٨

١٩٩٠

٩٥. عبادة التباهي وعبادة القلب/كانون الثاني-شباط — أ. جبرائيل شمامي — ٢٣١
٩٦. قريبي من يختارني/آذار — أ. جبرائيل شمامي — ٢٣٤
٩٧. كان رجل غني.../نيسان — أ. جبرائيل شمامي — ٢٣٧
٩٨. يا رب علمنا أن نصلي/ايار — أ. جبرائيل شمامي — ٢٣٩
٩٩. افرحوا مع الفرحين/حزيران-تموز — أ. جبرائيل شمامي — ٢٤٢
١٠٠. القدرة الخفيّة/آب-ايلول — أ. جبرائيل شمامي — ٢٤٥
١٠١. طوبى لمن كان غنياً بالله!/كانون الاول — أ. جبرائيل شمامي — ٢٤٧

١٩٩١

١٠٢. يسوع ابن الله/كانون الثاني-نيسان — أ. فرنسيس المخلصي — ٢٥٠
١٠٣. التتلمذ ليسوع/ايار-تموز — أ. فرنسيس المخلصي — ٢٥٢
١٠٤. كيف نتكلم عن الله/آب-تشرين الاول — أ. فرنسيس المخلصي — ٢٥٤
١٠٥. أسرار ملكوت الله/تشرين الثاني-كانون الاول — أ. فرنسيس المخلصي — ٢٥٧

١٩٩٢

١٠٦. الدنح.../كانون الثاني-شباط — أ. روبير الكرملي — ٢٥٩
١٠٧. لقد قمتم مع المسيح/آذار-نيسان — أ. روبير الكرملي — ٢٦١
١٠٨. الروح القدس/ايار-تموز — أ. روبير الكرملي — ٢٦٤
١٠٩. الميلاد/تشرين الثاني-كانون الاول — أ. روبير الكرملي — ٢٦٦

١٩٩٣

١١٠. عماذ يسوع/كانون الثاني-آذار — أ. ميشيل الكرملي — ٢٦٨

١١١.الله يمتلن بحبه/نيسان-حزيران	أ. ميشيل الكرملي	٢٧٠
١١٢.مثل الزؤان/تموز-ايلول	أ. ميشيل الكرملي	٢٧٢
١١٣.وليمة العرس/تشرين الاول-كانون الاول	أ. ميشيل الكرملي	٢٧٤

١٩٩٤

١١٤.زمن الصوم/كانون الثاني-آذار	أ. لويس قصاب	٢٧٦
١١٥.قام المسيح.. حقاً قام/نيسان-حزيران	أ. لويس قصاب	٢٧٨
١١٦.الأم في مجد الله/تموز-تشرين الاول	أ. لويس قصاب	٢٨٠
١١٧.ولد لكم اليوم مخلص/تشرين الثاني-كانون الاول	أ. لويس قصاب	٢٨٢

فهرس بحسب نصوص الاناجيل

هذا الفهرس يستفيد منه من يقرأ الاناجيل ويرغب في تفسير وتأويل بعض النصوص التي سُلط عليها الضوء في باب "من وحي الانجيل" [اكثر من ١٠٠ نص، تأتي نصوص انجيل متى في المقدمة].

◆ متى

١: ٢٠-٢٣	عمانوئيل: الله معنا/كانون الاول ١٩٨٦	١٧٧
١: ١٨-٢٥؛ ٢: ١-٣	بين الاستقرار والشكليات: المغامرة/كانون الثاني ١٩٨٤	١٣١
٢: ١-١٢	الناس.. ذوو الارادة الصالحة/كانون الثاني-شباط ١٩٨٣	١١٦
٣: ١-١٢	صوت صارخ في البرية/كانون الثاني-شباط ١٩٨١	٧٤
٣: ١٥-١٧	عماذ يسوع/كانون الثاني-آذار ١٩٩٣	٢٦٨
٥: ١-١٢	طريق السعادة/آذار ١٩٨٤	١٣٧
٥: ٣-١٢	من يحقق السلام؟/كانون الثاني ١٩٨٨	١٩٥
٥: ١٣-١٦	إبحث عن الانسان/نيسان-أيار ١٩٨٤	١٣٩
٥: ٣١-٣٠	ملكوت السماوات.. لمن؟/حزيران-تموز ١٩٨٤	١٤١
٥: ٣٨-٤٨	كونوا كاملين!/كانون الاول ١٩٧٩	٥٠
٥: ٣٨-٤٨	هل نحن ضعفاء حقاً؟/آب-أيلول ١٩٨٤	١٤٤
٥: ٣٨-٤٨	منطق القوة ومنطق الاقناع/كانون الثاني ١٩٨٦	١٦٣
٦: ١-٦	"لا تعلم شمالك ما تصنع يمينك"/اذار ١٩٧٩	٣٧
٦: ١٦-١٨	زمن الصوم/كانون الثاني-آذار ١٩٩٤	٢٧٦
٦: ٢٦-٣٤	اطلبوا اولاً ملكوت الله.../شباط ١٩٧٩	٣٥
٧: ١-٥	لا تدينوا... فلا تدانون/تشرين الثاني ١٩٧٩	٤٨
٧: ٢١-٢٧	التلاميذ الحقيقيون/حزيران-تموز ١٩٨٣	١٢٤
٧: ٢١-٢٧	بين القول والفعل مسافة/كانون الأول ١٩٨٤	١٤٧
٨: ٥-١٣	بالايمان تقاس النعم/آب-أيلول ١٩٨٣	١٢٦
٩: ٩-١٣	الرحمة افضل من الذبيحة/نيسان ١٩٨٥	١٥٣
٩: ٣٥-٣٨	الحصاد كثير، اما الفعلة فقليلون.../حزيران ١٩٧٩	٤٣
١٠: ٢٦-٣١	الايمان قوة/حزيران-تموز ١٩٨٥	١٥٧
١١: ٢٥-٣٠	المعرفة التي ترفع/آب-ايلول ١٩٨١	٨٨
١٢: ٥-٨	القلب البشري والقلب الحجري/آب-أيلول ١٩٨٩	٢٢٥
١٢: ٣٨-٤٢	شخصُ المسيح اعظم الآيات/ايار ١٩٨٣	١٢٢
١٢: ٣٨-٤٢	في كل مكان يوجد يونان/كانون الثاني ١٩٨٧	١٧٩
١٣: ٢٤-٣٠، ٣٦-٤٣	مثل الزؤان/تموز-أيلول ١٩٩٣	٢٧٢
١٣: ٣٣	القدرة الخفية/آب-ايلول ١٩٩٠	٢٤٥
١٥: ٢١-٢٨	لنوسع افاقنا/شباط-آذار ١٩٨٩	٢١٥
١٦: ١٣-٢٠	المسيح ابن الله الحي/تشرين الثاني ١٩٨٠	٧٢
١٦: ٢١-٢٧	افكار الله/تشرين الاول ١٩٨١	٩٠
١٨: ١-٨	... فتصيروا كالاولاد/ايار ١٩٧٩	٤١
١٨: ١٢-١٤	قلب اب.. قلب ام/نيسان ١٩٨٨	١٩٩

١٨: ٣١-٣٥	واذا لم تغفروا.../تشرين الاول ١٩٧٩	٤٥
١٩: ٥-٦	من لا يترك.. لا يلق/أيار ١٩٨٨	٢٠١
١٩: ١٦-٢٦	الفقراء والأغنياء/شباط ١٩٨٦	١٦٦
٢١: ٢٨-٣٢	الاستقامة الانجيلية بين القول والفعل/كانون الثاني ١٩٧٨	٣١
٢٢: ١-١٤	وليمة العرس/تشرين الاول-كانون الاول ١٩٩٣	٢٧٤
٢٢: ١٥-٢١	اعطوا ما لقيصر لقيصر/أيار ١٩٨٢	١٠٦
٢٢: ٣٤-٤٠	احبب وافعل ما تشاء!/كانون الاول ١٩٨١	٩٥
٢٢: ٣٤-٤٠	الديانة الحقيقية/نيسان ١٩٨٢	١٠٤
٢٣: ١-١٢	... من نحن؟/ كانون الثاني ١٩٧٩	٣٣
٢٣: ٢٩-٣٨	الشريعة والنبوة... صراع دائم/حزيران-تموز ١٩٨٦	١٧٣
٢٥: ١-١٣	الاحتياطي والاضافي/شباط-آذار ١٩٨٨	١٧٩
٢٥: ٣٤-٤٠	.. فالي قد صنعتموه/كانون الثاني ١٩٨٠	٥٣
٢٧: ٣٣-٤٤	الصليب/آذار ١٩٨١	٧٧

◆ مرقس

١: ١-٣، ٩-١١	يسوع ابن الانسان/كانون الثاني-نيسان ١٩٩١	١٨٧
١: ٢-٨	البرية/شباط ١٩٨٢	٩٩
١: ١٤-١٥	التوبة والملكوت/شباط ١٩٨٧	١٨١
١: ١٦-٢٠	التتلمذ ليسوع/ايار-تموز ١٩٩١	٢٥٢
٢: ١٠، ٢٧؛ ٤: ١٠-١١	أسرار ملكوت الله/تشرين الثاني-كانون الاول ١٩٩١	٢٥٧
٢: ٢٣-٢٨	كيف نتكلم عن الله/آب-تشرين الاول ١٩٩١	٢٥٤
٦: ٧-١٣	الارواح الشريرة/آب-ايلول ١٩٨٢	١١٠
٧: ١٤-١٥	الحلال والحرام/آذار-نيسان ١٩٨٧	١٨٣
٨: ٢٩-٣٣	يسوع ابن الانسان/ حزيران-تموز ١٩٨٧	١٨٧
٩: ٣٣-٣٦	السلطة خدمة/آب-ايلول ١٩٨٥	١٥٩
٩: ٤١-٤٧	الشك/تشرين الثاني ١٩٨٧	١٩١
١٠: ٢-١٢	طبيعة العلاقات الزوجية/كانون الاول ١٩٨٢	١١٣
١٢: ٣٨-٤٤	المظاهر تخدع/آذار ١٩٨٣	١١٨
١٦: ١-٨	القيامة وحركة التاريخ/أيار ١٩٨٦	١٧١
١٦: ١-٧، ١٢-١٤	القيامة طريق لتحقيق الذات/نيسان ١٩٨١	٨٠

◆ لوقا

١: ٢٦-٣٨	مريم أمنا/آب-ايلول ١٩٨٧	١٨٩
١: ٣٥، ٤٦-٤٨	الأم في مجد الله/تموز-تشرين الاول ١٩٨٤	٢٨٠
٢: ١-٧	ليلة الميلاد/كانون الأول ١٩٨٧	١٩٣
٢: ١٠-١١	ولد لكم اليوم مخلص/تشرين الثاني-كانون الاول ١٩٩٤	٢٨٢
٢: ١٢	الميلاد/تشرين الثاني-كانون الاول ١٩٩٢	٢٦٦
٢: ٥١-٥٢	من أجل نماء متكامل/كانون الثاني ١٩٨٩	٢١٢
٣: ١٢-٢٢	المنح.../كانون الثاني-شباط ١٩٩٢	٢٥٩

٤: ١-١٣	تجارب يسوع/نيسان ١٩٨٣	١٢٠
٤: ١٣-٢٣	الثقة بالنفس والتعبير بلغة القلب/شباط ١٩٨٤	١٣٤
٤: ١٦-٢٣	روح الرب علي/شباط ١٩٨٠	٥٥
٥: ١-١١	لا تخف! انك صياد للناس/نيسان ١٩٨٠	٥٩
٥: ٣٣-٣٨	القديم والجديد/ايار ١٩٨٠	٦٢
٦: ١-١١	ليس الانسان للسبت/تشرين الاول ١٩٨٠	٧٠
٧: ٣٦-٥٠	امراة خاطئة في المدينة/ايلول ١٩٨٠	٦٧
٨: ١-٣	المراة.. صورة الله/أيار ١٩٨٧	١٨٥
٨: ٥-١٥	خرج الزارع ليزرع.../حزيران ١٩٨٠	٦٤
٩: ٢٣-٢٦	على خطى المسيح/كانون الاول ١٩٨٥	١٦١
١٠: ٢٥-٢٧	قريبي من يختارني/آذار ١٩٩٠	٢٣٤
١٠: ٣٨-٤٢	مرتا.. مرتا/تشرين الثاني ١٩٨١	٩٢
١٠: ٣٨-٤٢	الوحدة.. والتشتت/آب-أيلول ١٩٨٦	١٧٥
١٢: ١٦-٢١	طوبى لمن كان غنياً بالله!/كانون الاول ١٩٩٠	٢٤٧
١٢: ١٧-٢١	الاغنياء والفقراء/حزيران-تموز ١٩٨٩	٢٢٢
١٢: ٤٩-٥٤	ثورة ام آفيون؟/نيسان ١٩٧٩	٣٩
١٢: ٥٤-٥٧	ناقوس الخطر/حزيران-تموز ١٩٨٨	٢٠٣
١٤: ٢٥-٢٧	الانسان، أهو قطعة غيار؟/كانون الثاني ١٩٧٨	١٣
١٥: ١١-٣٢	الغني ولعازر/شباط ١٩٧٨	١٥
١٦: ١٩-٢١	هل الفقر من الله ام.../أيار ١٩٨٩	٢٢٠
١٦: ١٩-٣١	افرحوا مع الفرحين/حزيران-تموز ١٩٩٠	٢٤٢
١٦: ١٩-٣١	كان رجل غني.../نيسان ١٩٩٠	٢٣٧
١٨: ١-٨	الصلاة وابعادها/كانون الاول ١٩٨٣	١٢٨
١٨: ١-٨	يا رب علمنا أن نصلي/ايار ١٩٩٠	٢٣٩
١٨: ٩-١٤	هذا التفوق المزعوم/نيسان ١٩٨٩	٢١٨
١٨: ٩-١٤	عبادة التباهي وعبادة القلب/كانون الثاني-شباط ١٩٩٠	٢٣١
١٩: ١-٩	لقاء مع المسيح/آذار ١٩٨٠	٥٧
٢٤: ١٣-٣٥	المسيح معنا على الطريق/نيسان ١٩٧٨	٢٠

◆ يوحنا

١: ١-١٤	والكلمة صار جسداً/كانون الثاني ١٩٨٢	٩٧
١: ٦-٨، ١٩-٢٧	بينكم من لستم تعرفونه/آذار ١٩٨٢	١٠١
٢: ١-١٢	اله الفرح واله الشريعة/آذار-نيسان ١٩٨٦	١٦٩
٢: ٢٣-٢٥	إيماننا بالمسيح/أيار ١٩٨٥	١٥٥
٣: ٣-٧	شيوخ وشباب/كانون الاول ١٩٨٨	٢٠٩
٣: ١٦-١٨	الله يعتلن بحبه/نيسان-حزيران ١٩٩٣	٢٧٠
٣: ١٧-٢١	الخلاص، بادرة من الله .../كانون الثاني ١٩٨٥	١٤٩
٤: ٦، ٨، ٣١-٣٦	يفرح الزارع والحاصد معاً/حزيران-تموز ١٩٨١	٨٦
٦: ٣٥-٣٦، ٤٨-٥٢	نداء الى الجائعين/حزيران ١٩٧٨	٢٥
٨: ١-١١	الرحمة يا رب!/تشرين الثاني ١٩٧٨	٢٩
٩: ٣٨-٤١	افتحن ايضاً عميان/كانون الاول ١٩٨٩	٢٢٨
١٠: ١١-١٦	العمل والدعوة/تشرين الأول ١٩٧٨	٢٧

١٤: ١٥-١٨، ٢٥-٢٧	التجدد في الروح القدس/ايار ١٩٧٨	٢٣
١٤: ١٥-١٦، ٢٠: ١٩-٢٣	التجدد في الروح القدس/حزيران-تموز ١٩٨٢	١٠٨
١٤: ٢٧، ١٦: ٣٣	السلام استودعكم/شباط ١٩٨٥	١٥١
١٥: ١-٥	البيت السعيد/آب-ايلول ١٩٨٨	٢٠٦
١٨: ٣٣-٣٧	ملك... ولكن لأية مملكة؟/آذار ١٩٧٨	١٧
٢٠: ١٩-٢٩	الايمان من رؤية القلب/ايار ١٩٨١	٨٣
٢٠: ٢١-٢٢	الروح القدس/ايار-تموز ١٩٩٢	٢٦٤

◆ قولسي

٣: ١-٤	لقد قمتم مع المسيح/اذار-نيسان ١٩٩٢	٢٦١

◆ ١ قورنتس

١٥: ٤	قام المسيح... حقاً قام/نيسان-حزيران ١٩٩٤	٢٧٨

أنجزت دار "بيبليا للنشر"
طبع من وحي الانجيل
في ٣ شباط ٢٠٠٨

اصدارات

دار بيبليا للنشر

ملفات الكتاب المقدس

مجلة بيبلية متخصصة مصورة ظهرت بالفرنسية، عام ١٩٨٤، بعنوان (Les Dossiers de la Bible) عن الخدمة البيبلية "انجيل وحياة"، بقلم اختصاصيين في علوم الكتاب المقدس عرفوا ان يضعوا علمهم في متناول الجمهور. وعمد مركز الدراسات الكتابية في الموصل عام ٢٠٠٠ إلى تعريبها واخراجها ونشرها بوتيرة أربعة اعداد في السنة.

ظهر منها على مدى ثماني سنوات ٣٠ عدداً في شتى المواضيع والاسفار البيبلية من العهدين القديم والجديد، وقد افتتحت عامها التاسع بالعدد ٣١ بعنوان "لا فقراء بعد اليوم"، بحلة جديدة واخراج رائع.

تتوفر نسخ من اعدادها الماضية. (سعر النسخة لعام ٢٠٠٨: ١٢٥٠ ديناراً فقط).

سلسلة ابحاث كتابية

مجموعة كتب بيبلية رصينة، مؤلفة أو معربة، تجعل كلمة الله سهلة المنال وعذبة المذاق، وتسهم في ترسيخ الوحدة المسيحية في قلب الكنائس التي تقرأ الكتاب المقدس لتتغذى منه وتشهد له...

سلسلة انطلقت عام ١٩٩٩ بوتيرة كتاب او كتابين في السنة لتمكن القراء من الدخول إلى عالم الكتاب المقدس، وفق منهج علمي رصين وتوجه راعوي جاد.

ظهر منها ١٢ كتاباً باخراج رائع وطباعة انيقة، وكلها متوفرة وباسعار مدعومة.

مختارات الفكر المسيحي

ابتسمت لدار بيبليا للنشر فكرة اصدار "مختارات" من سنوات مجلة "الفكر المسيحي" -وقد سبق ان ظهر "تاريخ الكنيسة الشرقية" (١٩٧٣) ومن ثم "همسات ابو فادي" (١٩٨٥) و"ابت، هذه مشكلتي" (٢٠٠٤)- وعمدت إلى مواصلة نشر المختارات، بداءاً بـ "اسئلة واجوبة" (٢٠٠٦)، و"افتتاحيات رئيسي التحرير" (٢٠٠٧) و"همسات ابو فادي"/ج٢ (٢٠٠٧) وانتهاء بباب "من وحي الانجيل" (٢٠٠٨).

منشورات مركز الدراسات الكتابية

عمد م.د.ك.، منذ اواخر التسعينات، إلى تكثير دوريات وكتب بيبيلة رصينة، فكانت "جريدة بيبليا" (٥٤ عدداً) ومن ثم مجلة بيبليا" (٣٤ عدداً على مدى ٩ سنوات) و"سلسلة دراسات في الكتاب المقدس" (٣٧ جزءاً). واتسعت دائرة النشر، بطريقة الاستنساخ، إلى العديد من الكتب في المجالات اللاهوتية والكتابية والروحية والاجتماعية والتربوية والتاريخية... يربو عددها على مئة كتاب -وكلها باسعار مدعومة.

تطلب كافة الاصدارات والمنشورات من مكتبة بيبليا (الموصل) ومن مكتبات الكنائس

من وحي الانجيل

في كتاب

...

١١٧ مساهمة
في مجلة الفكر المسيحي
على مدى ١٧ سنة
بقلم ٢٥ كاتبا
تناولت العديد
من نصوص الانجيل
- فسرتها وأوّنتها -
وسلطت أضواءها
على قضايا الانسان المعاصر
وخطت للمسيحي طريقا للسير

مركز الدراسات الكتابية
كنيسة مار توما
الموصل-العراق

لما كانت دار بيبليا للنشر قد عمدت الى مواصلة نشر مختارات من مجلة الفكر المسيحي، بهدف التوثيق من جهة، وتعميم الفائدة من جهة اخرى، كان لا بد لها ان تتجه نحو باب "من وحي الانجيل" ليتخذ الرقم ٦ في السلسلة التي ترقى بداياتها الى عام ١٩٨٥ لدى ظهور "همسات أبي فادي! -وبالاحرى إلى عام ١٩٧٣ حين ظهر "تاريخ الكنيسة الشرقية" للأب ألبير أبونا، تحت عنوان [منشورات الفكر المسيحي]، جامعاً مقالاته في ركن التاريخ" على مدى ثلاث سنوات.

واذا قرّ الرأي على نشر ما تضمنه هذا الباب بين الأعوام ١٩٧٨-١٩٩٤، فلأنه كان أصلاً قبلة انظار القراء الذين كان لهم، في كل شهر، موعد مع كلمة الانجيل، كلمة تُفسَّر وتؤوّن لتكون نوراً وحياة... كلمة تلتقي الانسان المعاصر في معاناته وطموحاته، في تساؤلاته العميقة وتطلعاته المشروعة...

اليكم ايها القراء، قدامى وجدداً، هذا الكتاب الذي، فيما يحيي ما سبق ان نُشر على مدى ١٧ عاماً، يقدّم لكم قراءة معاصرة لأبرز النصوص الانجيلية، قراءة تحمل اليكم نوراً وامثولة لمسيرتكم الايمانية وراء يسوع.

من كلمة التقديم

يطلب من مكتبة بيبليا ومن مكتبات الكنائس
سعر النسخة ٤٠٠٠ دينار

مختارات الفكر المسيحي / ٦

من وحي الانجيل

٢٠٠٨